رسول الله

فى القرآن الكريم

حسن كامل الملطاوى

دار المعارف

رسول الله

فى القرآن الكريم

رسول الله
في القرآن الكريم

حسن كامل الملطاوى

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

[قرآن كريم]

* * *

عن جابر بن عبد الله أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم يومَ الجمعةِ إلى شجرةٍ أو نخلةٍ ، فقالت امرأةٌ من الأنصارِ أو رجلٌ : يا رسولَ الله ، ألا نجعلُ لكَ منبراً ، قال : إنْ شئتم ، فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة رُفِعَ إلى المنبر ، فصاحت النخلةُ صياحَ الصَّبىّ ، ثم نزل النبى صلى الله عليه وسلم فضمها إليه تئن أنينَ الصبىِّ الذى يُسَكَّن . قال جابر : كانت تبكى على ما كانت تَسْمعُ من الذكْرِ عِنْدَها .

[حديث شريف رواه الإمام البخارى]

* * *

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! لقد كان جِذْعٌ تخطب الناسَ عليه فلما كثر الناسُ اتَّخذتَ منبراً لتسمعهم فحنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم . .

[عمر بن الخطاب]

تقديم

بقلم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم . . . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين ، وبعد :

فيقول الله سبحانه وتعالى :

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

* * *

ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بعد أن أعده الله سبحانه لتلقيها ، إن الأنبياء والرسل يعدّهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، إنه يعدهم فى أصلاب الآباء والأجداد بالعِرْقِ الطاهر ، والميراث النقى . . . إنهم خيار من خيار من خيار . . .

يروى الإمام مسلم — بسنده — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

لقد اصطفاه الله من بنى هاشم ، واصطنعه لنفسه ، ورباه على عينه . . لقد رباه سبحانه من قبل الميلاد ، ومن بعد الميلاد ، ليحمل الرسالة الكبرى ، الرسالة العامة الخاتمة ، رسالة الإسلام .

ورسالة الإسلام : طابعها وشعارها وجوهرها ، إنما هو: إسلام الوجه لله ، هو السجود لله وحده ، هو : إياك نعبد وإياك نستعين ، إنه التوحيد ، أو هو الإسلام .

فكلمة الإسلام : تتضمن هذه المعانى التى تتحدد وتتبلور ، برغم اختلاف الحروف والنطق ، لتلتقى كلها منصهرة فى كلمة : الإسلام .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد من قبل الميلاد لحمل رسالة الإسلام ، وكان يعد من بعد الميلاد لحمل الرسالة : الإسلام .

ولقد سارت حياته بعد الميلاد على الطهر والنقاء ، وكان أول رمز جميل يعبر عن هذه الحياة ، حياة الصفاء والطهر : إنما هو رمز : « شق الصدر » .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة ، لقد كان صلوات الله وسلامه عليه — إذ ذاك — فى بادية بنى سعد ، عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان — على ما يروى الإمام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : « هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعنى مرضعته — يقولون إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

وهذا الحادث : إنما يرمز إلى أنه — صلوات الله وسلامه عليه — قد طهره الله منذ الطفولة من حظ الشيطان ، وصدق بذلك قسم والدته حينما قالت لمرضعته : « والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وطُهره واستقامته منذ نشأته ، جعلا العرب يلقبونه بـ « الأمين » ، ولم تكن كلمة الأمين اسمًا له ، ولكنها كانت إذا أطلقت لا تنصرف إلا عليه ، وكانوا يفرحون بحكمه ، ويرضون بتحكيمه .

يقول الربيع بن خيثم : « كان يتحاكم إلى رسول الله ، فى الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص فى الإسلام » ، ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضاؤه صلى الله عليه وسلم فى الخلاف الذى كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فإنهم حينما انتهوا فى بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل

قبيلة : « نحن أحق بوضعه » ،واختلفوا ، حتى خافوا القتال،ثم جعلوا حكماً بينهم أول من يدخل من باب بني شيبة فيكون هو الذي يقضي بينهم ، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من دخل من باب بني شيبة ،فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما يقضي بيننا،ثم أخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ، وبسطه في الأرض ، ثم وضع الركن فيه ، ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان في ربع بني عبد مناف : عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني : أبو زمعة ، وكان في الربع الثالث : أبوحذيفة بن المغيرة ، وكان في الربع الرابع : قيس بن عدي ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعـًا » فرفعوه. ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في موضعه ذلك .

وهذه الحياة الطاهرة ، رافقها شعور مرهف بحب الله سبحانه ، والسجود له ، وتوحيده وإسلام الوجه له . . . وهذا الشعور حبب إليه الخلوة ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه — أي : يتعبد — الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها .

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة في الضلال ، ليعتكف في غار حراء متعبداً ، حتى قالت العرب : « إن محمداً قد عشق ربه » .

واستمر الأمر على هذا النسق — من الاعتكاف والعبودية — إلى أن كان الوحي، وكانت كلماته الأولى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ هذه اللحظة يتحقق بالقرآن في واقعه وأصبح للقرآن صورتان :

صورة نظرية كلامية : هي هذه النصوص التي توحى .

وصورة واقعية حية تتمثل في رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلا كاملا ... حتى ليمكن أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم ، إنه كان قرآنـًا حيـًّا يسير بين الناس .

ولقد قالت السيدة عائشة — رضي الله عنها — تصف خلقه صلى الله عليه وسلم : « كان خـُلـُقه القرآن » .

وكلمة « الخلق » هنا : إنما تعنى حياته كلها ، لقد كانت حياته كلها قرآنًا ومن أجل ذلك كانت الآيات الكريمة تعبر عن ذلك بوضوح :

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهُ) . .

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) . .

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

أما الوصف الذى يجمع كل ذلك فى يقين جازم ، ويبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلص لله بجميع أقطاره ، وأصبح ربانيًّا ، فهو قوله :

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

إن حياة الناس تخلص لله — على تفاوت فى هذا الإخلاص — فى بعض الأوقات .

أما حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خلصت كاملة — فى ليله ونهاره ، فى صمته ونطقه ، فى حركته وسكونه — لله سبحانه . . . ولم تكن حياته وحدها هى التى خلصت لله . . . وإنما كان مماته أيضًا .

ولقد ميزت هذه الآية الكريمة بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين بقية البشر . . . وصدق فيه قول الإمام البوصيرى — طيب الله ثراه ، وجزاه خير ما يجزى محبًّا لرسوله :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

والإمام البوصيرى يتابع فى ذلك قول الله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) :

والأخ الفاضل الأستاذ حسن الملطاوى ، يتابع الجو القرآنى ، فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحدث عن هذه المعانى التى ذكرناها . . . يتحدث

عنها فى استفاضة وفى دقة ، ويتتبع القرآن الكريم فيما ذكره عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، تتبع الرجل المؤمن الدقيق ، الذى مارس الحياة الروحية ممارسة العابد المتبتل ، فآتاه الله فقهاً فى الدين وفهماً فى كتابه الحكيم .

والأستاذ حسن الملطاوى من هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله فى صدق ، ووقفوا حياتهم للدعوة إليه بالقول وبالسلوك ، فمنحه الله سبحانه وتعالى ، فهماً فى المجالات الروحية لا تتاح إلا لمن أخلصوا وجههم لله سبحانه .

ونحن نغتبط كل الاغتباط ، بأن وفقه الله تعالى للكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم . . . فإنه من خيرة هؤلاء الذين يعالجون هذا الموضوع .

وليس هذا بأول شيء كتبه الأستاذ حسن الملطاوى ، فى التوجيه الروحى ، أو البحث الدينى ؛ فقد كتب من قبل عن التصوف ، وعن الذكر ، وعن السيدة خديجة رضوان الله عليها ، وكتب فى الفقه على مذهب الإمام مالك . . . وهو دائم العمل لخدمة الإسلام بكل ما يستطيع .

وكتابه هذا يأتى قمة من القمم الشامخة ، فى مجال الهداية إلى الله ، وفى مجال الدعوة إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإننا لنرجو له التوفيق الدائم ، والعمل المستمر . . . لخدمة دين الله ودعوة رسوله . . .

ونرجو الله سبحانه وتعالى ، أن يثيبه أحسن الثواب ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يوفقه دائماً إلى الصراط المستقيم .

عبد الحليم محمود

مقدمة

الحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام فى أكمل صورهما على سيدنا محمد الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم . . . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

أما بعد . . .

فإن الكتابة فى شأن سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلة وصعبة ، أما سهولتها فتتأتى من سعة مواردها ، وكثرة مصادرها ، وأما صعوبتها فتنشأ من سمو قدره ، وعلو مقامه ، فيجد الكاتب مادة الكتابة غزيرة فى سيرته العاطرة ، لكنه مهما كتب وأبدع يرى ما كتب بعيداً عن تحديد صورته الحقة ، فيخجل من وضعه ، ويخشى أن يكون مسيئاً على غير ما أراد ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن ذلك ليس راجعًا إلى قصور فى استعداده ، وإنما يرجع إلى عظم المكان والمكين ، وكذلك كان شأن من سبقوه على كثرتهم ، فيلمس عذره وعذرهم ويقول ما قالوه :

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

ويعلل نفسه بأن ما قاله إنما كان بلسان الحب والتقدير ، تبصرة وذكرى لمثله من المؤمنين المحبين ، ويتمثل قانعًا فيقول :

وقد كفانى أنى محب وأن المـ ـرء مع من أحب يحشر

وقد كنت حاضرت منذ عشر سنوات بنادى التجارة وكان موضوع المحاضرة :

« رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم » .

وختمت المحاضرة بقولى :

ولا أبرح مكانى هذا قبل أن أتقدم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخالص

التحية والإعظام ، وببالغ اعتذارى من قلة جهدى فيما تحدثت به عن مقامه الكريم ، طامعاً أن يحمل قصورى على رأفته ورحمته بالمؤمنين .

وأرانى مضطرًّا فى مستهل كتابى هذا أن أكرر ذلك القول وأنا موقن بقبول عذرى واعتذارى ، لأنه صلى الله عليه وسلم أجدر من قبل المعذرة ، وأغضى عن قصور استدعته الضرورة ، وقد كان من شمائله ألّا يرد سائلا أو يخيب رجاء .

وقد كان لتلك المحاضرة أثر فى نفوس السامعين ، وكنت قد نهجت فيها نهجاً فيه شىء من التجديد ، وعدم التقيد بالتقليد ، فى الآيات التى قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وألهمنى ربى من عطائه ، أن أنفى العتاب من نصوص القرآن الكريم ، وأربط القصة الواحدة برباط الآيات المتفرقات ، فتظهر الصورة فى الحادثة الواحدة متكاملة صافية لا شية فيها ، وقد أبدى لى استحسانه لما قرأ بعض أصحاب الرأى من القراء الكرام .

وقد تشرفت بعد ذلك بزيارته صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واستأذنته وأنا بين يديه أن أكتب هذا الكتاب ليتم به ما بدأته بالمحاضرة المذكورة ، ومرت الأعوام دون أن أكتب شيئاً ، حتى أسعدنى الله برؤياه صلى الله عليه وسلم فى المنام فى فجر الاثنين ٥ من شوال ١٣٨٦ هـ (الموافق ١٦ من يناير ١٩٦٧) — وتتلخص الرؤيا المباركة السعيدة فى أنّى كنت والأخ الصالح الأستاذ توفيق أبو علم الوكيل الأول لوزارة العدل فى الدور الثانى من منزل ، وجاء من يبشرنا بأن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشرفنا بزيارة ، فأسرعنا بالنزول لاستقباله ، فلما دخل وأشرقت أنواره البهيّة وطلعته الزكيّة ، قبلت يده الشريفة وذكرت له اسمى ، وأحسست أنّى فى جانبه صغير جدًّا فى نفسى ، ثم استيقظت .

وقد قابلت بعدها بمدة زميلى الفاضل الأستاذ توفيق أبو علم عند الكعبة المشرفة من عامين ، وكنّا معتمرين ، فقصصت عليه الرؤيا وبشّرته بها ، فسرّته كل السرور ، ثم التقينا فى رمضان الفائت فى الحرم النبوى الشريف (وكنت أخبرته بعزمى على كتابة هذا الكتاب بعد أن ألقيت المحاضرة المذكورة) فإذا به يقول لى ونحن فى الحرم النبوى الشريف : ماذا تم فى الكتاب ؟ إننا ننتظر صدوره فى شوق شديد ، فَرَبَطْتُ بين قوله هذا وبين تذكُّر الرؤيا الشريفة ، وقلت فى

نفسى : لعل تذكيرى بالكتاب ونحن فى الرحاب النبوى يتضمن إذناً نبوياً بالكتابة ، وقد تفاءلت باسم الزميل توفيق أبو علم ، وأملت أن يصحبنى التوفيق فى الكتابة عن صاحب العلَم صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة أن الزميل توفيق قد وفق فألف كتاباً قيماً عن : « أهل البيت » وتم طبعه ونشره ؛ وعدت من المدينة المنورة ، فبدأت الكتابة فى شوال الفائت ، وتيسر لى ما يقرؤه القارئ فى هذا الكتاب الذى بين يديه ، ولعل التوفيق حالفنى فيه كما أملت . فتكون الرؤيا قد تحققت فى التقائنا السعيد معاً بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عالم التأليف الذى يتصل به وبأهل بيته الكرام ، ويكون تفضله بالزيارة فى الرؤيا علامة القبول بإذن الله .

وفى غضون الأيام القليلة الفائتة ، بشّرنى تلميذى الصالح الدكتور عجمى حسين عجمى برؤيا مباركة ، رأى فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له كلاماً يقرّظ فيه الكتاب ، وكان يذكر الكلام فى أثناء الرؤيا ، ولكنه نسيه بعد استيقاظه ، وأخذت من رؤياه بشرى الإذن بالكتابة ، وبشرى أخرى بالقبول ، والهدية على قدر مهديها ، وليست على قدر المهداة إليه صلى الله عليه وسلم .

ومع صعوبة المرتقى فى الكتابة عنه ، والإحاطة به صلى الله عليه وسلم ، فإن اللجوء إلى كتاب الله تعالى أنار لى سبيل الاهتداء بأنوار القرآن الكريم إلى معالم الطريق ؛ ولئن كان القرآن الكريم واسع الأقطار ، عميق البحار ، إن مباحث الكتاب ازينت بأنواره القدسية المشعة ، وهو ما يعطى القارئ سعادة روحية ، فى أن يستمتع بها ، ويغترف منها مشرباً هنيئاً سائغاً للشاربين ، على قدر ما استطعت مناولته من تلك الأقطار الواسعة والبحار العميقة ، ولاسيما أنى قصدت أن يكون الكتاب دعامة من دعائم التربية الإسلامية الصحيحة للقارئين . بما ضمنته فى كل مناسبة من أقوال أسلافنا الصالحين ، وإرشادات أئمتنا العارفين ، إلى جانب القصد الأصلى من عرض صور مختلفة مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى أيد الله به الرسالة المحمدية على مر العصور والدهور ، فكان أخلد المعجزات وأبقاها على الزمن ، كما كان الحصن الحصين للمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وإذا رآني القارئ الكريم قد أطلت قليلا فى بعض المواطن التاريخية فليعذرنى، فإنى أردت بالتطويل أن أرد القارئ إلى الفهم الصحيح فى الموقف الدقيق، الذى خاض فيه الخائضون، ولج فيه المفترون من المستشرقين، لأغراض دنيّة، قصدوا بها تشويه الحقائق وتلبيسها على الناس لحاجة فى نفوسهم أضمروها كيداً للإسلام والمسلمين، وقد يتأثر بما كتبوا بعض الناشئين من المؤمنين — عن حسن نيّة — إذا لم يكن ملمًّا بحقيقة تلك المواقف التى تتصل بسيد المرسلين وأطهر المطهرين، فى حياته أو بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

كذلك أرجو أن يعذرنى القارئ الكريم إذا رآنى قد خالفت ما جاء فى بعض التفاسير، مما لا يليق به صلى الله عليه وسلم، أو بإخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فعصمة الأنبياء والمرسلين عندى مؤكدة بيقين، وما نسب إليهم من الوقائع لا يحمل الأمر فيه على ما يقع منا من ذنوب أو مخالفات بحجة أنهم بشر، فهم حقيقة بشر، ولكنهم مصطفون بعلمه سبحانه، ومطهرون بفضله تعالى، وقد أثبت لهم الله فضلهم فى القرآن الكريم، فلننظر فى أمورهم بعين ذلك الفضل، ولا ننقصهم منه شيئًا، ولا يغيب عنا لحظة واحدة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، أو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وإنى أحمده سبحانه وتعالى إذ وجدت عونه فيما كتبت، وعلامة الإذن التيسير كما يقول العارفون، كما أن المعانى التى ألهمنيها ربى وجدتها بعد ذلك مقررة فيما وقع لى من مراجع العلماء العارفين، وتوارد خواطرى، واتفاقها مع خواطرهم، إنما هو بركة من بركات سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد غمرتنى بنعمة الله طوال حياتى، ولست أنكر ذلك لأنه تحدث بنعمة الله، كما لا أنكر أنى محب له بكل ذرة من ذرّاتى، وبكل نَفَس من أنفاسى، وبكل إحساس من أحاسيسى، وكنت أقول لنفسى وأنا أكتب ذلك الكتاب:

ما شئت قل فيه فأنت مصدّق   فالحب يقضى والمحاسن تشهد

وكنت أقول ذلك مع تصديقى لما قاله إمامنا البوصيرى رضى الله عنه فى همزيته :

إن من معجزاتك العجز عن وصفـــــك إذ لا يحدّه الإحصاء

ولقد عذرت سادتنا الصحابة الكرام ، وعلى رأسهم الأربعة الكبار سادتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، حين طاشت عقولهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى هدد عمر أن يضرب بسيفه من يقول إنه مات ، وخرس عن الكلام عثمان ، وأخذ الإمام علىّ يروح ويجىء ، وكان أثبتهم أبا بكر ، ولكنه مع ثباته وتمكينه جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد وترتفع ، فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فأكب عليه ، وكشف الثوب عن وجهه ، وقال : طبْتَ حيًّا وميتًا ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولو أن موتك كان اختياراً ، لجدنا لموتك بالنفوس . اذكرنا يا رسول الله عند ربك ، ولنكن من بالك .

أما السيدة الزهراء ، وهى أحب بناته إليه صلى الله عليه وسلم ، فقالت راضية مرضية فيما رواه البخارى رضى الله عنه : يا أبتاه ، أجاب ربًّا دعاه ، يا أبتاه ، من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريل ننعاه .

وأما أنس بن مالك ، وهو خادمه الأمين رضى الله عنه ، فقد قال فيما رواه الترمذى رضى الله عنه : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أظلم منها كل شىء ، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا

وأما حسان بن ثابت رضى الله عنه وهو شاعره الخاص فقد قال :

كنت السـواد لنـاظرى فعمى عليـك النـاظر
من شاء بعـدك فليمـت فعليـك كنت أحـاذر

وتلك الكلمات على قلتها تريك أثر محبته صلى الله عليه وسلم فى المحيطين به عن قرب ، والواقفين على أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد أوجزت السيدة عائشة وصفه ، وهى

الفقيهة الراشدة ، واللبيبة العاقلة ، والزوجة الأثيرة ، بنت الصديق الأثير مولانا أبي بكر وهو أول المؤمنين إسلامًا من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، والإمام الأكبر ، والعلم الأشهر ، فقالت : كان خلقه القرآن .

وحسبك من وصفها هذا أنه صلى الله عليه وسلم استنار بنور القرآن، وتأدّب بأدب القرآن ، وتحلّى بأحكام القرآن ، فكان أفضل البشر وأكملهم على الإطلاق ، كما كان خير الخلائق أجمعين من أهل السموات وأهل الأرضين ، فهو صفيّ ربه الأصفى ، وحبيبه الأسمى ، ومختاره الأوفى ، ومجلاه الأعلى ، ومصطفاه الأولى ، وإن سألت دليلا على ذلك فاقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(١) فهو كما ترى ميثاق ربّانيّ بزعامته صلى الله عليه وسلم للرسل أجمعين .

وإذا رأيت أن تتذكر بعض شمائله التى حلاه الله بها وطبعه عليها ، فإليك ما قال صاحب تحفة الأخيار ، سيدى العارف بالله أبو عبد الله الأنصارى التونسى المالكى ، المتوفى فى سنة ٨٩٤ هـ :

« كان عليه الصلاة والسلام أكمل العالمين خَلْقًا وخُلُقًا ، وتذكّرْ وفور عقله وذكاء لُبِّه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركته ، وحسن شمائله ، وشرف نسبه ، وكرم بلده ، وحلمه واحتماله ، وعفوه مع قدرته ، وصبره على ما يكره ، وجوده وكرمه ، وسخاءه وحياءه ، وشجاعته وسماحته ، ونجدته وفضيلته ، وصفاء مودته ، وبذل تضحيته ، وحسن عشرته وآدابه ، وشفقته ورحمته بجميع الخلائق ، وحرصه على إيمانهم ، ووفاءه وحسن عهده ، وصلة رحمه ، وتواضعه على قدر رفعته وعلو منصبه ، وعدله فى سيرته ، وأمانته وعفته ، وصدق لهجته ، ووقاره وصحبته ، وتأدبه ومروءته ، وحسن هديه ، وزهده فى الدنيا ، وخوفه من ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، وعلمه بربّه ، وشكره وإنابته إلى ربه ، وحسن قيامه بحقه ، وجميل

---

(١) سورة آل عمران — الآية ٨١ .

رجائه ، وصدق يقينه ، وتوكله على ربه ، ومحبته فيه ، وشدة إيمانه بغيبه ، وكثرة صلاته وصيامه ، وشكره وإعطاءه من مال ربه » .

فما من محاسن الأخلاق صفة إلاّ وقد حازها ، وما من درجة من درجات اليقين إلاّ كان أساسها .

أقول ولا تطمع أن تحيط بها عدًّا ، أو أن تسردها سرداً ، فإنها أكثر من أن تحصى ، وأبعد من أن تستقصى .

وصدق إمامنا البوصيرى إذ يقول :

فإن فضل رسول الله ليس له حدّ فيعرب عنه ناطق بفم

كما صدق سلطان العاشقين ابن الفارض حين قال :

أرى كل مدح فى النبي مقصراً وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وإذا أردت أن تعرف كيف اختاره الله على علم ، فاقرأ ما رواه ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم الخلق قسمين ، فجعلنى من خيرهم قسمًا ، وذلك قوله : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ) ، (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ) ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثًا فجعلنى فى خيرها ثلثًا ، وذلك قوله تعالى : (وَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ الميمنة * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) . فأنا من السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل ، فجعلنى فى خيرها قبيلة ، وذلك قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتًا ، فجعلنى فى خيرها بيتًا ، فذلك قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) » .

أرأيت كيف كان صلى الله عليه وسلم خياراً من خيار من خيار ، وكيف سعدت أمته بهذا الخيار ، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس ، وحظ الوريث

من حظ مورثه ، وما أسعدنا به صلى الله عليه وسلم ، فكل فضل جاءنا فى ديننا ودنيانا ، فإنما جاءنا ببركاته ، ومن فيض جود الله عليه ، ورحم الله سيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى إذ يقول :

أنشاك نوراً ساطعًا قبل الورى   فرداً لفرد والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته   من نورك السامى فيا عظم الكرم
تلك المعارف والعوارف فيهمو   من بحر منتك العميمة سيب يم
بالله صل حبل الرجاء تعطفاً   أنا ضيف جودك يا إمام أولى الكرم
جُدْ للضعيف بمبتغاه فإنه   ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
جد لى فإن خزائن الرحمن فى   يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

وشاهده فى ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

وهكذا شاء الرحمن الرحيم أن يرحم العالمين على يديه صلى الله عليه وسلم ، وما خص عالماً دون عالم ، بل نال كل عالم من العالمين ، ما شاء الله له من تلك الرحمة ، وحق لإمامنا البوصيرى إذن أن يقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

ولا تحسبن أن عطاء الله له وقف عند أمور الدنيا الفانية ، فقد أعطاه المقام المحمود فى الآخرة بقوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُودًا) ، وهو مقام الشفاعة للخلائق ، فى الانصراف من الموقف إلى الحساب ، ثم يشفع بعد ذلك للمؤمنين فى دخولهم الجنة ابتداء ، أو فى خروج عصاتهم من النار ، كما هو معلوم من حديث الشفاعة ، فكل رسول كريم حين يعاين أهوال القيامة يقول : نفسى نفسى ، ويقول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم : « أمتى أمتى » ، وحين يستشفع الناس به يقول : « أنا لها » ، وهو ما يشير إليه سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه فى قصيدته المستجيرة بقوله :

فالأصل أنت أبو الوجود ومنك فا   ض الجود فى الدنيا وفى الأخرى وعمْ
والخلق فرع أنت أصل وجوده   والفرع مرجعه إلى الأصل الأشمْ

فلذا إليك الخلق تفزع كلهم   فى هذه الدنيا وفى اليوم الأهم
وإذا رجوك غداً تقول أنا لهـا   واليوم قمت بأمرهم حتى استتمْ

وسيقول له رب العالمين : اشفع تُشفّع ، وسل تُعط ، وقُلْ يُسمع لك ، فما أعظم شأنه فى دنياه وأخراه صلى الله عليه وسلم .

وأود أن ألفت النظر إلى أن ما يجده القارئ من المفاضلة بينه صلى الله عليه وسلم وبين إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ليس المقصود منه الانتقاص من أقدارهم ، حاشا ، فإن أقدارهم فى محلها الرفيع الذى أراده الله ، كما نطق بها كتاب الله ، وإنما هو بيان لمقامه بينهم صلى الله عليه وسلم كما جلاّه القرآن الكريم ، ونحن ما فضلناه عليهم ، ولكن الله فضله ، فبينّا للقارئ كيف فضله الله فى آياته البيّنات ، أما قوله صلى الله عليه وسلم : لا تفضلونى على يونس ابن متى ، فإنه نهى عن انتقاص أحدهم ، وبخاصة أنه جاء فى شأن سيدنا يونس عليه السلام .

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقد يسيء القاصر فهم الموقف فينتقص جهلا من اجتباه ربه وجعله من الصالحين ، وإذا تجرأ جهلا على انتقاص واحد من المرسلين ، تجرأ على انتقاص غيره وكان من الغاوين ، ونعوذ بالله من جهل الجاهلين وضلال الضالين .

وسيرى القارئ الكريم فيما يقرأ مفاضلة لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وهى مفاضلة بالحق ، الذى جعله الله على لسان عمر وقلبه بدعوته صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه رضى الله عنه فهم من الحديث النهى المطلق ما فاضل، ولكنه فهم الحديث على وجهه ، فصوّر مقام الرسول الأعلى بين المقامات العالية ، فأعطى كلّ ذى حق حقه ، ولم يبخس منه شيئًا .

وليتنزه القارئ بعد ذلك فى رياض الكتاب المونقة ، ويستنير بشمسه المشرقة فى رعاية من الله ورسوله ، وفى أمن وإيمان ،وليعلم من أمر رسول الله صلى الله عليه

وسلم ما جهل ، أو يتذكّر من أمره ما نسى ، وليكن همه أن يكون مسلمًا صادقًا ، جديراً بالانتساب إلى الإسلام الذى جاء به ذلك الرسول الأعظم ، فدعا إليه بقوله وفعله وحاله ، وجاهد فى سبيله بنفسه وماله ، فى الحرب والسلم ، فى عزم لا يلين ، وقوة لا تهى ، وهمة لا تفتر ، إيثاراً لله على ما سواه ، ومن عرف ربه هان عليه ما يبذل فى سبيله .

وليكن لك أيها القارئ برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة كما نصحك الله ، فتخلق بأخلاقه ، واتسم بصفاته ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالفقه عنه ، والاستماع منه ، والطاعة له ، فإنك إن فعلت ، سعدت مع السعداء فى دنياك وأخراك ، كما سعد السابقون الأولون ، والآخرون الصالحون ، وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون ، وتأمل فيما نبهنا إليه أهل الفراسة والفطنة حين قالوا : إن الله تعالى جعل لرسوله مناسبة تشريف حين جعل حروف : « لا إله إلا الله » اثنى عشر حرفًا ، وجعل حروف « محمد رسول الله » اثنى عشر حرفًا ، وسرّ هذه المناسبة كانت لهؤلاء الخلفاء الراشدين أيضًا ، فاسم « أبو بكر الصديق » ، واسم « عمر بن الخطاب » واسم « عثمان بن عفان » ، واسم « على بن أبى طالب » ، يشمل كل منها اثنى عشر حرفًا ، وهى مناسبة إرضاء الله فى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما يكشف لك عن سر سعادتهم ، لكمال مناسبتهم فى أخلاقهم للحضرة النبوية الشريفة ، وقد شهد الله لها بالكمال فى قوله تعالى :
(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وإن أردتَ ضماناً بالسعادة فهاكه من ربك لا منّى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ۞ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً)(١).

هذا وأرى لزامًا علىّ أن أتقدم بجزيل شكرى لصديقى الوفى والعلامة التقى الدكتور عبد الحليم محمود ، إذ تفضل فقدم الكتاب لقرائه وزكّى الكاتب وما كتب ، مما أعتز به ، وأطمع أن أكون أهلا لحسن ظنه وجمال وصفه ، فإنه

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٦٩ و ٧٠ .

من علمائنا العاملين وأئمتنا العارفين الذين ندخرهم للدنيا والدين .

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لأحبابى السادة المخلصين الأستاذ سعيد الأنصارى المدير العام بمصلحة الضرائب ، والمهندس على حافظ بوزارة الصناعة ، والأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى المراقب العام للإيرادات بالميزانية، لما بذلوه من مجهودات حميدة فى مراجعة أصول الكتاب مما أغنانى عن حمل عبء المراجعة وحدى .

فاللهم كافئ الجميع عنى يا رب العالمين . والسلام على من اتبع الهدى .

الخميس ١٢ من ربيع الأول ١٣٩٢ هـ
٤ من مايو ١٩٧٢ م

المؤلف
حسن كامل الملطاوى

الباب الأول

العقيدة الإسلامية

الإسلام دين الفطرة :

الإسلام دين الفطرة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة تهدى إلى وجود خالق لهذا الكون ، كما تهدى إلى أنه خالق واحد ، لا أول لأوليته ، ولا آخر لآخريته ، ليس كمثله شيء ، لاينسب إليه البنون لاستغنائه عنهم ، ولا تفنيه السنون ، لأن حياة الخلق وموتهم بيده ، ولا يشاركه فى تدبير الأمور أحد ، لأنه غنى بنفسه عن غيره ، وغيره محتاج إليه على الدوام .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : إن الله تعالى عرّف الإنسان به وتجلى له ، كما استنطقه وألهمه الإقرار بربوبيته ، فشهده الإنسان ووحّده ، وأخذ الله عليه عهداً بذلك ، وذلك كله فى عالم آخر غير هذا العالم ، هو عالم الذرّ قبل وجود الأرواح البشرية فى الأبدان . واستدل رضى الله عنه بقوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) .

وكلامه هذا يفسر لك قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، كما يفسر لك قوله تعالى فيما حكاه عن أهل الكفر والشرك فى سورة الزخرف : (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ) ، ولم يقبل الله منهم ذلك

التقليد الأعمى ، فقال تعالى اعتراضًا عليهم فى سورة البقرة : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

وقد ركب الخالق فى المخلوق عقلا يفكر به فيما يحيط به من الكائنات ، وهذا العقل يساعد ويساند الفطرة السليمة فى عقيدتها ، غير أن العقل آلة مقيدة بالمحسوسات فهو يجول حول الكون ولايستطيع أن ينفذ إلى ما وراء المحسوسات ، فمن اعتمد على العقل وحده دون نور الفطرة أخطأ الطريق واعترته شكوك التيه وصدق من قال :

إن شمس النهار تغرب بالليــــل وشمس القلوب ليست تغيب

وأداتا المعرفة العقل والروح ، والعقل هو الملكة المدركة للعلوم بواسطة الاستدلال ، وهو الأداة التى يستخدمها فى معرفة الله أرباب النظر العقلى ، والروح هى الملكة المدركة للعلوم بواسطة المذاق المباشر عن وجدان سليم .

والعقيدة الإسلامية تقوم فى أساسها على أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإذا نطق الإنسان بهاتين الشهادتين بلسانه ، واعتقدهما بقلبه ، فقد صار مسلماً ، وطولب بما يترتب عليهما من الإيمانيات والعبادات والمعاملات ، كما شرع الله وبلّغ رسوله صلى الله عليه وسلم . وقلب المؤمن مهيأ بفطرته لأن يسع الله بيقينه توحيدًا وإيماناً ومحبة وإخلاصاً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

والألوهية معناها السيادة المطلقة ، فالشهادة الأولى إقرار بسيادة الله الذى لا شريك له ، والشهادة الثانية إقرار برسالة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا أقرّ إنسان بالشهادة الأولى وأنكر الثانية لا يعدّ مسلماً ،

والأدلة على ذلك كثيرة فى كتاب الله الكريم ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة الصف : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) . وهذه الآيات صريحة فى أن سعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بأساس العقيدة ، وهو الإيمان بالله ورسوله . وكذلك قوله تعالى فى سورة الحديد يخاطب المؤمنين بالرسل السابقة على الرسالة المحمدية (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) . وقد آتى الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فضله ، ولا مانع لما أعطى الله .

ولم تكن الرسالة المحمدية الأُولى من نوعها ، بل سبقتها رسالات إخوانه المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، ويجب الإيمان بهم كما يجب الإيمان به ، ويقول تعالى فى هذا المقام مثلا فى سورة الحديد : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى

قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) .

والحكمة فى إرسال الرسل إنما هى لتذكيرهم بما نسوا ، وإرشادهم إلى فطرتهم التى حجبتها عنهم شهوات الجسد الذى لابسته الروح وهم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وتلك الرسالات إنما هى رحمة من الله بعباده لئلا يكون للناس عليه حجة بعد الرسل الذين هم حجة الله على خلقه : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

وقد دعا الله الناس إلى التفكر فيما يحيط بهم من آثار قدرته تعالى ، وعاون عقولهم فى رسم طرق التفكر ، فقال تعالى مثلا فى سورة الأعراف : (أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) ، وقال تعالى فى سورة سبأ : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) ، ويقول تعالى فى سورة الطارق : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ

والتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) . ويقول إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن شك فى النشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى . ويقول تعالى فى سورة الغاشية : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) ، ويقول تعالى فى سورة عبس : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) ، ويقول تعالى فى سورة فاطر : (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) * أى تصرفون عن الحق .

ثم إنه تعالى بعد أن دعا العوام إلى التفكر فى المحسوسات دعا أهل العلم إلى التفكر من طريق العلم ، فقال تعالى فى سورة النساء : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا) ، أى لو كان من عند البشر لاعتراه ما يعترى كلام البشر من تناقض المعنى ، وتفاوت الأسلوب قوة وضعفاً ، فكان بعضه فصيحاً وبعضه رَكِيكًا ، ولما تحققت أخباره الغيبية التى نبأت عن حوادث مستقبلة ، فوقعت كما صورها الله قبل أن تقع ، وليس ذلك التدبر العلمى فى مقدور العوام ، بل هو من شأن العلماء الواقفين على أساليب البلاغة ودقائق البيان ورقائق المعانى ، وما يعقلها إلا العالمون .

ولقد كنت أذكر ليلا كلمة التوحيد : « لا إله الا الله »، وأراعى وأنا أذكرها معناها وهو : لا معبود بحق إلا الله ، وأطوى فى قلبى فى كل مرة من ذكرها « محمد رسول الله » ، فإذا بلبى يذهب فى فسيح آفاق تلك الكلمة الحقة ، وينتهى فيما ذهب إليه إلى أنها كلمة الوجود كله ، ولولاها ما قام الوجود ولا كان موجود من إنسان وحيوان وجماد وجنّ وملائكة وسموات وأرض ونجوم وكواكب وبحار

وأنهار وجبال ، ولما قامت الرسالات السماوية ، ولما نزلت الكتب القدسية والشرائع الربانية ، ولما خلق الله جنة وناراً ، وثواباً وعقاباً ، وسعادة وشقاء فى الدنيا والآخرة ، وهى كلمة التقوى بحق كما سماها الله تعالى فى قوله الكريم فى سورة الفتح : (فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَق بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) .

وصدق سيدى الإمام المرسى أبو العباس رضى الله عنه إذ يقول : ليست الفتوة بالماء والملح[1] بل هى بالإيمان والهدى كما قال تعالى فى أهل الكهف : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) . وقد بين الله تعالى حكمة الخلق فقال تعالى فى سورة الذاريات : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) . قال ابن عباس فى معنى يعبدون أى يعرفون ، ومن ذلك يتبين لنا أن معرفة الله هى أول فرض افترضه الله على عباده

وفى مناسبة الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده أرى من المفيد أن أنقل للسادة القراء رسالة كانت جاءتنى فى آخر سنة ١٩٦٢ من شاب مثقف — طالب بكلية التجارة — شكا لى فيها حاله ، وكشف عما يساوره من حيرة ، وقد أعجبتنى صراحته كما أعجبتنى استشارته لى ، وكان قد قرأ لى محاضرة ألقيتها بنادى التجارة فى « محبة الله تعالى » وقد أجبته حينئذ بالجواب الذى يراه القارئ الكريم بعد الرسالة ، ولم أرد أن أذكر اسمه خشية أن يكون فى ذكره حرج عليه ، لأنى إنما قصدت من نشر الرسالة والرد عليها لبّ الموضوع .

---

(١) يقصد بالماء والملح قوة البدن . وقوة الروح بالإيمان والهدى هى الأهم لأنها أبقى أثراً بعد الموت أما قوة البدن فتتلاشى بالموت .

وها هى ذى رسالته

القاهرة فى ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ :

السيد الأستاذ حسن كامل الملطاوى

تحية طيبة

« اسمح لى يا سيدى أن أقدم نفسى لسيادتكم :

فلان . . موظف بجهة . . طالب بكلية التجارة ، أبلغ من العمر ٢٤ عامـًا ، أى تلك السن التى تتصارع فى نفس الفرد منا رغبات عنيفة ، وتتصادم فى داخل عقله مختلف الأفكار التى قدمتها لنا مدنية القرن العشرين مع ما قدمت من تقدم هائل فى نواحى العلم والفن ، إلى جانب تلك الأفكار الفلسفية المختلفة فى وجود الله ووجود الإنسان ، فى حقيقة الكون وارتباطه بالقوى الغيبية التى تسيطر عليه .

إن تلك الأفكار بتأثيرها تسيطر على أمثالنا من الشباب فإننا ننشأ على الإيمان الفطرى إذ وجدنا ذوينا مؤمنين فآمنا ، حتى إذا استقل الفرد منا بعقله وفكره بدأت أمواج الشك تتلاعب فى مخيلته ، وبدأت أعاصير الشهوة تفرض عليه نوعـًا من التحلل من تعاليم دينه ، وتدفعه إلى تدبير ما يرتكب من آثام ، حتى إذا بلغ من ذلك مبلغـًا أحس باليأس والقنوط من نفسه ، فإذا هو ساخط متبرم بالحياة ومن عليها ، ساخط على ربه الذى خلقه ، جاعل من عقله وسيلة يسيرها على حسب هواه .

وهذا هو ما حدث لى عقب عدة أحداث هزت كيانى . . . فشل أسلمنى إلى نوع من الخمول والجحود إلى سلبية عجيبة أعقبتها ثورة على كل ما تعارف عليه الناس من تقاليد ، وكنت أحاول أن أجد تبريراً لأفعالى وتصرفاتى فلا أجد فأزداد انحداراً فى الهوة .

ولكن فى داخلى شىء يتلوى ، شىء يهيب بى أن أرجع عما أنا فيه ، وفجأة أحس بالقدرة على نفسى ، على وجودى ، وأتساءل : أين الله ليعطينى كما أعطى غيرى الهداية ، وإذا كان قد حرمنى منها فلماذا خلق لى ذلك القلب الخفاق بالأمل والحب ، لماذا جعلنى ذلك الإنسان الحساس المتألم . أين الحكمة فى ذلك ؟ لماذا خلق لى قلبـًا خفاقـًا وحرمنى الحب ؟ لماذا خلق لى نفسـًا طموحـًا .

وخلق فيها الأمل وحرمني القدرة على تحقيقه ؟ لماذا خلق العقل لأفكر وأدبر وحرمني القدرة على تنظيم فكرى وتدبير أمرى ؟

أى نموذج لعدة متناقضات أنا ؟ فأين التكامل فى خلقى ؟ أين التكامل بين قدراتى ؟ من المسئول عما وصلت إليه ؟

هل المسئول هو أنا ؟ الإنسان العاجز الضعيف الذى ليس بيده أى أمر ؟ أنا الإنسان المسير فى أعمالى ، أنا الذى جئت للدنيا دون أن أعلم ودون أن أستشار ، أنا الذى كان وجودى فى الحياة رهن قوى لا أعلمها ، أنا الذى ضيع القدر آمالى وأحلامى ،

وبعد كل هذا ماذا أفعل ؟ إلى أين أسير ؟ إنى أنادي الله فى عليائه عبداً من عباده فليجبنى إن كان موجوداً ، إنى أناديه باسم حقى الطبيعى الذى أعطاه لى يوم خلقنى وجعلنى عبداً من عباده وجعل لى عقلا يفكر ، وقلباً يخفق، ونفساً تهفو، باسم ما حرم وما حلل ، باسم الآمال التى خلقها فى قلبى ، وباسم الفشل الذى كان من نصيبى ،

إنى أناديه باسم الله باسم الرب ، إنى أناديه باسم الخالق الذى خلقنى فليجبنى ، فأنا أنتظر ، أريد أن يطمئن قلبى وتهدأ نفسى ، أريد أن أستريح .

لقد بعدت الشقة بيننا وبين ما سبقنا من رسله وأنبيائه ، وفى الطريق الطويل عبر القرون ضاعت معالم الإيمان وتزعزعت الحقيقة فى القلوب ، ومع موجات الفكر الجديد كادت تمحى الصورة نهائياً .

واليوم من واجب الله نحو خلقه أن يعطيهم النور الذى يهتدون به ، النور الذى يبدد ظلمات الشك والريب التى تعصف بكيان كل شاب الآن ، إننا فى عذاب ، لقد كانت الطفرة الأخيرة التى انتقل بها جيل بعد جيل لها أكبر الأثر فى نفوسنا ، فالتقدم الهائل الذى تعيش فيه البشرية لايقابله تقدم فى نواحى الحياة الأخرى ، فالتقاليد من وراء الحياة تلهث فلاهى مستطيعة اللحاق بالركب ولا هى تاركة الركب يسير

والدين وأهله ورجاله فى موقف المتفرج على الحياة ، قنعوا من الحياة باللقمة التى يأكلونها وقنعوا من العلم بالكلمات التى يرددونها ، فهل تركنا الله يا سيدى ؟

وإذا كان تركنا فلماذا كان خلقنا أصلا ؟ هل خلقنا ليتركنا ؟ لا ، فالعادل لايترك من خلقه وذلك شأن السيد العادل ، لايترك عبده فى حيرته بل هو يقدم الهداية ويبصره بالنور .

إننى أبحث عن النور والهداية ، إننى أبحث عن الله فى رحمته ومحبته ..

سيدى ، أظنك تتساءل : لماذا أكتب إليك كل هذا ؟ وإليك السبب ، لقد وقع بين يدى مصادفة صفحات بقلمك عن محبة الله وعشت فى الكتاب وبين سطوره بكل إحساسى وكيانى ، كنت أحاول أن أجد بين سطوره بصيص نور أو أمل ، ولكنى وجدت نفسى بعيداً كل البعد عما جاء فى الكتاب ، وأحسست أنى أتضاءل أمام كلماته ، فقررت أن أكتب إليك وأفتح قلبى وأفضى إليك بمكنون نفسى وأسألك كيف السبيل وأين الطريق ؟ »

ولدك

فلان

وها هو ذا ردى على الكتاب سالف الذكر :

القاهرة فى ٣ يناير سنة ١٩٦٣

إلى السيد . . . . .

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد — فلقد تلقيت كتابكم المحرر فى ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ ، وأبادلكم تحية بتحية ، وأشكر لك حسن ظنك بى والكتابة إلى فى موضوع شغلك وأقلق بالك ، تلتمس المخرج مما يحيرك فى أمر العقيدة ، والقضاء والقدر ، ووجود الله ، وتخلف المسلمين عن ركب الحياة . . . إلخ .

والشك الذى يساورك سرنى ، لأنه بداية السعي لليقين وتعرف الحقيقة وإنك إنما تريد أن تقوم عقيدتك على اقتناع شخصى منك ، لاتقلد فيه والديك أو غيرهما من الناس .

وهذا الاتجاه فى ذاته دليل الخير فيك ، والأمر سهل جدًّا وصعب جدًّا ، سهل لمن فكر بالمنطق الفطرى فنظر إلى وجوده من عدم ، ثم كان بشراً سويًّا ، له حيويته وتطوره من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة ، ثم هو بعد ذلك ميت لا محالة ، لا يدرأ عنه الموت أحد ، ولو اجتمع على مد حياته كل أطباء العالم ، واتخذوا فى هذا الشأن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم إنهم يعجزون عن أن يخلقوا فى غيره روحاً كالتى تدب فيه ، فإذن عجز البشر واضح فى بداية الإنسان ونهايته .

وهذا التفاوت الذى تراه بين الناس فى أرزاقهم وعقولهم وآجالهم وصحتهم كذلك يدل على تدبير ليس فى أيديهم .

فلا حيلة لك فى اختيار والديك ولا الوطن الذى نشأت فيه .

ثم هذا الكون بما فيه من بدائع المصنوعات والمخلوقات ، من شمس وقمر ونجوم وسماوات مرفوعة بغير عمد ، وليل ونهار يختلفان ، وزروع وأنهار عذبة وبحار ملحة وجبال ورمال ومعادن . . إلخ كلها مسخرة فى خدمة الإنسان .

كل هذه الظواهر إنما تدل على وجود صانع للإنسان ولغيره من المخلوقات والكائنات .

ولو فرضنا أن لها أكثر من صانع واحد لأدى بنا هذا الفرض إلى أن ما يصنعه واحد ، يعجز عنه الآخر بحكم تخصصه فى خلق أشياء دون أشياء ، ولتصورنا أنه لو قام خلاف بين الصناع لفسد الكون من شمس تحتجب عناداً فى زميله ، ومن أنهار تغيض ، ومن نبات لا ينبت ، وتكون النتيجة موت الخلق بانعدام أسباب الحياة .

إذن فالتوحيد واضح ، وإن هذا الصانع لابد أن يكون واحداً ، وألا يكون من جنس ما صنع ، وإلا كان مصنوعاً مثل ما صنع وله صانع ، والمصنوع عاجز ومحدود ، وإذن وجوده من ذاته لا من غيره .

ومؤدى ذلك وجود صانع غير مصنوع وغير مشارك ومخالف للمصنوعات .

وبما أن المصنوعات من الحوادث التى لها بداية ولها نهاية ، فلابد ألا تكون له بداية وألا تكون له نهاية .

فثبت بهذا المنطق الوحدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وهى كلها صفات ليست للمخلوقات ، بل هى لله وحده .

أما المخلوقات فلها التعدد ولها بداية ولها نهاية ولها شبيه .

وظاهرة تتكرر بين الناس فى كل يوم وليلة ، هى ظاهرة النوم قهراً وظاهرة الاستيقاظ بعد النوم ، ومهما قاومها الإنسان فهى غلابة ، وهذه الظاهرة تدل على الموت المصغر وعلى البعث المصغر ، فهناك إماتة وقتية وبعث وقتى ، وهى ظاهرة تغلب فيها القوة الخفية التى تتحلى بالصفات المذكورة، وهى قوة الله .

وهذا الصانع الذى له الوحدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والذى تظهر آثاره فى هذا الكون المحيط بنا ، هو الله سبحانه وتعالى ، ولا شبهة فى وجوده ، كما لا شبهة فى الصفات الواجبة التى ذكرتها لك .

أما العقل وهو ما ميز به الإنسان فوراءه روح تفوق العقل اتساعًا وانفساحًا ، وهى من أسرار الله ، بل إنها لو غابت عن العقل لفقد تفكيره ، والدليل أنه إذا مات الميت جمد المتحرك منه ويبست أعضاؤه ثم تفتتت عظامه وفقد عقله ، كل ذلك لخروج الروح منه التى كانت مودعة فيه بسر إلهى .

وهذه الروح جوهر لطيف وسر كما قلنا من أسرار الله، تسعد باتصالها بالله والاعتقاد فى وحدانيته، وفى قضائه وقدره ، وفى البعث بقدرته يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .

أما تخلف المسلمين عن ركب الحياة فإنهم تخلفوا لتركهم أسباب التقدم ، لأن الله ربط الأسباب بالمسببات ، فهو مثلا سبحانه رازق العباد جميعًا ، ولكنه أمرهم أن يسعوا لذلك الرزق بأسبابه من زروع وتجارات وصناعات . . إلخ ، فمن ترك الأسباب فقد خالف ناموس الله ، فإذا لم يجد رزقًا لا يلوم إلا نفسه . وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « لايقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة » .

كذلك جعل الله النصر على الأعداء بأسبابه فقال : (وأعدُّوا لهُمْ مَّااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة)، فمن أهمل فى هذا الجانب وكتبت عليه الهزيمة لايلوم إلا نفسه وهكذا . . . .

ومسايرة ركب الحياة ارتبطت بالعلم وموالاته ، وأنت تعلم أن المسلمين ظلوا القرون الطوال مغلوبين على أمرهم من أعدائهم، فخلفوهم عن ركب الحياة ليكون المغنم للمستعمرين والغرم على بلاد المسلمين ، ولكننا والحمد لله بدأنا فى هذا العهد الأخير نسترد حريتنا ، ونبنى مجدنا ، ونرفع رؤوسنا ؛ وإن شاء الله فسنكون بالصبر والمثابرة فى الطليعة بإذن الله .

أما أنك وجدت الفرق بعيداً بين ما تجد نفسك فيه وبين ما قرأته فى محاضرتى عن « محبة الله » ، فذلك أمر طبيعى ، لأنك قرأت عن أهل الذروة فى الإيمان، وهم أشبه بالمتخصصين المتعمقين ، ونحن وأنتم ما زلنا فى بداية طريق الإيمان ، ومن سار على الدرب وصل ،وفى الأمثال الصينية حكمة يقولون فيها : (إذا خرجت من بيتك فقد قطعت ثلثى الطريق)، والنية الطيبة والإيمان الثابت يوصلان الإنسان إلى غايته بعون الله وتيسيره .

هذا ، ويسرنى أن أخبرك أنى سأحاضر بقاعة المحاضرات الأزهرية (قاعة الإمام محمد عبده) بالدراسة يوم الثلاثاء ١٥ يناير سنة ١٩٦٣ الساعة السادسة مساء فى موضوع تتصل جوانبه بما يشغلك وموضوع المحاضرة «التصوف من وحى القرآن والسنة » . وأود لو تيسر لك الاستماع يومها لما أقول .

وأكون شاكراً لو قدمت لى شخصك بعد أن اتصلت بى بالمكاتبة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ، ، ، »

حسن كامل الملطاوى

الإسلام دين عام :

وكما أن الإسلام دين الفطرة فهو كذلك دين عام ، وإليك ما يقوله فى هذا الشأن فضيلة العالم المرحوم الشيخ يوسف الدجوى فى كتابه « الرسائل » :

الإسلام دين عام ، جاء بإصلاح العقائد التى لعبت بها الأهواء ، مصدقًا لجميع الكتب ومهيمنًا عليها ، محترمًا لجميع الأنبياء ، وليس بالدين ذى الأنانية الذى يعادى أربابه كل من سواهم ، ولا يعتقدون إلا فى رسولهم الخاص ، ويرمون من عداهم بالكذب والبهتان .

« . . . فكان دين الإسلام جامعاً للناس على الرسل غير مفرق بينهم قائلا لهم : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

« ويقول لأهل الكتاب : (يٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) ، وينهاهم عما كانوا يفعلونه بقوله : (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، فهو يريد أن يجمعهم على الأنبياء جميعاً ، ويرجعهم إلى أصول دينهم الحقة .

« . . . إن تعاليم الدين الإسلامى الحنيف مبنية على أساس متين من الحكمة ، لا يزعزعه شىء ، ولا يؤثر فيه مؤثر ، ومبادئه عقلية بحتة ، لم يدخلها شىء من أوهام النفس ، ولا من خرافات الاعتقادات ، ولا فاسدات العادات . . . لذلك كانت الدعوة إليه عامة ، لا تختص بعربىّ دون عجمىّ ، ولا بحضرىّ دون بدوىّ ، لموافقة مبادئه لكل الأمم على شكل واحد ونسبة واحدة ، ولذلك يسمى « الدين الفطرى » .

الإسلام والعقل :

« . . إن الإسلام يقول لمتبعيه : تفكروا ، تدبروا ، انظروا ، إلى كثير من

أمثال ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، إنا نقول لبنى الإنسان بصوت يملأ الخافقين ، ويسمع جميع الثقلين : حاكموا هذا الدين أمام العقل ، حاكموه أمام الوجدان ، حاكموه أمام البرهان ، حاكموه أمام المدنية والعمران ، حاكموه أمام شرائع المشرعين وقوانين المقننين وآداب المؤدبين ، حاكموه أمام أخلاقكم ومستحسن عاداتكم ، حاكموه أمام فلسفتكم وروحانياتكم ، قارنوا بين تاريخه وتواريخ الدول والأديان ، انظروا فيه بالميكرسكوب والتلسكوب ، حللوه بما شئتم من التحليلات ، امتحنوه بما أردتم من الامتحانات على شرط الإنصاف وعدم التعصب ، فستنطق ظواهره الطبيعية والروحانية بأنه منبع كل خير وجماع كل فضيلة » .

الإسلام دين الوحدانية فى جميع الرسالات :

ويقول فضيلة العالم الشيخ محمد أبوزهرة ، مدّ الله فى عمره ، فى كتابه « العقيدة الإسلامية » :

« الإسلام دين الوحدانية ، وهو لهذا الدين الجامع بين الديانات السماوية كلها ، فهو الذى سجّل فى مصدره الأول ، وهو القرآن الكريم ، أن التوحيد هو الأساس فى الديانات السماوية كلها . . . (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّين وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) .

« . . . التوحيد إذن دين الأنبياء جميعًا ، وهو أقوى وحدة جامعة بين رسالات الله سبحانه وتعالى إلى خلقه . . .

« . . . ووحدانية الذات الإلهية وعدم مشابهتها للحوادث ، ركن من أركان الوحدانية ، لايسع مؤمنًا أن يجهله ، ولا يعتبر موحداً من لايؤمن به ، وقد اتفق

العلماء على أن الله تعالى منزه عن أن يكون مُتَّصفًا بما تتصف الحوادث به، فليس له يد كأيدى الناس ، ولا عين كعيونهم ، ولا وجه كوجوههم .

الله هو الخالق الفعال :

« . . . والعقيدة الإسلامية (فى ركنها الثانى) تقوم على أن الله تعالى خالق كل شىء وأنه تعالى فعال لما يريد ، وأنه لايمكن أن يقع فى ملكه إلا ما يشاؤه ، ولامشيئة فى تسيير هذا الوجود لسواه، ولكن ذلك لا يمنع أن العبد مسؤول عما يفعل، ومجزىّ بما يفعل إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر ، وأنه تعالى الحكم العدل اللطيف ، وأنه سبحانه كلف كل التكليفات ، والعبد مختار بالقدر الذى يتحمل به تبعة ما يفعل ، وهو يحس بأنه يفعل ما يفعل مريداً مختاراً . هذا ما تقرره النصوص القرآنية ، وما وضحته الأحاديث النبوية ، وهو ما لايصح لمسلم أن يجهله » .

الصحابة والقدر :

« وكان الصحابة يؤمنون بقدرة الله تعالى ، وبأنه خالق كل شىء ، ويؤمنون بالقدر ولايخوضون فيه ، بل إذا جاء القدر أمسكوا . . ولقد سأل أحد الناس الإمام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم الله وجهه عن القضاء والقدر وصلته بالجزاء ، فأجابه بما يزيل الشبهة من غير خوض ، ثم ختم كلامه بقوله :

« إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً ، ولم يُعص مغلوبًا ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثًا، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار » .

الإمام أبو حنيفة والقدَر :

« ولقد قال الإمام أبو حنيفة رضى الله تبارك وتعالى عنه فى القدر : هذه مسألة قد استعصت على الناس فأنَّى يطيقونها ، هذه مسألة مقفلة قد ضلّ مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ، ولم يفتح إلا بمخبر من الله تعالى ويأتيه ببينة وبرهان » .

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

« وإن الذى يستخلص من كلام إمام الهدى علىّ بن أبى طالب الذى نقلناه آنفًا ، أن علينا أن نطيع الله تعالى فيما أمرنا به ، وأن نجتنب مانهانا عنه ، وحسبنا فى ذلك أننا نعلم ونحس ونشعر بأننا مختارون فيما نفعل ، وأننا فى استطاعتنا أن نفعل وألا نفعل ، وأنه يكفى ذلك لنشعر بما يجب علينا ، ومالا يصح لنا ، إن الاشتغال عن ذلك بتعرّف أمر مغلق قد ضاع مفتاحه لايجدى فتيلا » .

ولقد قال فى ذلك الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه :

« إن الله تعالى أراد بنا شيئًا ، وأراد منا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » .

« فهو رضى الله عنه يندّد بالذين ينصرفون عن التكليف إلى الكلام فيما كتبه الله علينا من خير أوشر ، والعصاة هم الذين يبررون عصيانهم بما كتبه الله تعالى ، ومنهم الذين يثيرون هذه القضية ، ليضعفوا العزائم عن العمل .

« ولقد ذكر القرآن الكريم أن المشركين قد احتجوا على عبادتهم الأوثان بأن الله تعالى لو شاء ألا يعبدوها ما عبدوها ، وردّ الله عليهم قولهم بأنهم ما علموا مشيئة الله فيهم وأشركوا لأجلها ، وإليك كلام الله تعالى :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ،قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّه الحجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) .

« ونرى من هذا أن المشركين والمكذبين جميعًا يسندون ما يفعلونه إلى الله تعالى ، على أساس أن الله تعالى لو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه ، وأن الحجة القائمة عليهم ألاّ حجة عندهم على أن الله تعالى أراد لهم ذلك ، ويؤكد سبحانه أن مشيئة الله هى الغالبة (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) ولكن ذلك لا يلقى عنكم التبعة » .

عبادة الله وحده :

« . . . وانفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين يقتضى ألا يعبد سواه ، ووحدانية ذاته وصفاته وأنه ليس كمثله شيء يقتضي ألا يعبد سواه ، لأنه لا يعبد إلا من انفرد بالوجود الكامل، وعلا عن التشبيه والنظير ، والعبادة تكون بالطريق التى بينها سبحانه وتعالى . .

« فلا نعبده بأهوائنا ، بل نعبده بما أوحى به إلى رسوله الأمين . . . . وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، صار كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هما وحدهما الطريق لمعرفة العبادة لله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ، « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا من بعدى أبداً ، كتاب الله تعالى وسنتى » .

الأحبار والرهبان :

« وقد نعى الله تعالى على اليهود والنصارى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وقال تعالى فيهم : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

« وقد كانو يأخذون دينهم من الأحبار والرهبان ، من غير رجوع إلى أصل الكتاب ، ويعتبرون كلامهم حجة ، من غير أن يبينوا سنده وأصله ، وبذلك كانوا أرباباً من دون الله . . . وصحّ ما قاله الله فيهم : (إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) .

الفقهاء المجتهدون :

« وليس شأن الفقهاء المجتهدين فى الإسلام كشأن هؤلاء ، لأنهم مفسرون مستنبطون للأدلة من الكتاب والسنة ، فإن أصابوا فى الفهم فبتوفيق الله ، وإن

أخطأوا فمن أنفسهم ، وليسوا محتكرين للفهم ، بل كل من استوفى شروط الاجتهاد له أن يتعرف الأحكام فى الكتاب والسنة » .

كلمة التقوى :

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

« والكلمة الجامعة للعقيدة الإسلامية هى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهى التى نرددها فى كل صلاة ، وهى التى كان يدعو بها النبى صلى الله عليه وسلم بدعايته ، وهى التى يدعو إليها كل داعٍ للإسلام ، وهى فَيْصَل التفرقة بين الكفر والإيمان ، وهى الأساس للبناء التكليفى للإنسان .

« والشهادة الأولى « لا إله إلا الله » تضمنت نفيًا وإثباتا ، أو تضمنت قصراً وتخصيصًا ، تضمنت نفى الألوهية عن غيره ، وتضمنت بالاستثناء بعد النفى إثبات الألوهية له .

« والألوهية هى استحقاقه العبادة وحده ، ولكن استحقاق العبودية له لا يكون إلا إذا كان هو المتفضل بالنعم وحده ، فهو الذى أنعم بالوجود ، وشكر النعم واجب بحكم العقل والمنطق .

« والشهادة الثانية « محمد رسول الله » تتضمن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسول من عند الله تعالى رب العالمين ، أرسله لهداية البشر أجمعين ، وأن الإيمان بالرسالة المحمدية يتضمن الإذعان للمعجزة التى أثبت بها رسالته ، والتى تحدى بها الذين خاطبهم أن يأتوا بمثلها ، وأنه لا يمكن لأحد أن يأتى بمثلها : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

« ويتضمن الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن الله تعالى يكلم عباده إمّا بالوحى يوحيه ، وإما بخطابه من وراءِ حجاب ، وإما برسول من الملائِكَةِ يرسله إليه ، كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ

اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) ، وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وتتضمن الشهادة بأن محمدًا رسول الله تصديقه فى كل ما أمر به ، وكل ما نهى عنه ، سواء أكان ذلك بياناً للقرآن ، أم كان بياناً لما أوحى الله تعالى به : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) .

طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه :

« فكل ما قرره النبى صلى الله عليه وسلم يجب الإذعان له ، على أنه حكم الله تعالى ، (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله) ، وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) .

« فالشهادة بالرسالة تقتضى لا محالة الإيمان بصدق كل ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيجب الإيمان بفرضية الصلاة والزكاة والحج وعدد الصلوات ، ومعانى الحج ومناسكه ، وكونه إلى البيت الحرام، وكون ركنه الأكبر الوقوف بعرفة ، وكذلك تحريم الربا، وتحريم الخمر والميسر والزنا ، والإقرار بأن عقوبتها هى ما جاءت فى القرآن الكريم .

« ويعد كافراً من أنكر الأحكام الثابتة فى القرآن ، وكذلك يعد كافراً من ينكر أمراً مما علم من الحقائق الدينية بالضرورة، وتواتر العلم به جيلا بعد جيل ، من عصر النبى صلى الله عليه وسلم » .

الأمة المحمدية وشريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومابعدها :

ويقول فضيلة الشيخ أبو زهرة :

« وإن أمة محمد الذين يتبعونه حقًا وصدقًا ، هم الذين أحيوا شريعة أبى

الأنبياء إبراهيم ، ومن جاء بعده من النبيين من ناحية الأصول المقررة الثابتة التى لا تختلف فيها الأقوام ، ولذلك قال الله تعالى :

(وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) . كما قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُر على الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) .

« . . . فالمؤمن بمحمد مؤمن بعيسى ، والمسيحى الذى يدخل فى الإسلام لا يخرج من المسيحية التى جاء بها عيسى عليه االسلام ، ولكنه يدخل فيها كاملة غير منقوصة ، لأنه بَشَّرَ بسيدنا محمد (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ) — ولقد سئل قس دخل فى الإسلام : لم خرجت من المسيحية ؟ فقال : ما خرجت منها ولكنى أدركتها صحيحة ، وسرت فيها إلى كمالها ، وكمالها بالإيمان بمحمد عليه السلام — كما أن كمال الإسلام فى الإيمان بكل السابقين ، بل إن ذلك ضمن أصول الإسلام » .

الإيمان بالغيب :

ويقول فضيلته :

« والإيمان بالبعث والحياة الأخرى قرين الإيمان بالغيب ، لأن البعث ليس أمراً مشهوداً بين أيدينا ، بل هو والحياة الآخرة أمران مغيبان .

« ... ولقد كان الماديون يقيسون قياساً مادياً ، والقرآن الكريم يرد قولهم بقياس هو المحكم وحده ، فهم ينفون البعث بأن ما يفنى لا يمكن أن يعود ، وقد ذكر

هذا القياس وَرَدَّهُ فى قوله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

مزايا العقيدة الإسلامية :

ويقول العلامة عباس العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام » فى مزايا العقيدة الإسلامية :

« وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول ، لأنها تشمل الأمم الإنسانية جميعًا ، كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير .

« فليس الإسلام دين أمة واحدة ، ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ، ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، رسالة تشمل بنى الإنسان من كل جنس وملّة وقبيلة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ـ (قُلْ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) ـ (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

« فهذه عقيدة إنسانية شاملة ، لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها سلالة مختارة دون سائر السلالات ، لفضيلة غير فضيلة العمل

والصلاح (يٰأَيها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [سورة الحجرات .]

وفى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم : " لا فضل لعربىّ على عجمىّ ولا لقرشىّ على حبشىّ إلّا بالتقوى " .

« وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة ، أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات ، يتفاوتون بالعلم ، ويتفاوتون بالعمل ، ويتفاوتون بالرزق ، ويتفاوتون بالأخلاق ، (يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [سورة المجادلة] .

(لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) [سورة النساء] .

(وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ) [سورة النحل] .

(هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [سورة الزمر] .

« وإذا ذكر القرآن الضعف ، فلا يذكره لأن الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف إنه أهل لمعرفة الله إذا جاهد وصبر ، وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، وإلا فإنه لمن المجرمين :

(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) [سورة سبأ] .

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) [سورة القصص] .

«وما من ضعيف هو ضعيف إذا صبر على البلاء ، فإذا عرف الصبر عليه ، فإنه لأقوى من العصبة الأشداء . (الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

« فما كان الإله الذى يدين به المسلم إله ضعفاء وإله أقوياء ، ولكنه إله مَنْ يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أن يكون مع الله ، والله مع الصابرين .

« بهذه العقيدة غلب المسلمون أقوياء الأرض ، ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول ، وتبدلت المقادير ، وذاق المسلمون بأس القوة ، مغلوبين مدافعين » .

ويقول كذلك ، رحمه الله ، فى ذلك الكتاب :

« . . فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

«فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء (سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

«وما هو رب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ، ولكنه هو (رَبّ الْعَالَمِينَ) ، (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) [سورة الحجرات] .

وهو واحد أحد (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [سورة الإخلاص] .

«لا يؤاخذ إنساناً بذنب إنسان ، ولا يحاسب أمة بجريرة أمة سلفت ، ولا يدين العالم كله بغير نذير (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [سورة فاطر] .

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [سورة البقرة] .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [سورة الإسراء] .

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه : (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) ، (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)[سورة فصلت] ،(هوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) [سورة الحديد] ،(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلماً) [سورة الأنعام] ، (وَهوَ بِكلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ) سورة يس .

« . . . فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية ، ومن جوف بلاد القبائل والعشائر خرج الدين الذى يدعو إلى إله واحد (رب العالمين) ، ورب المشرق والمغرب ، ورب الأمم الإنسانية جمعاء بغير فارق بينها غير فارق الإيمان والصلاح » .

«فالله رب العالمين مالك يوم الدين، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الأصل الذى يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة فى الإله ، كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما ينبغى أن يكون » .

مزايا الرسالة المحمدية :

ويتعرض العلامة العقاد لنبوءة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول رحمه الله:

« . . . إن النبوءة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة ، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان فى الإله .

« وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما غبر فى الأوهام ، من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والإنباء بالمغيبات :

(وَيَقولون لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبهِ فَقلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلهِ فَانْتَظِرُوا إنى مَعَكمْ منَ الْمُنتظِرِينَ) [سورة يونس] .

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [سورة الأعراف] . (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) [سورة الأنعام] . (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) سورة الأنعام ، فما النبوة بقول ساحر ، ولا يفلح الساحرون ، وما النبي بكاهن ولا مجنون » .

كرامة التكاليف الشرعية :

ويتعرض العلامة العقاد للإنسان، وماشرفه الله به فى التكليف، فيقول رحمه الله :

« ...وارتفاع الإنسان وهبوطه للإنسان منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعة، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه هى الأمانة التى رفعته مكانًا فوق مكان الملائكة ، وهبطت به مقامًا إلى زمرة الشياطين :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) [سورة الأحزاب] . (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) [سورة القيامة] .

« وبهذه الأمانة ارتفع الإنسان مكاناً عليًّا فوق مكان الملائكة ، لأنه قادر على الخير والشر ، فله فضل على من يصنع الخير ، لأنه لا يقدر على غيره ، ولا يعرف سواه ، (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَه بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) [سورة الإسراء] .

« وبهذه الأمانة هبط الإنسان غرورًا وسرفاً إلى عداد الشياطين (وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) [سورة الأنعام] . (إِنَّ الْمُبَذِّرِين كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) [سورة الإسراء] .

« . . . فهذا الإنسان يتردى من أحسن تكوين إلى أسفل سافلين ، ولا يزال فى الحالين إنساناً مكلفاً ، قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة ، قابلا للتوبة بعد الخطيئة ، مُحاسباً بما جنته يداه ، غير محاسب بما جناه سواه (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) [سورة النجم] . (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) [سورة الإسراء] . (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [سورة الأنعام] . (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) [سورة التين] .

« هو مخلوق مكلف ، ذلك جماع ما يوصف به الإنسان، تمييزاً من العجماوات ، وتمييزاً من الأرواح العلوية على السواء .

« ولهذا كان فى أحسن تقويم ،

« ولهذا يرتد إلى أسفل سافلين ،

« وقوام التقويم الحسن : الإيمان ، وعمل الصالحات ، وسبيل الارتداد إلى أسفل سافلين مطاوعة الهوى ، والغرور ، والسرف ، وطغيان الغنى ، ومنع الخير ، والهلع مع البلاء ، والعجلة مع الضعف والإغراء .

« . . . ولعل الصعوبة الكبرى إنما تساور العقل فى فهم قوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) ، فلم لا يشاء الله أن تؤتى كل نفس هداها على السواء ؟ تذليل الصعوبة فى الجواب نفسه ، فإن الهداية إذا ركبت فى طبائع الناس كما تركب خصائص الأجسام على السواء بين كل جسم وجسم ، فتلك هى الهداية الآلية التى لا اختلاف بها بين مدارك الأرواح ولوازم الأجسام المادية ، ومن اختار ذلك فإنما يختار لنوع الإنسان منزلة دون منزلته التى كرمته ، وفضلته على سائر المخلوقات .

« فالعدل فيما اختاره الله للإنسان أعم وأكرم مما يختاره الإنسان لنفسه إذا هو آثر الهداية التى تسوى بينه وبين الجماد » .

أقول ، ويؤخذ مما قرره الإمام أبو بكر الكلاباذى فى كتابه « التعرف

لمذهب أهل التصوف » أن الله خالق لأفعال العباد كما هو خالق لأعيانهم (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) ، وكل ما يفعلونه من خير وشر ، فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته ، ولولا ذلك لم يكونوا عبيدًا ولا مربوبين ولا مخلوقين ، يقول تعالى : (قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ، ويقول : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) ، وقد قال سيدنا عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ، أعلى أمر قد فرغ منه أو أمر مبتدأ ، فقال : « على أمر فرغ منه » . فقال عمر : أفلا نتكل وندع العمل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ويقول صاحب جوهرة التوحيد :

فخالق لعبده وما عمل موفق لمن أراد أن يصل
وخاذل لمن أراد بُعده ومنجز لمن أراد وعده
فوز السعيد عنده فى الأزل كذا الشقى ثَمّ لم ينتقل

هوى النفس وضرره :

أقول : ومطاوعة هوى النفس هو شر ما يصيب الإنسان ، فقد حذرنا الله من هواها ، ونصحنا أن ننهاها ، وبيّن لنا أنها أمارة بالسوء ، أى شديدة الإمرة ، كما بيّن لنا ما سيكون يوم القيامة من ربح مخالفتها وخسارة مطاوعتها فى مثل قوله تعالى فى سورة النازعات : (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) ، وشتان بين العقاب والثواب .

وينصحنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فيقول : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ ، وحظها فى الطاعة باطن خفىّ ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه ، كما يقول : إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النفس

فاتبعه ، فإنه لايثقل عليها إلا ما كان حقًّا ، ويقول كذلك : إنما تحتاج إلى معالجة نفسك فى الابتداء ، فإذا ذقت المنة ، جاءت معالجة النفس اختياراً ، فالحلاوة التى كنت تجدها فى المعصية ترجع تجدها فى الطاعة .

أقول : ولا يخفاك أن الشيطان عدو مبين ، ومن آثار عداوته أنه يزين للنفس حب الشهوات ، ليعصى العبد بها ربه ، فيشارك الشيطان فى المعصية ، وقد حذّرنا الله منه ومن كيده فى قوله تعالى : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) ، وتقتضى عداوته أن نخالفه اتقاء لشره ، وقد صوّر الله عاقبة مطاوعته أقوى تصوير ، وكشف لنا أنها تنحط بنا إلى خسة الحيوان فى قوله تعالى فى سورة الأعراف : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

ويصور لنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف الطبائع وتباينها فى قبول دعوة الحق فيقول صلى الله عليه وسلم : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » جعلنا الله وإياك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

تفسير وحدانية الذات :

وقد نقل فضيلة الشيخ أبو زهرة عن الإمام الأشعرى رضى الله عنه تفسيره

لوحدانية الذات فى كتابه مقالات الإسلاميين فقال :

«إن الله واحد أحد ، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولاشبح ، ولاجثة ولاصورة ، ولالحم ولادم ولاشخص، ولاجوهر ولاعرض ولابذى لون ولا طعم ، ولا رائحة ولامحسة ، ولابذى حرارة ولابرودة ، ولا رطوبة ولايبوسة ، ولا طول ولاعرض ولاعمق ، ولا اجتماع ولاافتراق ، ولابذى أبعاض أو أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء، وليس بذى جهات ، ولابذى يمين وشمال ، وأمام وخلف ، ولا يحيط به مكان ، ولايجرى عليه زمان ، ولاتجوز عليه المماسة أو العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولايوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولايوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، لاتدركه الحواس ، ولايقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولاتحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير شبيه له .

« ولم يزل أولا سابقًا متقدمًا للحادثات ، موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل حيًّا قادراً ، ولا تحيط به الأوهام ، شيء لاكالأشياء ، عالم قادر حيّ لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ، ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولامعين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ، ولا بأصعب عليه منه ، ولايجوز عليه احتراز المنافع ، ولاتلحقه المضار ، ولايناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولايجوز عليه الفناء ، ولايلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء .

المتشابهات فى القرآن الكريم :

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران : (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ

إلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) .

ويقول العلماء إن المتشابه فى القرآن الكريم نوعان : متشابه لفظى وهى الحروف التى فى أوائل السور ، ومتشابه معنوى كقوله تعالى : (يَدُ اللهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ، وقوله تعالى : (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) ، وقوله تعالى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) ، وقوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) إلخ .
وقد قال السلف : نحن نؤمن بما قال الله على ما أراد الله من غير تأويل ، أما رأى الخلف فهو التأويل بمعنى أن اليد تطلق على القدرة ، والوجه على الذات إلخ . . ولكن اتفق السلف والخلف على نفى التشبيه عن الله تعالى ، استنادًا إلى قوله سبحانه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ، وهى آية نفت التشبيه بحرفى الكاف والمثل ، فكأنه تعالى يقول : ليس كهو شىء ، وليس مثله شىء ، وكذلك يقول تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ، كما يقول جل جلاله : (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) ، والقاعدة التى نخرج بها من كل ما تقدم هى : كل ماخطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك ، والأسلم لنا والحالة هذه أن نقول : نؤمن بالمتشابهات على ما أراد الله منها .

وقد سئل الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه : لماذا تركت علم الكلام — أى الكلام فى التوحيد — إلى الفقه ؟ فقال رضى الله عنه : « إن الخطأ فى العقيدة يرمى صاحبه بالكفر ، أما الخطأ فى الفقه فإن صاحبه يرمى بالمخالفة » .

وجاء فى حاشية الإمام الباجورى على الجوهرة : سأل رجل الإمام مالكاً عن قوله تعالى : (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) ، فأطرق رأسه مليًّا ثم قال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالاً ، فأمر به فأخرج .

وسأل الزمخشرى الإمام الغزالى عن الآية المذكورة فأجابه بقوله :
إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينية ، فكيف يليق بعبوديتك أن

تصفه تعالى بأينْ أو كيف وهو مقدّس عن ذلك ثُم جعل يقول :

قل لمن يفهم عــنى ما أقــول ... قصر القول فذا شرح يطول
ثَمّ سرٌّ غامض من دونــــه ... قصرت والله أعناق الفحـــول
أنت لاتعــرف إيـــاك ولاتد ... رك من أنت ولا كيف الوصول
لا ولاتدرى صفـــات ركبــت ... فيك حارت فى خفاياها العقول
أين منك الروح فى جوهــرهـــا ... هل تراها فترى كيف تجــول
وكذا الأنفاس هــل تحصرهـــا ... لا ولا تدرى متى عنك تــزول
أيــن منك العقــل والفــهم إذا ... غلب النوم فقل لى ياجهـــول
أنت أكل الخبز لا تعرفه ... كيف يجرى منك أم كيف تبول
فإذا كانت طــوايـــاك الــتى ... بين جنبيك كذا فيهـــا ضلول
كيف تدرى من على العرش استوى ... لاتقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكى الرب أم كيف يرى ... فلعمرى ليس ذا إلا فضــــول
فهو لا أينْ ولا كيْف لـــــه ... وهو رب الكيف والكيْف يحول
وهو فوق الفــوق لا فــوق له ... وهو فى كل النواحى لا يزول
جــل ذاتًا وصفـــات وسمـــا ... وتعالى قـــدره عمـــا تقــول

السادة الصوفية وتوحيد الله تعالى :

أقول ومما قاله السادة الصوفية فى التوحيد :

إنْ قـُلـْتَ متى ، فقد سبق الوقت كونه . .

وإنْ قـُلـْتَ أين فقد تقدّم المكان وجوده . . .

لاتجتمع صفتان لغيره فى وقت ، ولا يكون بهما على التضادّ ، فهو باطن فى ظهوره ، ظاهر فى استتاره ، فهو الظاهر الباطن، القريب البعيد ، امتناعًا بذلك عن الخلق أن يشبهوه . .

ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف . .

لا تدركه العيون ، ولاتهجم عليه الظنون ، ولا تتغير صفاته ، ولا تتبدل أسماؤه ، لم يزل كذلك ، ولايزال كذلك ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

وأجمعوا على أن القرآن كلام الله تعالى على الحقيقة ، وأنه ليس بمخلوق ولا محدث ولاحدث ، وأنه متلو بألسنتنا ، مكتوب فى مصاحفنا ، محفوظ فى صدورنا ، غير حال فيها ، كما أن الله تعالى معلوم بقلوبنا ، مذكور بألسنتنا ، معبود فى مساجدنا ، غير حال فيها .

وأجمعوا على أنه تعالى يُرى بالأبصار فى الآخرة (أى بلا إحاطة كما سيأتى) وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ، لأن ذلك كرامة من الله تعالى ، لقوله : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) ، وجاءت الرواية بأن الزيادة هى الرؤية : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ؛ فى حين يقول فى الكافرين : (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ). وقوله تعالى: (لَا تُدرِكُهُ الْأَبْصَارُ) فى الدنيا ، كذلك فى الآخرة ، وإنما نفى الله الإدراك بالأبصار ، لأن الإدراك يوجب كيفية وإحاطة ، فنفى ما يوجب الكيفية والإحاطة دون الرؤية التى ليست فيها كيفية وإحاطة . ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه تعالى ، لكان سؤال موسى عليه السلام : (أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ) جهلا وكفرًا ، ولما علق الله تعالى الرؤية بشريطة استقرار الجبل بقوله : (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى) وكان ممكناً فى العقل استقراره لو أقره الله .

وقالوا فى هذا المقام إن الله تعالى اطلع على قلوب خلقه ، فوجد أشوقها إليه قلب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعجل له الرؤية فى الدنيا ليلة المعراج ، قبل أن يراه المؤمنون فى الآخرة ، فخص من بين الخلائق بهذه الرؤية ، كما خص سيدنا موسى عليه السلام بالكلام ، واحتجوا بخبر ابن عباس وأسماء وأنس رضى الله عنهم وينوّه سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه بتلك الرؤية فى قوله :

بالعين قد شاهدته متفردا ... فالعين فلتنعم بهاتيك النعم
أكرومة لك لا تضاهى رفعة ... مخبوءة لك يا مقرب فى القدم

ويقول المغفور له الشيخ الباجورى فى حاشيته على جوهرة التوحيد : وقد نفت

السيدة عائشة رضى الله عنها وقوع الرؤية للنبي صلى الله عليه وسلم ، لكن قدم عليها ابن عباس لأنه مثبت لأنه رأى ربه سبحانه وتعالى بعينى رأسه وهما فى محلهما ، خلافـًا لمن قال حولا لقلبه ، والقاعدة (أى الأصولية) أن المثبت مقدم على النافى ، حتى قال معمر بن راشد : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس . وأضاف الشيخ رحمه الله : وكان صلى الله عليه وسلم يراه تعالى فى كل مرة من مرات المراجعة [انظر التفصيل فى مبحث الإسراء والمعراج فى المباحث التالية] .

وجاء فى الحاشية المذكورة كذلك :

أما رؤيته تعالى منامـًا ، فنقل عن القاضى عياض أنه لا نزاع فى وقوعها وصحتها ، فإن الشيطان لا يتمثل به تعالى كما لا يتمثل بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذكر بعضهم الخلاف ، وقال بعضهم إن الشيطان يتمثل بالله دون النبى ، والفرق أن النبى بشر ، فيلزم فى التمثل به اللبس بخلاف المولى سبحانه فأمره معلوم . وحكى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه رأى المولى سبحانه وتعالى فى المنام تسعـًا وتسعين مرة وقال : وعزته إن رأيته تمام المائة لأسأليه فرآه فقال : سيدى ومولاى : ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامى ، فقال : بفهم أو بغير فهم ، فقال : : يا أحمد بفهم و بغير فهم .

أقول وما أوسع فضل الله على عباده من العلماء وغيرهم ، وهو الغنى عنهم وعن عملهم ، وقد دخلت على شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى أواخر عمره ، طيب الله ثراه ، فوجدته أبيض الوجه ، مع أنه كان قمحى اللون ، وكان شعر ذقنه كأسلاك الفضة بريقـًا ، وعجبت يومها لمنظره الذى كان ينطق بولايته حتى لمن يراه أول مرة دون معرفة سابقة ، وبعد أن سلمت عليه جلست أتطلع إلى أنواره الباهرة ، فإذا به يقول لى فى انكسار واضح : دا ربنا ده عظيم جداً ، إذا كان الواحد يراه تعالى وكأنه نور فى نور ، ويقول : أنا أغفر لعبدى ولا أبالى ، ثم أضاف رضى الله عنه : وصحيح ها يبالى من مين ؟ فعلمت أنه قائم من النوم بعد هذه الرؤيا مباشرة ، وعلمت كذلك أنه قريب الانتقال إلى رضوان الله وهو ما كان ، طيب الله قراره .

الشيخ الأكبر والتوحيد :

وفى كلمتى الشهادتين : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، يقول سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى الباب السابع والستين من الفتوحات :

شهد الله لم يزل أزلا — أنه لا إله إلا هو الله
ثم أملاكه بذا شهدت — أنه لا إله إلا هو الله
وأولو العلم كلهم شهدوا — أنه لا إله إلا هو الله
ثم قال الرسول قولـوا معى — إنه لا إلـه إلا هو الله
أفضل ما قلته وقـال به — من قبلنا لا إلـه إلا الله

«قال الله جل ثناؤه فى كتابه العزيز : (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، ثم قال : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله» الحديث ، فقال سبحانه : (وأُولُو العِلْمِ) ولم يقل وأولو الإيمان ، فإن شهادته بالتوحيد لنفسه ما هى عن خبر فيكون إيمانًا ، ولهذا الشاهد فيما يشهد به لا يكون إلا عن علم ، وإلا فلا تصح شهادته . ثم إنه عز وجل عطف الملائكة وأولى العلم على نفسه بالواو ، وهو حرف يعطى الاشتراك ، ولا اشتراك هنا إلا فى الشهادة قطعًا ، ثم أضافهم إلى العلم لا إلى الإيمان ، فعلمنا أنه أراد من حصل له التوحيد من طريق العلم الفطرى أو الضرورى ، لا من طريق الخبر كأنه يقول : وشهدت الملائكة بتوحيدى بالعلم الضرورى من التجلى الذى أفادهم العلم ، وقام لهم مقام النظر الصحيح فى الأدلة ، فشهدت لى بالتوحيد كما شهدتُ لنفسى ، وأولو العلم بالنظر العقلى الذى جعلته فى عبادى ، ثم جاء بالإيمان بعد ذلك فى الرتبة الثانية من العلماء ، وهو الذى يعول عليه فى السعادة ، فإن الله به أمر ، وسميناه علمًا لكون المخبر هو الله ، فقال تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ) ، وقال تعالى (وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ)

حين قسم المراتب فى آخر سورة إبراهيم من القرآن العزيز ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلّا الله دخل الجنة » ، ولم يقل هنا « يؤمن » فإن الإيمان موقوف على الخبر وقد قال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) ، وقد علمنا أن لله عبادًا كانوا فى فترات وهم موحدون علمـًا ، وما كانت دعوة الرسل قبل رسول الله صلى عليه وسلم عامة ، فيلزم أهل كل زمان الإيمان ، فعم بهذا الكلام جميع العلماء بتوحيد الله ، المؤمن منهم من حيث ما هو عالم به من جهة الخبر الصدق الذى يفيد العلم ، لا من جهة الإيمان وغير المؤمن ، فالإيمان لايصح وجوده إلا بعد مجىء الرسول ، والرسول لا يثبت حتى يعلم الناظر العاقل أن ثَمّ إلـهًا ، وأن ذاك الإله واحد لابد من ذلك ، لأن الرسول من جنس من أرسل إليهم ، فلا يختص واحد من الجنس دون غيره إلا لعدم المعارض وهو الشريك ، فلا بد أن يكون عالمـًا بتوحيد من أرسله وهو الله تعالى . . .

« فإذا قال العالم : لا إله إلاّ الله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له : قل لا إله إلا الله ، عن أمر الله ، سمى مؤمنـًا ، فإنّ الرسول أوجب عليه أن يقولها ، وقد كان فى نفسه عالمـًا بها ، ومخيراً فى التلفظ بها . وعدم التلفظ بها ، فهذه مرتبة العالم بتوحيد الله من حيث الدليل ، فمن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب وهو من السعداء ، فأما من كان فى الفترات فيبعثه الله أمة وحده كقسّ بن ساعدة لا تابع له لأنه ليس بمؤمن (أى لم يكن إيمانه بأخذ الدين عن الرسول) ولا هو متبوع لأنه ليس برسول من عند الله بل هو عالم بالله . . .

« فإذا جاء الرسول وبين يديه العلماء بالله وغير العلماء بالله ، وقال للجميع قولوا : لا إله إلا الله ، علمنا أنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك القول معلم لمن لا علم له بتوحيد الله من المشركين ، وعلمنا أنه فى ذلك القول أيضا معلم للعلماء بالله وتوحيده أن التلفظ به واجب ، وأنه العاصم لهم من سفك دمائهم وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم

إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " ، ولم يقل حتى يعلموا ، فإن فيهم العلماء ، فالحكم هنا للقول لا للعلم ، والحكم يوم تبلى السرائر فى هذا للعلم لا للقول ، فقالها هنا العالم والمؤمن والمنافق الذى ليس بعالم ولا مؤمن ، فإذا قالوا هذه الكلمة عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها فى الدنيا والآخرة ، وحسابهم على الله فى الآخرة من أجل المنافق ، ومن ترتب عليه حق لأحد فلم يؤخذ منه ، وأما فى الدنيا فمن أجل الحدود الموضوعة ، فإن قول لا إله إلا الله لايسقطها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأما حسابهم على الله فى الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجِبْتُمْ فيقولون (لا علم لنا) أى لم نطلع على القلوب (إنك أنت علام الغيوب) تأكيد وتأييد لما ذكرنا » :

وما أروع ما يقول سيدى الشيخ الأكبر ، رضى الله عنه بعد ذلك :

قال صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وهى القلب ، وأن محمداً رسول الله حاجب الباب ، وإقام الصلاة المجنبة اليمنى ، وإيتاء الزكاة المجنبة اليسرى ، وصيام رمضان التقدمة ، والحج الساقة[1] ، وربما كانت الصلاة التقدمة لكونها نوراً ، وتكون الزكاة الميمنة لأنها إنفاق يحتاج إلى قوة لإخراج ما كان يملكه عن ملكه ، ويكون الحج الميسرة لما فيه من الإنفاق والقرابين حيث تجتمع بالزكاة فى الصدقة والهدية وكلاهما من أعمال الأيدى ، ويكون الصوم فى الساقة ، فإن الخلف نظير الإمام وهو ضياء ، وهكذا يكون الإيمان الإلهى يوم القيامة ، فيأتى الإيمان يوم القيامة فى صورة ملك على هذه الصفة ، فأهل لا إله إلا الله فى القلب ، وأهل الصلاة فى التقدمة ، وأهل الزكاة وهى الصدقة فى الميمنة ، وأهل الحج فى الميسرة ، وأهل الصيام فى الساقة ، جعلنا الله ممن قام ببناء بيته على هذه القواعد ، فكان بيته « الإيمان » وحدُّه من القبلة الصلاة ومن الشمال الصوم ، ومن الغرب صدقة السر ، ومن الشرق الحج ، فلقد سعد ساكنه . . .

« وإنما قال الشارع : حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، ولم يقل محمد رسول الله (يشير إلى الحديث السابق) لتضمن الشهادة بالتوحيد الشهادة بالرسالة ، فإن

---

(١) ساقة الجيش هى مؤخرته .

القائل لا إله إلا الله لا يكون مؤمناً إلا إذا قالها، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قالها لقوله فهو عين إثبات رسالته ، فلما تضمنت هذه الكلمة الخاصة الشهادة بالرسالة لهذا لم يقل قولوا : محمد رسول الله . . .

« واعلم أن التلفظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد (أى فى قول القائل لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيه سر إلهى عرفنا به الحق سبحانه ، وهو أن الإله الواحد الذى جاء بوصفه ونعته الشارع ما هو التوحيد الإلهى الذى أدركه العقل، فإن ذلك لا يقبل اقتران الشهادة بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد من حيث ما يعلمه الشارع ، ما هو التوحيد من حيث ما أثبته النظر العقلى . . . »

دليل الوحدانية :

يقول كذلك سيدى الشيخ الأكبر فى الباب الثانى والسبعين ومائة فى مقام التوحيد :

« أحد ما مثله أحد بجمال النعت منفرد
الذى قـام الوجود به أمرنا عليـه ينعقـد

« اعلم أن التوحيد التعمل فى حصول العلم فى نفس الإنسان أو الطالب بأن الله الذى أوجده واحد لاشريك له فى ألوهيته ، والوحدة صفة الحق ، والاسم منه الأحد والواحد ، وأما الوحدانية فقيام الوحدة بالواحد ، فالتوحيد نسبة فعل من الموحِّد يحصل فى نفس العالم به أن الله واحد .

« قال تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) ، وقد وجد الصلاح وهو بقاء العالم ووجوده فدل على أن الموجد له لو لم يكن واحداً ما صح وجود العالم . . .

« وهكذا استدل الخليل عليه السلام فى الأقوال ، فأعطاه النظر أن الأفول يناقض حفظ العالم — فالإله لا يتصف بالأفول ، أو الأفول حادث لطروئه على الآفل بعد أن لم يكن آفلا — والإله لا يكون محلا للحوادث . . . قال تعالى فى قصة إبراهيم هذه : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) ولم يكن له غير هذا ،

فقوله حجتنا أى مثل حجتنا التى نصبناها دليلا على توحيدنا وهى قولنا (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) » .

نفى الحلول والاتحاد عن الصوفية :

أقول وقد طعن بعض أهل العلم على الصوفية بأنهم خرجوا على التوحيد الصحيح وقالوا بالحلول والاتحاد ، واستندوا فى اتهامهم هذا إلى ماذهبت إليه طوائف زائغة عن الإسلام تدعى أنها صوفية ، وهؤلاء لا يعنينا من أمرهم شىء . والصوفية الذين نعتد بهم ونعتز ، هم المتمسكون بالكتاب والسنة ، وهؤلاء يجب أن نحسن الظن بعقيدتهم ، لأنهم أهل علم وعمل وحال ، وقد تكون لهم عبارات تدق عن فهم غيرهم ، فيخفى مقصودهم منها على من لم يذق ذوقهم فيرميهم بماهم منه برآء .

فالاتحاد حيث ورد فى كلام السادة الصوفية الصادقين ، لا يقصدون به اتحاد ذات فى ذات ، وحاشا أن يتحد القديم الخالق بالحادث المخلوق ، وإنماهم يقصدون به فناء مراد العبد فى مراد الله تعالى ، كما يقول سيدى على وفا رضى الله عنه :

وعلمك أن كل الأمر أمــرى　　　هو المعنى المسمى باتحــاد

وقد قلت فى كتابى « منهاج الصوفية » الذى نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى أغسطس ١٩٦٦ :

ويرمى أعداء التصوف سيدى محيى الدين بن عربى وهو شيخ التصوف الأكبر بالحلول والاتحاد ، مع أنه يقول فى كتابه الفتوحات المكية ما نصه :

« وأعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم ، أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها ، وإنما كان القمر مجلاها ، فكذلك العبد ليس فيه شىء من خالقه ولا حل فيه » .

وقال رضى الله عنه شعراً :

« ودع مقالة قوم قال عالمهم　　　بأنه بالإله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يقول بـــه　　　إلا جَهُول به عن عقله شردا
وعن شريعته وعن حقيقته　　　فاعبد إلهك لاتشرك به أحدا »

وقد نبه سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى مقدمة كتاب « اليواقيت والجواهر » إلى أن سيدى محي الدين بن عربى كان متقيداً بالكتاب والسنة ، ويقول :

كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك ، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراتبه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة ، وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه . وأضاف رضى الله عنه : كما أخبرنى بذلك سيدى الشيخ أبو طاهر المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لى نسخة الفتوحات التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة قونية ، فلم أرفيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات . . .

ويقول كذلك سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتاب « لواقح الأنوار القدسية » :

« وقد توقفت حال اختصار الفتوحات المكية فى مواضع كثيرة ، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر ، وكنت أظن أن المواضع التى حذفتها ثابتة عن الشيخ محي الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين المدنى (المتوفى سنة ٩٥٥هـ) فذاكرته فى ذلك ، فأخرج لى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محي الدين نفسه بقونية ، فلم أرفيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره » .

أقول : وسيدى الشيخ محيى الدين هو القائل : « ما قال بالاتحاد إلاّ أهل الإلحاد ، وما قال بالحلول إلاّ من دينه معلول ، وهو القائل (باب ١٩٩ فتوحات) : القديم لايكون قط محلاً للحوادث ، ولا يكون حالاً فى المحدث . وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ربط إضافة وحكم ، لاربط وجود عين بعين ،

فإن الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبداً » فهل بعد هذا الكلام الصريح والصحيح يرمون الشيخ الأكبر بالحلول والاتحاد ، وحاشاه .

أما وحدة الوجود التى ينسبها أعداء الدين إلى السادة الصوفية ، ويتهمون بها سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين ، فقد بين أمرها الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله حين قال :

« ينبغى أن يفرق بين وحدة الوجود التى رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود فى رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شىء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لاوجود له حقًّا ، وإنما الوجود لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو » .

أقول ومن كلامه تدرك أن الصوفية على عقيدة صحيحة ، وهى أن الله تعالى واجب الوجود ، وهو الذى يمد كل الممكنات بالوجود ، فوجود الممكنات ليس وجوداً ذاتيًّا ، بل هو بإيجاد الله تعالى ، وهو مفهوم وحدة الوجود عند الصوفية ، وشتان بين فهمهم الصحيح وفهم الفلاسفة الخاطئ .

ويقول العارف بالله سيدى مصطفى البكرى فى نفى الحلول والاتحاد فى كتابه : « السيوف الحداد فى أعناق أهل الزندقة والاتحاد » :

دعوى الحلول والاتحاد جهالة والوصل ثم الفصل جل الله
والحق نزه عن خطور خواطر بالبال قد خطرت تعالى الله
واتبع شريعة أحمد خير الورى من حاد عنه ربنا أرداه

وإليك ما قاله الإمام أبو الحسن النورى ، رضى الله عنه :

أما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه ، فإنه يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل .

فقرب هو فى نعته محال ، وهو تدانى الذوات ، وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللطف .

أقول : وقرب الفضل باللطف هذا ، هو مقام فى التصوف يذوقه الخواص من أولياء الله ، ولا يعبرون عنه بألفاظ ، لأنه فوق التعبير ، ويقول فيه الإمام الغزالى رضى الله عنه : يضيق نطاق النطق عنه ، وكل الذى أقوله لكم :

فكان ما كان مما لست أذكره   فظنّ خيراً ولاتسأل عن الخبر

وقال عنه الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى عنه :

أما طريق الخاصة فطريق مسلوك ، تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه ، وينوه بمقام القرب هذا سيدى الشيخ يوسف النبهانى فى قوله :

لا تسل وصف حبهم فهو سر   بسوى الذوق ما له إفشاء

أقول : ومن ذاق عرف . وأردد قول شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه من إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه ، وكان إلهامه يتدفق من عطاء الله تدفق السيل الجارف كما هو مشهور :

شراب الحب يعرف بالمذاق   وماكل السُّقاة له بساق
دعاة الحب أكثر ماتلاقى   وقلّ الصادقون فما تلاقى
وليس بعاشق من لا تراه   من الشهوات طهّر والنفاق
إذا ما عشت لا أنسى إلهى   به أسمو من الأخرى المراق
يعزّ على ترك الحب عندى   ولو بلغت بى الروح التراقى
ألا يا ساقى العشاق مهلا   تعال املأ كؤوسك من حقاقى
تركت جميع خلق الله دونى   شغلت عن الخلائق باشتياقى
ومن عرف المحبة عن يقين   محال أن يميل إلى فراق

ولتقريب مذاق السادة الصوفية للقارئ العزيز ، ننقل إليه ما قاله سيدى ذو النون المصرى فى مناجاته :

« إلهى ، ما أصغيت إلى صوت حيوان ، ولا إلى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنغم طل ، ولا دوىّ ريح ، ولا قعقعة رعد ، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شىء » .

أقول : أرأيت فى مناجاته كيف فنى عن نفسه و بقى بربه ، فملأ الله عليه فراغ قلبه ، فلم ير آثار الكون فى ذاتها ، بل رأى فيها آيات مولاها ، فحقق ما يوجهنا إليه العارفون فى قولهم : ما خلق الكائنات لتراها بل لترى فيها مولاها .

همة الخواص :

ويحكى لنا سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه أنه رأى امرأة ببعض سواحل الشام قال : فقلت لها : من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفـًا وطمعـًا ، قلت : وإلى أين تريدين ؟قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، قلت صفيهم لى ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علـقت فما لهم همم تسمو إلى أحـد
فمطلب القوم مولاهم وسيـدهم يا حسن مطلبهم للواحد الأحد

أقول ، وقد شمل الوصف المتقدم خواص الأُمة المحمدية ، كما شمل أهل الصُّفة ما وصفهم به الله تعالى فى وصاية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بهم فى قوله تعالى فى سورة الكهف : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) . وقد جاءت تلك الوصاية بعد قصة أهل الكهف الذين كانوا فى أُمة سابقة ، وتعلّقت همتهم بالله تعالى ، فوصفهم سبحانه بقوله فى السورة نفسها : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَنْ شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً * وَإِذِ اعْتَزَلْتمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ

رَحمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً) ، وقد احتموا فى الله تعالى فحماهم وآواهم فى رعايته ، وقال سبحانه : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) ، وشملت رعاية الكلب الذى أحبهم وتعلّق بهم : (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ) ، ثم أراهم آية فى رعايتهم حيث أنامهم فى الكهف أكثر من ثلثمائة سنة ، فلما قاموا قالوا : (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم) .

وفى قوله تعالى : (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) يقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى « لطائف الإشارات » : أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية .

وفى قوله تعالى : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ) قال فى إشاراته رضى الله عنه : يقال إنهم فتية لأنهم آمنوا على الوهلة بربهم ،آمنوا من غير مهلة لما أتتهم دواعى الوصلة . ويقال فتية لأنهم قاموا لله ، وما استقروا حتى وصلوا[1] إلى الله .

وفى قوله تعالى : (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قلوبهمْ) يقول رضى الله عنه : لاطفهم بإحضارهم ، ثم كاشفهم فى أسرارهم ، بما زاد من أنوارهم ، فلقاهم أولا التبيين ، ثم رقاهم عن ذلك باليقين . ويقال : (رَبَطْنَا عَلَى قلوبهمْ) بأن أفنيناهم عن الأغيار ، وأغنيناهم عن التفكر بما أوليناهم من أنوار التبصر ، ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكنا فيها من شواهد الغيب ، فلم تسنح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين .

وفى قوله تعالى : (لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذَن شَطَطًا) قال رضى الله عنه : من أحال الشىء على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومن قال إن الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دونه .

---

(١) الوصول إلى الله معناه الوصول إلى حضرة يشهد فيها ألا فاعل إلا الله ، فيذوق ذلك بإحساسه ذوق الواصلين ، كما رأيت فى مناجاة سيدى ذى النون المصرى التى مرت عليك .

أقول : ولأن الإيمان بالله تعالى وتوحيده سبحانه توحيدًا خالصاً من كل شائبة هو أساس الأعمال الصالحة ولا تقبل بغيره ، فقد قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة الزمر : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) ولئن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم فالمقصود به أمته من باب : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

والإيمان به سبحانه يقتضى الإيمان برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبإخوانه النبيين والمرسلين الذين سبقوه فى الدعوة إلى الله ، وكذلك الإيمان بكل ما جاء به من البعث بعد الموت ، والجنة ، والنار ، والثواب والعقاب ، وكذلك ما أخبرنا به من الغيبيات الأخرى كالملائكة ، والجن ، والعرش ، والكرسى ، والحوض ، والميزان ، وصحف الأعمال . . إلخ لأنه سبحانه وتعالى يقول فى سورة البقرة :

(الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الأمور وتركنا كما قال على مثل البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك . نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعه، والتأسى به فى عقيدته ، وأقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، بمنه تعالى وكرمه ؛ وقد ترك لنا من بعده صلى الله عليه وسلم التراث الخالد والنور المبين فى الكتاب والسنة ، فمن تمسك بهما فقد اعتصم بالله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

الباب الثانى

الكتاب والسنة

منة الله على المؤمنين :

منّ الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بأعظم الرسل شأناً ، وهو سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيرًا ، وقال تعالى منوّهاً بتلك المنّة فى سورة آل عمران : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين) ، فلولا أن الله تعالى أرسله صلى الله عليه وسلم لهدايتنا ما اهتدينا ، ولا تحلينا بسائر مكارم الإسلام التى سعدنا بها فى ديننا ودنيانا أفرادًا وأممًا .

فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم :

وقد زكى الله رسوله العظيم ، وهيأه لحمل عبئه الكبير ، فحلاه بالعلم الذى لا يشوبه جهل ، وبالفضل الذى لاتشوبه نقيصة ، وجمع له بالعلم والخلق غرر الفضائل التى فاق بها الأولين والآخرين ، فنهل منها الناس على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم ما وسعهم أجمعين ، ولا تزال على حالها منهلا عذبًا فراتًا للواردين من أصحاب اليمين والسابقين المقربين .

ومنّ الله بالعلم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، وفى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا

وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وجعل الله من تعليم رسوله صلى الله عليه وسلم آية للمعتبرين فقال تعالى ردًّا على المتشككين فى سورة العنكبوت: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَن لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

معجزة القرآن الكريم :

وقد بين الله فى تلك الآيات المتقدمة أن رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن بين قومه قارئًا ولا كاتبًا ، ولكنه تلا عليهم ما لم يقرءوا أو يكتبوا مثله، فلا هو بالنثر البيانى المعهود ، ولا هو بالشعر الوجدانى المعروف، بل هو قرآن يفوق فى بيانه كل بيان ، ويهزّ عند سماعه أو تلاوته كل وجدان ، أحكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، لم يتردد الجن حين سمعوه أن يقولوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا * يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَدًا) ، ولم يتردد كفار مكة حين سمعوه أن يقولوا مع كفرهم به : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ،أما المؤمنون فما وسعهم إلّا أن يقولوا ماقاله الراسخون فى العلم وحكاه الله تعالى فى سورة آل عمران فى قوله الكريم :(آمنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عند ربِّنا وما يذَّكَّر إلا أُولو الأَلْبَاب * ربَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنَا بعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وهَبْ لنا من لَدُنْك رحْمةً إِنَّك أَنْتَ الوَهَّاب) .

وقد اجتمع فى القرآن الكريم جزالة اللفظة وحُسن المعنى ، لأنه أفصح الكلام وأبلغه ، وكيف لا والكلام عزيز من عزيز ، وعلىّ من علىّ ، وحكيم

من حكيم ، لذلك تحدى الله به الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مفتريات مثله ، أو بسورة من مثله ، وأكد أنهم لا يستطعون ، كما أكد أنهم لن يستطيعوا، فقال تعالى فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) ، وقال تعالى فى سورة هود : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ، وقال تعالى فى سورة البقرة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدنا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شهَدَاءَكمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتمْ صَادِقِينَ * فإِنْ لمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُها النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

العرب يعجزون عن تحدى القرآن الكريم :

ولما كان القرآن العظيم نزل بلسان العرب ، وكان العرب أول من تلقاه عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقد عجزوا مع فصاحتهم عن تحدى كلام الله ، حيث وجدوه فوق كلام البشر ، وإن كانت مفرداته من مفرداتهم ، وكلماته من حروفهم ؛ ويقول السيد عبد القاهر الجرجانى (المتوفى سنة ٤٧١هـ) فى مزايا القرآن التى أعجزتهم عن تحديه فى كتابه « دلائل الإعجاز » :

« أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة ، وتنبيه وإعلام ، وترغيب وترهيب ؛ ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وبيان .

« وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه . أو أحرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز

الجمهور ، ونظامًا والتئامًا ، وإتقانًا وإحكامًا لم يدع فى نفس بليغ منهم — ولو حك بيافوخه السماء — موضع طمع . . حتى خرست الألسن أن تدّعى وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول » .

ويقول أيضا :

« لولا أن العرب حين سمعوا القرآن ، وحين تُحدُّوا إلى معارضته ، سمعوا كلامًا لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قد رازوا أنفسهم ، فأحسوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريبًا منه — لكان محالا أن يَدَّعُوا معارضته — وقد تُحدوا إليه وقُرِّعوا فيه وطولبوا به — وأن يتعرضوا لشبا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت » .

مثال لبلاغة القرآن :

وكمثل من الأمثلة يفتح لنا ، رضى الله عنه ، آفاق التفكير فى روعة القرآن بالآية الكريمة من سورة هود : (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فيقول: « إن مبدأ العظمة فى الآية أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بـ" يا " دون "أى" نحو "يا أيتها الأرض" ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال " ابلعى الماء " ، ثم اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها — نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل " وغيض الماء " فجاء الفعل على صيغة فُعِلَ الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله " وقضى الأمر " ثم ذكْر : ما هو فائدة هذه الأمور وهو "واستوت على الجودى " ؟ ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة " قيل " فى الخاتمة بـ"قيل" فى الفاتحة » ، ثم يقول رضى الله عنه :

« أفَتَرَى فى شىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها — تعلقًا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ، أم كل ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ »

أقول ، وقد حكى الأصمعى أنه أعجب بفصاحة إحدى الفتيات وهى تتكلم ، فقال لها : ما أفصحك ، فقالت : وهل بقيت فصاحة لأحد بعد فصاحة القرآن الكريم ؟ إن آية واحدة من كتاب الله تعالى جمعت أمرين ونهيين ، وخبرين وبشارتين ، هى قوله تعالى فى سورة القصص : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

شرف القرآن :

وحسب القرآن الكريم شرفاً أنه « كلام الله » الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما سماه الله ووصفه به فى قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

وفى قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، وفى قوله تعالى فى سورة فصّلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

وكذلك نطقت السنة النبوية الشريفة بفضل القرآن وشرفه فى أحاديث كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ما رواه الإمام الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ، وأخرج الدارمى والترمذى من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل

الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب منه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، لا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد ، من علِم علمَه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

ولعظم شأن القرآن الكريم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على تلقنه وتلقيه من الروح الأمين جبريل عليه السلام ، فطمأنه ربه على جمعه فى صدره وبيانه له فى قوله تعالى فى سورة القيامة : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) .

بداية الوحى :

فيما رواه الإمام الطبرى بسنده عن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى عن بداية الوحى بالقرآن الكريم قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، يُطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به — إذا انصرف من جواره — الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعًا أو ماشاء من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك فى شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء — كما كان يخرج لجواره — معه أهله، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها ، جاءه جبريل بأمر الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءنى وأنا نائم بنمط[1] من ديباج فيه كتاب[2] فقال : اقرأ ؛ فقلت : ما أقرأ ؟

(١) النمط وعاء كالسفط (سبت) والديباج الحرير.

(٢) وقال بعض المفسرين إن قوله تعالى فى أول سورة البقرة : (آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه)=

فَغَتَّنِي[1] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ؛ فقلت : ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلىّ بمثل ما صنع بى ، قال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) . . إلى قوله : (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) ، قال : فقرأته ، قال : ثم انتهى ، ثم انصرف عنى ، وهببت من نومى وكأنما كتب فى قلبى كتاباً .

قال : ولم يكن من خلق الله أحد أبغض إلىّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت إن الأبعد — يعنى نفسه — لشاعر أو مجنون، لا تحدث بها عنى قريش أبداً ، لأعمدن إلى حالق من الجبل ، فلأطرحن نفسى منه ، فلأقتلنها ؛ فلأستريحن .

قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت فى وسط من الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، قال : فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا جبرئيل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد : أنت رسول الله ، وأنا جبْرئيل ، قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى ، ولا أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ، ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعاً إلى أهلى ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفاً[2] ، فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إلىّ ، قال قلت لها : إن الأبعد شاعر أو مجنون ، فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ، ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وحسن خلقك ، وصلة رحمك ، وما ذاك يا ابن عم ؟ لعلك رأيت

=يشير إلى الكتاب الذى جاءه به جبريل فى وعاء من حرير .

(١) قال ابن الأثير : الغت والغط سواء ، كأنه أراد : عصرنى عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة ، كما يجد من يغمس فى الماء قهراً .

(٢) مضيفاً أى ملتصقاً بها مائلا إليها .

شيئاً ؟ قال : فقلت لها : نعم ، ثم حدثتها بالذى رأيت ، فقالت : أبشر يابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة ، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نَوْفل بن أسد ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تَنَصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدّوس ، قدّوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر — (يعنى به جبرئيل عليه السلام) الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة ، فسهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره ، وانصرف ، صنع ما كان يصنع ، وبدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت ، فقال : يابن أخى ، أخبرنى بما رأيت وسمعت ؛ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى ، ولتكذبنَّه ولتؤذينَّه ولتُخرَجَنَّه ، ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه فقبل يا فوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

شدة الوحى :

ولا تعجبوا من أن يبلغ تأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول الوحى ما بلغ ، فقد سمع بالوحى كلاماً لا عهد له به ، ونقله إليه شخص لا يعرفه من قبل ، وقد ضمه إليه بقوة خارقة ، ضغط بها ضغطاً تعب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة بدنه ورباطة جأشه ، فمن أين جاء ذلك الشخص ؟ وكيف تسلل إلى الغار ليوقظ النائم فيه وحده ؟ وكيف عرف مكانه منفرداً فى قمة الجبل ؟ وكيف يقول للأمى الذى لا يقرأ : اقرأ ؟ وبأى سلطان يأمره أن يقرأ ؟ فلما قال له : ماذا أقرأ ؟ قدم له نمطاً [1] من ديباج فيه كتاب وقال له :

---

(١) النمط وعاء كالسفط (السبت) والديباج الحرير .

(اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بالْقَلَمِ * عَلَّم الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

الله أكبر ، يقول له : (اقرأ باسم ربك) أى أغناك ربك فى قراءتك عن الأسباب والوسائط التى يحتاج إليها غيرك من البشر ، فهم يتعلمون على يد معلميهم بالقلم الظاهر ، وعلمك ربك بالسرّ الخفىّ والقدرة العلية لتقرأ باسمه ماشاء لك أن تقرأ ، ولتعلم بعطائه ما لم تكن تعلم ، فأغناك العليم الخبير عن المعلمين لتكون له فى ذلك آية كبرى ، لأنك سيد المرسلين ، ورحمته المهداة للعالمين .

وإذا كان الضياء يبهر البصر إذا أسفر فجأة ، فنور القرآن أحرى أن يبهر قلب الرسول الأكرم إذا غشيه فجأة ، وله صلى الله عليه وسلم كل العذر أن يهتز للأمر الذى عراه ، وكيف لايهتز ويرجف فؤاده من كلام الله الذى تخشع الجبال من عظمته وتندك من هيبته ، فقد قال تعالى فى سورة الحشر :

(لوْ أَنْزلْنا هٰذا الْقرْآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتهُ خاشِعًا مُتَصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْربُهَا لِلنَّاس لَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ) .

فلا غرابة إذن أن يرجف فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم من عظم الكلام والمتكلم ، فيقول لزوجته أم المؤمنين سيدتنا خديجة رضى الله عنها : زملونى[1] زملونى ، ولا عجب أن يرجف فؤاده الشريف كلما جاءه الوحى بكلام رب العالمين ، فقد حدثت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فقالت : رأيته عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليَتَرفَّصُ عرقًا . أقول وكيف لايكون ذلك منه ، والله تعالى يقول له فى سورة المزمّل : (إنا سَنُلقى عَلَيْك قوْلًا ثقِيلاً) ، ولا يُقدِّر ثقل القرآن إلا العلماء بالله ، وليس أعلم بالله من رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويقول تعالى فى سورة فاطر : (إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا

(١) ضعوا على غطاء .

وَعَلَانِيَةً يَرْجُون تِجَارَةً لنْ تبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أجورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فضْلِهِ إنَّهُ غفُورٌ شكُورٌ * وَالَّذِى أَوْحَيْنا إليْك مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه إنَّ الله بعِبَادِهِ لخبيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطفيْنا مِنْ عِبَادِنا فمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابقٌ بالْخيْرَاتِ بإِذْن اللهِ ذَلِك هُوَ الْفضْلُ الْكبيرُ) .

الإمام الباقلانى و إعجاز القرآن :

ومعجزة القرآن الكريم أخلد المعجزات على مر العصور والدهور ، وهى على الدوام تتحدّى كل الأجيال بإعجازها ، وكما أعجزت الأولين أعجزت الآخرين وتعجز اللاحقين ، وهى دالة بذلك الإعجاز الدائم على صدق رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول فى هذا المقام الإمام أبو بكر الباقلانى (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) رضى الله عنه فى كتابه « إعجاز القرآن » :

« والقرآن كتاب دلّ على صدق متحمله ، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، وبرهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين ، وبينة على طريقة من سلف من الأولين ، حيّرهم فيه ، إذ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ، فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب ، فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح والطير والجن ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة وبدائع اللطف ، ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفاً واحداً ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة » .

ويضيف رضى الله عنه قائلا :

« انظر وفقك الله لماهديناك إليه ، وفكر فى الذى دللناك عليه ، فالحقّ منهج واضح ، والدين ميزان راجح ، والجهل لا يزيد الأعمى إلا عَمًى ولا يورث إلا

ندماً ، قال تعالى : (قُلْ هَلْ يَسْتوى الَّذِينَ يَعْلَمُون وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُون إنَّمَا يَتذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَاب)[١] . . . . . . فاحمد الله على ما رزقك من الفهم إن فهمت (وَقُلْ رَبِّ زدْنِى عِلْمًا)[٢] ، وإن أنت علمت فـ(قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بك مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِين * وَأَعُوذُ بك رَبِّ أَنْ يَحْضُرُون)[٣] .

« . . ولا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية ، وأدرب منك فى الفصاحة أقوام وأى أقوام ، ورجال وأى رجال ، فكذبوا وارتابوا ، لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم ، فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائد عن النظر فى الدلالات ، وناقص فى باب البحث ، ومختل الآلة فى وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ، وغاو تحت حبالة الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن ، وأسباب الخذلان ، والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة .

« وهلا جعلت بإزاء الكفرة مثل لبيد بن ربيعة العامرى فى حُسن إسلامه ، وكعب بن زهير فى صدق إيمانه ، وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ، على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر أو بحر زاخر ، وقد بينا ألاّ اعتصام إلاّ بهداية الله ، ولا توفيق إلاّ بنعمة الله : (ذلكَ فضْلُ الله يؤتيه من يشاء)»[٤] .

الروحانية الكامنة :

أقول : هذا وتقترن ببلاغة القرآن الظاهرة روحانية كامنة كاملة ، تمد بعلم اليقين ، بل بعين اليقين ، بل بحق اليقين ، ذوى البصائر المؤمنة ، الذين يسارعون

---

(١) سورة الزمر الآية ٩ .
(٢) سورة طه الآية ١١٤ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .
(٤) سورة الحديد الآية ٢١ .

فى الخيرات وهم لها سابقون ، أما عُمىُ القلوب فلا يحسون من ذلك شيئاً ولا يهتدون سبيلا ، وما ذنب البستان إذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار إذا أغمضت العين عن شهود أنواره ، وهذا ما يفسر لك قوله تعالى فى سورة البقرة : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُون عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُون مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُون فِى الْأَرْض أُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُون) .

وإذا أردت دليلا على تـأثّر أسلافك الأولين بروحانية القرآن الكريـم ، فاقرأ قوله تعالى فى سورة الزمر : (اللهُ نزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتشابهًا مَثانِىَ تقْشعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِين يَخْشوْن ربَّهُمْ ثُمَّ تلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ) ، وكيف لا تتـأثر الجلود والقلوب بالقرآن وهو روح ، به تحيا القلوب ، وبهداه تنتعش الأرواح وتزدهر ، وشاهدنا قوله تعالى فى سورة الشورى: (وَكذَلِك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرى مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ) ، كما أنه نور يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم (وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) ومن أراد الله هداه اهتدى (وَإِنَّكَ لَتهْدِى إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلى اللهِ تَصِير الْأُمُورُ) .

وإذا أردت أن ترى بنفسك كيف تقشعر من القرآن الجلود ، فاقرأه على مكث وروية ، وتدبر ما تقرؤه بعقلك وقلبك معًا ، ولا يغب عنك فى سور الشعراء قول الله تعالى : (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِين) ولا يغب عنك قوله تعالى فى سورة ق : (إِنَّ فى ذٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ؛ وكيف لا تتأثر روحك بالقرآن وأنت من أهل الإيمان ، وقد تأثرت بتلاوته روح الحيوان ، وإليك البيان ، فقد ورد فى الصحاح أن الصحابى الجليل أسيد بن حضير كان يقرأ القرآن من الليل ، وكانت بجواره فرسه ، وكان ابنه يحيى ينام قريبا منها ، فلما قرأ جالت الفرس . فسكت فسكنت ، ثم قرأ ، فجالت الفرس ، فخاف أن تصيب ابنه بسوء ، فحانت منه التفاتة إلى السماء ، فوجد أمثال السحاب تزينها أمثال المصابيح تدنو منه عند قراءته ، فعرف سر اضطراب الفرس ، ولكنه حار فى تفسير تلك الظاهرة حتى لقى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو أصبحت تقرأ لأصبح الناس ينظرون إليها وما تتوارى منهم .

ثم انظر كيف كان تسبيح سيدنا داود عليه السلام ينفذ إلى صخور الجبال وإلى أحاسيس الطيور كما قال تعالى فى سورة الأنبياء : (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) . وسبحان من قدّر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ؛ ثم لاتنس أن الحصى سبحت فى كفّ رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويرحم الله سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الكبير (والد شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه) إذ يقول فى تسبيح الحصى :

يدك الكريمة سبحت فيها الحصى   هل كان ذاك تعجبًا من ذا الكرم

أو من عماية من رميتهم وبهـــــا   فتفرقوا رهبًا وجمعهم انهــزم

بل لقد حنّ حنين الأطفال (كما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه) جذع النخلة لفراقه صلى الله عليه وسلم وقد كان يستند إليه وهو يخطب ، ثم تحول إلى المنبر حين صنعوه له ، وفى ذلك يقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه :

والجذع حنّ وخار إذ فارقتـــه   فجبرته وخواره عنـــدى نغم

فالمــــــرء إن لم تعــره لك هزة   كالجذع فهو مضلل أعمى أصم
أرواحنــا حنانـــة وقلوبنـــــا   أنانة لك والغرام بنـا اضطرم

الإمام الباقلانى وفضائل القرآن :

وهذا القرآن المفحم بإعجازه اشتمل على أمور كثيرة أجملها الإمام الباقلانى فى قوله :

« وأنت تتبين فى كل ما تصرف فيه من الأنواع أنه على سمت شريف ، ومرقب منيف ، يبهر إذا أخذ فى النوع الربّى والأمر الشرعى والكلام الإلهى ، الدال على أنه يصدر عن عزة الملكوت ، وشرف الجبروت ، وما لا يبلغ الوهم مواقعه ، من حكمة وأحكام ، واحتجاج وتقرير ، واستشهاد وتقريع ، وإعذار و إنذار ، وتبشير وتحذير ، وتنبيه وتلويح ، وإشباع وتصريح ، وإشارة ودلالة ، وتعليم أخلاق زكية ، وأسباب رضية ، وسياسات جامعة ، ومواعظ نافعة ، وأوامر صادعة ، وقصص مفيدة ، وثناء على الله عز وجل بما هو أهله ، وأوصاف كما يستحقه ، وتحميد كما يستوجبه ، وأخبار عن كائنات فى التأتى صدقت ، وأحاديث عن المؤتنف[1] تحققت ، ونواة زاجرة عن القبائح والفواحش، وإباحة الطيبات ، وتحريم المضار والخبائث ، وحث على الجميل والإحسان .

« تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك فى منظر بهيج ، ونظم أنيق ، ومعرض رشيق ، غير معتاص على الأسماع ، ولا مغلق على الأفهام ، ولا مستكره فى اللفظ ، ولا مستوحش فى المنظر ، غريب فى الجنس ، غير غريب فى القبيل ، ممتلىء ماء ونضارة ، ولطف وغضارة ، يسرى فى القلب كما يسرى السرور ، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح فى البدن ، والنور المستطير فى الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

---

(١) الائتناف هوالابتداء .

علاقة السنة بالقرآن الكريم :

أقول ، ومع أن القرآن الكريم ميسّر للذكر وقريب من الفكر ، فإن الأحكام فيه جاءت مجملة ، تحتاج لبيان وتفصيل ، فعهد الله إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بذلك البيان والتفصيل فى قوله تعالى فى سورة النحل: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقد صدع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه، وبين لأصحابه رضوان الله عليهم ما أجمله القرآن ، فأخذوا عنه تفاصيل العبادات ، وأحكام الحلال والحرام ، وأفتاهم فيما عرضوه عليه من الحوادث ، وكانوا رضوان الله عليهم لايسألونه إلا عما ينفعهم من الوقائع ، فلم يسألوه عن المسائل المفروضة التى لم تقع بالفعل ، لأن هممهم كانت مقصورة على تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه سبحانه .

مسلك الصحابة فى العلم والقضاء :

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ما رأيت قومًا خيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم ، كلهن فى القرآن : يسألونك عن المحيض ، يسألونك عن الشهر الحرام ، يسألونك عن اليتامى ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم . قال أبوعمر : ليس فى الحديث من الثلاث عشرة مسألة إلا ثلاث ، وقال ابن القيم رضى الله عنه فى كتابه « أعلام الموقعين » : ومراد ابن عباس بقوله : ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة المسائل التى حكاها الله فى القرآن عنهم ، وإلا فالمسائل التى سألوه عنها وبين لهم أحكامها بالسنة لاتكاد تحصى ، ولم يكونوا يسألونه عن المقدرات والأغلوطات وعضل المسائل ، ولم يكونوا يشتغلون بتفريع المسائل وتوليدها .

أقول ، ولا عجب أن يسلك سادتنا الصحابة فى تعلمهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المسلك ، فقد روى ابن وهب قال : حدثنى ابن لهيعة عن لأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذرونى ما تركتكم ،

فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم .

ويؤيد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم فى إرشاده هذا ، فإنه تعالى يقول فى سورة الحشر : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو عن طاوس قال : قال عمر بن الخطاب وهو على المنبر : أُحَرِّج[1] بالله على كل امرئ سأل عن شيء لم يكن ، فإن الله قد بين ما هو كائن .

وقد حرص السادة الصحابة كل الحرص على التزام أحكام الكتاب والسنة ، وقال أبو عبيد فى كتاب « القضاء » : حدثنا كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به ، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيه بقضاء ، فربما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا وكذا ، فإن لم يجد سُنّة سنّها النبي صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به ، وكان عمر يفعل ذلك ، فإذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة سأل : هل كان أبو بكر قضى فيه بقضاء ، فإن كان لأبى بكر قضاء قضى به وإلا جمع علماء الناس واستشارهم ، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به .

وروى ابن القيم بسنده عن أبى مليكة قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى ، إن قلت فى آية من كتاب الله الله برأيى أو بما لا أعلم . وروى بسنده عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب بما لا يعلم من أبى بكر رضى الله عنه ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب بما لا يعلم

---

(١) أمنع .

من عمر رضى الله عنه ، وإن أبا بكر رضى الله عنه نزلت به قضية ، فلم يجد فى كتاب الله منها أصلا ، ولا فى السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ثم قال : هذا رأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فـمـنى وأستغفر الله ؛ وإنّ عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر : يا أيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبـًا ، إن الله كان يريه ، وإنّـما هو منّا الظن والتكلف؛ وروى سفيان الثورى بسنده عن مسروق قال : كتب كاتب لعمر بن الخطااب : « هذا ما رأى الله وما رأى عمر ». فقال عمر : « بئس ما قلت ، قل هذا ما رأى عمر ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر» .

ويشهد إمامنا الشافعى لسادتنا الصحابة بفضلهم فى فهم الكتاب والسنة فيقول فى رسالته « البغدادية » : وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن والتوارة والإنجيل ، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم ، فرحمهم الله ، وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء ، والصالحين ، أدّوا إلينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشاهدوه والوحى ينزل عليه ، فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عامـًا وخاصـًا وعزمـًا وإرشاداً ، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا ، وهم فوقنا فى كل علم واجتهاد وورع وعقل ، وأمر استدرك به علم واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنامن رأينا عند أنفسنا ، ولم نخرج عن أقاويلهم ، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله .

تعقيب الإمام ابن القيم :

ويقول الإمام ابن القيم تعقيباً على الكلام المتقدم :

« والمقصود أن أحدًا ممن بعدهم لا يساويهم فى رأيهم ، وكيف يساويهم وقد كان أحدهم يرى الرأى فينزل القرآن بموافقته ، كما رأى عمر فى أسارى بدر أن تضرب أعناقهم فنزل القرآن بموافقته ، ورأى أن تحجب نساء النبى صلى الله عليه وسلم فنزل القرآن بموافقته ، ورأى أن يتّخذ من مقام إبراهيم مصلى فنزل القرآن بموافقته ، وقال لنساء النبى صلى الله عليه وسلم

لما اجتمعن فى الغيرة عليه : (عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِنكُن مُسْلِمَات مُؤْمِنات قانِتات تَائِبَاتٍ عَابِدَات سَائِحَات ثَيِّبَات وَأَبْكَارًا) ، فنزل القرآن بموافقته . ولما توفى عبد الله بن أُبَىّ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأَخذ بثوبه فقال : يا رسول الله إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأَنزل الله عليه : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) .

وقد قال سعد بن معاذ لما حكّمه النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة إنى أرى أن تقتل مقاتلتهم ،وتسبي ذرياتهم ، وتغنم أموالهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سمٰوات » .

ويضيف ابن القيّم قائلا : « وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنزلة ، أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا ، وكيف لا وهو الرأى الصادر من قلوب ممتلئة نوراً وإيمانًا وحكمة وعلمًا ومعرفة وفهمًا عن الله ورسوله ونصيحة للأمة ، وقلوبهم على قلب نبيهم ، ولاواسطة بينهم وبينه ، وهم ينقلون العلم والإيمان من مشكاة النبوة غضًّا طريًّا لم يَشُبْهُ إشكال ، ولم يشبه خلاف ، ولم تدنسه معارضة » .

أَقول : وحقّ للسادة الصحابة أَن يتلقفوا العلم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل عناية ، فقد وثقوا أَن علمه كله إنما هو من عند الله ، وقد قال تعالى واصفاً علمه فى سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) ، كما طمأَنهم تعالى على أَنه ينظر فى الأُمور بنور الله ، فقال تعالى فى سورة النساء : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَق لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) ، كما قال تعالى فى السورة نفسها : (فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) ، وقد أَخرج الحاكم وصححه من طريق عمرو بن شعيب عن أَبيه عن جده قال : قلت : يا رسول

الله ، أتأذن لى فأكتب ما أسمع منك ؟ قال : «نعم» ، قلت : فى الرضا والغضب قال : «نعم ، فإنه لا ينبغى أن أقول عند الرضا والغضب إلاّ حقًّا» .

وأخرج الطبرانىّ عن معاذ بن جبل قال : ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه أو يقظته فهو حق ؛ وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقًّا فإن الشيطان لا يتمثل بى» فقد خص صلى الله عليه وسلم بأن رؤيته فى المنام صحيحة ، ومنع الشيطان من أن يتصور فى خلقته لئلا يكذب على لسانه فى النوم ، كما منع أن يتصور فى صورته فى اليقظة إكراماً له صلى الله عليه وسلم ؛ وفى شرح «مسلم» للنووى : لو رأى شخص النبى صلى الله عليه وسلم يأمره بفعل ما هو مندوب إليه ، أو ينهاه عن منهى عنه ، أو يرشده إلى فعل مصلحة ، فلا خلاف أنه يستحب له العمل بما أمر به .

ومع ما آتى الله تعالى نبيّه الكريم من العلم وشهد له به فى قوله سبحانه فى سورة النساء : (وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، فإنه اختار له دعوة يدعو ربه بها فقال تعالى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا) ، ليرجع إلى ربه صلى الله عليه وسلم فى الاستزادة من العلم الربانىّ الذى لا حدّ له ، وذلك ما يدلنا على أن علمه صلى الله عليه وسلم كان فى زيادة على الدوام ، يشهد بها قوله تعالى : (وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) ، وكلمات الله التى يعلم بها أنبياءه وأصفياءه ليس لها نهاية ، فقد قال تعالى فى سورة الكهف : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) ، وقال سبحانه فى سورة الجمعة ممتنًّا بعلم رسول صلى الله عليه وسلم ، على جيل الصحابة والأجيال التى تلتهم فى الأمة المحمدية : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ

الْكِتَاب وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْل الْعَظِيم) .

مواقف السنة من القرآن :

هذا ولا تقف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تفسير القرآن وبيانه ، وإنما السنة مع القرآن ــ كما يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « أعلام الموقعين » ــ على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون موافقة له من كل وجه ، فيكون توارد القرآن مع السنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

الثانى : أن يكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .

الثالث : أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرمة لما سكت عن تحريمه .

وقد أضاف رضى الله عنه يقول :

ولا تخرج السنة عن هذه الأقسام ، فلا تعارض القرآن بوجه ما ، فما كان منها زائداً على القرآن ، فهو تشريع مبتدأ من النبى صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطاع فى هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، وقد قال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

ويزيدنا رضى الله عنه بياناً فيقول : وكيف يمكن أحداً من أهل العلم ألا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب ، ولا حديث منع الحائض من الصوم والصلاة . . . وقد أخذ الناس بحديث : « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر

المسلم » ، وهو زائد على القرآن ، وأخذوا كلهم بحديث توريثه صلى الله عليه وسلم بنت الابن السدس مع البنت ، وهو زائد على ما فى القرآن ، وأخذوا بحديث : « من قتل قتيلا فله سلبه » ، وهو زائد على ما فى القرآن من قسمة الغنائم . . . .

وانتهى الإمام ابن القيم بعد التفصيل إلى قوله : فلو ساغ لنا رد كل سنة زائدة كانت على نص القرآن ، لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها إلا سنة دل عليها القرآن ، وهذا هو الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيقع ولابد من وقوعه .

وهو يشير بذلك إلى حديث المقدام بن معديكوب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة مال المعاهد » ، وفى لفظ آخر : « يوشك أن يقعد الرجل على أريكته فيحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله » ، قال الترمذى : حديث حسن ، وقال البيهقى: إسناده صحيح ؛ وقال صالح ابن موسى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى قد خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتى ، ولن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض » .

البيان النبوىّ :

ويعلمنا الإمام ابن القيم رضى الله عنه أن البيان من النبى صلى الله عليه وسلم أقسام :

أحدها : بيان نفس الوحى بظهوره على لسانه بعد أن كان خفياً .

الثانى : بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلى ذلك ، كما بين أن الظلم المذكور فى قوله تعالى : (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) هو الشرك ، وأن الحساب اليسير هو العرض ، وأن الخيط الأبيض والأسود

هو بياض النهار وسواد الليل ، وأن الذى رآه نزلة أُخرى عند سدرة المنتهى هو جبريل ، كما فسرقوله : (أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) أنه طلوع الشمس من مغربها ، وكما فسر قوله: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) ـ بأنها النخلة . . وكما فسر إدبار النجوم بأنه الركعتان قبل الفجر ، وأدبار السجود بأنه الركعتان بعد المغرب ونظائر ذلك .

الثالث : بيان بالفعل ، كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله .

الرابع : بيان ما سئل عنه من الأحكام التى ليست فى القرآن ، فنزل القرآن ببيانها ، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره .

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحى وإن لم يكن قرآناً ، كما سئل عن رجل أحرم فى جبة بعدما تضمخ بالخلوق ، فجاء الوحى بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق .

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال ، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك .

السابع : بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له ، وعدم نهيهم عن التأسى به .

الثامن : بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله وهو يشاهده ، أو يعلمهم يفعلونه .

التاسع : بيانه إباحة الشيء عفواً بالسكوت عن تحريمه ، وإن لم يأذن فيه نطقاً .

العاشر : أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف . فيحيل الرب سبحانه وتعالى على رسوله فى بيانه كقوله تعالى : (وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ) فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته

وأهلية المحل ، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائداً على النص فيكون نسخًا له وإن كان رفعًا لظاهر إطلاقه .

حاجتنا إلى السنة النبوية :

أقول : ومما تقدم يبين أن الأمة ملزمة بأحكام الكتاب والسنة ، ولا تستطيع أن تكتفي بالكتاب دون السنة ، وإلاَّ كانت عاصية لله الذى فرض عليها طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به أو نهى عنه ، وجعل طاعته طاعة له (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ، وجعل طاعته سبيل الاهتداء للحق ، فقال تعالى فى سورة النور:(وإن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) ، ويقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة الجاثية : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُون * إِنَّهُمْ لنْ يُغْنُوا عَنك مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنونَ) ويقول تعالى للمؤمنين فى سورة الأعراف : (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) ، كما يقول تعالى فى سورة النساء : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُم فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) ؛ وأجمع العلماء على أن رد الأمر إلى الله تعالى هو الرد إلى أحكام كتابه الكريم ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه نفسه فى حياته الشريفة ، وإلى سنته بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما بين العلماء أن الله تعالى أعاد الفعل فى قوله سبحانه: (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) إعلامًا للأمة بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب على المؤمنين استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر بأمر صلى الله عليه وسلم — وجبت طاعته مطلقًا ، سواء كان أمره فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه كما جاء فى الحديث أوتى القرآن ومثله معه . وبين العلماء كذلك

أن إضافة أولى الأمر إلى الرسول دون إعادة فعل « وأطيعوا » ، يفيد أن طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول وليست مستقلة عنها ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ، ومن أمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة ، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم: « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، كما قال صلى الله عليه وسلم: « إنما الطاعة فى المعروف » ، وقال فى ولاة الأمور : « من أمركم بمعصية الله فلا سمع له ولا طاعة » . وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن الذين أرادوا دخول النار لما أمرهم أميرهم بدخولها « أنهم لو دخلوا لما خرجوا منها » ، مع أنهم كانوا يدخلونها طاعة لأميرهم ، وظنا أن ذلك واجب عليهم ، فقصروا فى الاجتهاد ، وأقدموا على تعذيب أنفسهم ، وحملوا عموم الطاعة على ما لم يرده شرع الله .

وقال العلماء كذلك إن الآية السابقة تفيد أن أهل الإيمان قد يتنازعون فى بعض الأحكام ، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادة المؤمنين وأكملهم إيمانًا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم .

وقالوا أيضاً إن قوله تعالى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ) نكرة فى سياق الشرط ، تَعُم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين جَلِيِّهِ وَخَافِيهِ ، ولو لم يكن فى كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافياً ، لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر الله تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع ، وقد جعل الله رد الأحكام إلى الله ورسوله من موجبات الإيمان ولوازمه ، وأنه خير للمؤمنين فى عاجلهم وآجلهم ، وقد حظر الله على المؤمنين أن يختاروا قضاء غير قضاء الله ورسوله ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً) ، وكيف لا تكون معصية الله ورسوله ضلالا مبيناً وقد جعل الله رفع الصوت على صوته صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ، فقد قال تعالى

في سورة الحجرات : (يَـأَيها الَّذِينَ آمنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهرُوا لهُ بالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبعضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَتَشْعُرُونَ) .

وإحباط العمل هو الرد إلى الكفر ، السنت تراه تعالى يقول في سورة الزمر : (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، فإذا كان رفع الصوت في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم محبطاً للعمل ومؤدياً إلى الكفر ، فكيف بتفضيل أهواء النفوس على أحكام الله ورسوله .

الشرع والقوانين الوضعية :

ومن فضل الله على البلاد الإسلامية ، أنها ما زالت تلتزم حدود الله في أحكام العبادات ، وفي جانب من أحكام المعاملات ، وبخاصة أحكام الأحوال الشخصية والمواريث ، ولكن المستعمرين تركوا فيهم تشريعات وضعية نقلها المستعمرون أيام الاستعمار عن بلادهم ، وهي تختلف عن شرع الله ، وتتفق مع أغراض المستعمرين وأهوائهم ، فبعض تلك التشريعات الوضعية مثلا يبيح الزنا وبيع الخمر والإقراض بالربا... إلخ ، ويعاقب السارق بالحبس ولا يقطع يده كما هو في حكم الإسلام ، ولا يرجم الزاني المحصن أو يجلد غير المحصن ، ولا يقتل أو يصلب الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، لا ، بل زاد المستعمرون الطين بلة وأقاموا أيام الاستعمار القضاء المختلط الذي ميزهم عن أهل البلاد ، وأذكر في هذه المناسبة بعض ما قاله شيخي العارف بالله المرحوم الشيخ علي عقل (توفي ١٩٤٨) : وكان قد سئل أن يأتي ببعض أبيات فورية على قول القائل :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابًا كالمجـــرة نـــيرا

فقال إلهامًا لوقته من فتح الله عليه ونقلناه عنه :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى وهذب بالإسلام نفسي وطهرا

أفاض على الدنيا السماحة والندى وطاف عليها بالسلام وبشرا
وشابهت الأرض السماء وضاءة ألم تر أن الكون بالوحى نوّرا
ورقت بها الأرواح كالروض تزدهى صفاء من الإيمان بالحق أثمرا
فلن تعبد الأصنام بعد محمد أتعبد والقرآن منه تفجرا
وبدد عنا الجهل والجهل خسة وشرفنا التوحيد سرًّا ومظهرا
فيا أمة الإسلام ماذا أصابكم أترضون للإسلام أن يتأخرا
تركتم حدود الله وهى سلامة وأهملتمو آثار من هذبوا الورى
وفيكم كتاب الله يشرق آية وفى حكمه منجى وفى هديه قِرى
زعمتم بأن الغرب فجر حضارة وما الغرب إلا بالمآثم قد جرى
أباح الربا جهراً وما حرّم الزنا وقد حلل الصهباء واستعمر الورى
إذا نحن قلنا ليس فى الغرب حكمة تقولون لولا الغرب لن نتحضرا
أرى الغرب لو للعدل قامت حروبه لما جال فى أفيائنا وتبخترا
فوالله لا نرقى إلى أوج العلا ولن نرزق النصر الذى قد تأخرا
سوى باتباع الشرع فالشرع عزنا ونحن بهذا الشرع لن نتقهقرا
فنذكر عهد الأقدمين ومجدهم هدى الناس كانوا للحضارة مصدرا
ونذكر خير الخلق يهدى نفوسنا ويتلو كتابًا كالمجرة نيرا

ولاخلاف فى أن ما شرعه الله للمسلمين من أحكام العبادات والمعاملات كفيل بصيانة الفرد والجماعة من الخلل ، كما أنه كفيل براحة الحاكم والمحكوم ، وضامن للمجتمع السلام والأمن ، كما ثبت ذلك بالتجربة العملية فى أجيال المسلمين الأولى ، حين عملوا بأحكام الله فى أيام سيادتهم وحريتهم ، وقد هذّبت العبادات أكثرهم ، ومن لم تهذبه العبادات فتعدى حدود الله ، وطغى على حق غيره ، أخذ الحاكم منه الحق بالقصاص الشرعى ، وحمله بالقصاص على الاستقامة ، وكان فى القصاص ردع كاف له ولغيره ، فاستقام الكل طوعًا أو كرهًا ؛ وصدق سبحانه فى قوله الكريم فى سورة البقرة : (وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ، وهو قول صادق إلى الأبد لأنه قول العليم الحكيم .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تعقيبه على تلك الآية الكريمة : هذا من الكلام البليغ الوجيز ، والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه ،

ازدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يقتص منه فحييا بذلك معًا ، وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر ، حمى قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعيا إلى قتل العدد الكثير ، فلما شرع الله القصاص ، قنع الكل ، وتركوا الاقتتال ، فلهم فى ذلك حياة .

ويضيف الإمام القرطبى قائلا :

« اتفق أئمة الفتوى على أنه لايجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان (أى الحاكم) ، وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض ، وإنما ذلك للسلطان أو مَنْ نصبه السلطان لذلك ، ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدى الناس بعضهم عن بعض .

« وأجمع العلماء على أنه يجب على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من الرعية ، إذ هو واحد منهم ، وإنما له مزية النظر لهم كالوصى والوكيل ، وذلك لايمنع القصاص ، وليس بينهم وبين العامة فرق فى أحكام الله لقوله عز وجل : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى) » .

وروى النسائى عن أبى سعيد الخدْرى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئاً إذ أكب عليه رجل ، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه ، فصاح الرجل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعال فاستقد » قال : بل عفوت يا رسول الله . وروى أبو داود عن أبى فراس قال : خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلىّ أقده منه ، فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين لئن أدب رجل منا رجلا من أهل رعيته لتقصنه منه ، قال : كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟

وختاماً أقول مفتخراً إن مصر – وطننا العزيز – عنيت من قديم ، وازدادت عناية فى العهد الحاضر ، بخدمة الكتاب والسنة وحفظ تراثهما الخالد ، ومن ينكر على مصر رائدة المسلمين تلك المجهودات القيمة التى بذلها ويبذلها الأزهر الشريف ، ومجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع اللغة

العربية ، أو الدعوة إلى المؤتمرات الإسلامية التى عقدت فى السنين الأخيرة بالقاهرة ، وتشاورت فى أمهات المسائل الإسلامية ، وفى طليعتها تقنين الأحكام الشرعية ، لتطبيقها فى البلاد الإسلامية التى استردت حريتها وعزتها ، ونفضت عن نفسها عار الاستعمار وحكم المستعمرين ، واستعادت سلطانها فى حكم شعوبها بشرع الله القويم .

وإليكم ما أوصى به بالنسبة للتشريع الإسلامى المؤتمر الإسلامى الرابع الذى العقد بالقاهرة ممثلا لنحو ثلاثين دولة إسلامية فى المدة من ١٧ من رجب إلى ٢ من شعبان ١٣٨٨ (الموافق ٩ — ٢٤ من أكتوبر ١٩٦٨) :

١ — يوصى المؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بتأليف لجنة من رجال الفقه الإسلامى والقانون الوضعى ، تضطلع بوضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على المسؤولين فى البلاد الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية فى قوانين بلادها كقوانين العقوبات والتجارى والبحرى .

٢ — يدعو المؤتمر المجمع لدراسة القاعدة الإسلامية التى تقرر أنه لايطل دم فى الإسلام ، وأن من قتل ولم يعرف قاتله تدفع ديته من بيت المال .

٣ — يوصى المؤتمر بأن يعمل المجمع على التعريف فى النطاق الدولى بأحكام العقوبات الإسلامية ، والأسس التى قامت عليها ، والنتائج المترتبة على تطبيقها .

أقول : وهذا الصبح الذى أسفر بعد ظلام ليل الاستعمار ، يبشرنا جميعاً نحن المسلمين بنهار مشرق ، نرى الحق فيه واضحًا جليًّا فيما شرع الله لنا من أحكام ديننا الحنيف ، الذى أراد الله إسعادنا به فى أمور ديننا ودنيانا ، ومَنَّ علينا بكماله فى قوله الكريم فى سورة المائدة : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

وإليكم فقرات من نور وردت فى رسالة بعث بها السيد الرئيس محمد أنور السادات إلى مؤتمر الدعوة الإسلامية المنعقد فى طرابلس بليبيا ، كما جاءت فى صحيفة الأهرام الصادرة فى ١٦ من شوال ١٣٩٠ ، قال حفظه الله فى تلك الرسالة التى

قرأها على المؤتمر السيد محمد توفيق عويضة رئيس وفد بلادنا إلى المؤتمر :

أيها الإخوة ؛ إنكم تجتمعون للتفكير فى أنجح الوسائل للدعوة إلى الإسلام ولتبصير الناس بما يكفله للبشر من حق وسعادة، ترفرف أعلامها على الأفراد والأسر والعالم بأسره ، وهذا حق للإسلام وواجب عليكم ، لأن الإسلام دعوة عامة لاتنحصر فى مجتمع ، ولا تحتبس فى بيئة ، ولا تقتصر على جنس .

فالدعوة إليه واجب ، لامندوحة للمسلمين أن يقوموا به أفراداً وجماعات وحكومات ، معتمدين على الحكمة والموعظة الحسنة . . .

أيها الإخوة . اسمحوا لى أن أمد بصرى إلى الماضى لأرى كثيراً من الدارسين حاولوا معرفة السر الذى نفخ فى المسلمين الأولين تلك القوى المادية والنفسية ، التى نقلتهم فى أقصر من قرن واحد من القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الجهالة إلى الحضارة ، فانتشروا فى أرجاء الأرض هداة ودعاة وينابيع للحق والخير والحرية والمساواة ، وسادة يذيعون العدل فى الناس ويقضون فى شئونهم بالقسطاس .

« لكن هذه القوة التى حار الدارسون فى الكشف عنها ، ليست سراً غامضاً ولا غيباً محجباً ، لأنها وليدة العقيدة ، وما تتضمنه العقيدة القوية الصحيحة من أعمال صالحة نافعة للفرد وللأمه ، ومن أخلاق عظيمة رباهم الإسلام عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتهم فى كل فضيلة ، فارتفعوا بالإسلام إلى الذروة بين الأمم التى عاصرتهم ، وإلى سيادة العالم سيادة عقيدة ولغة وعلوم وأخلاق وحضارة .

« وإذا كانت عوامل شتى من الاستعمار والجهل والتخلف والفرقة قد حجبت عنهم الرؤية حيناً من الدهر ، فإنهم اليوم قد نهضوا من رقادهم ، ومسحوا عن عيونهم ماغشاها ، فأيقنوا أن مجدهم مرهون بالاعتصام بدينهم ، وأن عزتهم مرتبطة بإعزاز عقيدتهم ، فجعلوا يتنادون إلى الاستمساك بالإسلام ، ويفكرون فى الدعوة إلى الإسلام بين غير المسلمين .

أيها الإخوة . لن تستطيع الدعوة إلى الإسلام أن تنفصل عن الدفاع عن حرماته ومقدساته ، لأنها جزء من العقيدة لايتجزأ ؛ ولقد صبر المسلمون طويلا على عدوان إسرائيل حتى ضاق بهم الصبر ، وشكوا إلى العالم من جرائمها فى فلسطين وفى الأرض العربية المحتلة . . . .

أيها الإخوة . أكرر تحيتى لكم ، وأدعو الله وهو نعم المسؤول ونعم المجيب ، أن يكلل برعايته مؤتمركم ، وأن تنجلى اجتماعاتكم عن تخطيط سديد رشيد لأعمال مجيدة يعتز بها الإسلام وفئات الملايين من المسلمين، الذين يتطلعون إلى نتائج مؤتمركم المبارك » .

أقول : ويطالع القارئ الكريم فى الباب التالى ، تاريخ الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى نشره . فيتبين كيف صبر الرسول صلى الله عليه وسلم وصابر ، وكيف حمل هو وأصحابه أعباء الجهاد بالنفس والمال ، حتى أظهر الله الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون .

الباب الثالث

الإسلام والجهاد فى نشره

بداية الإسلام :

ظهر الإسلام أول ما ظهر بمكة المكرمة ، حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليه بأمر ربه : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ، والمدثر أى المغطى بالغطاء ، والرجز هى الأوثان ، ودليله (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) وكان قومه يعبدونها من دون الله ، وكان هو يعاف بفطرته الطاهرة عبادتها ، ويخلو بربه كل عام فى غار حراء بعيدًا عن مجتمعهم ، حتى أكرمه الله برسالته للناس كافة ، عربهم وعجمهم ، فكانت أعظم الرسالات وأشملها ، كما كانت خاتمة الشرائع السماوية .

معنى الشهادتين :

وأساس الإسلام كما بينا آنفًا الشهادتان : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فينطق بهما لسان المسلم ويعتقدهما قلبه ، فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومعنى « أشهد » أى أتحقق وأجزم ، « ولا إله إلا الله » معناها لا معبود بحق إلا الله ، فالسلطان المطلق والسيادة كلها له وحده سبحانه ، ووحدانيته تقتضى ألا يكون له شريك ولا صاحبة ولا ولد ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ، فمن عبد غيره فقد كفر ، ومن أشرك معه أحداً فقد ضل عن سواء السبيل ، ومن هنا نقول فى الفاتحة : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أى نخضع ونذل ونعترف بالعبودية لك وحدك ، والشهادة بأن محمدًا ــ صلى الله عليه وسلم ــ رسول الله معناها إقرار

بأنه مرسل من ربه ، يبلغ الناس شرع الله ، فأوامره هى أوامر الله ، ونواهيه هى نواهى الله ، كما قال تعالى فى سورة النجم : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحى) ، والإقرار برسالته صلى الله عليه وسلم يقتضى طاعته فى تلك الأوامر والنواهى ، لأن طاعته هى طاعة الله الذى أرسله كما قال تعالى فى سورة النساء : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

التكبير :

وقد كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كما أمره الله ، فكان انعقاد الصلاة بالتكبير فى قوله : « الله أكبر » ، ومعناها كما بينه السبط الكريم الإمام الحسين بن علىّ ، حين قال له ابن الأزرق : يا حسين ، صف لى إلهك الذى تعبد ، وكان ابن الأزرق على رأس الخوارج الأزارقة فأجابه الإمام الحسين رضى الله عنه : «يابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه ، أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو يدرك بالحواس ، قريب غير ملتصق ؛ بعيد غير مستقصى ، لا إله إلا هو الكبير المتعال » . فقال ابن الأزرق فى إعجابه بوصفه : قد نبأ الله عنكم أنكم قوم خصمون .

الأسوة الحسنة :

وتقتضى طاعته صلى الله عليه وسلم الإيمان بكل ما جاء به والتأسى به فى أقواله وأفعاله وأحواله كما قال تعالى فى سورة الأحزاب : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً) ، فهو فى أقواله وأفعاله وأحواله السراج المنير للسالك على الصراط المستقيم ، فمن استنار به كان من أهل الهدى ، ومن خالفه ضل وغوى ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلا كَبِيرًا * وَلَا تُطعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكيلاً) ، والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى توحيده سبحانه ،

ومكافحة الذين يصدون عن سبيله ، والسراج المنير استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه تعالى ، وقيل سراجاً أى : هادياً من ظلمات الضلالة ، فأَنت كالمصباح المضىء ، ووصفه بالإِنارة لأَن من السرج مالا يضىء ، وقيل معناها أَنت ذو سراج منير أَى كتاب نيّر ، وجاز أَن يكون وتالياً كتاب الله . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا ومعاذاً ، فبعثهما إلى اليمن وقال : «اذهبا فبشِّرا ولا تنفِّرا ، ويسِّرا ولا تعسِّرا ، فإنه قد أنزل علىّ (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ . . .).

الفضل الكبير :

وفى قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا) ، يقول ابن عطية – كما جاءَ فى تفسير القرطبى – قال لنا أبىّ رضى الله عنه : هذه أَرْجَى آية عندى فى كتاب الله تعالى ، لأَن الله تعالى قد أَمر نبيه أَن يبشر المؤمنين أَن لهم عنده فضلا كبيرًا ، وقد بيّن الله الفضل الكبير فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءون عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِك هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ) (١) ، ويقول الإِمام القرطبى رضى الله عنه : فالآية فى سورة الأَحزاب خبر ، والتى فى سورة الشورى تفسير لها .

إنذار العشيرة :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته الأَقربين للإسلام فى بداية الدعوة تنفيذًا لقوله تعالى فى سورة الشعراء : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، وقد روى مسلم من حديث أَبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأَقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فَعَمَّ وخَصَّ فقال :

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٢ .

« يا بنى كعب بن لؤى ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى هاشم ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب ؛ أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة ؛ أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا ، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها (أى أصلكم صلة الرحم فى الدنيا . ولا أغنى عنكم من الله شيئًا فى الآخرة إن بقيتم على الكفر) ، وبذلك لم يدع صلى الله عليه وسلم حجة لغير أهله فى التخلف عن إجابة الدعوة التى دعا إليها .

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : فى هذا الحديث والآية دليل على أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن بالكافر ، وإرشاده ونصيحته لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لكم رحمًا سأبلها ببلالها» . وقوله عز وجل فى سورة الممتحنة : (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

وها أنت ذا تراه صلى الله عليه وسلم قد دعاهم إلى الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة . فنفذ فى دعوته أمر ربه فى سورة الأنعام : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين) ، وقد نزلت تلك الآية الكريمة بمكة . فتلطف صلى الله عليه وسلم فى دعوتهم ولم يخاشنهم . وقال العلماء إنها محكمة فى جهة العصاة من المؤمنين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين.

تطور الدعوة إلى الإسلام :

ويقول ابن إسحق فى تطور الدعوة إلى الله كما جاء فى سيرة ابن هشام :

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله . على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى .

وآمنت به خديجة بنت خُوَيْلد — رضى الله عنها — وصَدّقت بما جاءه من الله ، وآزرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه ، وتكذيب له ، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبته وتخفف عليه ، وتصدّقه وتهوّن عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى .

ثم فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك عليه وأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحا : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) : فبشره بأنه ما جفاه منذ أحبه ، ووعده بأن سيعطيه النصر فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة ، وذكره ما ابتدأه به من الإكرام فى يتمه وبحثه عن الهدى ، فآواه فى يتمه ، وهداه لأعظم شريعة ، وأغناه من فضله ، فهو لا يتخلى عنه فى أى شأن من شؤون الدنيا والآخرة .

ويقول ابن إسحق : حدثنى بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت :

افترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعاً ، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين ؛ وقال السهيلى : ذكر المزنى أن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ، ويشهد لهذا القول قوله سبحانه : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) ؛ وقال يحيى بن سلام مثله ، وقال : كان الإسراء وفرض الصلوات الخمس قبل الهجرة بعام ، فعلى هذا يحتمل قول عائشة : « فزيد فى صلاة الحضر » ، أى زيد فيها حين أكملت خمساً ، فتكون الزيادة فى الركعات وفى عدد الصلوات ، ويكون قولها : « فرضت الصلاة ركعتين » أى قبل الإسراء ، وقد قال بهذا طائفة من السلف

منهم ابن عباس ؛ ويجوز أن يكون معنى قولها : « فرضت الصلاة » أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر بعد ذلك ، وهذا هو المرويّ عن بعض رواة الحديث المتقدم عن عائشة .

السابقون الكرام :

وذكر ابن إسحق أوائل المسلمين ، فذكر منهم سادتنا : علىّ بن أبى طالب (وقال إنه أسلم وهو ابن عشر سنين) وزيد بن حارثة . وأبا بكر الصديق. ثم قال : فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله . وكان رجلا مؤلفًا لقومه . محببًا سهلا . وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجراً ، ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

قال : فأسلم بدعائه فيما بلغنى : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام . وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبد الله ؛ وقال ابن إسحق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام ، فصلّوا وصدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله ، ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح . وأبو سلمة . والأرقم ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله . وعبيدة بن الحارث . وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب . وأسماء بنت أبى بكر وأختها عائشة وهى يومئذ صغيرة . وخباب بن الأرت ، وعمير بن وقاص (أخو سعد) . وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القارى .

وذكر ابن إسحق بقية هؤلاء السابقين بأسمائهم ، فليرجع إليهم من شاء فى سيرة « ابن هشام » ، ثم أضاف يقول :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّثوا به . وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه . ثم قال الله

تعالى : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)(١) ، وقال تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٢) ، (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)(٣) . قال ابن هشام : اصدع اى أفرق بين الحق والباطل ، وقال ابن إسحق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم . ولما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون . وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه (أى حماه) وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهراً لأمره لايرده عنه شيء .

فمشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا .

العزم المؤكد :

وحين قالت قريش لأبى طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

يا بن أخى ، إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له . فأبق على وعلى نفسك ، ولاتحملنى من الأمر مالا أطيق ، قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بدا لعمه فيه بداء (أى ظهر له فيه رأى) أنه خاذ له ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان ٢١٤ و ٢١٥ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٨٩ .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعم . والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ، ثم قام — فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخى ، قال : فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

أقول ، فما أعظم العزم من سيّد أولى العزم من الرسل ، وكيف لا يكون من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم والمضاء اللذان تصاغر أمامهما فى عينه كل من الشمس والقمر ، والتمسك بالدعوة إلى دين الله ، حتى يظهره الله أو يهلك دونه . أما عبراته التى انسكبت ، فهى ليست جزعاً ولا خوفاً . ولكنها انسكبت أسفاً على قومه أن يصمّوا آذانهم عن دعوة الحق فى إصرار واستكبار ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) ، أى مهلك نفسك لحزنك عليهم ، حين فاتهم ما كان يرجو لهم من الإيمان وهو حياة الروح ، وأصروا على الكفر وهو موتها ، ألست تراه تعالى يقول فى المفارقة بين المؤمن والكافر فى سورة الأنعام : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، نزلت فى المقارنة بين سيدنا حمزة بن عبد المطلب وهو المؤمن ، وأبى جهل الكافر ، وحقًّا ما يقول الشاعر الحكيم :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله   فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت   فليس له حتى النشور نشور

والنور فى الآية الكريمة عبارة عن الهدى والإيمان ، وقال الحسن هو القرآن ، وقيل الحكمة ، وقيل هو النور الوارد فى قوله تعالى : (يَوْمَ تَرَى

الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورهُمْ بَيْن أَيْدِيهم وَبأَيْمَانهمْ ..)

وصدق الله العظيم إذ يقول فى سورة الأنعام : (فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرجْسَ عَلى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) .

فضيلة الإيمان :

ولا يخفى على القارئ العزيز أن فضيلة الإنسان كامنة فى روحه التى بين جنبيه ، فإذا فاته أن تتحلى روحه بالإيمان . فقد فاتته الفضيلة كلها ، وصار فى حيوانيته البهيمية أضعف من الأسد ، بل من الفيل ، بل من الثور ، بل من الذئب ، ولكنه إذا تحلى بالإيمان وقويت روحه فى جنب الله . باهى الله به ملائكة السماء ، والإنسان مركب من ملك وملكوت ، فجسده حيوانى من عالم الملك المظلم ، وروحه من عالم الملكوت النورانى الذى خلق الله منه الملائكة ، فإذا قويت غرائزه البشرية الشهوانية كان حيواناً مظلماً ، وإذا قويت إشراقات روحه قاومت شهواته البشرية الظاهرة منها والخفية فانصبغ بصبغة العالم الأسنى — وهو عالم الملكوت — فصار عرشيًّا جسمه بين الخلق يسعى . وروحه فى الملكوت ترعى ، وتميز فى إنسانيته عن بنى جنسه كما قيل :

يا خادمَ الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وانظر كيف صوّر الله تعالى حياة الشهداء فى قبورهم مع موت أجسادهم أمام أعيننا حيث يقول تعالى فى سورة آل عمران : (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلُوا فِى سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهمْ يُرْزَقُونَ * فرحِينَ بمَا آتاهُمْ اللهُ مِنْ فضْلِهِ وَيَسْتبْشِرُون بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقوا بهِمْ مِنْ خلْفِهِمْ أَلاَّ خوْفٌ عَليْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزنون) ، فى حين يقول سبحانه فى شأن الكافرين فى سورة النمل : (إنَّك لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدعَاءَ إذا ولَّوْا مُدْبرين *

وَمَا أَنْت بهادِى الْعُمْىِ عنْ ضَلالتِهِمْ إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فهُمْ مُسْلِمُون) . فتدبّر كيف عبّر القرآن الكريم عنهم بالموتى وإن تحركت أجسادهم حركة الحياة الظاهرة ، واستمعت آذانهم إلى صوته صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان استماعاً لاهياً عن التدبر والاتعاظ كما يقول تعالى فى سورة محمد : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتمِعُ إليك حَتَّى إذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِين طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) ، فالحياة الحقة إذن هى حياة الروح بنور الهدى ولو مات الجسد ، والموت موت الروح بظلمة الكفر ولو عاش الجسد .

فأين استماعهم الصوتى من استماع المؤمنين الروحى الذى قال تعالى واصفاً إياه فى سورة الزمر : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَاباً مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ تَقْشعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) ، وأحسن الحديث هو القرآن الكريم ، قال سعد بن أبى وقاص : قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ) ، فقالوا لو قصصت علينا ، فنزل فى سورة يوسف : (نَحْنُ نَقصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ، فقالوا : لو ذكّرتنا ، فنزل فى سورة الحديد : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِن الْحَقِّ وَلَايَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُون) ، والمتشابه أى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، فلا يتناقض ولا يختلف ، ومثانى أى تُثَنَّى فيه القصص والمواعظ والأحكام ، وثنى للتلاوة فلا يمل القارئ من تكراره ، وتقشعر أى تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد والإنذار ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أى عند آية الرحمة ، وقيل إلى العمل

بكتاب الله والتصديق به ، وقيل إلى ذكر الله يعنى الإسلام .

وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله ، تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها » ، أى سقطت عنه الذنوب كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار » ؛ وعن ثابت البُنَانى رضى الله عنه قال قال فلان :

إنى لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

* * *

ونعود لما كنا فيه من تطوّر الدعوة إلى الإسلام :

قال ابن إسحق : ثم إن قريشاً تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسول له صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب . .

وقد حاول طغاة الكفار أن يجدوا مغمزاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعياهم البحث عن مغمز فيه ، ثم اجتمعوا على باطل من تفكيرهم فأحبط الله كيدهم ، وإليك ما يحكيه ابن إسحق :

« ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً ،

«قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع ،

« قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ،

فما هو بزمزمة [١] الكاهن ولاسجعه ،

« قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ،

« قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ،

« قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم [٢] ،

« قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذَق [٣] ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

« فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ،

« فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله تعالى فى سورة المدثر : (ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) .

قال ابن إسحق : « وأنزل الله تعالى فى النفر الذين كانوا معه يصنفون

---

(١) الزمزمة هى الكلام الخفى الذى لايسمع .

(٢) إشارة إلى ما كان يفعله الساحر ، بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه ، ويشير لذلك قوله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) .

(٣) العذق ، بالفتح النخلة ، يشبهه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب ، فرعها إذا جنى .

القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى : (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآن عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لنسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] قال ابن هشام واحدة العضين عضة يقول عضوه أى فرقوه » .

قال ابن إسحق : « فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا فى الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها » .

أقول : وصدق الشاعر الحكيم فى قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

قال ابن إسحق : « فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرب وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ولم يكن حىّ من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر ، وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم فى بلادهم .

ثم إن قريشًا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فاغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لايستخفى به ، معادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

أقول : وكيف يعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذاهم واستهزائهم وقد قال له ربه فى سورة المدثر : (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) كما قال له فى سورة الأحزاب : (وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) ؛ وإذا أردت أن ترى مثلا من ثباته وشجاعته فاستمع إلى ما يحكيه ابن إسحق عن يحيى بن عروة ابن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

---

(١) سورة الحجر ، الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

« قلت له ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا فى الحِجْر[1] ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ،سفّه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرّق جماعتنا ، وسبّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ،

« فبينما هم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه[2] ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

" أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح "

« قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة (أى وصية) قبل ذلك ليرفؤه (يهدئه ويسكنه) بأحسن ما يجد فى القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا .

« قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبيناهم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يقول فى عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم ، أنا الذى أقول ذلك " ،

قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه — قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط » .

---

(١) أى حجر إسماعيل بالكعبة .

(٢) أى طعنوا فيه .

ويقول ابن إسحق :

« فلما أسلم حمزة[١] عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » .

أقول : وهاك أبياتًا فى الشعر قالها سيدنا حمزة رضى الله عنه معتزًّا بإسلامه حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى — إلى الإسلام والدين الحنيــف
لدين جاء من رب عزيـــز — خبير بالعباد بهم لطيـــف
إذا تليت رسائلـــه علينـــا — تحدر دمع ذى اللب الحصيف
رسائل جـــاء أحمد من هداها — بآيات مبينـــة الحـــروف

روعة القرآن :

قال ابن إسحق :

« حدثت أن عتبة بن ربيعة — وكان سيداً — قال يومًا وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده :

يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد قُمْ إليه فكلمه

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطة[٢] فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد آتيت قومك بأمر عظيم ، فرّقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

(١) هو سيدنا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كما وصفوه أعز فتى فى قريش وأشدهم بأساً .

(٢) أى الشرف .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد ، أسمع " ، قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا[١] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع[٢] على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

" أقد فرغت يا أبا الوليد" ؟ قال نعم ، قال : "فاسمع منى " ، قال : افعل ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة فصلت) :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * حٰمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيهِ وفى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عَامِلُون * قُلْ إِنَّمَا أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِهُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدًا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها ، وهى قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاه تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكِ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْل

---

(١) مايترامى للإنسان من الجن .

(٢) أى الذى يتبع الناس من الجن .

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) . فسجد وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال : هذا رأيى فيه، فاصنعوا مابدالكم» .
قال ابن إسحق :

« ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين » .

التحدى بالأسئلة :

أقول ملخصًا مما رواه ابن إسحق بسنده : وبلغ من تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أرسلوا وفداً من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فلما جاء الوفد إلى أحبار اليهود قالوا : إنكم أهل التوارة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبىّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فاصنعوا فى أمره مابدالكم .

فرجع الوفد إلى مكة ، وجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن تلك المسائل فنزلت فى إجابتهم سورة الكهف ، فتعرضت لقصة أهل الكهف ، ولقصة ذى القرنين تفصيلا ، وقال تعالى فى سورة الإسراء عن الروح : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

قال ابن إسحق : « وحدثت عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قالت أحبار اليهود : يا محمد أرأيت قولك : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قليلاً) إيّانا تريد ؟ أم قومك ؟ قال : كلاًّ ، قالوا : فإنك تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها فى علم الله قليل ، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

قال فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك فى سورة لقمان : (وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

معرفة الله تعالى :

أقول : والروح — كما عرفنا الله — هى سر من أسرار الله ، وهى من أمره ، يودعها الله أجسادنا بقدرته ونحن أجنة فى بطون أمهاتنا ، ويتكلم عن بعض خواصها — دون ذاتها — سيدى ابن عطاء الله السكندرى فيقول رضى الله عنه :

« إن معرفة الله فطرية فى النفس ، ويستند فى ذلك كما سلف القول إلى قوله تعالى فى سورة الأعراف : (وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يوْم الْقِيَامةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ) .

ويستطرد قائلا :

« فلما هبطت الأرواح في الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، وجاء فى حكمه رضى الله عنه : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية » .

ثم أضاف رضى الله عنه يقول :

«ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف ، فإنه لا مثل لله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، ومع هذا فرض الله على عباده جميعاً معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ، ويفصل ذلك فيقول :

« والمعرفة بالله قد تكون إثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهى مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة ،

« وقد تكون حالا يحدث من شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، وتسمى هذه المعرفة بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية التى لا تستند إلى العقل وإنما تستند إلى الذوق » .

ويقول رضى الله عنه : « ولما كانت المعرفة الفطرية قبساً من نوره أودعه قلوب أوليائه ، فإنها لن تأفل أبداً ، وليست كذلك المعرفة التى تأتى عن طريق النظر فى الآثار فهى تأفل بأفول الآثار» .

ويرى سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه أن القلب كلما زهد فى الدنيا (بمعنى طرحها من قلبه لا من يده) وانعدم منه الهوى والحرص والأمل ، وازداد إيمانه ، ثم توحيده ، امتلأ بالتوحيد فصار عرشياً ، وتنزه عن أوصاف البشرية تماماً ، وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته ، وعلت وسمت فى الملأ الأسفل واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله (أى على قدر بشريته فيكون مثلا رؤوفاً أو رحيماً على قدره كما شاء له الله من الرأفة والرحمة ،

أما الصفات القديمة الأزلية فلله وحده سبحانه) . وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققًا مستبصراً فانياً فى شهود المذكور عن ذكره . ويضيف رضى الله عنه قائلا : وفى هذا القلب ورد فى الحديث القدسى لايسعنى عرشى ولا كرسي ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » .

ويعلمنا رضى الله عنه معنى الحديث المتقدم فيقول فى روعة ظاهرة :

« إن قلب الإنسان لا يسع الله مساحة ، ولا خيالا ، ولا حلولا ، ولا حسًّا ، ولاحكماً ، وإنما يسعه توحيداً ، وإيماناً ، وعلماً ، ومعرفة ، وإيقاناً ، ومحبة ، وإخلاصًا ، فضلا من الله وتخصيصًا » .

ويقول شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه ، فيما نقلناه عنه من حكمه الملهمة لوقتها دون إعمال فكر مما يعطيه الله خواص أوليائه :

واكتحال العيون أيسر شيء　　　واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكرٌ ورغبةٌ وشهـــودٌ　　　ووفاءٌ للخـــالــق الفعّـــال

ومن ذلك نرى أنه لابد من صبر ومصابرة ، وجهد ومجاهدة للوصول إلى معرفة الله جل جلاله ، وليس بينك وبينه تعالى مسافة تقطعها حتى تصل إليه ، وإنما الوصول هو أن تصل إلى حضرة تشهد فيها بمذاقك أن لا فاعل إلا الله ، لأنه لا إله سواه ، والكل مهما علوا فهم فى قبضة عزته ، ليس لهم من أمورهم إلا ما شاء الله وقضاه ، كما يقول أمير الشعراء شوقى رحمه الله :

سبحانه الملك إليـــه ولـــه　　　يؤتيه أو ينزعـــه ممـــن يشـــا

الروح والمادة :

وما دمنا فى وادى الروح وما حباها الله به ، فلنقرأ روائع جادت بها قريحة شاعر المسلمين العبقرى السيد محمد إقبال الباكستانى رحمه الله ، وقد ترجم كلامه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مدّ الله فى عمره :

ودنيا الروح سكر بالمعـــانى　　　وصحـــو بالـــرقى وبالمعـــالى

فعش للروح فى دنيا وأخرى تفز بالعالمين بلا زوال
وإن أمسيت للأموال عبداً فقدتهما معًا فى كل حال
وإن أصبحت فى الأكوان حرًّا فأنت من الكمال إلى كمال
وكسب المال للمخلوق حق ولكن لا تبع شرفًا بمال
وإن المال قد يأتى ويمضى وأنت وما ملكت إلى ارتحال

وإن أردت كيف يشهد الأولياء ربهم فتتعلق به أرواحهم فى جميع أوقاتهم ، فتسعد بذلك الشهود السعادة الحقة ، فاستمع إلى ما قاله إلهامًا لوقته سيدى وشيخى الشيخ على عقل ، نوّر الله ضريحه ، ونقلناه عنه ، وهو يريك كيف تعلق بربه واتجه إليه فى كل أوقاته :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت كم مصلّ بعد الصلاة تلاهى
إنما قبلتى جميع حياتى هى ذات الإله ان أنساها
فمسائى مع اليقين نهار ونهارى سعادة برضاها
طاف بى النور فالمعارف بحرى تلفظ الدر وهى لا تتناهى
وارتقاء الأرواح فى مورد العلم يُصَفِّى الأرواح من دنياها
وانعدام الأهواء والحس منها هو معنى السموّ مسراها
يا سرورى بقوله يا عبادى أنا فى سمعها أنال رضاها

وما دامت العناية الإلهية قد أسعدتك بالإيمان بالله من قبل أن يكون منك عمل ، فلماذا لا تسأل الله المزيد من فضله كما فعل سيدى ابن عطاء الله فى مناجاته :

« إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك . وهذا حالى لا يخفى عليك : منك أطلب الوصول إليك . وبك أستدل عليك . فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك .

« إلهى : أغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى ،

« إلهى : بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل

فلا تخيبني ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى ،

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا إلى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ،

« ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولا ، وقد خاب من رضىْ دونك بدلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

وإذا أردت أن تصدق فى عبوديتك لله، فاستمع إلى ما ينصحك به رضى الله عنه فى قوله :

«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذُلِّك يمدك بعزته، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ،

« كيف يشرق قلبٌ صور الأكوان منطبعة فى مرآته (أى أعطى المادة كل اهتمامه وتجاهل أمر الروح) أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

ثم انظر كيف اشتغل سيدى وشيخى الشيخ على عقل عن الناس وعيوبهم بحب ربه الأعلى ، فقال رضى الله عنه فى إلهامه الفورى :

أملى فى الله يقبلنى	فسوى الرحمن لم أرُمِ
أنا من حبى لحضرته	تارك للناس كلهم
أنا من حبى لحضرته	لم أفق من لذة النغم
لم أزل فى حب حضرته	مرتعًا للعلم والحكم
وفؤادى من هدايته	يرتوى من مورد الكرم
وبقلبى من محبته	همة من أعظم الهمم

هاجنى وجــدى وبه حرق — لم تــكن من شهدة الضرم
بل هى الأنوار يقــذفها — فسرت فى مهجــتى ودمى

وإذا أردت أن تعرف كيف اغتنى بربه تعالى واستغنى عن الناس فاستمع إلى قوله :

فتشت كل الخلق عن علم فــلم — أر لى سوى رب السما مــن وال
فتركت كل العــالمين وجئتــه — وجعلت ذكرى ذاتــه منوالى

آفات النفس :

وهو بعد ذلك يشرح لنا كيف نحذر أنفسنا ونجاهدها فى تزكية أرواحنا ، مصداقاً لقوله تعالى فى سورة النازعات : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) ، فيقول رضى الله عنه وكان أحد الحاضرين سأله أن يأتى له بأبيات من إلهامه الفورى على وزن البيت الآتى وقافيته :

عجباً لها تهوى الذى تهوى بــه — دون الذى تعلو به فى ذاتها

فكان مما قاله فوراً من إلهامه المتدفق ونقلناه عنه :

عجباً لها تهوى الذى تهوى به — كم عالم قــد زل مــن نزعاتها
تنأى عن الإصلاح طول حياتها — وتواصل الإقبال فى شهواتهــا
تدعى لتأدية الصلاة وإنمــا — شغلت بغير الله حــين صلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائها — فأمالهــا عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضــة — وتضج إن دعيت إلى حسناتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى — كم تكثر الدعوى على قرباتهــا
ضحكت على جهالها فتوهموا — أن العلا والفوز فى نزواتهــا
ظنوا بنفسهمو الكمال وإنمــا — تتوافق الجهلاء فى غاياتهــا
فنحا مسيلمة النبــوة وانتهى — فرعون للتأليه مــن عثراتهــا
والنفس ما برحت تضل وما بهــا — نور يريح النفس من ظلماتهــا
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها — قد ترزق الأنوار فى سبحاتهــا
ترضى تسفلها لكل نقيصــة — دون الذى تعــلو به فى ذاتهــا

تعنت الكفار :

وإذا أردت أن ترى كيف جمحت بالكفار نفوسهم ، ونأت فى جموحها عن اتباع دعوة الحق ، فاقرأ ما وصف به الله تعالى موقفهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله الكريم فى سورة الفرقان :

(وَقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) .

فانظر كيف عموا بالحس والمادة عن الروح وأنوارها ، فإن خصوصية الرسل عليهم صلوات الله وسلامه فى بواطنهم وإن شاركونا فى بشريتهم ، قال تعالى فى سورة الكهف : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ) فهو إن كان بشرًا مثلنا من حيث جنسه ، فإنّه تميّز عنّا بوحى يوحيه إليه ربه ، ليبلغه إلينا بأمره سبحانه ،ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة المائدة : (يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

وقد رد الله تعالى على قولهم المتقدم فقال تعالى فى سورة الفرقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) ، وفى ذلك دفاع قوى عن رسول الله ، وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

واقرأ مرة أخرى ما حكاه الله عن عنادهم وجحودهم وإصرارهم فى قوله تعالى فى سورة الإسراء :

(وَقَالوا لَنْ نؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا * أَوْ يَكُون لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولا) .

ولو أنهم رشدوا لاكتفوا بمعجزة القرآن التى تحدى بها الله تعالى الإنس والجن ، وقال فى تحديه لهم فى سورة الإسراء : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ والْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ الناس إِلَّا كُفُورًا) . ولكنهم تجاهلوا الحق، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ؛ وسفهت عقولهم فيما طلبوا ، فإنهم طلبوا فيما طلبوا كما رأيت تدمير الكون فى قولهم : (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً) ، أى قطعاً ، ولو سقطت عليهم لهلكوا جاحدين ، وقد مَنَّ الله على الناس بإمساكه السماء أن تقع على الأرض فى قوله تعالى فى سورة الحج : (وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ) وبلغ بهم الجحود أن يقولوا ... (... أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا) ، أى كفيلا وشاهداً على صدق ما تدعيه .

وقد ذكرنى تحدّيهم العنيد بنكتة طريفة وقعت بين معاوية بن أبى سفيان ورجل يمنى ، فقد دخل اليمنى على معاوية ، فقال معاوية مازحاً معه : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة (يقصد بها بلقيس ملكة سبأ) فرد الرجل عليه فى ذكاء واضح قائلا : أجهل من قومى قومك الذين حكى

الله عنهم فقال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُم إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . فهلّا قالوا : فاهدنا إليه .

ونعود إلى ما يحكيه ابن إسحق :

« فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

﴿لا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[١] ، أى اجعلوه لغواً وباطلًا ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم فرقاً[٢] منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئا من قراءته ، وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه » .

وأضاف ابن إسحق يقول :

حدثنى داود بن الحصين مولى عمرو بن عثمان ، أن عكرمة مولى ابن عباس حدّثهم أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حدّثهم : إنما أنزلت هذه الآية : ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٣] من أجل أولئك النفر ، يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ،ولا تخافت بها فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .
(٢) خوفاً .
(٣) سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .

قال ابن إسحق :

« وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفي ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، كل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا (لام بعضهم بعضاً) وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ،

« حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

« فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

« قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا[1] على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

---

(١) أي جلسنا ، والحاذي والجاثي سواء .

قال ابن إسحق :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا : يهزءون به ـ (قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) لا نفقه ما تقول ؛ (وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ) ، لا نسمع ما تقول : (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) ، أى ساتر قد حال بيننا وبينك ، (فَاعْمَلْ) بما أنت عليه (إِنَّنَا عَامِلُونَ)[1] بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئًا ، فأنزل الله عليه فى ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * انظرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيدًا * قلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قلِ الذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)[2] .

أقول : فانظر كيف نَفَرُوا من توحيد الله حيث أصروا عنادًا على الكفر ، والحظ كيف غابت عقولهم عن آية الله فى إيجادهم ، فاستبعدوا أن يعيدهم بقدرته فى الآخرة ؛ ولو فكروا تفكيرًا سليماً فى الرد على سؤالهم : (مَنْ يُعِيدُنَا) ، وهو قوله تعالى : (قلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة) لرشدوا ، ولكنهم بدل أن

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥

(٢) سورة الإسراء ، الآيات من ٤٥ إلى ٥٢ .

يتفكروا لووا رءوسهم تعجباً واستهزاء من أمر البعث بعد الموت ، فكانوا من أصحاب النار ، والعياذ بالله .

وما أروع ما يقول إمامنا على بن أبى طالب: عجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شاك فى الموت وهو يرى الموتى ؛ وعجبت لمن شك فى النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

البحث عن الحق :

ويتكلم سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فى كتاب « الفتوحات » عن المفكرين الباحثين عن الحق من غير هوى فى نفوسهم ، فيقول فى الباب السادس والستين :

بحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شىء، فعلموا أن المدرك والمحرك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم، ثم رأوا أنها تعلم بعدما كانت تجهل، فعلموا أنها إن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها، فاعتلوا بالنظر من شىء إلى شىء ، وكلما وصلوا إلى شىء رأوه مفتقراً إلى شىء آخر ،

حتى انتهى بهم النظر إلى شىء لا يفتقر إلى شىء، ولا مثله شىء، ولا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شىء ، فوقفوا عنده وقالوا : هو الأول، وينبغى أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته ، وأن أوليته لا تقبل الثانى ، ولا أحديته، لأنه لا شبه له ولا مناسب، فوحدوه توحيد وجود ،

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسها لا تترجح لذاتها، علموا أن هذا الواحد أفادها الوجود ، فافتقرت إليه وعظمته بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به، فهذا حد العقل ، فبينما هم كذلك، إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة فى العلم ، بحيث إن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب. فقال لهم : أنا رسول الله إليكم، فقالوا : الإنصاف أولى، انظروا فى نفس دعواه، هل ادعى

ما هو ممكن أو ادعى ما هو محال ؟ فقالوا إنه قد ثبت عندنا بالدليل أن لله فيضا إلهيًّا يجوز أن يمنحه من يشاء ، كما أفاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك ، وهذه العقول ، والكل قد اشتركوا فى الإمكان ، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض ، فيما هو ممكن ، فما بقى لنا نظر إلا فى صدق هذا المدعى أو كذبه ، ولا نقدم على شىء من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا ،

فقالوا : هل لك دليل على صدق ما تدعيه ؟ فجاءهم بالدلائل ، فنظروا فى دلالته وفى أدلته ، ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتجه الأفكار ولا عرف منه ، فعلموا أن الذى أوحى فى كل سماء أمرها كان مما أوحاه فى كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به ، فأسرعوا إليه بالإيمان وصدقوه . وعلموا أن الله قد أطلعه على ما أودعه فى العالم العلوى من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم ، ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم ، ورأوا نزوله فى المعارف بالله إلى العامى الضعيف[١] الرأى بما يصلح لعقله فى ذلك ، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله فى ذلك ، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهى ما هو وراء طور العقل . وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم ، فقالوا بفضله وتقدمه عليهم ، وآمنوا به وصدقوه واتبعوه ، فعين لهم الأفعال المقربة إلى الله تعالى ، وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم ، وما يكون منه سبحانه فيهم فى المستقبل . وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار ،

ثم إنه تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صاحبه ، ما اختلفوا قط فى الأصول التى استندوا إليها وعبروا عنها وإن اختلفت

---

(١) ولذلك ترى القرآن الكريم يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فخاطب العوام بالمحسوسات كما بينا من قبل : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت) ويخاطب العلماء بالعلم فيقول تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) . ويخاطب الأنبياء فى أنفسهم فيقول تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) .

الأحكام فتنزلت الشرائع ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال كما قال تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)(١)، فاتفقت أصولهم من غير خلاف فى شىء من ذلك ، وفرقوا فى هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله، بينها و بين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكمية التى اقتضاها نظرهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم ، وأنه من عند الله بلا شك ، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب وآمنوا بالرسل ، وما عاند أحد منهم إلا من لم ينصح نفسه فى علمه واتبع هواه ، وطلب الرياسة عن أبناء جنسه ، وجهل نفسه وقدره ، وجهل ربه ، فكان أصل وضع الشريعة فى العالم وسببها طلب صلاح العالم ، ومعرفة ما جهل من الله مما لا يستقل به العقل من حيث نظره ، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة ، ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام ، فعلمت العقلاء عند ذلك أنه نقصها من العلم بالله أمور تممتها لهم الرسل .

وهو كلام نفيس ، فليحرص القارئ الكريم على تفهمه والانتفاع به .

ونعود لتاريخ الدعوة للإسلام فنقول :

اشتداد الأذى :

قال ابن إسحق : « ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يَتَصَلَّبُ لهم ويعصمه الله منهم .

الهجرة إلى الحبشة :

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وماهو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لايقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم :

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الإسلام .

أقول : وكان ممن هاجر الهجرة الأولى للحبشة سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيدنا الزبير بن العوام ، وسيدنا مصعب بن عمير ، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته السيدة أم سلمة ، وسيدنا عثمان بن مظعون ، وسيدنا جعفر ابن أبى طالب وزوجته السيدة أسماء بنت عميس، رضى الله عن جميعهم وعن سائر المهاجرين .

ويقول ابن إسحق : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلا .

ائتمار قريش بمهاجرى الحبشة :

حدث ابن إسحق بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشى ، أمنًا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لانؤذى ولانسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشًا ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدَم (الجلد) فجمعوا له أدمًا كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية ،

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص (أى قبل اعتناق الإسلام) وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا

لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى (لجأ) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينًا (أى أدرى بهم) وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى ؛ قالت : فقالت بطارقته حوله : صدَقَا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشى ثم قال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنًا فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشى أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

جعفر يشيد بالإسلام :

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال له :

« أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ،

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفحشاء ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ،

« وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لانشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، قالت : فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئًا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشى : فاقرأه علىّ ، قالت فقرأ عليه صدراً من كهيعص .

قالت : فبكى والله النجاشى حتى اخضلت (ابتلت) لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشى : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم

بما أستأصل خضراءهم ، قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ، وكان أتقى الرجلين فينا . لا تفعل ، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ،

قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيمًا ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قطّ ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنًا فى ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ما ذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ،

يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ،

قالت : فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود (أى بمقدار هذا العود) قالت : فتنافرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى — والشيوم الآمنون — من سبكم غرم ، ثم قال من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم (والدبر بلسان الحبش أى الجبل) ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىّ[1] ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

---

(١) كان قد نازعه رجل فى ملكه ، فدعا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للنجاشى بالنصر على عدوه والتمكين له فى بلاده ، فاستجاب الله دعوتهم ، وانتصر النجاشى ، وأهلك الله عدوه ، وقالت السيدة أم سلمة عندما علم الصحابة بنصره : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها .

تعقيب :

أقول : أرأيت أيها القارئ العزيز مما قصته علينا السيدة أم سلمة رضى الله عنها كيف اصطرع الحق والباطل، وكيف استمسك سادتنا المهاجرون بالحق، وكيف تحملوا فى سبيله من الأذى ، فإن الكفار لم يكتفوا بإيذائهم فى مكة ، بل أرسلوا من ورائهم من يكيد لهم بالحبشة عند النجاشى ،ولكن الله أحبط كيدهم ، فكان النجاشى باهراً فى موقفه ، عظيماً فى مسلكه ، كريماً فى دينه وكرمه وخلقه ، عفيفاً أبيًّا ، صادقاً وفيًّا ، حمى نزيله ، وأكرم جاره ، وانتصر للحق وكان فى كل ذلك على نور من ربه ، فلا تعجب بعد ذلك أن يكون وكيلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى زواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان التى تنصر زوجها فى الحبشة بعد أن كان مسلماً ، ففارقته بعد أن نصحت له ، وخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنها أبوها أبو سفيان بن حرب لو عادت إليه بمكة (وكان حينئذ على كفره) وهى مسلمة ، فتزوجها ، ووكل النجاشى فى العقد عليها ، فحمى صلى الله عليه وسلم عقيدتها بذلك الزواج الذى أسعدها الله به فى الدنيا والآخرة .

كذلك لاتعجب إذا علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إلى أصحابه بالمدينة المنورة النجاشى حين أعلمه الله بموته (فى رجب سنة تسع من الهجرة) ، وصلى عليه صلاة الغائب فى البقيع ، وكانت تلك أول صلاة صليت فى الإسلام على الغائب ، رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه وهو بالمدينة ، فصلى عليه ، واستغفر له ، وتكلم المنافقون ، فقالوا : انظروا إلى هذا ، يصلى على علج نصرانى لم يره قط ، فأنزل الله تعالى فى سورة آل عمران :

(وإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

قال ابن إسحق :

وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما مات النجاشي كان يُتَحدّث أنه لايزال يُرى على قبره نور .

مناقب جعفر وابنه عبد الله :

وأقول : أرأيت كيف تكلم سيدنا جعفر بن أبى طالب عن الإسلام ودعوته ، وكيف وصف ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم ، وكيف صارح النجاشيّ بعقيدة المسلمين فى غير مجاملة أو مواربة ، إرضاء لله ورسوله كائنة ما كانت العاقبة ، ولقد خاف الله من فوقه ، فأمنهم الله جميعًا بما قال صادقًا ، فعاشوا كما قالت سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها فى خير دار مع خير جار ، أما فصاحة ما تكلم به سيدنا جعفر وجزالته فلا تعجب لها ، فإنه من رؤساء بنى هاشم وسادتهم ، وبنو هاشم كما تعلم من فصاحتهم جميعًا إنما يغرفون من بحر الفيض الذى ليس له قرار ، وهم كما وصفهم الجاحظ ملح الأرض (أى لا تصلح إلا بهم كما لا يصلح الطعام إلا بالملح) وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

إنه والله جعفر الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه وقال : لست أدرى بأيهما أنا أشد فرحًا ، بلقاء جعفر أم بفتح خيبر ، وكان صلى الله عليه وسلم قد انتصر على اليهود فى خيبر حين لقيه جعفر عائداً من الحبشة .

وهو والله جعفر الذى فدى الإسلام بروحه ، فبذلها دفاعًا عنه فى مؤتة ، وكان يومئذ صاحب اللواء بعد أن استشهد زيد بن حارثة ، فلما ضرب الأعداء جعفراً وقطعوا يمينه ، أمسك الراية بيساره ، فقطعوا يساره ، فأمسك الراية بين ذراعيه بعد أن قطعوا يديه حتى أخذها عبد الله بن رواحة ، فاستشهد كما استشهد من قبله زيد وجعفر ، ألا رَضِيَ الله عن أسود الشرى وسيوف الإسلام، فكم نحن مدينون لهؤلاء الأبطال فى الحفاظ على دين الإسلام حتى وصل إلينا بسلام .

وهو والله جعفر الذى بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته السيدة أسماء بنت عميس رضى الله عنها بأن الله أبدله بيديه المقطوعتين جناحين يطير بهما فى الجنة، فسمى « ذا الجناحين »، كما سمى « الطيّار »، إنه آمن بالله إيمان الصادقين، ومات فى سبيله ميتة الصدّيقين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاعتزاز به: « أما جعفر فلا بواكى له » ، وهو أبو عبد الله بن جعفر الذى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: « اللهم بارك لعبدالله فى صفقة يمينه » وكان عبد الله لسخائه يسمى قطب السخاء ، وقد تغنى بسخائه الشعراء فقالوا :

إنك يا بن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
ورب ضيف طرق الحى سرى صادف زاداً وحديثًا ما اشتهى

كما قالوا فيه :

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا

وعبدالله هو زوج السيدة زينب بنت عمه الإمام علىّ بن أبى طالب ، التى بوركت بلادنا بمشهدها الأنور ، وهو أول مولود ولد للمسلمين فى الحبشة ، وأمه هى السيدة أسماء بنت عميس ، التى افتخر عليها سيدنا عمر بالهجرة إلى المدينة المنورة حين كانت بالحبشة ، فقالت له : لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم ، وكنا فى بلاد غربة نعانى ما نعانى من ألم الجوع والعطش ، ثم شكته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : وماذا قلت له ، فقالت : قلت له لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويسقيكم . . . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مطيبا خاطرها : « له ولأصحابه هجرة ، ولكم أهل السفينة هجرتان » .

إنها والله تضحيات عزيزة ، ولكنهم أرخصوها فى سبيل الله حتى تغنّى حاديهم وهم مهاجرون إلى الحبشة :

الأهل والأوطان فراقهم صعب
لكنه الإيمان فداؤه القلب
والروح والأبدان فليقبل الرب
فليقبل الرب

قال ابن إسحق :

ولما لم ينالوا من مهاجرى الحبشة ما أرادوا ، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلا ذا شكيمة ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة حتى عازُّوا (غلبوا) قريشاً ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وهو عمر الذى قال فيه ابن مسعود رضى الله عنهما : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، فليستمع القارئ الكريم إلى حديث عجب فى إسلامه رضى الله عنه ، ليرى أثر الإسلام فيه ، وأثر عمر فى الإسلام .

إسلام عمر :

روى ابن إسحق فى إسلام عمر روايات مختلفة، ومما روى بسنده عن عطاء ومجاهد أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول :

«كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية، أحبها وأسرّ بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال بالحزورة (سوق مكة) ، قال فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك ، قال فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت لو أنى جئت فلاناً الخمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها ،

« قال : فخرجت فجئته فلم أجده ، قال : فقلت لو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ، قال : فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليمانى ، قال : فقلت حين رأيته ، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، قال : فقلت لو دنوت منه لأروعنّه ، فجئت من قبل الحِجْر ، فدخلت تحت ثيابها (الكعبة) فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله صلى الله

عليه وسلم قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة .

« قال : فلما سمعت القرآن رقّ له قلبى ، فبكيت ودخلت فى الإسلام ، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع (يقطع) المسعى ، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب ، وبين دار ابن أزهر ، ، ثم على دار الأخنس حتى يدخل بيته ،

وكان مسكنه صلى الله عليه وسلم فى الدار الرقطاء (التى فيها ألوان) ، قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل دار عباس ودار ابن أزهر أدركته ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسى عرفنى ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى إنما تبعته لأوذيه ، فنهمنى (زجرنى) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة ؟

« قال : قلت جئت لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله : فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد هداك الله يا عمر ، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

رواية أخرى فى إسلام عمر رضى الله عنه :

وفى الروض الأنف رواية أخرى ، جاء فيها :

ذكر ابن سنجر قال : حدثنا أبو المغيرة قال بسنده : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أتعجّب من تأليف القرآن : قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنونَ) قال : قلت : كاهن عَلِمَ ما فى نفسى ؛ فقال : (وَلَا بِقَوْلِ

كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام فى قلبى كما وقع ، ويذكرون أن عمر قال شعرًا حين أسلم :

الحمد لله ذى المن الذى وجبت ... له علينا أياد ماله غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا ... صدق الحديث نبى عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ... ربى عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل ... بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة ... والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها ... فكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا ... وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبى صدق أتى بالحق من ثقة ... وافى الأمانة ما فى عوده ضرر

أقول : ولعل هذه الأبيات ، كما يظهر منها ، تشير إلى رواية أخرى فى إسلامه رضى الله عنه غير الروايتين السابقتين ، وقد حدث بها ابن إسحق ، وقال فيها :

وكان إسلام عمر فيما بلغنى ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد ابن زيد ، وكانت أسلمت وأسلم زوجها سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله من بنى عدى قد أسلم ، وكان يستخفى بإسلامه خوفًا من قومه ، وكان خباب بن الأرت[1] يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئُها القرآن ، فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) خباب بن الأرت من السابقين الأولين فى الإسلام ، الذين صبروا على ما أوذوا ، وقد سأله أمير المؤمنين عمر يوماً عما لقى فى ذات الله ، فكشف ظهره ، فقال سيدنا عمر : مارأيت كاليوم ، فقال : ياأمير المؤمنين : لقد أوقدت لى النار فما أطفأها إلا شحمى .

بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

« فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك ياعمر ، أترى بنى عبدمناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً !! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتى ؟ قال ختنك (صهرك) وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما ،

« قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه[1] ، وعندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيّب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (صوت كلام لايفهم) التى سمعت ؟ قالا له: ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ،

« فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى (رجع) وقال لأخته : أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفاً أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لايمسها إلا طاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها ،

---

(١) زوج أخته .

فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهمّ أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر ،

« فقال له عند ذلك عمر : فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خباب : هو فى بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلماسمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف ، فقال حمزة ابن عبد المطلب فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ حجزته (موضع شد الإزار أى وسطه) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، قال فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم » .

قال ابن إسحق :

« فتفرّق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتصفون بهما من عدوهم ، فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم » .

تعقيب :

أقول : وأنا أقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم عمر : « الله أكبر » فقد جاءه عمر المعروف فى مكة بشكيمته وشراسته وفتوته طائعًا مختاراً حين أشرقت عليه أنوار القرآن الكريم ، فامَّحت بإشراقها ظلمات الجهالة ، وتحول عمر من الضد إلى الضد ، فَلانَ بعد قسوة ، وصاحب بعد عداوة ، وتاب بعد ذنوب ، واستقام بعد عوج ، ورق بعد شدة ، وراق بعد كدورة ، وصار جيشًا فى جنب الله بعد أن كان جيشًا فى حزب الشيطان .

« الله أكبر » فقد تحول عمر بقدرة الله من حال إلى حال ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء ، سبحانه من إله فعّال يقول للشىء كن فيكون .

« الله أكبر » فقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنصره وبالمؤمنين ، وقد سعد عمر بالإسلام ، وسعد الإسلام بعمر ، وقد كتب الله الإسلام لعمر قبل أن يكون من عمر عمل صالح ، فهو قضاؤه الذى قضاه بإيمان عمر ، وحقًا ما قال العارفون : ليس الإيمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ولكنه جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل .

وإنى لا أقلل بذلك من قيمة العمل الصالح ، وكيف لى بذلك والعمل ولاء وامتثال للآمر به سبحانه (وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولهُ والْمُؤْمِنُونَ.وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) كما هو إقرار بفضل الله ورمز لشكره على ما أولاه : (اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِى الشَّكُورُ) .

وقد سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول : اللهم اجعلنى من القليل فقال له : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قول الله تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) ، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر !! ويرى القارئ الكريم من ذلك أن الرجل سأل ربه أن

يوفقه للعمل الصالح الذى يقربه، إلى الله عز وجل، فيكون من الشاكرين وهم قليل .

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر (تتشقق) قدماه ، فقالت عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً .

ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره : فظاهر القرآن والسنة أن يكون الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان .

أقول : وهناك شكر بالجنان ، وهو أن يوقن العبد بقلبه أن كل نعمة جرت أو تجرى عليه فإنما هى من فضل الله تعالى وعطائه ، كما قال تعالى فى سورة النحل : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) ، اللهم اجعلنا من الشاكرين بالأركان وباللسان وبالجنان يا رب العالمين .

اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وأحينا عليه ، وأمتنا عليه ، وابعثنا عليه ، مع الآمنين من الفزع الأكبر يوم القيامة ، ووفقنا للعمل الصالح الذى يرضيك عنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وبجودك يا أجود الأجودين ، سبحانك لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، يا من قلت فى سورة الحجرات وقولك الحق :

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ونعود لما كنا فيه :

الصحيفة الظالمة :

قال ابن إسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً

أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل — اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ،

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه فى شعبه ، واجتمعوا إليه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شىء إلا سرًّا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ليلا ونهاراً ، وسرًّا وجهاراً ، منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس ،

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذَمَّما ثم يسبونه ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول ، ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مُذَمَّما وأنا محمد ، أقول ما أصبرك يا سيدى يا رسول الله ، وما أحلمك ، وما أرشدك .

الكفار يقترحون :

واعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة فيما بلغنى الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاصى بن وائل السهمى ، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا :

يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتَعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأَنت فى الأَمر ، فإن كان الذى تعبد خيرًا مما نعبد ، كنا قد أَخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أَخذت بحظك منه ، فأَنزل الله تعالى فيهم : (قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُم وَلِىَ دِينِ) .

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، .فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيا ، فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ٣٣ رجلا ، وكان ممن دخل منهم بجوار ، عثمان بن مظعون الجمحى ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة .

عثمان بن مظعون :

قال ابن إسحق يحكى موقفًا نبيلا رائعًا من مواقف عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غدوى ورواحى آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى ،

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ، قال لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره، قال : فانطلق إلى المسجد ، فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية ،

قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان ، قد جاء يرد علىّ جوارى ، قال : صدق ، وقد وجدتُه وفيًّا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

* ألا كل شىء ما خلا اللهَ باطل *

قال عثمان : صدقت ،

قال لبيد :

* وكل نعيم لا محالة زائلُ *

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول ، قال لبيد : معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن

هذا سفيه فى سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شرى (أى زاد) أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا بن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال الوليد : هلم يا ابن أخى إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .

أقول : فما أعظم هذه النفوس المؤمنة الأبية ، فقد اعتز عثمان بن مظعون بربه واحتمى فيه ، وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً ، وكيف لايفعل وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من سلفنا الصالح ، وذلك حين دفن إلى جواره فى البقيع ابنه الطفل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذى كان له من مارية عليها السلام ، وقال يخاطب وليده : الْحَقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ، وكان عثمان رضى الله عنه أول من دفن فى البقيع من المهاجرين الكرام ، رضى الله عنهم وعن الأنصار أجمعين وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

الصديق يرد الجوار :

وانظر إلى موقف الكفار من سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان له مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، وكان رضى الله عنه إذا قرأ القرآن استبكى ، قالت السيدة عائشة فكان يقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، قالت : فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة — وكان قد أجاره — فقالوا له : يا بن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل لتؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى ، فنحن نتخوّف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فَأْتِه فَمُرْهُ أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ،

فمشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتَأَذَّوْا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد على جوارى ، قال : رددته عليك ، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش ،

إن ابن أبي قحافة قد ردّ على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

قال ابن إسحق فحدثونى أن سفيهـًا من سفهاء قريش لقى أبا بكر وهو عامد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه ترابـًا ، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، قال وهو يقول : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك !

معجزة فى شأن الصحيفة الظالمة :

وقد مر عليك خبر الصحيفة الظالمة التى تعاهد فيه الكفار على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب وأودعوها الكعبة ، وإليك ما كان من شأنها بعد ذلك :

فقد جهد المسلمون من ضيق الحصار حتى أكلوا ورق الشجر ، ولقد قال سيدنا سعد بن أبى وقاص : جعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو إلى الآن .

وقد كشف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الأرَضة أكلت الصحيفة الظالمة ، فقال لعمه أبى طالب : يا عم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسمـًا هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أربُّك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذبـًا دفعت إليكم ابن أخى ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم ذلك شرًّا ،

ولكن قام رجال منهم فعملوا على نقض الصحيفة وقال قائلهم : يأهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق تلك الصحيفة القاطعة الظالمة ، وقام المطعم بن عدى ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه : وجعلت قريش حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس فى المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء مَنّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق !! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى فيهم فى سورة الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى ، كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبنى الحضرمى ، فكانوا يقولون : والله ما يُعَلِّمُ محمدًا كثيرًا مما يأتى به إلّا جبر النصرانى ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم فى سورة النحل : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ) .

---

(١) يلحدون أى يميلون إليه ، والإلحاد هو الميل عن الحق .

وكان العاصى بن وائل السهمى فيما بلغنى إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ (١) هُوَ الْأَبْتَرُ) . والكوثر الخير الكثير ، وقيل نهر كبير فى الجنة ، مَنْ شَرِبَ منه لا يظمأ أبدًا .

موت السيدة خديجة وأبى طالب :

قال ابن إسحق :

« ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام و بموت عمه أبى طالب ، وكان له عضداً وحرزاً فى أمره ، ومَنْعَة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب .

مفاوضة الكفار :

قال ابن إسحق :

ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

قال : فمشوا إلى أبى طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، فى رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب : إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ،

---

(١) شانئك : مبغضك .

فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال :

يا بن أخى هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، قال : فقال أبو جهل : نعم ، وأبيك ، وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، قال فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا :

أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلٰها واحدًا ، إن أمرك لعجب ! قال : ثم قال بعضهم لبعض ، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، قال : ثم تفرقوا ، وأنزل الله فى سورة ص : (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى الْمِلَّةِ[1] الآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) .

خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف :

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام ،

---

(١) يعنون النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

والقيام معه على من خالفه من قومه ، فردوا عليه رداً قبيحاً ، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّى .

وقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتّى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، فتحركت له رحمهما وأرسلا له قطفاً من العنب مع غلام نصرانىّ لهما يقال له عدّاس

سعادة عدّاس :

فأقبل عدّاس بطبق فيه القطف ، ووضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ، ثم أكل ،

. فنظر عدّاس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عدّاس ومادينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نِينَوَى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، فقال له عدّاس : ومايدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى ، كان نبيًّا وأنا نبى ، فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك ياعدّاس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى ، قالا له : ويحك يا عدّاس ، لايصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ، أقول : وقد أخلص عدّاس دينه لله ، فساق الله له السعادة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

تضرع نبويّ :

وقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه بالشكوى ، ودعا دعاءه المشهور فقال وهو بالطائف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوّتى ، وقلةّ حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهّمنى (أى يستقبلنى بوجه كريه) ؟ أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

قال ابن إسحق :

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبىّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به .

وقد فشا الإسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ، ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كيف شاء الله سبحانه ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد ؛ وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص لمن آمن بالرسالة وصدّق بها على يقين — أقول وستأتيك قصة الإسراء والمعراج كاملة فى باب لاحق من أبواب الكتاب إن شاء الله .

اللقاء الأول مع الأنصار :

قال ابن إسحق :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،

وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم .

فبينما هو عند العقبة (فى منى) لَقِيَ رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى !

« فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم فى الإسلام ، أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانواهم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيًّا مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

« قال فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اللقاء الثانى بالأنصار :

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى ، فبايعوه على بيعة النساء[1] ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب .

أول سفير فى الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ويُعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين .

أقول ، فكان سيدنا مصعب بن عمير ، رضى الله عنه أول سفير فى الإسلام ، وقد أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما ، وهما يومئذ كبيرا بنى عبد الأشهل وتبعهما قومهما .

اللقاء الثالث بالأنصار :

ثم إن مصعب بن عمير رضى الله عنه رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من مسلمى الأنصار إلى موسم الحج مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فواعد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى أوسط أيام التشريق ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين .

يقول كعب بن مالك رضى الله عنه : فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى

---

(١) وهى المذكورة فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

رحالنا ، حتّى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا مستخفين (القطا طائر صغير) حتّى اجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتّى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يامعشر الخزرج ، خزرجها وأوسها ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

بيعة العقبة :

قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور رضى الله عنه بيده وقال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القولَ والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، فقال : يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنّا قاطعوها — يعنى أهل مكة واليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدْم الهدْم (أى ما هدمتم من الدماء هدمناه) أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

أقول : وجاء فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم ، ففرحوا وقالوا : هذه أيدينا فخذ لربك ولنفسك ما أحببت ، فبايعهم وقال : أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى — يعنى المسلمين — قالوا : نعم .

الباب الرابع

الإسراء والمعراج

شرّف الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فأسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقال تعالى فى سورة الإسراءِ منوّهًا بقدرته على كل ممكن ، وبحكمته فى ذلك الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، وكان الإسراء قبل الهجرة إلى المدينة بسنة . ولا شك أن ما رآه صلى الله عليه وسلم من آيات ربه الكبرى صرف عنه الآلام الشداد التى تتابعت وصبر عليها ، من موت السيدة خديجة أم المؤمنين رضى عنها ، إلى موت عمّه أبى طالب ، إلى عداوة قومه ، إلى خذلان أهل الطائف الذين كان يأمل فى نصرتهم على أهل مكة .

وقد جاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان نائمًا فى بيت أم هانئ بنت أبى طالب بعد صلاة العشاء ، فأسرى به ورجع من ليلته ، وقصّ القصة عليها ، وقال : مثّل لى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً ، فتعجبوا منه لاستحالته فى ظنهم وارتدّ ناسٌ ممن آمن به ، وسعى رجال إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقال : إن كان قال لقد صدق ، فقالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال : إنى لأصدّقه على أبعد من ذلك ، فسمى « الصِّدِّيق» واستنعته صلى الله عليه وسلم طائفة ممن سافروا إلى بيت المقدس ، فجلاه الله له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها

جمل أورق[1] ، فخرجوا يشتدون إلى الثنية ، فصادفوا العير كما أخبرهم، ثم لم يؤمنوا ، وقالوا ما هذا إلا سحر مبين .

الإسراء بالجسد :

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره : دل قوله تعالى (بعبده) على أن الإسراء كان بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العبد اسم للجسد والروح ، قال تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى) ؛ وقال القاضى عياض : وهو الحق ، وعليه تدل الآية نصًّا ، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تؤذن بتأويل ، إذ لو كان منامًا لقال : سبحان الذى أسرى بروح عبده ولم يقل «بعبده» ، والعبد حقيقة هو الروح والجسد ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) أى ما عدل عن رؤية ما أمر برؤيته من عجائب الملكوت ، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تورث صدقه ، وأيضاً لو كان مناماً لما استبعده الكفار ولا كذبوه ، ولا ارتد به ضعفاء من أسلموا وافتتنوا به ، لبعده عن العادة .

وقد روى البخارى رضى الله عنه فى باب الإسراء فى صحيحه ، وسعيد بن منصور فى سننه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، زاد سعيد وليست رؤيا منام ، وقال الحافظ بن حجر رضى الله عنه : إضافة الرؤيا للعين للاحتراز عن رؤيا القلب وقد أثبت الله رؤيا القلب فى القرآن بقوله تعالى : (ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ، وأثبت رؤيا العين بقوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) وجزم بما قاله ابن عباس إنها رؤيا عين ليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد وهو

---

(١) الجمل الأورق لونه كلون الرماد .

الصحيح . أقول والآيتان السابقتان خاصتان بمعراجه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وسيأتيك التفصيل .

وجاء فى كتاب « جواهر البحار » لسيدى الشيخ النبهانى رضى الله عنه ما ردّ به سيدى الحافظ الشامى (تلميذ الإمام السيوطى) على من أنكروا الإسراء والمعراج بالجسد ،

وخلاصته :

١ ـ إن الذى عنده علم من الكتاب أحضر كرسى بلقيس من أقصى اليمن إلى أرض الشام فى مقدار لمح البصر .

٢ ـ إنه إذا استبعدوا صعود الجسم الكثيف ، استبعدوا بالمثل نزول الجسم اللطيف الروحانى من العرش إلى مركز العالم، فإن كان القول بمعراج النبى صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة ممتنعاً فى القبول ، كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعاً ، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً فى نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقول بثبوت المعراج فرع عن تسليم جواز أصل النبوة ، فيلزم القائل بامتناع حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام ، ولما كان ذلك باطلا كان ما ذكروه باطلا ، وقد قال تعالى :

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) ، فالذين آمنوا ازدادوا إيماناً بالغيب ، أما الذين كفروا فقد أراهم النبى صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر فقالوا : هذا سحر مستمر .

٣ ـ إنه صلى الله الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء فى بيت المقدس وأمّهم على الهيئة البشرية ، ثم لما وصل إلى الملكوت العلوى لم يجدهم على تلك الحالة التى شاهدهم عليها فى الأرض ، وإنما هم على صفات روحانية شكل الله لهم أشكالا لائقة بالملكوت العلوى تكريماً له صلى الله عليه وسلم ، وتعظيماً للقدرة الإلهية ، حيث شاهدهم تلك الساعة فى الأرض ، ثم رآهم فى منازلهم فى السماء ، فلذلك سأل عنهم استيثاقاً لا تعجباً ، فإنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله

تعالى الذى أصعده إلى هذا المكان فى لحظة ، قادر على نقلهم إلى السموات فى أسرع من طرفة عين ، سبحانه وتعالى .

وما أروع ما يقوله الحافظ رضى الله عنه :

لا تتوهم مما تسمعه فى قصة المعراج من الصعود والهبوط أن بين العبد وربه مسافة ، فإن ذلك كفر ، نعوذ بالله من ذلك ، وإنما هذا الصعود والهبوط بالنسبة إلى العبد لا إلى الرب ، والنبى صلى الله عليه وسلم مع انتهائه ليلة الإسراء إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى ، لم يجاوز مقام العبودية ، وكان سواء هو ونبى الله يونس بن متى عليه السلام إذ التقمه الحوت ، وذهب به فى البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فى مباينة الله تعالى خالقه وعدم الجهة والتحيز والحد والإحاطة .

ويقول كذلك رضى الله عنه ، نسبة الدنو والقرب إليه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) كناية عن جزيل فوائده إليه وجميل عوائده عليه . ويقول الواسطى رضى الله عنه : من تَوهّم أَنه سبحانه وتعالى بنفسه دنا ، فقد جعل ثَمَّ مسافة ولا مسافة لاستحالتها ، وقوله تعالى : (فَإِنِّى قَرِيبٌ) تمثيل لكمال علمه وإجابته ، لتعاليه عن القرب مكاناً ، ويتأول فى الدنو ما يتأوّل فى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه البخارى حكاية عن ربه تبارك وتعالى : « من تقرّب منى شبراً تقرّبت منه ذراعًا » وهو تمثيل يُقرّب المعنى للأفهام ، أى من تقرّب إلىّ بطاعتى ، جازيته بأضعاف ما تقرّب إلىّ ، « ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » أى سبقته بجزائه ، فهو قرب بالإجابة والقبول وإتيان بالإحسان ، وقد سلك به طريق المشاكلة فسماه تقرّباً .

ويقول العارف بالله سيدى الشيخ إسماعيل حقى فى تفسيره (روح البيان) : « وكان العبد فى المكان والرب فى اللامكان ، وهذا غاية فى كمال تنزيهه وعظيم لطفه ، إذ تتجلى نفسه لقلب عبده وهو فى اللامكان والعبد فى مكان ، والعقل ههنا مضمحل

والعلم متلاشٍ ، لأن العقول عاجزة ، والأوهام متحيرة ، والقلوب والهة ، والأرواح حائرة ، والأسرار فانية » .

وأضاف رضى الله عنه : إذا علمت ذلك ، فالمراد بترقيه صلى الله عليه وسلم وقطع هذه المسافات ، إظهار مكانته عند أهل السموات ، وأنه أفضل المخلوقات — ويقوّى هذا المراد كونه تعالى أركبه البراق ، ونصب له المعراج ، وجعله إماماً للنبيين والملائكة ، مع أنه تعالى قادر على أن يرفعه بدون البراق والمعراج .

ويقول أيضاً رضى الله عنه :

والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء ، أنه صلى الله عليه وسلم لما عُرج به تلك الليلة ، رأى تعبّد الملائكة ، وأن منهم القائم فلا يقعد ، والراكع فلا يسجد ، والساجد فلا يقعد ، فجمع الله له ولأمته تلك العبادات كلها فى ركعة واحدة ، يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص .

وفى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه عند قوله تعالى : (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) قال الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم (والنجم) يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم (إذا هوى) إذا نزل من السماء ليلة المعراج .

وعند قوله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) : روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وعند قوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) قال ابن عباس : ما عدل يميناً ولا شمالا ولا تجاوز الحد الذى رأى ، وقيل لم يمد بصره إلى غيره ما رأى من الآيات ، وهذا وصف أدب للنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام ، إذ لم يلتفت يميناً ولا شمالا . وعند قوله تعالى : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) قيل هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه ودليله (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) .

أقول : ولست أدرى كيف يستبعد مؤمن بالله قدرته تعالى على خرق النواميس الطبيعية التى تقيدنا ولانقيده سبحانه ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول فى نهج البردة :

ركوبة لك من عز ومن شرف — لا فى الجياد ولا فى الأينق الرسم
مشيئة الخالق البارى وصنعتــه — وقدرة الله فوق الشك والتهم

إن الإيمان بالغيب يستتبع الإيمان بالمعجزات ومنها الإسراء والمعراج ، والإيمان من كسب القلوب والأرواح ، فلا يقيده العقل بأفقه المحدود الذى لا يتعدى عالم المحسوسات ، وإذا لم نسلم إلا بالمحسوسات أنكرنا الله ، وما ينبنى على الإيمان به سبحانه من سائر المعتقدات من الرسل والملائكة ، والبعث بعد الموت ، والجنة ، والنار ، وكنا فى هذا الضلال متشبهين ببنى إسرائيل الذين حكى الله عنهم فى سورة البقرة :

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

ويعجبنى ما يقوله السادة الصوفية حين يقولون : العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر إلى المكون ذاب ؛ وحين يقولون : العقل آلة للعبودية يَعْرِفُ به العبد ما عُرِّف ، وليس بآلة للإشراف على الربوبية .

إن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها آيات بينات ، فهو الأمىّ الذى علَّم العلماء ، وهو الذى نشأ يتيماً فكفل الناس أجمعين ، وهو صاحب القرآن الذى بقى من بعده دون سائر ما أيد الله به الرسل الكرام من المعجزات ، وهو الذى ظهر برسالته أخيراً فتقدم على الرسل الأولى ، فكان كالعنوان يكتب آخراً ويقرأ أولا ؛ حاربه أعداؤه سفهاً فانكسروا ، وأيده أصحابه إيماناً فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وتركهم قلة لايجاوزن المائة ألف إلا قليلا فورّثوا من بعدهم الإيمان فدان بالإسلام الملايين والبلايين على خلاف ما وقع للأديان السابقة من تراجع واضمحلال وتغيير وتبديل .

إن الله تعالى قص علينا من آياته قصة أهل الكهف ، فقال سبحانه : (وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً) ، فى حين أنه قال أيضاً (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) . والذى قدر على إحيائهم دون طعام أو شراب وقال فى رقادهم :

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) ، ثم طوى لهم الوقت الطويل إلى أن ظنوه يوماً أو بعض يوم خلافاً للعادة ، يقدر على طى المسافات لرسوله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ، وأين أصحاب أهل الكهف من ذلك الرسول الأعظم ، بل أين منه النبيون والمرسلون ، صلوات الله عليهم ، الذين دانوا بزعامته عليهم .

الإيمان كلٌّ لا يتجزأ ، فإما إيمان لا يلابسه شك ، وإما زعزعة لا يلابسها يقين ، (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) . نعوذ بالله من الشك والنفاق وسوء الأخلاق وشتات الأمر ، اللهمّ توفنا يا إلهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين ، وألحقنا بالصالحين آمين .

وإليك تفصيل قصة الإسراء والمعراج لتزداد بها إيمانًا مع إيمانك ويقينًا مع يقينك .

تفصيل قصة الإسراء والمعراج :

وهاك قصة الإسراء والمعراج مفصلة كما رتبها من أقوال الصحابة (وقد رواها أكثر من ٢٦ صحابيًّا) بعد أن أدخل بعضها فى بعض سيدى الحافظ الشامى المتوفى سنة ٩٤٢هـ . وهو صاحب السيرة الشامية . وقد استحسنت نقلها لما تتضمنه من دعائم التربية فى الإيمان والسلوك . فضلا عن أن الإسراء والمعراج مما خص به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التكريم والتشريف ، ورضى الله عن سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى إذ يقول فى ذلك التكريم الخاص :

بالعين قد شاهدته متفـــرداً ... فالعين فلتنعم بهـــاتيك النعم

أكرومة لك لا تضاهى رفعـــة ... مخبوءة لك يا مقرب فى القـــدم

خاطبته إذ لا حجاب لدى الخطاب ... ألا هنيئاً ذلك الشرف الأتم

ومقام أو أدنى بذلك شاهد ... والمنعم الأعلى بذاك هو الحكم

قال سيدى الحافظ الشامي رضى الله عنه :

بينما النبى صلى الله عليه وسلم عند البيت فى الحجر (أى حجر إسماعيل الملاصق للكعبة المشرفة) إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى كانت ليلة أخرى فقال الأول : هوهو ؟ فقال الأوسط : نعم ، وقال الآخر : خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين ، فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم ، فاستلقوه على ظهره فتولاه منهم جبريل ؛ وفى رواية : فرج سقف بيتى ، فنزل جبريل فشق من ثغرة نحره (الموضع المنخفض بين الترقوتين) إلى أسفل بطنه ، ثم قال جبريل لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح صدره ، فاستخرج قلبه ، فغسله ثلاث مرات ، ونزع ما كان فيه من أذى ، واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم ، ثم أتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه فى صدره ، وملأه علمًا وحلمًا ويقينًا وإسلامًا ، ثم أطبقه ، ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة .

ثم أتى بالبراق مسرجًا ملجمًا . وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، مضطرب الأذنين (أى طويلهما) إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط ارتفعت يداه ، له جناحان فى فخذيه يحفز (يحث) بهما رجليه . فاستصعب عليه فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال : ألا تستحى يابراق ؟! فوالله ماركبك . وفى رواية عبدالله « قط » أكرم على الله منه ، فاستحيا حتى ارفض عرقًا — (أى سال) وَقَرّ حتى[1] ركبه ، فانطلق به جبريل ، فكان الآخذ بركابه جبريل وبزمام البراق ميكائيل[2] ، فساروا حتى بلغوا أرضًا ذات نخل فقال له : انزل فصلّ هنا ، ففعل ، ثم ركب فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا . قال : صليت بطيبة[3] وإليها المهاجر .

---

(١) وفى رواية : وكانت الأنبياء تركبها قبلى . وقال أنس بن مالك كانت الأنبياء تركبها قبلى . وقال سعيد بن المسيب وأبوسلمة بن عبد الرحمن : وهى دابة إبراهيم التى كان يزور عليها البيت الحرام .

(٢) وفى رواية : جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره .

(٣) طيبة هى المدينة المنورة .

فانطلق البراق يهوى (يسرع) به ، يضع حافره حيث أدرك طرفه ، فقال له جبريل : انزل فصلّ ، ففعل ثم ركب ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ قال لا ، قال : صليت بطور سيناء (جبل بيت المقدس) حيث كلّم الله موسى .

ثم بلغ أرضاً بدت له قصور ، فقال له جبريل : انزل فصل ، ففعل ، ثم ركب وانطلق البراق يهوى به ، فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟ قال : لا ، قال : صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى .

فبينما هو يسير على البراق إذ رأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رآه ، فقال له جبريل : ألا أعلمك كلمات تقولهن إذ قلتهن انطفت شعلته وخَرَّ لفيه ؟ فقال رسول الله : بلى ، فقال جبريل : قل أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات (أى الكاملة فلا يعتريها نقص) التى لايجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ (أى خلق) فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق (أى حوادث) الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن، فانكبَّ لفيه وانطفت شعلته فساروا .

وأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال : يا جبريل ، ما هذا ؟ فقال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بتسعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه .

ووجد ريحاً طيبة فقال : يا جبريل ، ما هذه الرائحة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة فرعون وأولادها ، بينما هى تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط ، فقالت : باسم الله تعس فرعون ، فقالت ابنة فرعون : أو لك رب غير أبى ؟ قالت: نعم ربى وربك الله ، وكان للمرأة أبناء وزوج ، فأرسل إليهم ، فراود (أى راجع) المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما فقال : إنى قاتلكما ، فقال : إحسان منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا فى بيت ، وفى رواية : قالت : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قالت : تجمع عظامى بعظام ولدى فتدفننا جميعاً ، قال : ذاك لك بمالك علينا من الحق ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى هى

وأولادها ، فألقوا واحداً بعد واحد حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم ، فقال : يا أمه : قعى ولا تقاعسى (أى لا تتأخرى) فإنك على الحق ، فألقيت هى وأولادها ، قال : وتكلم أربعة وهم صغار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

ثم أتى على قوم ترضخ (أى تكسر) رءوسهم كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر (أى لا يسكن) عنهم من ذلك شيء ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون الضريع (أى الشوك اليابس) والزقوم (ثمر شجر كريه الطعم) ورضف جهنم (أى الحجارة المحماة) وحجارتها فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله شيئاً .

ثم أتى قوماً بين أيديهم لحم نضيج فى قدور ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب ، فقال : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقته ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، وتلا (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) .

ورأى رجلا يسبح فى نهر من دم يلقم الحجارة ، فقال : من هذا ؟ فقال : هذا آكل الربا .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الرجل من أمتك يكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها ويريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون .

ومر بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .

وأتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها .

وأتى على واد فوجد ريحًا طيبة باردة وريح المسك وسمع صوتًا ، فقال : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : هذا صوت الجنة تقول يارب آتنى ما وعدتنى فقد كثرت غرفى وإستبرقى وحريرى وسندسى وعبقريى ولؤلئى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى ومراكبى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى ، قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحًا ولم يشرك بى ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل علىّ كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، قالت : قد رضيت .

وأتى على واد ، فسمع صوتًا منكراً ، ووجد ريحًا منتنة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يارب آتنى ما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى واشتد حرى فآتنى ما وعدتنى ، فقال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

ورأى الدّجال فى صورته رؤيا عين ، لا رؤيا منام ، فقيل يا رسول الله كيف رأيته ؟ قال : فَيْلَمَانِيًّا (أى عظيم الجثة) ، وهو أحمر هجان (أى شديد البياض) ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درىّ كأن شعره أغصان شجرة ، شبهه بعبد العزى بن قطن (هلك فى الجاهلية) .

ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة فقال : ما تحملون ؟ قالوا عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام .

وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن يمينه : يا محمد ، انظرنى أسألك ، فلم

يجبه ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا داعى اليهود ، أما إنك لو أجبته لتهوّدت أمتك .

وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن شمال ، فقال : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يجبه ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا داعى النصارى ، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك .

وبينما هو يسير إذا بامرأة حاسرة عن ذراعيها ، وعليها من كل زينة خلقها الله ، فقالت : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه يا جبريل ؟ قال : تلك الدنيا ، أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة .

وبينما هو يسير إذا هو بشىء يدعوه متنحيًا عن الطريق يقول : هلمّ يا محمد ، فقال جبريل : سر يا محمد ، فقال : من هذا ؟ قال : عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه .

وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقالت : يا محمد انظرنى أسألك ، فلم يلتفت إليها ، فقال : من هذه يا جبريل ؟ قال : إنه لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقى من عمر تلك العجوز .

وبينما هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله ، فقالوا : السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا حاشر ، فقال له جبريل : اردد السلام فرد ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم لقيه الثالثة فقال مثل ذلك ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : إبراهيم وموسى وعيسى .

ومرا على موسى وهو يصلى فى قبره عند الكثيب (أى التل) الأحمر رجل طوال (أى طويل) سبط (مسترسل الشعر) آدم (أسمر) كأنه من رجال شنوءة (قبيلة من اليمن) وهو يقول يرفع صوته أكرمته وفضلته ، فرفع إليه فسلم عليه ، فرد عليه السلام وقال : من هذا معك يا جبريل ؟

قال : هذا أحمد ، فقال : مرحبًا بالنبىّ العربىّ الذى نصح لأمته ودعا له بالبركة ، وقال : سل لأمتك اليسر فساروا ، فقال : يا جبريل ، من هذا ؟ قال :

هذا موسى بن عمران ، قال : ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه قال : ويرفع صوته على ربه ؟ قال : إن الله تعالى قد عرف له حدته .

ومرّ على شجرة كأن ثمرها السرج تحتها شيخ وعياله ، فرأى مصابيح وضوءاً، فقال : من هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا ابنك أحمد ، فقال مرحباً بالنبيّ العربيّ الأميّ الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، يا بنى إنك لاق ربك الليلة ، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها ، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو كلها فى أمتك فافعل ، ودعا له بالبركة .

فسار حتى أتى الوادى الذى بالمدينة يعنى بيت المقدس ، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابى (البساط) فقيل : يا رسول الله ، كيف وجدتها ؟ قال : مثل الحممة (بحاء مضمومة أى الفحمة) .

ثم سار حتى انتهى إلى المدينة فدخلها من بابها اليمانى ، وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان ، فقال : يا جبريل ، ما هذان النوران ؟ قال : أما الذى عن يمينك فمحراب أخيك داود ، وأما الذى عن يسارك فعلى قبر أختك مريم ، فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر ، وأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها ، فشد بها البراق ، وفى رواية مسلم فربطه بالحلقة التى تربط بها الأنبياء .

فلما استوى النبى صلى الله عليه وسلم فى صخرة المسجد ، قال جبريل : يا محمد ، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ قال : نعم ، قال جبريل : فانطلق إلى تلك النسوة فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، فانتهى إليهن فسلم عليهن فرددن عليه السلام ، فقال : من أنتن ؟ فقلن : خيرات حسان ، نساء قوم أبرار ، نقوا فلم يدرنوا ، وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا .

ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد ، ثم أذّن مؤذّن وأقيمت الصلاة ، فقاموا صفوفاً ينتظرون من يؤمهم ، فأخذه جبريل بيده فقدمه فصلى بهم ركعتين .

وفى حديث أبي هريرة عند الحاكم وصححه والبيهقى : فلقى أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا ، وأعطانى ملكـًا عظيمـًا ، وجعلنى أمة قانتـًا يؤتم بى ، وأنقذنى من النار وجعلها علىّ برداً وسلامـًا .

ثم إن موسى أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليمـًا ، وجعل هلاك فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى ، وجعل من أمتى قومـًا يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم إن داود أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكـًا عظيما ، وعلمنى الزبور ، وألان لىَ الحديدَ وسخر لى الجبال يسبحن والطير ، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخّر لى الرياح ، وسخّر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان (القصعة الكبيرة) كالجوابى (الحوض الكبير) وقدور راسيات ، وعلّمنى منطق الطير ، وآتانى من كل شىء فضلا ، وسخّر لى جنوداً الشياطين والطير ، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكـًا عظيمـًا لاينبغى لأحد من بعدى ، وجعل ملكى ملكـًا طيبـًا ليس فيه حساب ولا عقاب .

ثم إن عيسى بن مريم أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال : الحمد لله الذى جعلنى كلمته ، وجعل مثلى مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلّمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وجعلنى أبرئ الأكمه (الذى يولد أعمى) والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، ورفعنى وطهّرنى وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كلّكم أثنى على ربه ، وأنا مثن على ربى :

الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وأنزل علىّ الفرقان فيه تبيان كل شىء ، وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى وسطـًا (أى خياراً عدولا) وجعل أمتى هم الأولون (أى فى دخول الجنة)

والآخرون (أى فى الوجود) وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع ذكرى ، وجعلنى فاتحـًا (أى لأبواب الإيمان) خاتمـًا (أى خاتمـًا به الشرائع) .

فقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : بهذا فضلكم محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم تذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله ، وفيما عهد إلىّ أن الدجال خارج ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، فيهلكه الله تعالى إذا رآنى ، حتى إن الحجر ليقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله ، فيهلكهم الله تعالى ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطوون بلادهم ، لايأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولايمرون على ماء إلا شربوه ، حتى يرجع الناس يشكونهم إلى ، فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من ريحهم ، فينزل الله تعالى المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ، ففيما عهد إلىّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك ، إن الساعة كالحامل المتم لايدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلا أو نهاراً .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم من العطش أشد ما أخذه ، فأتى بقدحين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال ، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل ، وفى رواية أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها ، فأتى بإناء منها فيه ماء فشرب منه قليلا ، وفى لفظ أنه لم يشرب منه شيئـًا ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن فشرب منه حتى روى ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له اشرب فقال : لا أريده قد رويت ، فقال جبريل : أما إنها ستحرم على أمتك ، وفى رواية فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، وفى رواية العسل بدل اللبن ، فشرب من العسل قليلا وتناول اللبن فشرب منه حتى روى ، فضرب جبريل على منكبه وقال : أصبت الفطرة وإنك لمهدى .

ثم أتى بالمعراج (١) الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم فلم تر الخلائق أحسن من

(١) السلم .

المعراج ، له مرقاة[١] من فضة ومرقاة من ذهب ، وفى رواية لأبى سعيد فى شرف المصطفى أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس منضداً باللؤلؤ ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة ، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يقال له باب الحفظة وعليه ملك يقال له إسماعيل ، وهو صاحب سماء الدنيا ، وفى حديث جعفر بن محمد عند البيهقى يسكن الهواء ، لم يصعد إلى السماء قط ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين يديه سبعون ألف ملك ، مع كل ملك جنده مائة ألف ، فاستفتح جبريل باب السماء ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما .

فلما خلصا فإذا آدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين (أعلى الجنة) ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين (موضع فيه كتاب الفجار) ، وعن يمينه أسودة (جمع سواد ويجمع على أساود وهو الشخص) وباب يخرج منه ريح طيبة ، وعن شماله أسودة وباب يخرج منه ريح خبيثة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك واستبشر ، وإذا نظر قبل شماله حزن وبكى ، فسلم عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فرد السلام ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبىّ الصالح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا أبوك آدم ، وهذه الأسودة نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، وأهل الشمال منهم أهل النار ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن .

ثم مضى صلى الله عليه وسلم هنيهة فإذا هو بأخونة عليها لحم يشرح ليس بقربه أحد ، وإذا بأخونة عليها لحم قد أروح وأنتن عندها ناس يأكلون منها ،

---

(١) درجة .

فقال : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال هؤلاء من أمتك قوم يتركون الحلال ويأتون الحرام ، وفى لفظ : فإذا بأقوام على مائدة عليها لحم يشوى كأحسن مما رئى من اللحم وإذا حوله جيف فجعلوا يقبلون على الجيف يأكلون منها ويدعون اللحم ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء الزناة يحلّون ما حرّم الله عليهم ويتركون ما أحلّ لهم .

ثم مضى هنيهة فإذا باقوام بطونهم كأمثال البيوت ، فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم ، كلما نهض أحدهم خرّ يقول : اللهم لاتقم الساعة وهم على سابلة آل فرعون ، فتجىء السابلة (أبناء السبيل) فتطؤهم ، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، فقال : يا جبريل : من هؤلاء ، قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس (الجنون) .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل (كالشفة من الإنسان) ، فتفتح أفواههم ويلقمون حجراً ، وفى رواية : يجعل فى أفواههم صخر من جهنم ثم يخرج من أسافلهم فسمعهم يضجون إلى الله تعالى ، فقال : يا جبريل ، من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بنساء معلقات بثديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن . فسمعهن يضججن إلى الله تعالى ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ، قال : هؤلاء اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون ، فيقال له : كل كما كنت تأكل لحم أخيك ، فقال : ياجبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمّازون من أمتك اللمّازون[١] .

ثم صعد إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ، قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما ، فلما خلصا فإذا هو بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى

(١) الهمازون : هم الذين يغتابون الناس فى غيبتهم ، واللمازون : العيابون .

ابن زكريا ، شبيه أحدهما بصاحبه ثيابهما وشعرهما ، ومعهما نفر من قومهما ، وإذا عيسى جعد (مجموع الجسم) مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس (مسترسل الشعر) كأنما خرج من ديماس (أى حمام) شبهه بعروة ابن مسعود الثقفى (أحد الصحابة الكرام) ، فسلم عليهما فردا عليه السلام ، ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ودعوا له بخير .

ثم صعدا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل قيل : من هذا ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح ، فلما خلصا فإذا هو بيوسف ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبىّ الصالح ودعا له بخير ، وإذا هو أعطى شطر الحسن ، وفى رواية أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال: هذا أخوك يوسف .

ثم صعد إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما ، فلما خلصا فإذا هو بإدريس رفعه الله مكاناً علياً ، فسلمّ عليه فرد السلام ، ثم قال مرحباً بالأح الصالح والنبى الصالح ثم دعا له بخير .

ثم صعد إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً بها وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجىء جاء ، ففتح لهما فلما خلصا فإذا هو بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء تكاد تضرب إلى سرته من طولها ، وحوله قوم من بنى إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وهو يقص عليهم ، فسلّم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم دعا له بخير ، فقال : يا جبريل من

هذا ؟ قال هذا الرجل المحبب فى قومه هارون بن عمران .

ثم صعد إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أو قد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما فجعل يمر بالنبى والنبيين معهم الرهط والنبي والنبيين ليس معهم أحد ثم مر بسواد عظيم ، فقال : من هذا ؟ قيل : موسى وقومه ، ولكن ارفع رأسك ، فإذا بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب ، فقيل : هؤلاء أمتك ، وسوى هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوءة كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر دونهما ، فسلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح ، ثم دعا له بخير ، وقال : يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا ، بل هذا أكرم على الله منى ، فلما جاوزه النبى صلى الله عليه وسلم بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلامًا بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمتى ، يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله ، وهذا رجل من بنى آدم خلفنى فى دنيا ، وأنا فى أخرى ، فلو أنه فى نفسه لم أبال ولكن مع كل نبى أمته .

ثم صعدا ، فلما انتهيا إلى السماء السابعة رأى فوقه رعداً وبرقًا وصواعق ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحبًا به وأهلا ، حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، ففتح لهما ، فسمع تسبيحًا فى السموات العلا مع تسبيح كثير سبّحت السموات العلا من ذى المهابة مشفقات من ذى العلا بماعلا ، سبحن العلى الأعلى سبحانه وتعالى ، فلما خلصا فإذا النبى صلى الله عليه وسلم بإبراهيم الخليل رجل شمط جالس عند باب الجنة على كرسى مسند ظهره إلى البيت المعمور ومعه نفر من قومه ، فسلم عليه النبي صلى الله عليه وسلم فردّ السلام ، ثم قال مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح ، وقال : مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها

واسعه فقال : وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى رواية : أقرئْ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهو أشبه ولده به ، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس (القرطاس ما يكتب فيه) ، وقوم فى ألوانهم شىء ، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شىء ، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم ، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم ، فقال : يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه ؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء ؟ وما هذه الأنهار التى دخلوها ؟ فقال : أما هؤلاء البيض الوجوه ، فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم (أى بشرك) وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فقوم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما هذه الأنهار فأولها رحمة الله ، والثانى نعمة الله ، والثالث سقاهم ربهم شرابًا طهوراً .

وقيل له : هذا مكانك ومكان أمتك ، وإذا هو بأمته شطران : شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس ، وشطر عليهم ثياب رمد ، فدخل البيت المعمور ودخل معه الذين عليهم الثياب البيض ، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد (فى لون الرماد) وهم على خير ، فصلى ومن معه من المؤمنين فى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ثم خرج ومن معه صلى الله عليه وسلم .

ثم رفع إلى سدرة (شجرة) المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط من فوق فيقبض منها ، وإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن (غير متغير) ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، يسير الراكب فى ظلها سبعين عامًا لا يقطعها ، وإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها كآذان الفيلة تكاد الورقة تغطى هذه الأمة .

ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام، ورأى ، رجلاً مغيبا فى

نور العرش فقال : من هذا ؟ أملك ؟ قيل: لا ، قال: أنبى ؟ قيل : لا ، قال : من هو ؟ قيل : هذا رجل كان فى الدنيا لسانه رطب بذكر الله وقلبه معلق بالمساجد ولم يستسب لوالديه قط .

فرأى[1] ربه سبحانه وتعالى . فخر النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً ، وكلمه ربه تعالى عند ذلك فقال له : يا محمد ، قال : لبيك يارب ، فقال : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكًا عظيمًا ، وكلمت موسى تكليمًا ، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا ، وألنت له الحديد وسخّرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا وسخّرت له الرياح وأعطيته ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوارة والإنجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك ، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل .

فقال سبحانه وتعالى : قد اتخذتك حبيبًا (قال الراوى : وهو مكتوب فى التوارة حبيب الله) ، وأرسلتك للناس كافة بشيراً ونذيراً ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، لا أذكر إلا ذُكرت معى ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطًا، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون ، وجعلت أمتك لاتجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقوامًا قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقًا وآخرهم بعثًا وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعًا من المثانى لم أعطها نبيًّا قبلك، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة والصلاة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت

---

(١) رؤية بلا كيف ، وقد عجل الله له الرؤية فى الدنيا قبل سائر المؤمنين الذين يتجلى عليهم سبحانه بالرؤية فى الآخرة مصداقًا لقوله تعالى : (وُجُوهٌ يوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) . ويعاقب الله يوم القيامة أهل الكفر بالحجاب فلا يرونه مصداقًا لقوله تعالى : (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) .

عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك .

قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَضَّلنى ربى ، أرسلنى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً ونذيراً ، وألقى فى قلب عدوى الرعب من مسيرة شهر ، وأحلّ لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ، وعرضت على أمتى فلم يَخْفَ علىّ التابع والمتبوع ، ورأيتهم أتوا على قوم ينتعلون بالشعر ، ورأيتهم أتوا على قوم عراض الوجوه صغار الأعين كأنما خرزت أعينهم بالمخيط ، فلم يخف علىّ ما هم لاقون من بعدى ، وأمرت بخمسين صلاة . اه . وأعطى ثلاثًا : أنه سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ،

وفى حديث ابن مسعود : وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحمات ، ثم انجلت عنه السحابة ، وأخذ بيده جبريل فانصرف سريعًا ، فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئًا ، ثم أتى على موسى قال ونعم الصاحب كان لكم فقال : ما صنعت يا محمد ، ما فرض ربك عليك وعلى أمتك ؟ قال : فرض علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك ، فإن أمتك لاتطيق ذلك ، فإنى قد خبرت الناس قبلك ، وبلوت بنى إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه ، وأمتك أضعف أجساداً وأبدانًا وقلوبًا وأبصاراً وأسماعًا ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل يستشيره ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فرجع سريعًا حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وَخَرَّ ساجداً وقال : رب خَفِّفْ عَنَّا ، وفى لفظ عن أمتى ، فإنها أضعف الأمم ، قال : قد وضعت عنكم خمسًا ، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى فقال : وضع عنى خمسًا ، فقال ارجع إلى ربّك واسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه يحط عنه خمسًا خمسًا حتى قال : يا محمد : قال : لبيك وسعديك . قال : هن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لدىّ ولا ينسخ كتابى تخفيفًا عنك كتخفيف خمس صلوات ،

ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزل حتى انتهى إلى موسى فأخبره ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال : قد راجعت ربى حتى استحييت منه ، ولكن أرضى وأسلم ، فنادى مناد أن قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى فقال له موسى : اهبط باسم الله .

وما أرق ما قال سيدى ابن وفا رضى الله عنه : إنما كان ترجيع موسى عليه الصلاة والسلام للنبي صلى الله عليه وسلم فى شأن الصلوات لتكرر مشاهدة أنوار المرات ومما قاله شعرا :

والسر فى قول موسى إذ يراجعـــه ليجتلى النور فيه حيث يشهده
يبدو سناه على وجه الرسول فيا لله حسن رسول إذ يـــردده

ثم ركب منصرفًا ، فمر بعير قريش بمكان كذا وكذا منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى العير نفرت واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ومر بعير قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان ، فسلم عليهم فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة ، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تكذبه ، فقعد حزينًا ، فمر به عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزئ : هل كان من شىء ؟ قال : نعم ، قال : ما هو ؟ قال : أسرى بى الليلة ، فقال : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، قال : أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى ؟ قال : نعم ، قال : يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما ، فقال : حدّث قومك بما حدثتنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أسرى الليلة بى ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم ، فمن بين مصفق ، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبا ، وضجوا وأعظموا ذلك .

فقال : المطعم بن عدى : كل أمرك كان قبل اليوم أممًا غير قولك اليوم ، أنا أشهد أنك كاذب ، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً ، تزعم أنك أتيته فى ليلة . واللات والعزى لا أصدقك ، فقال أبوبكر : يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك ، جبهته وكذبته ، أنا أشهد أنه صادق ، فقالوا : يا محمد صف لنا بيت المقدس ، كيف بناؤه ، وكيف هيئته ، وكيف قربه من الجبل ، ومن القوم من سافر إليه ، فذهب ينعت لهم : بناؤه كذا وهيئته كذا ، وقربه من الجبل كذا ، فما زال ينعت لهم حتّى التبس عليه النعت ، فكرب كربًا ما كرب مثله ، فجىء بالمسجد وهو ينظر إليه حتّى وضع دون دار عقيل أو عقال ، فقالوا : كم للمسجد من باب ؟ ولم يكن عدها ، فجعل ينظر إليه ويعدّها بابًا بابًا ويعلمهم ، وأبو بكر يقول : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب .

ثم قالوا لأبى بكر : أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوه ورواحه ، فبذلك سُمّى أبا بكر الصِّدِّيق .

ثم قالوا : يا محمد ، أخبرنا عن عيرنا ، فقال : أتيت على عير فلان بالروحاء قد أضلوا ناقة لهم ، فانطلقوا فى طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم فليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء فشربت منه . ثم انتهيت إلى عير بنى فلان بمكان كذا وكذا فيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذيت العير نفرت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم انتهيت إلى عير بنى فلان فى التنعيم يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وهاهى ذى تطلع عليكم من الثنية ، قالوا : فتى تجىء ؟ قال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون وقد ولى النهار ولم تجئ ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم فزيد له فى النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس حتى دخلت العير ، فاستقبلوا الإبل فقالوا : هل ضل لكم بعير ؟ قالوا : نعم ، فسألوا العير الآخر فقالوا : هل انكسر لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فهل كان عندكم قصعة من ماء ؟ فقال رجل أنا والله وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت فى الأرض ، فرموه بالسحر وقالوا : صدق الوليد .

فأنزل الله تعالى : (وَمَا جعَلْنَا الرؤيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) .

هذا ، ولبعض العلماء الأجلاء تعقيبات طريفة على تلك القصة ومن ذلك :

١ ـ قال سيدى ابن المنير رضى الله عنه : كانت كرامته صلى الله عليه وسلم المناجاة على سبيل المفاجأة كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم فى قوله بينما أنا. . . ، وفى حق موسى عليه السلام عن ميعاد واستعداد، فتَحَمَّلَ عنه صلى الله عليه وسلم ألم الانتظار ، ويؤخذ من ذلك أن مقام النبى صلى الله عليه وسلم مقام المراد (المطلوب) وهو أرفع بالنسبة إلى مقام المريد (الطالب) .

٢ ـ وقال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه : قول خازن السماء : «أو قد أرسل إليه ؟ » إنما هو سؤال تعجب من نعمة الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم بذلك واستبشار به ، وقول الخازن : « مرحبًا به » يدل على أن الحاشية إذا فهموا من سيدهم عزمًا لإكرام واحد أن يبشروه بذلك وإن لم يأذن لهم فيه .

٣ ـ لا خلاف أن النبوة أعلى من صلاح الصالحين من الأمم ، فقول الأنبياء مرحبًا بالأخ الصالح والنبى الصالح يحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم ، وصلاح الأنبياء صلاح كامل ، لأنهم يزول بهم كل فساد ، فلهم كل صلاح ، ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر مايزال به أو منه من الفساد ، وكرروا وصفه صلى الله عليه وسلم بالصلاح ، لأن الصالح هو الذى يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد ، فمن ثم كانت كلمته جامعة مانعة شاملة لسائر الخلال المحمودة ، ولم يقل أحد منهم مرحبًا بالنبى الصادق ولا بالنبى الأمين لأن الصلاح شامل لسائر أنواع الخير .

٤ ـ لم يكن بكاء موسى عليه السلام حسداً للنبى صلى الله عليه وسلم ، معاذ الله ، فإن الحسد فى ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين ، فكيف من اصطفاه الله تعالى ، بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذى يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزمة

لتنقيص أجره ، لأن لكل نبي مثل أجر من تبعه ، ولهذا كان من اتبعه فى العدد دون من اتبع نبينا صلى الله عليه وسلم مع طول مدتهم بالنسبة إلى مدة هذه الأمة .

٥ ــ قول موسى عليه السلام « غلام » ليس على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله تعالى وعظيم كرمه ، إذ أعطاه صلى الله عليه وسلم فى ذلك السن ما لم يعط أحداً قبله ممن هو أسن منه ، وقال الخطابى : العرب تسمى الرجل المستجمع السن غلاماً ما دامت فيه بقية من القوة ، وقال الحافظ ابن حجر : ويظهر أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا صلى الله عليه وسلم من استمرار القوة من الكهولة ، وإلى أنه دخل فى سن الشيخوخة ، ولم يدخل فى بدنه هرم ولا عرا قوته نقص ، حتى إن الناس لما رأوه صلى الله عليه وسلم مردفاً لأبى بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه اسم « الشاب » وعلى أبى بكر اسم « الشيخ » مع كونه صلى الله عليه وسلم فى العمر أسن من أبى بكر .

٦ ــ وقال ابن بطال : قول موسى عليه السلام : « رب لم أظن أن ترفع علىّ أحداً » فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى بقوله : (إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِكَلَامِى) أن المراد بالناس هنا البشر كلهم، وأنه استحق بذلك ألا يرفع عليه أحداً ، فلما فضل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أعطاه من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره .

٧ ــ قوله فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال شيخ الإسلام تقى الدين السبكى رحمه الله : المراد تشريف النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر ، أى لو كان له ذنوب لغفرت ولم يكن له ذنب ألبتة ، وقال سيدى القاضى عياض رضى الله عنه : المقصد ، أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان ، وقال سيدى ابن عطية رضى الله عنه : المعنى تشريف النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم ولم تكن ذنوب ألبتة .

٨ ــ وقال سيدى ابن دحية رضى الله عنه : فى عرض الجنة عليه صلى الله عليه وسلم كرامة عظيمة لأنه كان يعرض الجنة على أمته ليشتروها كما قال عن ربه تبارك

وتعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) ، فأراد الله تعالى أن يعاين النبي صلى الله عليه وسلم ما يعرضه على أمته ليكون وصفه إياها عن مشاهدة ، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الجنة وهى الدار التى هيأها الله لضيافة عباده المؤمنين ؛ ويحتمل أنه أراه إياها ليعلم خسة الدنيا فى جنب ما رآه فيكون فى الدنيا أزهد وعلى الشدائد أصبر .

٩ ـ وقال أيضاً رضى الله عنه : إنما عرضت عليه صلى الله عليه وسلم النار ليكون فى القيامة إذا قال سائر الأنبياء : نفسى نفسى يقول صلى الله عليه وسلم : أمتى أمتى ، وذلك حين تسجر جهنم ، ولذلك أمن الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال عز من قائل: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ)، والحكمة فى ذلك أن يفزع إلى شفاعة أمته صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يؤمنه لكان مشغولا بنفسه كغيره من الأنبياء، لأنهم لم يروا قبل يوم القيامة شيئاً منها ، فإذا رأوها فزعوا ، وكفت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هولها ، وشغلتهم أنفسهم عن أممهم ، وهو صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك فلا يفزع منها مثلما فزعوا ، فقدر على الخطبة والشفاعة .

١٠ ـ وقال رضى الله عنه : خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤية والمكالمة لأنه صاحب الشفاعة فى القيامة ، فحصل له ذلك قبلها لئلا يقع له حشمة البديهة كما يقع لغيره من الأنبياء .

١١ ـ وقال سيدى السهيلى رضى الله عنه : فرضت الصلاة ليلة المعراج للتنبيه على فضلها ، حيث لم تفرض إلا فى الحضرة المقدسة المطهرة ، ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها ، والتنبيه على أنها مناجاة الرب ، وأن الرب تبارك وتعالى مقبل بوجهه على المصلى يناجيه ويقول : حمدنى عبدى ، أثنى علىّ عبدى إلى آخر سورة الفاتحة .

١٢ ـ وقال سيدى ابن أبى جمرة : الحكمة فى كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب التخفيف ، أن مقام الخلة إنما هو الرضا والتسليم ، والكلام فى هذا الشأن ينافى ذلك المقام ، وموسى هو الكليم ، والكليم أعطى الإدلال والانبساط .

١٣ — وقال بعض أهل الإشارات : لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام ، أضاءت له أنوار نور الطور ، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس ، فلما نودى فى النادى اشتاق إلى المنادى ، فكان يطوف فى بنى إسرائيل يقول : من يُحَمِّلُنِى رسالة إلى ربى ، مراده بذلك أن تطول المناجاة مع الحبيب ، فلما مر عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ردده فى أمر الصلاة ليستفيد رؤية حبيب الحبيب ، ويرى من رأى كما قيل :

وأستنشق الأرواح من نحو أرضكم　　لعلى أراكم أو أرى من يراكمُ
فأنتم حياتى إن حييت وإن أمت　　فياحبذا إن مت عبد هواكمُ

١٤ — وقال سيدى ابن أبى جمرة رضى الله عنه : فى امتناع النبى صلى الله عليه وسلم فى المرة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إسعاد عبد حصر اختياره فى مرضاة ربه وهو فرض الصلوات الخمس ، وذلك تكريم له صلى الله عليه وسلم وترفيع ، لأنه لو رجع صلى الله عليه وسلم وطلب التخفيف فلم يخفف الله كما خفف أولا ، لكان اختياره صلى الله عليه وسلم مخالفًا للمقدور . وقال آخر : إنه لو طلب التخفيف وخفف فى المرة الأخيرة لحرمت أمته من الصلاة ، فقد حط الله فى كل مرة خمسًا خمسًا ، فلم يبق إلا الخمس الأخيرة ، فلم يرد أن يحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من شرف مناجاة الله فى اليوم والليلة فى الصلوات الخمس ، أقول : وما أكرم ربّى حين خلى بين عباده المؤمنين وبين محراب الصلاة فرضًا ونفلا ، فشرفهم بذلك أيّما تشريف ، ولله الحمد والمنة عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ، فالصلاة صلة قوية بين العبد وربه ، يناجى ربه فيها ويناجيه ربه ، ولذلك قال بعض العارفين : إذا وقفتُ فى الصلاة لا يهمنى منها إلا ما أقوله أو يقال لى .

١٥ — فى قوله تعالى : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى) قال سيدى الحافظ الشامى رضى الله عنه : نسبة الدنو والتدلى ليست إلى الله تعالى ، وإنما الدنو والقرب من الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم كناية عن جزيل فوائده إليه ، وجميل عوائده عليه ، وتأنيس لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه ، وبسط بالمكالمة وإكرام بشرائف مننه ،

ويتأوّل في دنوّه تعالى منه ما يتأوّل به قوله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر » على أحد الوجوه من أن نزوله تعالى إنما هو دنو إفضال وإجمال ، وقبول توبة ، وإحسان بمغفرة وإشفاق .

ويرحم الله الإمام البوصيرى إذ يقول فى همزيته :

وترقى به إلى قاب قوسـين وتلك السيادة القعساء

رتب تسقط الأمـانىّ حسرى دونها ما وراءهـن وراء

١٦ ــ وأود أن أضيف إلى ما تقدم أن ثبات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقام (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) إنما هو اختصاص اختصه به رب العزة الذى دعاه ليريه من آياته، وهو اختصاص عظيم، يدلك على عظمته أن جبل الطور اندك من هيبة المتجلى حين تجلى سبحانه للجبل كما بين ذلك قول الله تعالى: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً) وقد قال العلماء : لو لم يدرك الله تعالى برحمته كليمه موسى عليه السلام ما قام من صعقته ، فإذا قارنت بين ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم وبين دكة الجبل ، بان لك فضل الله العظيم واختصاصه الكبير الذى ناله أحب أحبابه وأصفى أصفيائه صلى الله عليه وسلم ؛ ولا تستكثر الفضل على ربك فى هذا المقام ، فقد كان سيدنا موسى ضيفاً وكان رسولنا المستضاف ، ومستضاف الكرم أولى بالتكريم من ضيف الكرم ، والمحبوب أكثر رعاية من المحب ، وإن كانا معاً مكرَمَيْن فى ساحة المجد ، وعلى بساط القرب ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد قال سيدنا موسى عليه السلام داعياً : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي) ، وقيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ) ؛ وقال سيدنا موسى عليه السلام فى دعوته (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) ، وقيل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فَأَعْرِض عَنهمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً) ؛ وقال سيدنا

موسى عليه السلام : (إن مَعِيَ رَبِي سَيَهْدِينِ) فَضَلَّت أُمته ولم تثبت معه على الإيمان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله مَعَنَا) فتضاعف المؤمنون من بعده صلى الله عليه وسلم .

وأكرم الله المؤمنين بمتابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاهد من قوله تعالى فى سورة التحريم (... يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقوله تعالى فى سورة الحديد : (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وكانت الجنة جزاء المطيعين لرسوله صلى الله عليه وسلم لأنه تعالى قال : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) ، وقال سبحانه : (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) ، وسيكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته نصف الجنة أو أكثر ، لأن أمته أعظم الأمم ، ولأنه صلوات الله وسلامه عليه أكثر النبيين تبعاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

الباب الخامس

الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة

الإذن الإلهى بالقتال :

قال ابن إسحق :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحلل له الدماء ، وإنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين ، حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين معذب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد فراراً منهم ، منهم مَنْ بأرض الحبشة ، ومنهم مَنْ بالمدينة ، وفى كل وجه .

فلما عتت(١) قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عَبَدَ الله ووحده ، وصدّق نبيه واعتصم بدينه ، أَذِنَ الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى فى سورة الحج :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ

(١) عتت : تجبرت وازدادت كفراً .

فى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ، أى إنى أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، ويعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين ؛ ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه فى سورة البقرة : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويعبد الله وحده فلا يعبد معه غيره .

انتشار الإسلام بالمدينة :

ولما عاد أهل بيعة العقبة من الأنصار إلى المدينة ، أظهروا الإسلام بها ، ثم أخذ المسلمون يهاجرون سراً من مكة إلى المدينة ، ولم يبق بمكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا اثنان من السابقين الأولين هما سيدنا أبو بكر وسيدنا على رضى الله عنهما .

هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة :

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » .

قال ابن إسحق :

فخرجوا أرسالا (جماعة بعدها جماعة) ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

أبو سلمة أول المهاجرين إلى المدينة :

قال ابن إسحق :

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من

المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله (وهو ابن عمة رسول الله — برة بنت عبد المطلب — وأخوه من الرضاعة) هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة . فلما آذته قريش . وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً . وقد حضر بدراً ، وجرح في غزوة أحد والتأم جرحه ، ثم عاد ونغر عليه[1] ومات به . وقد كبر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع تكبيرات فقالوا : يا رسول الله أسهوْت أم نسيت ؟ فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبي سلمة ألفًا كان أهلا لذاك .

هجرة السيدة أم سلمة رضي الله عنها :

واقرأ في عجب وإعجاب ما كان في هجرة زوجته السيدة أم سلمة ، التي أسعدها الله بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد زوجها أبي سلمة .

فقد قالت فيما رواه بسنده ابن إسحق :

لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة رحّل[2] لي بعيره ثم حملني عليه . وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري . ثم خرج بي يقود بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلَبْتَنَا عليها . أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده . فأخذوني منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة . فقالوا : لا والله، لانترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبها (أي زوجها) . قالت : فتجاذبوا بُنَيَّ « سلمة » بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد . وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح . فما أزال أبكي

---

(١) نغر عليه : عاوده ألم الجرح .

(٢) جهز البعير للسفر .

حتى أمسى سنة أو قريبًا منها ، حتى مرّ بى رجل من بنى عمى — أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة . فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت ، قالت : ورد بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى ، قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى . ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، قالت : وما معى أحد من خلق الله ، قالت : فقلت أتبلّغ [1] بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم (من ضواحى مكة) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخا بنى عبد الدار ، فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة ، قال : أوما معك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله ، إلاّ الله وبنىّ هذا .

أيها القارئ الكريم : ألاّ يُثير ذلك إعجابك من يقينها وعزمها وتضحيتها فى سبيل الله ، وكيف لايثير إعجابك أن ترى سيدة تركب ناقتها مع طفلها الصغير نحواً من أسبوعين فى صحراء شاسعة حتى تبلغ المدينة ، وليس معها من يعينها على مشقة الرحلة الطويلة على ظهر الإبل ، مع ما تحتاج إليه من إناخة الدابة ، وإنزال الرحل والعلف ثم شدّ الحمل عليها ، فضلا عن رعاية طفلها الكسير !!

لاشك أنه موقف يثير عطفك وإشفاقك ، ولكن الله أرحم بها منى ومنك . فانظر كيف دبّر الله لها أمرها على غير ترتيب منها ، فسخّر لها رجلا ذا مروءة عربية فطرية فأعانها ويسّر أمرها حتى أبلغها المدينة ، واستمع إليها وهى تحكى ما كان منه :

قالت رضى الله عنها : قال عثمان : والله مالك من مَتْرَك [2] ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معى يهوى بى . فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه . كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر

---

(١) أستعين .

(٢) لايجوز أن أتركك وحدك .

ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى الشجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله، ثم استأخر عنى ، وقال: اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء ، قال: زوجك فى هذه القرية ــ وكان أبو سلمة بها نازلا ــ فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

أقول : وكان عثمان يوم هجرته بأم سلمة على الكفر ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ،ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وإلى عمه شيبة بن عثمان مفاتيح الكعبة فى عام الفتح . وقد قتل عثمان بن طلحة رضى الله عنه شهيداً بأجنادين فى أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال ابن إسحق :

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فيها بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلاّ من حبس أو فتن ، وإلاّ علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

مؤامرة يكشفها الله تعالى :

قال ابن إسحق :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله

صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة — وهى دار كانت لقصى ابن كلاب ، كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه .

أقول : وأطلعه الله علي ما تشاوروا فيه بقوله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ، فقد اختلفت آراؤهم بين حبسه فى بيت يغلقونه عليه ، فخافوا أن يقاتلهم أهله بدافع العصبية ، ويخلصوه من أيديهم ، وبين أن يخرجوه من مكة ، فخافوا أن يجتمع الناس عليه لحلاوة منطقه فيقاتلهم بهم ، وبين أن يختاروا من كل بطن من بطون قبائلهم شاباً جلداً ليقتلوه قتلاً جماعياً فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حربهم ، فإذا طلبوا الدية قدموها لهم . وهذا الرأى الأخير هو الذى استحسنوه بعد التشاور فى دار الندوة .

الإمام علىّ يفدى الرسول بنفسه :

يقول ابن إسحق :

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ؛ ثم يقول بن إسحق : فلما كانت عتمة من الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلىّ بن أبى طالب : نم على فراشى وتسجّ[1] ببردى هذا الحضرمىّ الأخضر . فنم فيه . فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك إذا نام .

خروج الرسول وهم لايشعرون :

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم

(١) تسج ببردى : اجعل ثوبى غطاء لك .

وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس :

(يٓس * وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ * إنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) ، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاءِ الآيات ولم يبق منهم رجل إلَّا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قال ابن إسحق : فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيَّبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ قال ابن إسحق : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائماً ، عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علىّ رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

قال ابن إسحق :

حدثنى من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهرى قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة ، فى ساعة كان لا يأتى فيها .

الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلاّ لأمر حدث ، قالت : فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من عندك ، فقال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك ؟ فداك أبي وأمي ، فقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . قال : الصحبة . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ ، ثم قال : يا نبيّ الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أريقط — وكان مشركًا — يدلُّهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما . فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحق :

ولم يعلم — فيما بلغني — بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا عليّ بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وآل أبي بكر . أما عليّ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه . وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلاّ وضعه عنده . لمَا يعلم من صدقه وأمانته صلىّ الله عليه وسلم . أقول : فانظر إلى غرابة موقفهم منه . فإنهم كانوا واثقين من صدقه وأمانته حتى ائتمنوه على نفائسهم . حتى إذا دعاهم إلى الله كذبوه ، مع أنهم لم يجربوا عليه كذبًا من قبل . بل وثقوا بصدقه كل الوثوق ، وصدق الله سبحانه إذ يقول في سورة الحج :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور) .

الاختباء فى الغار :

قال ابن إسحق :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوخة[١] لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بثور[٢] فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحهما[٣] عليهما . يأتيهما إذا أمسى فى الغار ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

وفاء أبى بكر :

قال ابن هشام :

وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال :

انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

أقول : أرأيت كيف كان الصدّيق رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفتديه بنفسه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حب لله ، وما دام الصدّيق رضى الله عنه قد بلغ الذروة فى حب الرسول الأكرم ، فقد بلغ الذروة فى حب ربه الأعظم ، فكان المؤمن الأول فى هذه الأمة بين المؤمنين وقد بلغ عددهم الملايين ، وأثبت الله له الصحبة فى كتابه الكريم فى قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، فمن أنكر صحبة

---

(١) باب صغير .

(٢) جبل بأسفل مكة .

(٣) يرجع بالغنم بعد أن ترعى إلى الغار لتضيع آثار أقدام المتصلين بالرسول وصاحبه .

أبى بكر فقد كفر ، لأنه يكذب كلام الله .

وحق لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يغبط الصدّيق على تلك الصحبة فى الغار ، فقد كان يقول منوهًا بفضل الصديق رضى الله عنه : كنت أحب أن يكون لى يومان من أيام أبى بكر بحياتى كلها ، يوم أن صحب الرسول فى الغار ، ويوم أن خالفنا فى حرب أهل الردة[١] .

كما كان يقول : رحم الله أبا بكر ، إنه كان سيدنا وأعتق سيدنا (يشير إلى بلال ويلقبه بالسيادة ، فإن بلالا رضى الله عنه عُذّب فى الله ، فاشتراه الصدّيق من أمية بن خلف وأعتقه ، فما أعظم ديننا الذى ساد به العبيد ، ولا فضل فيه لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى) . وما أعجب أمر سيدنا أبى بكر ، فقد كان ثانى اثنين فى الإيمان ، وثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى إمارة الحج (أول أمير للحج هو سيدنا عتاب بن أسيد ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعد الفتح ، كما ولاّه إمارة الحج) ، وثانى اثنين فى الخلافة ، وثانى اثنين فى الروضة الشريفة حيث مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر ، فاحتلبا وذبحا ؛ فإذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه

---

(١) وهم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، فحاربهم عليها الصديق رضى الله عنه ، وكان الصحابة يتخوفون من حربهم وهم كثرة ، ولكنه رضى الله عنه حاربهم ليأخذ منهم حق الله ، وقال قولته المشهورة : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه للنبى صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، أينقص الدين وأنا حى؟» . وتغلب رضى الله عنه على أهل الردة ، وحفظ الله الإسلام على يديه فجزاه الله عنا كل خير .

ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصامًا (حبلا تربط به) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصامًا ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق لذلك ؛ قال ابن هشام وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين ، وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها اثنين فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر .

فلما قرب أبو بكر رضى الله عنه الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فداك أبى وأمى .

فقال رسول الله صلى الله ، عليه وسلم : إنى لا أركب بعيراً ليس لى ، قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، قال : لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال : قد أخذتها به ، قال : هى لك يا رسول الله ، فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق .

أقول : أرأيت كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكثر ما علمنا ، أن نجاهد فى الله بأموالنا ، كما نجاهد فيه بأنفسنا ، فقد أبى أن يقبل الناقة هدية من صاحبه ، مع وثوقه فى صدقه وإخلاصه فى تقديمها هدية ، ولكنه أبى إلا أن تكون بالثمن ليتحمل النفقة فى سبيل الله عز وجل!! . وكيف لا يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وكيف لا نتأسّى به ، ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ناصحًا لنا فى سورة الصف :

(يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ). وما أروع آيات الله البيّنات لمن تدبرها وعقلها .

قال ابن إسحق :

حدثت عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر . فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يابنت أبى بكر ؟ قالت: قلت: لا أدرى والله أين أبى ؟ قالت: فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشًا خبيثًا ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .

أقول : أرأيت إلى القسوة التى طمست على قلبه بكفره ، فحملته على أن يضرب فتاة صغيرة فى سن الطفولة ، وهو شيخ كبير لايرى فى ذلك عاراً ، مع أن بعض الحيوان يأبى لنفسه أن يعتدى على امرأة ، وأعلم من ذلك الأسد والجمل ، لأن كلا منهما يستضعفها بإلهامه الفطرى ، ويراها أضعف من أن يعتدى عليها . فما أتعسه من إنسان فقد المروءة التى تحلىّ بها بعض الحيوان .

قالت أسماء : ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ويروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنى وما هتف به فى مكة قال أبياتًا مطلعها :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقد سُرَّ من يسرى إليهم ويغتدى

---

(١) هنيئاً لبنى كعب .

قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

معجزة نبوية :

واسم أم معبد المشار إليها فى الأبيات المتقدمة ، عاتكة بنت خالد ، وهى امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وكانت سيدة برزة[1] جلدة تسقى وتطعم ، فسألوها لحماً وتمراً يشترونه منها ، وكانوا جياعاً ، فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح بيده ضرعها ، فسمى الله تعالى ، ودعا لها فى شأنها ، فتفاجت[2] عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء فحلب فيه ثجاً[3] حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، ثم صب فيه ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء ، ثم غادره عندها ؛ ثم بايعها على الإسلام ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاة عازب حيال[4] ، ولا حلوب فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا ، ووصفته له فى كلام طويل كله حق ، قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر

---

(١) المرأة البرزة هى العفيفة التى تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات .

(٢) أفسحت له ليتمكن من الضرع .

(٣) سال بكثرة .

(٤) لم تحمل .

لنا من أمره ما ذكر بمكة ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

فطنة أسماء :

قالت أسماء رضى الله عنها : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يأبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة (طاقة) فى البيت الذى كان أبى يضع ما له فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ؛ ولا والله ما ترك لنا شيئًا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

أقول وما أعجب أثر الهدى فى سلوك أهل الإيمان حتى الأطفال منهم ، وما أعظم سيدنا أبا بكر فى إيثار الله على أهله وماله ، وما أسعده بصحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة !

جزع بنى هاشم :

وقد جزعت بنو هاشم لخروجه صلى الله عليه وسلم من بينهم ، حتى لقد قالت عمته عاتكة بنت عبد المطلب فى أسفها على خروجه ، مع أنها كانت لاتزال على دين قومها :

أعينى جودى بالدموع السواجم ... على المرتضى كالبدر من آل هاشم
على المرتضى للبر والعدل والتـقى ... وللدين والدنيا بهيج المعـالم
على الصادق الميمون ذى الحلم والنُّهَى ... وللفضل والداعى لخير التراحم

مائة ناقة لمن يرّد الرسول على قريش :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ؛ قال سراقة بن مالك : فبينا[١] أنا جالس فى نادي قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علىّ آنفًا ، إنى لأراهم محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فأومأت إليه بعينى : أن اسكت ، ثم مكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (درعى) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره »[٢]

معجزة أخرى نبوية :

ثم مضى سراقة يقول :

فأبيت إلاّ أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلاّ أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان الإعصار .

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع سراقة أن يمسه بسوء ، اللهم احمنا بحماك ، واهدنا بهداك .

قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

---

(١) بينما .

(٢) أى السهم المكتوب فيه هذه الكلمة ؛ أى لن تتمكن من الإضرار به .

قل له : وما تبتغى منا ، فقال ذلك أبو بكر ، قال سراقة قلت : تكتبون لى كتاباً يكون آية بينى وبينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر ،

قال سراقة : فكتب لى كتاباً فى عظم أو رقعة ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ثم رجعت ، فسكَتُّ فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة (ماء بين الطائف ومكة) قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار .

إسلام سراقة رضى الله عنه :

قال سراقة : فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه (ركابه) كأنها جُمَّارة[١] ، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقة ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، ادنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى[٢] ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم فى كل ذات كبد حَرَّى[٣] أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومى ، فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى (يريد زكاة ماله) .

وقد قالوا إن أبا جهل لام سراقة حين رجع مكة بلاشىء ، فقال سراقة رداً عليه :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

---

(١) شديدة البياض كجمارة النخل .

(٢) إبل الغير تأتى لتشرب من الحوض الذى يسقى منه إبله .

(٣) عطشى .

عليك بكف القوم عنه فإننى أرى أمره يوما ستبدو معالمـــه
بأمر يود الناس فيه بـــأسرهم بأن جميع الناس طرًّا يسالمـــه

الوصول إلى قباء :

قال ابن إسحق :

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء ، ونزل على بنى عمرو ابن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحا وكادت الشمس تعتدل .

ويحدث ابن إسحق بسنده عن بعض الصحابة قالوا :

فلما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكفنا (انتظرنا) قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا[1] ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وإنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته :

يا بنى قَيْلَة (هم الأنصار ، وقيلة جدهم) : هذا جدكم (حظكم السعيد) قد جاء ، قال : فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى ظل نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظلّه بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

أقول : فلله ما أوفاك أيها الصدّيق الأكبر والعلم الأشهر ، فقد علّمت المؤمنين

---

(١) الحرة : هى أرض ذات حجارة سود .

كيف يكون حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أسعد من قلدك وأخذ عنك ذلك الحب الخالص .

يوم الاثنين :

وكان وصوله إلى قُباء فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول حين اشتد الضحا ، وما أعجب يوم الاثنين فى تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ولد يوم الاثنين ، ونُبِئ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ، ووصل إلى ضواحى المدينة (قباء) يوم الاثنين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين ، فما أبرك يوم الاثنين . وقد كنت فى طفولتى آنس بيوم الاثنين ولا أدرى سر ذلك الأنس ، فلما كبرت ووقفت على السيرة النبوية العطرة انكشف لى ما كان خافياً علىّ ، ولله فى خلقه شؤون ، وما أراده يكون .

فى قباء :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء .

أقول : وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من وضع حجراً فى قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً إلى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ الناس فى البنيان . .

قال ابن إسحق :

ثم خرج صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركَتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى [1] ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

---

(١) سمى هذا المكان مسجداً باعتبار أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه وسجد .

الأنصار يرحبون :

وكانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بإذن ربه كما علمت ، وقد وصل إليها فى رعاية الله سالمـًا غانمـًا ، فتلقاه أهلها بالفرح الغامر ، وغنّت بنات النجّار بين يديه الأغنية المباركة :

طلع البـدر علينـا   من ثَنيّات الوداع
وجب الشكر علينـا   ما دعا للـه داع
أيهـا المبعوث فينـا   جئت بالأمـر المطاع

وكانت بيوتات الأنصار يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ، ويمسكون بزمام الناقة التى يركبها صلى الله عليه وسلم ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى إذا أتت إلى دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ مرْبد (موضع يجفف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بنى النجار .

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رَحْلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى وسأرضيهما فيه فاتّخِذْه مسجداً .

المسجد النبوى :

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعـدنا والنبى يعمـل   لـذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لا عَيْشَ إلا عيْشَ الآخره   اللهمّ ارحم الأنصار والمهاجره

قال ابن إسحق : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

معجزة نبوية :

قال ابن إسحق : فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللّبِن ، فقال : يا رسول الله قتلونى ، يحملون علىّ ما لايحملون ، قالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته (شعر رأسه) بيده ، وكان رجلا جعدا[1] وهو يقول : ويح ابن سميّة ! ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية .

أقول : وقد قتلته فئة معاوية فى صفين ، فقال إمامنا علىّ كرم الله وجهه : الحمد لله الذى أرانى أنى على الحق . فانظر كيف تحققت المعجزة بعد أربعين سنة ، وصلوات الله على صاحب المعجزات .

قال ابن إسحق :

وارتجز علىّ بن أبى طالب يومئذ :

لا يستوى من يَعْمُرُ المساجدا   يدأب فيها قائمًا وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا[2]

أدب الأنصار :

قال ابن إسحق يحدث بسنده عن أبى أيوب الأنصارى قال :

لما نزل علىّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السفل (الدور الأول) وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له :

يانبى الله ، بأبى أنت وأمى — إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون

---

(١) الشعر الجعد هو الملتوى ، وهو شعر عمار رضى الله عنه .
(٢) يبعد التراب عن نفسه .

تحتى ، فأظهر أنت فكن فى العلو ، وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال : يا أبا أيوب : أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

أقول : أرأيت كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رأفته بمن يأتيه من المؤمنين ، وكيف كان يشق عليه تعبهم ، ولم لا وقد حلاّه ربه بوصفه الخالد : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

واستمع إلى بقية ما حدّث به سيدنا أبو أيوب ، لترى ما كان من أدبه مع النبى صلى الله عليه وسلم :

قال أبو أيوب رضى الله عنه : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفل المسكن وكنا فى علوه ، فلقد انكسر حُب (إناء كبير) لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفًا أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه .

أول خطبة خطبها رسول الله :

قال ابن إسحق :

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، واستجمع له إسلام الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى :

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمُنّ والله ليصعـَقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه من دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينًا وشمالا فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار

ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

قال ابن إسحق :

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم؛ وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال — فيما بلغنا عنه ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل — تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب فقال : هذا أخى .

أقول : وليلحظ القارئ الكريم الشرف الكبير الذى خُصّ به إمامنا على ابن أبى طالب بهذا الإخاء الذى شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حكمة المؤاخاة :

قال السهيلى: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشير ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عزّ الإسلام ، واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه فى سورة الأنفال : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ) ، يعنى فى الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة ، فقال تعالى فى سورة الحجرات : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ، يعنى فى التوادد وشمول الدعوة .

الأذان للصلاة واستحكام الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه أصحابه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ،

وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوّءوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، حتى رأى عبد الله بن زيد صيغة الأذان فى رؤيا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بى هذه الليلة طائف : مَرَّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده ، فقلت له يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت ندعو به للصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وماهو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلاّ الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح ، حىّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

قال : فلما أُخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتًا منك ، قال : فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه يقول : يا نبىّ الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد على ذلك .

وفى رواية أخرى : ائتمر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذ رأى عمر بن الخطاب فى المنام قائلا يقول له : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بذلك ، فما راع عمر إلاّ بلال يُؤذن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحى .

غزوة بدر الكبرى :

ألف الله بين الأوس والخزرج بأخوة الإسلام ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فصار المسلمون يداً واحدة على أعدائهم . وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بعون الله وقوته من نصر إلى نصر .

وكانت بداية النصر المبين غزوة بدر الكبرى ، وهى التى ظهرت وتجسَّمت فيها شخصية المسلمين ولو كره الكافرون . ففى هذه الغزوة كتب الله للمسلمين أول انتصار حربى وأروعه على كفار مكة الذين كادوا السنوات الطوال للإسلام وأهله واضطَرُّوا المسلمين أن يخرجوا من ديارهم لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقام القتال بين المسلمين وأعدائهم فى بدر بغير ميعاد سابق ، ولا باستعداد مدبر ، وكأن الله تعالى أراد أن يكافئ المسلمين على التآخى الصادق ، فآتاهم النصر العزيز المفاجئ ، ليكون بداية سعيدة تقودهم من نصر إلى نصر فى الغزوات اللاحقة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير عظيمة لقريش ، تحمل أموالهم وتجارتهم ، فقال لأصحابه : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فخرج بعض الصحابة وتخلف البعض حيث لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً .

ولما علم أبو سفيان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه ليأخذوا العير ، اتصل بأهل مكة واستنفرهم ليدافعوا عن العير ، وقد أفلتت العير ، ولم يتمكن المسلمون من وضع يدهم عليها ، وجاءت قوات قريش ، وعلمت بأن العير أفلتت ، ورأى بعضهم أن يرجعوا إلى مكة بغير قتال ، ولكن أبا جهل أبى وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدراً (وكانت بدر من مواسم العرب) فنقيم عندها ، ثلاثاً ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان (الجوارى) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فأمضوا رأيه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة لبضع ليال مضت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وأتاه الخبر بأن قريشاً خرجوا من مكة

ليمنعوا عيرهم ، فاستشار أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فأحسنوا القول وأظهروا الطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يسائل القارئ نفسه : ولماذا يستشير الرسول أصحابه ، وهو المطاع أمره بلا تعقيب ؟ والجواب أن الله تعالى قال له : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) . وقال فى المؤمنين : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ،فسنّ لنا صلى الله عليه وسلم الشورى فى الأمور العامة ، وسبقنا بذلك كل الأمم ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإن بيعة العقبة قامت على أن يحمى الأنصار الإسلام فى المدينة ، وكانت بدر خارج المدينة وبينها وبين المدينة نحو ١٥٠ كيلومترًا .

ولما رأى رسول الله قوات قريش قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم (أهلكهم) الغداة .

وقد وعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمكنه من أعدائه ، إما بالاستيلاء على عير أبى سفيان أو بالنصر على جيش قريش . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تكون لَكمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) .

وقد أراد الله أن يقع القتال بعد أن أفلتت العير فكانت الحرب ذات الشوكة ، وقد كانت معنويات الصحابة قوية على الرغم من أنهم حين خرجوا من المدينة لم يكن فى حسابهم قيام الحرب مع أعدائهم ، ولترى صورة مشرقة لشجاعة الصحابة ومعنوياتهم القوية فى لقاء أعدائهم الكافرين اقرأ ما قاله عندما شاورهم الرسول فى القتال كل من سيدنا المقداد بن عمرو وسيدنا سعد بن معاذ :

فقد قال الأول : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ،فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هٰهنَا

قَاعِدُونَ) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إننا معكما مقاتلون .

وقال الثانى : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله .

فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

(وسعد بن معاذ — رضى الله عنه — هو رئيس الأوس من الأنصار ، وهو الذى أشار ببناء عريش يستظل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فى إبداء رأيه هذا : يا رسول الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام — يا نبى الله — ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ثم بُنِيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه) .

وعلى الرغم من أن عدد مقاتلى مكة كان ثلاثة أمثال عدد المقاتلين من الصحابة فإن الله تعالى قد نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة ، وقد شاء الله أن يقتل فى تلك الغزوة صناديد قريش ورءوس الكفر ، وعلى رأسهم أبو جهل أعدى أعداء الإسلام .

وقد رأيت صوراً مشرقة من كلام أسلافك الغراميامين قبل المعركة ، فانظر إلى صورة مشرقة من أفعالهم فى المعركة ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرّض المؤمنين على القتال ويتوسل : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل

فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال سيدنا عُميْر بن الحمام من بنى سلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن: بَخٍ بَخٍ (كلمة إعجاب) أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل ، رضى الله عنه .

وقد خفق رسول الله خفقة بعد أن دعا ربه بالنصر ، ثم انتبه من خفقته ، وقال لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وكان معه فى العريش الذى يشرف منه على المعركة : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (الغبار) .

وكان النصر للمؤمنين ، وقتل من الكافرين سبعون ، وأُسِرَ سبعون ، فى حين لم يزد عدد شهداء المسلمين على أربعة عشر رجلا . وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

الملائكة فى غزوة بدر الكبرى :

ويحكى القرآن الكريم ما كان من عون الله للمسلمين فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقولُ لِلْمُؤمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكم مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ ربُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ولِتَطمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم * لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ) ؛ فانظر كيف تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمدّهم الله بثلاثة آلاف ، فأمدهم بخمسة آلاف ، وكيف قاتلت الملائكة فى صفوف المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بقتالهم ، فعلّمهم الله بقوله الكريم فى سورة الأنفال : (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِين كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)، فعلَّمهم ضرب الرقاب وضرب الأطراف التى يصيبون بها المقاتل ؛ ولله جنود السموات والأرض ، وقد قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا فيما سواه عددًا ومددًا لا يضربون.

أقول : ولك أن تعجب بأمر تلك الهجرة الميمونة، التى جعل الله بها من الغربة وطنًا، ومن الضعف قوة ، ومن الخوف أمنًا ، ومن البعيد عونًا على القريب، ولله يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

الأنصار يتحدثون بنعمة الله :

قال ابن إسحق :

« وقال أبو قيس صرمة بن أبى أنس (من بنى النجّار) يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خصهم الله به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يُذَكِّرُ لو يلقى صديقًا مواتيـا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيـا
فلما أتانا أظهر الله دينـه ... فأصبح مسروراً بطيبة راضيـا
وألفى صديقًا واطمأنت به النوى ... وكان له عونًا من الله باديـا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريبًا ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل ما لنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيـا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعًا وإن كان الحبيب المصافيا
فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيـا

عداوة اليهود والمنافقين :

قال ابن إسحق :

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغيًا وحسداً وضغنًا ، واستتر بالإسلام بعض العرب ، واتخذوه وقاية من القتل ، ونافقوا فى السر وكان هواهم مع اليهود .

ولما أصاب الله عز وجل قريشًا يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود فى سوق بنى قينقاع حين قدم المدينة ، (أى بعد معركة بدر) فقال : يا معشر اليهود : أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشًا ، فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لايعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالىٰ فى ذلك من قولهم :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ) .

إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن إسحق :

وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالمًا ، قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته ، واسمه ، وزمانه الذى كنا نتوكف (نترقب) له ، فكنت مسرًّا لذلك ، صامتًا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة

ابنة الحارث تحتى جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَبَّرتُ ، فقالت لى عمّتى حين سمعت تكبيرى : خيّبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت .

فقلت لها : أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نُخْبَرُ أنه بعث مع نفس الساعة (أى رسالته علامة على قرب القيامة) ؟ فقلت لها : نعم ، فقالت فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله : إن يهود قوم بهت (على الباطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى .

فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمّتى خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها .

قال ابن إسحق :

وفى أحبار اليهود الذين لم يسلموا ، وفى المنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، وقال الله للفريقين : (يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ

لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه ، ثم قال تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

قال ابن إسحق :

حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه : قال : قالوا : فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . قال : كنا قد علوناهم ظهراً فى الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبيًّا يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش فاتبعناه كفروا به .

كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك فى كتابكم :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً) ، وإنى أنشدكم بالله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباط المن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبرتمونى : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه .

قال ابن إسحق:

وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه ، قال فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه ، فقال : خفِّض عليك يا محمد ، وجاءهم من الله بجواب ما سألوه عنه (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ[1] * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

فلما تلاها عليهم ، قالوا : فصف لنا يا محمد كيف خَلقه؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له مثل ما قال له أول مرة وجاءه من الله بجواب ما سألوه ، يقول الله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

---

(١) الصمد أى الذى يلجأ الناس إليه .

قال ابن إسحق :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغّبهم فيه ، وحذّرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهما : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ!) .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض اليهود وقالوا له : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلهًا غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله فيهم وفى قولهم فى سورة الأنعام : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

وأتى رسول الله جماعة من اليهود فقالوا : أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به الحق من عند الله ؟ فإنا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به ، فقالوا عند ذلك : يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله : تجدون ذلك مكتوباً عندكم فى التوراة ، فقالوا : يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاءُ ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا

جئناك بمثل ما تأتى به ، فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

بين الرسول والمسيحيين

قال ابن إسحق :

وقد ذكر الله أمر عيسى ردًّا على من اختلفوا فى أمره ثم قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) فَإِنْ قالوا خلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا .

ثم قال تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) ، أى بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره ، (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) .

وقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الملاعنة فقالوا : دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، وخلوا « بالعاقب » وكان ذا رأى فيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمداً نبيّ مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبيًّا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادِعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألّا نلاعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا .

أقول : وللقارئ أن يعجب من هؤلاء الذين رأوا الحق بأنفسهم وجحدوه ولم يتّبعوه ، فحرموا أنفسهم من سعادة لا شقاء بعدها ، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الغزوات والبعوث والسرايا :

وفى أثناء إقامته بالمدينة جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين ، عربهم ويهودهم ، وكان جهاده لأعداء الدين جهاداً كبيراً ، قابل فيه المسلمون الشدائد بعزم مؤكد ، هو عزم أهل اليقين الذين تهون عليهم كل تضحية فى سبيل الدين ، ولا تعجب أن يكون ذلك شأنهم ، وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يتقون به إذا حمى الوطيس ، كما حدّث إمامنا على بن أبى طالب ، فقد قال كرّم الله وجهه : « كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو » ، وكانت للمسلمين بعون الله الغلبة الفائقة على أعدائهم ، ورضى الله عن إمامنا البوصيرى إذ يقول فى بردته المباركة بروحه الملهمة :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة[1] أجفلت غفلا[2] من الغنم
مازال يلقاهمو فى كل معترك حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم[3]
يجر بحر خميس[4] فوق سابحة يرمى بموج من الأبطال ملتطم

---

(١) النبأة : أى الصرخة الشديدة .
(٢) الغفل : أى البليد .
(٣) الوضم : ما يضع عليه الجزار اللحم .
(٤) الخميس : الجيش الكبير .

من كل منتـــدب لله محتســـب | يسطو بمستأصل للكفـــر مصطلم[١]
حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم | من بعد غربتها موصولـــة الرحم
مكفولة أبداً منهم بخـــير أب | وخـــير بعـــل فلم تيتم ولم تئم
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم | ماذا رأى منهمو فى كل مصطدم
وسل حنيناً وسل بدراً وســـل أحداً | فصول حتف[٢] لهم أدهى من الوخم[٣]
شاكى السلاح لهم سيما تمـــيزهم | والورد يمتاز بالسيما من الســـلم[٤]
كأنهم فى ظهور الخيل نبتُ ربًا | من شِدة الحزم لا من شَدَّةِ الحزم
ومن تـــكن برسول الله نصرته | إن تلقه الأسد فى آجامها تجم
أحـــل أمته فى حـــرز ملتـــه | كالليث حل مع الأشبال فى أجم

قال ابن إسحق :

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزوة هى : غزوة ودان أو غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى التى قتل فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بنى سليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان أو ذى أمر ، ثم غزوة بحران ، ثم غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بنى النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع ، ثم غزوة بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بنى قريظة ، ثم غزوة بنى لحيان ، ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك .

وقد قاتل صلى الله عليه وسلم منها فى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف .

وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية .

---

(١) مصطلم : أى مهلك .

(٢) الحتف : هو الموت .

(٣) الوخم : هو الوباء .

(٤) السلم : شجر له شوك يشبه شجر الورد .

فرض الهجرة :

خرج المسلمون مهاجرين بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته صلى الله عليه وسلم ، ثم عادوا إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فاتحين ، وكانت الهجرة فرضاً على المسلمين قبل فتح مكة ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة مفروضة ، لكن جهاد ونيّة ، ولهذا قال تعالى فى سورة النساء آمرًا بالهجرة وحاضًا عليها ، ومنذرًا المتخلفين عنها قبل الفتح: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) .

أصحاب الأعذار :

وقد عذر الله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم تتهيأ لهم أسباب التخلص والزاد والراحلة حتى يهاجروا للحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ . . . . .) قال رجل من المسلمين وهو مريض ، وقيل اسمه ضمرة بن جندب ، والله مالى من عذر ، إنى لدليل فى الطريق ، وإنى لموسر ، فاحملونى فحملوه فأدركه الموت فى الطريق ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بلغ إلينا لتم أجره ، وقد مات فى التنعيم[1]. وجاء بنوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بالقصة ، فنزلت الآية الكريمة : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيماً) .

---

(١) مكان خارج مكة ببضعة كيلومترات ، ويحرم منه للعمرة ويقال له مسجد عائشة .

وقال الإمام البيضاوى فى تفسيره : إن ذلك المهاجر التَّقِىّ أشرف على الموت ، فصفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ؛ وتفيد الآية أن أجره ثبت عند الله ، والمراغم هو المتحول ، وهو من الرغام أى التراب ، وقيل يجد طريقًا يراغم بسلوكه قومه ، ويفارقهم على رغم أنوفهم ، وهو أيضًا من الرغام .

الفرار بالدين :

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى : قال ابن القاسم : سمعت ما لكًا يقول المراغم الذاهب فى الأرض ، وقال الإمام مالك أيضًا : هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق ، والهجرة التى كانت فرضًا فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم وانقطعت بفتح مكة هى القصد إليه صلى الله عليه وسلم ، أما الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام فهى باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

نصيحة :

أقول : فانظر كم تحمّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم تحمّل أصحابه ، وكم قاسوا الشدائد واقتحموا الصعاب فى توطيد دعوة الحق ، فلا تستهن أيها المسلم بدعوة الإسلام التى أتتك بيضاء كاللبن من بين فرث ودم ، وشد يديك على دينك ، واعتز به ، واحمد الله على هداك ، وانو الجهاد بنفسك ومالك إن دعيت للجهاد فى سبيل الله ، وجاهد نفسك التى بين جنبيك وألزمها آداب الإسلام ظاهرها وخافيها ، فالآداب الظاهرة حفظ الجوارح ، والآداب الخافية حفظ القلوب والأرواح ، ولا خير فى ظاهر لا يتفق معه الباطن ، وقد تعبّد الله الجوارح بالأفعال ، وتعبّد القلوب بالنّيات ، واجتنب الفواحش الباطنة ، والأخلاق الشيطانية السيئة من الرياء والنفاق والحقد والحسد ، والتبرم بالمقدور ، والكبرياء والعجب والخيلاء وما إلى ذلك .

ولتعلم أيها الأخ المؤمن أن أسلافك الشجعان الأمناء رووا لى ولك ولكافة المسلمين ، أنه كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء ، والسخاء ،

والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والحلم ، والصبر ، والعفو ، والصفح ، والرأفة ، والرحمة ، والمداراة ، والنصيحة ، والسكينة ، والوقار ، والتواضع ، والافتقار ، والجود ، والسماحة ، والخضوع ، والقوة ، والشجاعة ، والرفق ، والإخلاص ، والصدق ، والزهد ، والقناعة ، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء والبكاء ، والخوف ، والرجاء ، واللياذة ، واللجأ ، والتهجد ، والعبادة ، والجهاد ، والمجاهدة — ولا تستكثر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد شهد الله تعالى له بالخلق العظيم فى قوله الكريم : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، فتخلق بأخلاقه ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وقد سئل الإمام سهل التسترى رضى الله عنه عن الكرامات ، فقال : وما الكرامات؟ إن الكرامات شىء ينقضى لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك خلقاً محموداً . كما قال الإمام أبو على الجرجانى رضى الله عنه : كن طالباً الاستقامة لا طالبا الكرامة ، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة . وقال الإمام الجنيد رضى الله عنه لرجل رآه فى رؤيا بعد موته وقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : راحت تلك الإشارات ، وطاحت تلك العبارات ، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها عند السحر . وأخيراً لاتنس أن الله تعالى يقول لنا :

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) . والتقوى كما عرفها إمامنا علىّ كرّم الله وجهه هى الخوف من الجليل ، والعمل بما فى التنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

أقول : وإذا كان الإسلام قد انتشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير الجزيرة العربية التى شعّ منها نور الإسلام فيها على يد رسول الله ، فمحا ظلمة الكفر ، فقد كان ذلك بفضل أصحابه الكرام ، الذين نقلوا عنه صلى الله عليه وسلم الجهاد الدائم فى سبيل الله ، مهما عظمت التضحيات لنشر دينه الذى أرسله الله به لكافة البشر ، فلمن تبذل مجهودك إن لم تبذله لمعبودك ، ألم يقل الله لى ولك وللمسلمين كافة (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً) ، فادع إلى سبيل ربك بكل ما تملك من وسائل، وادع أول ما تدعو نفسك التى بين جنبيك وهى الأقرب إليك، لتؤدى حق الإسلام عليك ، ولتكن عنايتك بنشر الإسلام بعد ذلك بين أهله من المسلمين ، فقد جانبوا أكثر آدابه الحقة ، وحادوا فيها عن الصراط المستقيم ، ولولا أن الإيمان بالله، ورسوله لا يزال يحلّيهم ليئسنا من إصلاحهم ، فقد تعادوا أفراداً وشعوباً وقبائل وأمماً وكانوا متحابين ، وتحاسدوا وكانوا بما آتى الله بعضهم فرحين ، وأهملوا العبادات بعد أن كانوا بها يزدهرون ، وولعوا بتقليد غيرهم بعد أن كان الناس بهم يقتدون ، وما أغناهم عن التقليد ، وما أحوج غيرهم إلى عقيدة الإسلام وآدابه التى أغنانا الله بها من فضله، فوا إسلاماه !! ، وإذا كنا فى الماضى نعز و ما حل بنا من فساد الأحوال للاستعمار، فقد نفضنا عاره عنا وصرنا أحراراً فى بلادنا الإسلامية وتهيأت لنا فرصة لإصلاح ما فسد .

فإن نحن أبرزنا أثر الإسلام فى سلوكنا كأمة ، كانت تلك أعظم رعاية عملية للإسلام فاستغنينا بها عن كثير الكلام ، إن الأمم الأعجمية رحبت بالإسلام حين رأوا من أسلافنا الصالحين عدلا شاملا فى الأحكام ، تنفيذًا لأوامر الله، فقد قال تعالى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ، فإن نحن انتهينا عن الفحشاء والمنكر والبغى عادت لنا سيرتنا الأولى ، وكنا كأسلافنا صالحين .

نحن وأسلافنا الصالحون :

وإذا ذكرت أسلافك الصالحين أيها القارئ الكريم فاستغفر لهم كما علمك الله بقوله تعالى فى سورة الحشر : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِين سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيم) .

لقد جاءك الإسلام يا أخى سهلا ، لأنهم تحمّلوا عنك فيه الصعب ، فاذكر الفضل لأهله ولا تكن من الجاحدين ، فما أبر الخاف إن ذكروا بالفضل السلف ، وما أحق سلفك بوفائك ، وما أجدرهم بدعائك وهم فى رضوان الله ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاصدق معهم فيما أدبك الله به ووجهك إليه ،وكيف تبخل عليهم بدعائك وقد جادوا من أجلك بأرواحهم ، وخلفوا لك السعادة فى إسلامك ؟!

الباب السادس

الإسلام فى الحرب والسلم

دعوة الإسلام سلمية :

كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول أمرها سلمية ، وظل يسالم أعداءه ، ويصبر على ما يلقى هو وأصحابه من أذاهم السنوات الطوال ، ذلك الأذى الذى تفنن فيه الأعداء من ضرب وشتم ومقاطعة وإخراج وإحصار ، يحمل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم صابرٌ محتسب ، يعفو ويصفح الصفح الجميل بأمر ربه ، ولكنّ أعداءه لكفرهم وخستهم لم يزدهم صفحه إلا عتُوًّا وغروراً ، وهى شيمة النفوس الخبيثة التى لا تزداد بحسن المعاملة إلا تمرداً ونكراناً .

وقد فكر بعض المؤمنين أن يردُّوا على العدوان بقتل من يستطيعون قتله من الكفار بالاحتيال والغدر ، ولكن الله تعالى نهاهم عن ذلك بقوله تعالى فى سورة الحج : (إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) ، وفى الآية نهى صريح عن الخيانة والغدر .

الإذن للمسلمين بالقتال :

ثم أباح الله للمؤمنين أن يقاتلوا أعداءهم وجهًا لوجه ، كما مر عليك ، ووعدهم النصر على أعدائهم ، فقال تعالى فى سورة الحج بعد الآية السابقة : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حقٍّ إلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

وجاء الإذن بالقتال كما علمت بعد بَيْعة العقبة التى بايع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصارَ على أن يأتى المدينة ويحموه كما يحمون أنفسهم وأهليهم . وكانت أول وقعة بين المسلمين وأعدائهم غزوة « بدر الكبرى » فى السنة الثانية من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وتم له فيها النصر المبين ، مع أن عدد أصحابه كان أقل من ثلث عدد أعدائهم ، ولكنّ الله أيده بجنود من السماء لاتراها العيون وتراها القلوب بنور اليقين ، وذلك النصر المبين هو الذى يَمُنُّ به الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى فى سورة آل عمران :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

التحريض على القتال :

وانظر كيف يحرّض الله المسلمين على القتال ، فيبين لهم فضيلة الاستشهاد فى سبيل الله ، وذلك فى قوله تعالى : (ذٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) .

ثم إنه تعالى يحذرهم من التباطؤ فى التجمع للحرب تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول تعالى فى سورة التوبة : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ

اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

كما أنه تعالى يُسَوِّغُ لهم القتال المشروع ؛ فيقول كذلك فى سورة التوبة : (أَلَا تُقَاتِلُون قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

ويبين سبحانه أنه ولِىّ المؤمنين ولا يتخلى عنهم فى قتالهم فيقول فى سورة التوبة بعد ذلك : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حكيمٌ) .

ولما حظر الله على المشركين دخول الحرم بقوله تعالى فى سورة التوبة : (يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلايَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هٰذَا) ، ورأى المسلمون أن ذلك سيؤثر فى أرزاقهم التى كانت ترتبط بتجارة المشركين ، طمْأَنهم سبحانه بقوله الكريم : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[1] فَسوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

ومما عوضهم الله به أن فرض الجزية على أعداء المسلمين ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دين الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) .

---

(١) فقراً .

الشدة على الأعداء :

ثم انظر كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى يعلم أنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، فيأمره بأن يعامل الكفّار والمنافقين بالغلظة التى يستحقونها ، فيقول سبحانه فى سورة التوبة : (يـٰأَيُّها النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) ، وهى آية نسخ الله بها ما كان قبل القتال من العفو والصفح والصلح .

ويبين الله تعالى حكمته فى قتال الكفّار بأن قتالهم إنما شرعه لدفع باطلهم وصدهم عن سبيل الله ، فهو يدفع بأهل الإيمان ، وهم أهل الحق ، أعداءهم الكافرين وهم أهل الباطل ، وذلك يتضح من قوله تعالى فى سورة القتال : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَق مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) ، والمراد التخيير بين الأسر وبين المَن بالإطلاق وبين أخذ الفداء من الأسرى .

تعاون المؤمنين :

وكما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغلظ على الكافرين فى جهاده لهم ، أمر كذلك المؤمنين بالغلظة عليهم اقتداء به صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى فى سورة التوبة : (يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ

الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال العرب ، ثم قصد الروم بعد العرب وكان الروم بالشام .

وبيّن سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه يحب تعاون المؤمنين وترابطهم فى قتال أعدائهم ، فقال عز وجل فى سورة الصف : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) ، والبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً .

المتخلفون عن القتال :

وقد وبخ الله الذين تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال تعالى فى تقريعهم فى سورة التوبة : (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ[1] فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يخرجوا للحرب جملة ، شبّاناً وشيوخاً ، فقال تعالى : (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، حتى لقد رُوِىَ عن أنس رضى الله عنه أن أبا طلحة قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا)

---

(١) المخمصة معناها الجوع .

فقال : أى بَنى ، جهِّزونى ، جهزونى . فقال بنوه : يرحمك الله ، وقد غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات ، ومع أَبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، قال : لا ، جهِّزونى ، فغزا فى البحر فمات فى البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أَيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير رضى الله عنه . وقال الزهرى : خرج سعيد بن المُسَيِّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنّكَ عليل ، فقال : استنفر اللهُ الخفيفَ والثقيلَ ، فإن لم يمكنى الحرب كثَّرتُ السوادَ وحفَظْتُ المتاع[1] .

جهاد التفقه فى الدين :

وبينما قال تعالى : (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً . . .) بيّن لهم أَن التفقه فى الدين من لوازم المسلمين ، وهو نوع آخر من الجهاد المفروض على فريق منهم لاحتياجهم إليه فى الوقوف على أَحكام دين الله تعالى ،فقال عز وجل فى سورة التوبة : (وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ، وفى هذا إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة ، وهو فرض كفاية فى التخصص إن أَداه البعض سقط عن الآخرين ، فإذا تفَقّه البعض كانوا مرجعاً للآخرين ، بدليل قوله تعالى فى سورة النحل : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) . والتفقّه بغير تخصص فرض على كل مسلم ومسلمة ، حيث يلزم الكل أَن يعلموا أَحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج حتى تتم تأْدية هذه الفرائض على الوجه الشرعى الصحيح ، ولهذا قال أَنس ابن مالك رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «طَلَبُ العِلمِ فريضةٌ على كل مسلم» . وقال الربيع : سمعت الشافعى يقول : طلبُ العلم أَوْجبُ من الصلاة النافلة .

---

(١) يريد أن يقول إنه بخروجه يزيد فى عدد المقاتلين ، وإن لم يستطع قتال الأعداء فإنه يستطيع أن يكون حارساً ويحفظ متاع المقاتلين من الضياع .

جزاء المجاهدين :

وإذا أردت أن تستبشر بما أعده الله للمجاهدين فى سبيله فاقرأ قوله تعالى فى سورة التوبة : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقد جاء فى معناها فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه : «وهو عوض عظيم لا يُدَانيه المُعَوَّض ولا يقاس به ،فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه فى البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال فسمَّى هذا شراء . وروى الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن فوق كل بِرٍّ بِرًّا حتى يبذل العبد دَمَه ، فإنْ فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك» وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال الحسن : ومرَّ أعرابى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ . . .) ، فقال : كلام مَنْ هذا ؟ قال : كلام الله ، قال : بيع والله مُرْبِحٌ لا نُقيله ولا نَسْتقيله، فخرج إلى الغزو واستشهد .

الإسلام والقتال :

إذا قرأت فى كتب المبشرين ، أو كتب من يشايعونهم أو يتأثرون بهم ، فلا تنخدع بقولهم إن الإسلام لم ينتشر بمزاياه ، وإنما انتشر بحد السيف ، واستمع إلى ما يقوله فى دفع هذه الفرية العلامة «عباس العقاد» رحمه الله فى كتابه «عبقرية محمد» :

« فالحقيقة الأولى أن مطعن القائلين بأن دين الإسلام دين قتال إنما يصدق — لو صدق — فى بداءة عهد الإسلام يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح .

« لكن الواقع أن الإسلام فى بداية عهده كان هو المعتدَى عليه ولم يكن من قِبَلِه اعتداء على أحد ، وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية ، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك ، (وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

« وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه ،

« وحروب النبى عليه السلام — كما أسلفنا — كانت كلها حروب دفاع ، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود وحروبه مع الروم ، ففى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره .

« والحقيقة الثانية ، أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع ،

« ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف "سلطة" تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه ،

« ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية ، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة ، وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف . . .

« وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هى التى كانت

تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء . . .

« والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها .

« فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح ؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) .

« والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ * فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) .

« . . . إن الإسلام شرع الجهاد ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلَّا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلَّا بحقها وحسابهم على الله » ، وجاء فى القرآن الكريم : (فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا) .

« وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلاداً غير بلاد العرب ، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح ، إلا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ، ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة فى الإسلام ، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور ، وقد ظهر الإسلام قبلها ، وتمكن فى أرضه ، واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله .

« ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها ؛ فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه ، لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم ، ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما ، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه ،

« هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية ، والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب ،

« . . . . والمقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها ، تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع ، فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام ، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه » .

ويقول العلامة العقاد ، رحمه الله ، فى كتابه « حقائق الإسلام » :

« وقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدعوة الإسلامية إلى قوة السيف ، وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت ، وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وإندونسيا والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار لا يكفى لتحويل الآلاف المعدودة — فضلا عن مئات الملايين — من دين إلى دين .

« ولقد عزى انتشار الإسلام بين السود من أبناء القارة الإفريقية إلى سماح الإسلام بتعدد الزوجات ، وما كان تعدد الزوجات بالأمر الميسور لكل من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الإسلامى بغير مجهود ، ولكنهم يجدون الخمرة ميسرة لهم حيث أرادوها ، وقد حرمها الإسلام أشد التحريم ، فلم ينصرف عنه السود لأنه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل إنها كانت شائعة بينهم شيوع الطعام والغذاء » .

ثم يقول العلامة العقاد رحمه الله :

« إنما هو شمول العقيدة الإسلامية دون غيره ، هو العامل الذى يجمع إليه النفوس ويحفظ لها قوة الإيمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة ، كلما تفتحت أبوابها أمام المدعوين إليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين » ،

ويستطرد قائلا :

« قلنا فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن " الإسلام فى القرن العشرين " :

« . . . . ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا فى عبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ، ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه، ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام كان الدين كله حكراً للكاهن ووقفاً على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة ،

« . . . . إن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ، ودخولهم أفواجاً فى عقيدة المسلمين ،

« مثل هذا لا يحصل فى أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك إليك فإننى لا أومن به ، لأننى لا أومن بك ، ولا أرى فى سيرتك مصداقاً لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه .

«كلا ، ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين ، وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به ، لأنه إله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله ، أو يعطيه من نعمته قواماً لروحه : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

« نعم كلهم فقراء إلى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم إلا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فإن لم يجدوا المسجد ، فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء ،

« . . . . . كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ،

« . . . . إن هذا الشأن العظيم — شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم " وحدة كاملة " لايتجلى واضحًا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الإسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الإفريقية على يد تاجر فرد ، أو صاحب طريقة منفرد فى خلوته ، لايعتصم بسلطان هيكل ، ولا بمراسيم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولاسطوة الفتح والغلبة ، فجملةمن أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون أوخمسون مليونًا بين الهلال الخصيب وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى أفريقيا وشواطئها ، إلا القليل الذى لا يزيد فى بداءته على عشرات الألوف » .

أقول : ولا شك أن انتشار الإسلام على الصورة الواسعة التى تمت بعد أن فارق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى ، إنما هى معجزة من المعجزات ، فعهدنا بالأديان التى جاء بها قبله سادتنا الرسل الكرام ، أنها كانت تضمحل بعد مفارقتهم للدنيا ، وكانت تتبدل وتتغير ، حتى فى عقيدة التوحيد التى هى أساس كل شريعة من شرائع الله تعالى ، وقد بشّر صلى الله عليه وسلم بالفتوحات التى تمت بعده ، فبشر بفتح فارس والشام ومصر . . . إلخ ، وتحققت المعجزة .

ولا شك فى أن بقاء معجزة القرآن الكريم بعده صلى الله عليه وسلم — وهى دالة بإعجازها على صدق رسالته — كان لها فضل كبير ، إن لم يكن لها كل الفضل ، فى انتشار الدعوة إلى الحد الذى انتشرت به ، فعدد المسلمين اليوم يصل إلى ربع سكان الأرض المعمورة الذين يزيدون على ثلاثة آلاف من ملايين البشر ، على حين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد مدينة صغيرة من مدننا فى الوقت الحاضر ، ويؤيدنى فيما ذهبت إليه الحديث الشريف الذى يقول فيه صلى الله عليه وسلم : « ما من الأنبياء نبى إلاأوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى

أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

والقرآن الكريم قد جلّى العقيدة الإسلامية ببلاغته الباهرة، حتى صارت واضحة بينة لا لبس فيها ولا إبهام ، فاستوى فى فهمها وإدراكها الأمىّ والمتعلم ، كما بان للقارئ الكريم من البحث السابق ، وصانها الله بحفظه ورعايته من التغيير والتحريف بفضل بقاء القرآن وهو كلام الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قتال دفاع :

وتأمَّل كيف بيّن الله تعالى أن القتال فى الإسلام إنما هو قتال دفاع وليس بقتال هجوم أو اعتداء ؛ فقال تعالى فى سورة البقرة : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) ، فجعل سبحانه علَّةَ القتال قيامَ الكفر ، فإن انتهى الأَعداء من أَهل الكفر عن الكفر بالإِسلام ، أَو قَبِلَ أَهلُ الكتاب أَن يعطوا للمسلمين الجزيَةَ كفَّ المسلمون عنهم القتال لزوال سببه باعتناق الإِسلام أَو أَداء الجزية .

ومن كل ما تقدم ترى بغير خفاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عظيماً فى حربه وسلمه ، وترك لأتباعه المسلمين خطط الحرب والسِّلم مرسومة ، يترسمون خطاه فيها ، ويهتدون بهديها ، وهم أقوياء فى الحرب وأمناء فى السلم .

فحروب النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها حروب دفاع ولم تكن حروب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد وإصرار الأعداء على القتال ، أو قتال سلطة تقف فى طريق الإسلام وتحول بينه وبين سماع المستعدين لقبول دعوته ، ولم يحتكم الإسلام الى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها كالخروج على السلطة الحاكمة أو قتال طائفة بغت على أخرى .

إعلان الحرب :

وحتى فى الإنذار بالحرب ترى عظمة الإسلام واضحة بيِّنة فى قوله تعالى فى سورة براءة: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ) ، وقد كان هناك صنفان من المشركين ، أحدهما كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر فأُمهل تمام أربعة أشهر ، والآخر كانت مدة عهده بغير أجل محدود فاكتفى معه بأربعة أشهر ليتدبر أمره ، ثم يحاربه المسلمون بعد ذلك ، فيقتل حيثما أدركوه أو يؤسر إلّا أن يتوب . أما من كان أجله أكثر من أربعة أشهر فهو الذى قال تعالى فى حقِّهم : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) . وأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انقضاء الأربعة الأشهر الحرم .

فتح مكة المكرمة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صالح قريشاً عام الحديبية على هدنة مدتها عشر سنين ، يأمن الناس فيها الحرب ، فدخلت خُزاعة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل بنو بكر فى عهد قريش ، فعَدَت بنو بكرٍ على خزاعة ونقضوا عهدهم ، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من خزاعة مستغيثين به فيما أصابهم من بنى بكر وقريش، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء لحلفائه : « لانُصِرتُ إن لم أنْصُرْ بنى كعب » ، ثم نظر صلى الله عليه وسلم إلى سحابة فقال : « إنها لتستهل لنصر بنى كعب » ، يعنى خزاعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : « إن أبا سفيان سيأتى ليشد العقد ويزيد فى الصلح وسيتصرف بغير حاجة » فندمت قريش على ما فعلت ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليُكلِّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلح ، فرجع بغير حاجة كما أخبرهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتجهز رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى مكة ففتحها الله عليه وذلك فى سنة ثمان من الهجرة .

ومما قاله شعراً عمرو بن سالم الخُزاعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى استغاثتهم به :

يارب إنى ناشدٌ محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنتَ لنا أبًا وكُنَّا ولدا ... ثُمتَ أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً عتَدا ... وادع عباد الله يأتوا مدداً
فيهم رسول الله قد تجردا ... أبيض مثل الشمس ينمو صُعُدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير[1] هجّدا ... وقتلونا ركّعاً وسجّدا

أسباب النصر :

وديننا الحنيف يقوم على اتخاذ الأسباب ، مع حسن الاعتماد والتوكل على المسبب سبحانه ، فالنصر على الأعداء إنما يكون بإعداد القوة والصبر على مكاره الحرب ، ولذلك يقول تعالى فى سورة الأنفال : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عُدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) . ولعلك ترى ما أراه من مرونة فى قوله تعالى : (مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة) ، فإن ما كان يستطيعه أوائلنا من السيوف والدروع ليس كافياً فى زماننا الذى تطورت فيه أساليب الحرب ، فاحتاج القتال للقاذفات والمدّرعات والبوارج والصواريخ والأجهزة الإليكترونية . . . إلخ إلخ ، وهى ما نستطيعه الآن من القوة فى قتال أعدائنا . ثم لعلك تتبين معنى روعة الحض على النفقة فى قتال الأعداء فى قوله تعالى : (وَمَا تُنْفِقُوا

---

(١) الوتير : اسم ماء بأسفل مكة كان لخزاعة .

مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)، فهى تضحيات، ولكنها مأجورة ومشكورة منه سبحانه وتعالى، وهو الذى كتب القتال على المؤمنين درءًا لمفسدة المفسدين فى الأرض، فقد قال تعالى فى سورة البقرة: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)، كما قال تعالى فى سورة البقرة: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

الصبر على مكاره الحرب :

ثم تطلّعْ مى إلى فضيلة الصبر على مكاره الحرب من خلال قوله تعالى فى سورة الأنفال: (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ). فهو مع الصابرين بنصره وتأييده سبحانه، وانظر كيف شجع المسلم الواحد فى ثباته أمام العشرة، ثم خفف عليهم الأمر فجعل ثبات الواحد أمام الاثنين، فإن زادوا عن اثنين جَازَ لَهُ الفرار.

صلاة الخوف :

ويبين لنا سبحانه وتعالى أهمية الصلاة فى ساحة الحرب، إذ هى عبادة تصل العبد بربه من طريق روحه وجوارحه، فيقول عز وجل مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة النساء: (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ

الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً).

فانظر كيف حرص الشرع على إقامة الصلاة فى ساحة الحرب!! وكيف لا يحرص على ذلك وللمعنويات أثرُها الكبير فى عزيمة المقاتل لأعداء الله انتصارًا لله ونصرًا لدينه ، وتأمل معى بلاغة القرآن الكريم فى رفع الروح المعنوية إذ يقول تعالى فى سورة النساء : (وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً) وحقًّا إنما يرجو المسلمون من نعيم الجنة بدفاعهم عن دين الله ما لا يَرْجُوه الكافرُ الذى يبوءُ بغضب الله ، وشتَّان بين النهايتين ويا بُعْدَ ما بيْن الفريقيْن ، فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير . وقد وعد الله أهل التقوى نصره ، فقال تعالى فى سورة الحج . (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُره إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

قبول الصلح :

وانظر إلى سماحة الإسلام فى الحرب إذ يقول تعالى فى سورة الأنفال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ، والمعنى وَإن دعوك إلى الصلح فأجبهم ، ولا عجب فى ذلك ، فإن دين الإسلام ليس فيه عدوان ولا إكراه ، بل فيه دفاع عن العقيدة ، وحماية لها من طغيان الطاغين ، حين لا تجدى معهم

غير أسلحة القتال ، ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطباً النبى صلى الله عليه وسلم فى هَمَزِيَّتِهِ :

الحربُ فى حقٍّ لديك شريعة ومن السُّموم ِ الناقعاتِ دواء

فالإسلام فى حربه إنما يدفع بها الشر الذى يقف فى سبيل الهدى ودين الحق ، فإن مدّ أعداؤه يَدَ المسالمةِ جَنَح المسلمون للسلم ، وإن كان ثمة خلاف بين العلماء فى هذه الآية ، حيث قال بعضهم إنها منسوخة ، وقال الآخرون إنها ليست بمنسوخة . فقال قتادة وعكرمة نسخها قوله تعالى فى سورة التوبة أيضًا ؛ (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ، وقوله تعالى فى سورة التوبة أيضًا : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ، وقالا كذلك : نسخت براءة كل موادعة حتى يقولوا : «لا إله إلّا الله» . أما ابن عباس ، فقال : إن الناسخ لها قوله تعالى : (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ) ، والذين قالوا إنها ليست منسوخة قالوا أراد الله قبول الجزْية من أهل الجزية . وقد صالح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر ومن بعده من الأئمة كثيرًا من بلاد العجم على ما أخذوه منهم وتركوهم على ما هم فيه وهم قادرون على استئصالهم . وكذلك صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من أهل البلاد على مال يؤدونه ، من ذلك خيبر فقد ردّ أهلها إليها بعد الغلبة على أن يعملوا ويؤدوا النصف .

قال ابن العربى فى قوله تعالى فى سورة محمد : (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ) : إذا كان المسلمون على عزةٍ وقوةٍ ومنعةٍ وجماعة عديدة وشدة شديدة فلا صلح ، وإن كان للمسلمين مصلحة فى الصلح لنفع يجتلبونه أو ضرر يدفعونه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون إذا احتاجوا إليه . وقد صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على شروط نقضوها فَنَقَضَ صُلحهم ، وقد هادن قريشًا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده .

وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التى شرعناها سَالِكة ، وبالوجوه لتى شرحناها عاملة .

أقول : وما أعظم تثبيت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى وجه أعدائه إذ يقول تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ، والمعنى أنهم إن أظهروا لك السلم كاذبين وأبطنوا الغدر خائنين ، فلا يضرّك سوءُ نيتهم فإن الله واقيك من مكرهم ودافع عنك شرّهم .

وما أروع وفاء الإسلام فى العهود القائمة بين المسلمين وأعدائهم المُهادنين ، كما يتجلى فى قوله تعالى فى سورة الأنفال : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَا يَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) ، والمعنى إذا كان لكم إخوان فى الإسلام وبقوا فى أرض الحرب ولم يهاجروا ، وطلبوا إليكم العون بقوات أو أموال فأعينوهم لاستنقاذهم من أعدائهم ، فذلك فرض عليكم ، إلا أن يستنصروكم على قوم كفار قام ميثاق بينكم وبينهم ، فلاتنصروهم عليهم حتى لاينقض العهد القائم الذى يجب أن تتموه إلى مدتهم ؛ ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطبًا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمةٌ ووفاء

الباب السابع

البشرية والرسالة

بشرية الجنس وسمو النفس :

أما أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر مثلُنا فذلك أمر مسلم به لأنه واقع الأمر الذى لمسناه ونطق به كتاب الله . لكنّ بشريته صلى الله عليه وسلم إنما هى من حيث النوع وليست من ناحية المسلك الذى يتصوره خطأ بعض الكتاب من المسلمين وبخاصة فى زماننا هذا ، حيث يضلّون سواء السبيل إما جهلا بمقام الرسالة ، أوعمداً ليقال إنهم يبحثون بحثًا حرًّا مجرداً عن التقليد ، لينالوا شهرة زائفة يبتغون بها عرَض الحياة الدنيا ، ويخسرون بها أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يرى أن الرسل الكرام يختارهم الله تعالى على علم ، ويصطنعهم لنفسه ، ويجتبيهم لحمل عبء الرسالة الكبير ، فليتدبر القارئ العزيز مثلا قوله تعالى فى سورة الأنعام : (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ؛ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عند اللهِ وعذابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) . قال الإمام البيضاوى فى تفسيره لهذه الآية :

« إن أبا جهل قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسَىْ رِهان قالوا مِنّا نبىٌّ يُوحى إليه ، والله لانرضى به إلاّ أن يأتينَا وحىٌ كما يأتيه، فنزلت (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فرد الله تعالى عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال، وإنما هى بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من

يشاء من عباده ، فيجتبى لرسالاته مَنْ عَلِمَ أنه يصلح لها ، وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه » .

رعاية الله :

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم بشر ، ولكن عناية الله الخاصة ترعاه وتحوطه فى تصرفاته مصداقًا لقوله تعالى : (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) ، وإذا أردت أن تعرف على سبيل المثال كيف كانت تلك العناية الربانية تحوطه فتدبّر قوله تعالى فى سورة النساء : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) . ثم انتقل إلى قوله تعالى فى السورة ذاتها : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) .

فقوله تعالى : (بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) يفيد أنه صلى الله عليه وسلم مؤيد فى أحكامه بين الناس بوحى ونص ، أو برأى يجرى على نهج الوحى ، فرأيه دائماً صائب ، والعصمة مكفولة له فيما يراه ، لأنه يراه بعون الله وإرشاده ، وهو بذلك يغاير المجتهدين الآخرين الذين يجتهدون ما وسعهم التفكير ، ولا يقطعون بأَنَّ ما وصلوا إليه هو الصواب الحتم ، بل يقولون ما قاله أميرُ المؤمنين عمر فى اجتهاده : فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمن عمر .

أما قوله تعالى : (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ) ، فقال ابن عطية إن استغفاره صلى الله عليه وسلم ليس من ذنب صدر منه ، وإنما يستغفر للمذنبين من أمته والمتخاصمين أمامه بالباطل (تفسير الإمام القرطبى) . والذى يؤيد ما يقول

به ابن عطية هو قول الله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يَضُرّونَكَ مِنْ شَيءٍ) . فوقاه الله تعالى من تضليلهم الذى يعود ضرره عليهم حيث أَرادوا أَن يلبسوا الحق بالباطل فى التقاضى أمامه صلى الله عليه وسلم. وما أروع تبرئة الله له من الذنب بقوله الكريم : (وما يَضُرونَك من شيءٍ) وما أدق وأَرق الصورة التى جلَّاها الله تعالى لفضله عليه بقوله الكريم : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) .

وتدبر كيف شملته الحماية الربانية من الكفار حين أَرادوا أَن يشترطوا عليه شروطاً حتى يتابعوه ، فوقاه الله من مكرهم ، فقال تعالى فى سورة الإسراء : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) . وظاهر أَن تثبيت الله له حال دون الركون إليهم ، فلم يقع منه شىء صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يوضح أَن الله تعالى لا يتركه لنفسه البشرية كغيره من المؤمنين ، بل يتولاه بالرعاية والتوفيق فى كل شئونه .

ثم انظر كيف يعلمه ربّه أن يردَّ الفضلَ إلى ربه فيما يؤيده به من الآيات ، لأَنه بشر لا يملك لنفسه شيئًا ، والله هو الفعّال لما يشاءُ ، فما شاءَ الله كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، فيقول تعالى فى سورة الإسراء : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ

مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) .

ثم انظر كيف يعلمه مرة أخرى التبرّى مِنْ حوله الشخصىّ ، ورد الأمر إلى الله تعالى الذى إليه يُرجع الأَمرُ كلّه فيقول تعالى فى سورة الأعراف : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

إن بعض الكتاب فى وقتنا الحاضر ينظرون إلى مثل هذه الآيات من طرف البشرية الخالص ، ولا ينظرون إلى عصمة الرسالة بالعناية الربانية والتوفيق الإلهى ، فإذا استند غيرهم فى موقف من المواقف إلى عصمة الرسالة ، ردّدوا آيات البشرية ليتجاوزوا بها عن العصمة ، ولو أنهم أنصفوا الحق وأنصفوا أنفسهم لما أمسكوا بطرف أريد به رد الأمر فى القضاء إلى الله تعالى فى معرض التوحيد ، وتركوا ما قضاه الله من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم ما جهل بلا مُعلّمٍ من البشر ، ومن توفيق الله الذى يحالفه فى تصرفاته فى الرضا والغضب والعسر واليسر ، فتبدو تصرفاتُه مثالية فى ثوب الحق الذى لايشوبه باطل ، والعدل الذى لايعتوره حيف ، والنزاهة التى تقتحم نزعات البشرية الطبيعية .

أعراض البشرية الجائزة :

ومما وصفه به إمامنا علىّ بن أبى طالب كما جاء فى تاريخ الطبرى . . . . « يضحك أحيانًا حتى تبدو نواجذه ، فإذا غضب لم يخنه حلمه بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين من أثر الغضب » .

أقول ذلك ولا أجهل ما يجوز على سادتنا الأنبياء فى بشريتهم من عوارض المرض والفرح والحزن والغضب والجوع والعطش إلخ ، ولكنهم فى كل تلك الأعراض التى تجوز عليهم كسائر البشر تظل مواجيدهم فى ساحة القدس الأطهر الذى تسكن إليه وتتعلق به أرواحهم بما آتاهم الله من فضله ، وذلك ما يميزهم فى بشريتهم عن غيرهم من المؤمنين ، ويبين ذلك واضحًا من قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم فى سورة المؤمنون :

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ) . فلا تلابسه بحال ما همزاتُ الشياطين ولا وساوسهم فى أى حال من أحواله البشرية صلى الله عليه وسلم ، لأنه يعوذ من همزاتهم بربّه ، فيستجيب له ويعيذه منهم ، وأنّى لغيره ذلك وهو صلى الله عليه وسلم يقول : «إنَّ الشيطانَ يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق » ، وقد جاءَ فى السنة الشريفة أن الله تعالى أعانه على شيطانه فأَسلم .

انظر إليه صلى الله عليه وسلم فى تأَثره البشرى وفى غضبه لله من الكفار أَعدائه ، وانظر كيف عطف الله عليه وقدم النصح إليه علاجاً لضيقه وتقرباً إلى ربه ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الحجر : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) . وقد أَهلك الله المستهزئين وكفاه شرهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما حَزَبَهُ أَمرٌ واشتد به كرب قام إلى الصلاة مُسبِّحاً ربه فَنَفَّسَ الله عنه شدته وفرّج كربته . وفى الصلاة صلة بالله واسترواح به عز وجل .

وبينما صوَّر الله فى الآيات السابقة ضيق صدره البَشَرى بالمستهزئين ، صَوّر عطفه الأَبوىّ وفضله النبوي بأَبنائه المؤمنين فقال تعالى فى سورة آل عمران : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

وأنت ترى مما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان محاطًا برعاية ربانية فى الغضب والرضا مع أعدائه وأوليائه ، فوقاه الله كيدَ أعدائه وصرفهم عنه ، وأعطاه الخلقَ الكريم الذى وسع به أبناءه المؤمنين فالتفّوا حوله .

الإنصاف فى البحث :

فإنصاف الرسول صلى الله عليه فى بشريته لا يتأتّى إلّا إذا نظر إليه الباحث بعينين ، لا بعين واحدة ، ولتفهَم ذلك جليًا تَدَبَّرْ قولَه تعالى فى سورة القصص : (إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) . ويقول الإمام البيضاوى فى تفسيره : «والجمهور على أن الآية نزلت فى أبى طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا عمّ قل : لا إله إلّا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، قال : يا ابن أخى قد علمتُ أنّك لصادق ولكن أكره أن يُقال خُدِعَ عند الموت . فإذا أنت نظرت بعين واحدة إلى تلك الآية قلت إنه لا أثر للرسول صلى الله عليه وسلم فى اهتداء الناس إلى ربهم ، ولكنك إذا نظرتَ بالعين الأخرى إلى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . أدركت أنه صلى الله عليه وسلم يهدى إلى الصراط المستقيم من أراد الله هدايته ، ولا تعارض بين الآيتين ، فالآية الأولى تتكلم فى معرض التوحيد ناطقة بأن الله لا يشاركه فى سلطانه أحد ولو كان رسولا نبيًّا ، والآية الثانية تتكلم فى معرض الأسباب : ناطقة بأن الله ربط الأسباب بالمسببات ، لتأتى ثمرة الارتباط لصاحبها بإذن

مسبب الأَسباب ، فَيَسْلَم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاءَ الله هدايته ، ولذلك كان أَمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحض على السعى فى طلب الرزق من أَسبابه ويقول : « لا يقعد أَحدُكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أَن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة » . واعتقاد المؤمن أَن الرزق بيد الله وحده لا يتنافى مع السعى إلى الرزق من أَبوابه أَخذًا بالأَسباب التى أَقامها سبحانه وتعالى بحكمته .

وإذا نظر الباحث بعين واحدة إلى قوله تعالى فى سورة «المنافقون» : (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ) . فإنه يظن أَن الرسول صلى الله عليه وسلم صدَّق المنافقين فى شهادتهم ، ولكن الباحث لو نظر بعينه الأخرى إلى بقية الآية حيث قال تعالى : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فإنه يرى أَن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف من المنافقين حيث أَوقفه الله ، إذ كشف له عن كذب بواطنهم التى تخفى على البشرية ولا تخفى على الله تعالى. ولعلك تلحظ معى فى الآية الكريمة مكانة الرسول عند ربه ، فقد جعل الله تعالى الاعتراف برسالته ركناً من أَركان الإيمان ، فمن لم يوقن برسالته عَدَّهُ الله منافقًا ولو أَقر بوحدانية الله سبحانه وتعالى .

إن القرآن الكريم أَظهر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثَوْبِهِ البشرى مجردًا من الأُلوهية ليصحح للناس عقيدة التوحيد الخالص ، ولكنه لم ينزل ببشرية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بشرية عوام المؤمنين .أَو خواصِّهم ، لأَن الرسالة وهب ولا تتأَتى بكسب . ولذلك نهى الله أَصحابه أَن ينادوه باسمه كما ينادى بعضهم بعضًا ، أَو يقدموا رأْياً على رأْيه ، أَو يرفعوا أَصواتهم فى حضرته ، فإن هم فعلوا ذلك فقد تعرضوا لأَن تحبطَ أَعمالهم كما حبطت أَعمال أَهل الكفر ، قال تعالى فى سورة البقرة : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) . والمراد بها الأعمال النافعة .

كما أمرهم أن يتحاكموا إليه فيما شجر بينهم وأن يرضوا بحكمه ، فإن لم يرضوا بحكمه خرجوا عن الإيمان ، قال تعالى فى سورة النساءِ : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل من رواية الفضل بن زياد : «نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو من سورة النور : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَاب أَلِيمٌ) . وجعل يكررها ويقول الفتنة الشرك ، لعله إذا رَدَّ بعض قوله صلى الله عليه وسلم أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك وجعل يتلو الآية : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شجر بينهم . . .) ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر ، خضع لقضاء الله كما يخضع البشر فى السراءِ والضراءِ ، ولكنه كان صابرًا فى البلاءِ ، وشاكرًا فى السَّراء إلى الحد الذى لا يبلغه غيره من البشر ، لأن صبره وشكره كانا بالله ولله ، فقد قال تعالى فى سورة النحل : (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ) . وقال تعالى فى سورة الزمر : (بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) . وسترى بعد قليل كيف كان الله يتولاه فى جميع شئونه الخاصة مع أزواجه وهى شئون بشرية وشخصية ، فقد نزلت براءة السيدة عائشة بالقرآن الكريم من السماء ، وقد أرشد الله نساءه الشريفات بخطاب ربانى مباشر فى كتابه الكريم فحلاً هن بأكرم السلوك والآداب ، وفوَّض له صلى الله عليه وسلم فى إرجائهن أو عشرتهن ، كما أذن له فى زواج الهبة إن وهبته نفسها إحدى المؤمنات ، وفى أن يجمع فى بيته أكثر من أربع نسوة ، وفى كل ذلك إعزاز وتوقير للرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه

مرفوع القدر بإرادة الله فى رسالته وفى بشريته عن سائر البشر . ومع تفويض الله له فى عشرة أزواجه أو تركهن ، راعى بمكارمه صلى الله عليه وسلم القَسْمَ بينهن، إيثاراً للعدل من نفسه ، فآثر الأحسن على الحسن الذى فوضه الله فيه ، وليس ذلك من طباعنا البشرية وإنما هى طباع الرسالة ، ولا تستطيع أن تجرّده من طباع الرسالة حتى فيما هُوَ مِنْ طباع البشر ، بل هو دائمًا فى المسلك الأقوم بالاستعداد الذى هيأه الله به للرسالة والذى يتعدى فى سموه مألوف البشر فى العادة . ألست ترى أنه حاسب نفسه على ميله القلبى للسيدة عائشة ولكنه رد الأمر فى حبها لله حين قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ، فلو استطاع أن يُسَوِّىَ بينهن فى المحبة لفعل ولكن القلوب بيد الله تعالى ، ولم يكن ذلك عن هوى نفسى مما يصاحبنا عادة ، ولست أطلب من المؤمنين أن يجردوه من نزعات البشر فى حبه القلبى أو فى عشرته للنساء ، وإنما أطلب منهم ألا يقيسوه بأحوالنا نحن فى اتباع هوى نفوسنا الجامح الذى يخرجنا عن سواء السبيل .

الفتح المبين والذنب المغفور :

ولشيخ العارفين سيدى محيى الدين بن عربى كلام نفيس فى معنى قوله تعالى فى سورة الفتح : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا) .فقد قال فى الباب ٣٣٩ من كتاب « الفتوحات المكيّة » :

« هو فتوح المكاشفة بالحق وفتوح الحلاوة فى الباطن وفتوح العبارة ، ولهذا الفتوح كان القرآن مُعْجزًا ، فما أعطى أحد فتوح العبارة على كمال ما أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال : (لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) أى مُعيناً .

« فقال تعالى له صلى الله عليه وسلم إنا فتحنالك فى الثلاثة الأنواع من الفتوح ، فتحـًا أكّده بالمصدر « مبينًا » أى ظاهراً ، يعرفه كل من رآه بما تجلى وما حواه ، ففتوح الحلاوة ثابت له ذَوْقًا ، وفتوح العبارة ثابت للعرب بالعجز عن المعارضة ، وفتوح المكاشفة ثابت بما أشهده ليلة إسرائه صلى الله عليه وسلم من الآيات » (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) ، فيسترك عما يستحقه صاحب الذنب من العتب والمؤاخذة ، (وما تأخر) فيسترك عن عين الذنب حتى لايجدك فيقوم بك ، فأعلمنا بالمغفرة فى الذنب المتأخر أنه صلى الله عليه وسلم معصوم بلا شك ، ويؤيد عصمته أن جعله الله أسوة يتأسى به ، فلو لم يقمه الله فى مقام العصمة ، للزمنا التأسى به فيما يقع منه من الذنوب ، ألا ترى أنه فيما أبيح له خاصة نبـّه الله إليه ، كزواج الهبة ، فإنه خالص له . وهو حرام علينا .

« (ويهديك صراطًا مستقيمًا) ، هو صراط ربه الذى هو عليه كما قال هودعليه السلام : (إنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . والشرائع كلها أنوار ، وشرعه صلى الله عليه وسلم بين هذه الأنوار كنور الشمس بين أنوار الكواكب ، فإذا ظهرت الشمس خَفِيَتْ أنوار الكواكب واندرجت أنوارها فى نور الشمس . . . . ولهذا ألزمنا فى شرعنا العام أن نؤمن بجميع الرسل وجميع شرائعهم أنها حق » .

وجاء فى حاشية الجمل على تفسير الجلالين ما يؤيد سيدى محيى الدين بن عربى ، فقد جاء فى تلك الحاشية : وقيل معنى الغفران الإحالة بينه وبين الذنوب ، فلا يصدر منه ذنب لأن الغفران هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب أو بين الذنب وعقوبته . فاللائق به وبسائر الأنبياء الأول واللائق بالأمم الثانى ، قاله البرماوى .

وقال بعض المحققين : المغفرة هنا كناية عن العصمة ، فمعنى الآية يعصمك الله فيما تقدم من عمرك وفيما تأخر منه . وقال القاضى عياض : المغفرة هنا تنزيه من العيوب .

وقال بعضهم : المغفرة هى على فرض وقوع الذنب ليزداد اطمئنانًا إلى رضوان الله الذى اصطفاه .

وقال بعض المفسرين : إن المقصود بالفتح هو صلح الحديبية الذى كان فى السنة السادسة من الهجرة ، وقال بعضهم : إنه فتح خيبر الذى تم بعد عودتهم من الحديبية وقال آخرون إنه فتح مكة .

وجاء فى الحاشية المذكورة[1] أيضًا : وقال الزهرى: «كان فتح الحديبية أعظم الفتوح وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء إليها فى ألف وأربعمائة ، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم إلى بعض ، فما مضت السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ، وقال مجاهد والعوفى : هو فتح خيبر والأول قول الأكثر . وقال الشعبى : هو فتح الحديبية ، لقد أصاب فيها ما لم يصب فى غزوة غيرها غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبويع بيعة الرضوان ، وأطعموا نخل خيبر ، وبلغ الهدى محله ، وظهرت الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس .

وقال صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة : لقد أُنْزِلَ علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً . . .) . وفى رواية : «لقد أنزل علىّ آية هى أحب إلى من الدنيا جميعاً ثم قرأ : (إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ، فقال المسلمون هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله ، لقد بيّن لك ما يُفْعل بك ، فماذا يُفْعل بنا ؟ فنزلت عليه (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِين وَالمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا) .

العقاد وعلامات الرسالة :

وصدق العلامة العقاد إذ يقول فى كتابه « عبقرية محمد » :

« ومن يكون الرسول إن كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟

---

(١) حاشية الجمل على تفسير الجلالين .

الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملة الناس، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعًا يأمرهم بالحسنى ، وينهاهم عن القبيح ، ويقرر لهم حدودهم التى لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغى أن تكون صفته الأولى — بل صفته الكبرى — أن يستغنى عن الوازع ، وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هى السليقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد ، وامتزجت بجميع أعماله وأقواله ، فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير ،

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة وليست من خارجها ، قد تلازم أو تفارق من تعروه ، وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل، يعطيه هذه المرتبة مَنْ يدين بالإسلام ومن يدين بغير الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل . . .

« فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال ، فى المقام الأول بخلقته ، وفى المقام الأول بنيته ، وفى المقام الأول بعمله ، وفى المقام الأول بالقياس إلى المشبهين له فى دعوته . .

« لأن محمداً لم يكن كارهًا لطيبات الدنيا ، ولا حاضًا لأحد على كراهتها والإعراض عنها ، فإذا قنع بما قنع فإنما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره ، كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له ، أن يحسب تلك الحظوظ غرضاً من الأغراض التى نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس .

« فليكن الإيمان إذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء ، وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون » .

ويقول رحمه الله فى موضع آخر من ذلك الكتاب :

« ظنوا أن النبى لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجاع لا يخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال ،

ولكن القلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له فى الكرم ، والقلب الذى

لايخاف لا فضل له فى الشجاعة ، والقلب الذى لايحزن لا فضل له فى الصبر . إنما الفضل فى الحزن والغلبة عليه ، وفى الخوف والسمو عليه ، وفى معرفة المال والإيثار عليه .

« وفضل النبى فى نبوته وفى أبوته أنه حزن وبكى ، وتلك هى الصلة بينه وبين الإنسان ، وبينه وبين الناس ، وأى نبى تنقطع بينه و بين القلب الإنسانى صلة كهذه الصلة التى تجمع أشتات القلوب .

العارف النابلسى وذنوب الأنبياء :

ويقول سيدى عبد الغنى النابلسى فى كتابه الفتح الربانى :

« إننا نطلق على الأنبياء عليهم السلام جميع ما أطلقه الله عليهم وأطلقوه على أنفسهم وأطلق بعضهم على بعض من العصيان والغى والذنب والفتنة وعدم براءة النفس والوزر إلى غير ذلك ، على المعنى الذى يعلمه الله تعالى وتعلمه أنبياؤه علهيم السلام ، لا على المعنى الذى نعلمه نحن ونفهمه من هذه الألفاظ عند إطلاقها ، فإنا لانفهم إلا ما نحن عليه من الأحوال والأخلاق ونحن غير معصومين وإن أيدنا بالحفظ ، والأنبياء عليهم السلام معصومون ، ونحن لا نعقل كيف ننسب هذه الأشياء إليهم لأننا لسنا فى أطوارهم ، وإنما نعقل كيف تنسب هذه الأشياء إلينا ونحن دون معاملتهم بيقين » . وهو كلام نفيس كما ترى فاحرص على الانتفاع به .

والخلاصة :

وأخيراً أعود وأقول: إنه صلى الله عليه وسلم بشر من حيث الجنس ، وفوق البشر من حيث المسلك ، لأنه قال بحق : « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى » ، كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . ومن تمم به مكارم الأخلاق لابد أن يكون كاملا لاتعتريه شائبة من شوائب البشرية الناقصة ، كما يظن أولئك الذين ينظرون إليه فى جنسه ، فيفوتهم النظر إلى كمال نفسه ، فيفوتهم قول الحق جاهلين أو عامدين .

الباب الثامن

عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم

الرسل حجة الله على خلقه :

من إحسانه تعالى بعباده أنه أرسل إليهم الرسل على فترات مُبشرين ومُنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل ، ولذلك حكى الله ما سيكون يوم القيامة بين الكافرين وخزنة جهنّم فى مثل قوله تعالى فى سورة غافر : (وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلالٍ) . ثم قال تعالى بعد ذلك : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ).

وحين يدخل الكافرون أبواب جهنم والعياذ بالله ، تتفتح أبواب الجنة للمؤمنين فيدخلونها زمرًا زمرًا فى درجاتهم وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة الزمر : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ).

تبليغ الرسول عن ربه :

وهذا الوعد الذى صدَقهم الله فيه إنما جاءهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حين بشَّرهم وأنذرهم ، ولم يخاطبهم الله تعالى مباشرة إنما خاطبهم

عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثَمّ كان الرسول الأمين على رسالة ربه فى دعوة الخلق إلى الله ، وهذه المهمة خطيرة الشأن ، عظيمة التبعة ، لا يستطيع أن يؤديها أحد من البشر إلاّ إذا أعده الله لأدائها إعداداً خاصًّا ، يتخطّى به عقبات الطباع المركوزة[1] فى البشر وإن كان فى خلقته من جنس البشر ، وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء .

اصطفاء الرسول :

فالرسالة إذن تأتى الرسل الكرام من باب الاصطفاء والوهب وليست من باب المجاهدات والكسب ، وقد نطق القرآن الكريم بذلك فى آيات كثيرة ، فى سورة الأعراف : (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِى وَبِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) . وكذلك قوله تعالى فى سورة طه : (وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى) . وقوله تعالى فى السورة ذاتها : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى) . وقوله تعالى فى سورة مريم :(وَاذكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) . وقد حاط الله سيدنا موسى بعنايته الربانية وهو طفل رضيع كما يبدو ذلك واضحاً فى قوله تعالى : (وأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وقد حقق الله وعده فردّه إلى أمه وجعله من المرسلين ، وكان من آيات الله معه أن يربيه فرعون الذى خافته أم موسى على طفلها ، وفرعون عدو الله وعدو موسى ، فانظر إلى آثار رعاية الله لخواصه حتى صَيَّر الخوف أَمْناً والذل عزًّا ، كما صير العدو مربياً وكفيلا ، وقد قتل فرعون عددًا عديدًا من أولاد بنى

---

(١) المركبة .

إسرائيل خوفاً على نفسه ، على حين كان موسى عليه السلام فى بيته وتحت رعايته ، ومَنَّ فرعون فيما بعد على سيدنا موسى عليه السلام بقوله فيما حكاه الله فى سورة الشعراء : (قَال أَلَمْ نربّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) .

وقال تعالى عن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى سورة مريم : (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نبيًّا) . ثم قال عنه : (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبيًّا)..

ويقول تعالى لرسولنا صلى الله عليه وسلم فى سورة الأنبياء : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).وطمأنه تعالى على رعايته له فى حمل أعباء الرسالة فقال تعالى فى سورة الطور : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) . ثم أوصاه فى نوع الصبر بقوله تعالى فى سورة الأحقاف : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ [١] مِنَ الرُّسُلِ) .

من فضل الله :

وفى سورة الضحى يُطمئن الله رسوله صلى الله عليه وسلم على أن الرعاية التى حاطته من صغره ملازمة له بعد الرسالة: : (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) . ويرده سبحانه إلى ماضيه وكيف كان عَوْنُ الله قائماً فيه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) . ويذكره تعالى بنعمة الرسالة التى جاءته رحمة من ربه فيقول له فى سورة القصص : (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِين * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ

(١) وهم خمسة ، سادتنا : محمد ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، نوح عليهم صلوات الله وسلامه ، وهم الذين تحملوا أعظم المشقات فى سبيل دعوتهم وصبروا عليها إرضاء لله تعالى .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ * ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . وقد صدع صلى الله عليه وسلم بأمر ربّه ، ولم يعبأ بالأذى الكثير الذى لقيه من أعدائه ، بل صبر وصابر واصطبر وهاجر ، ثم أَذِنَ له الله بالقتال ، فقاتل وجاهد بنفسه وماله حتى انتصر ، ودخل النّاس فى دين الله أفواجاً ، وكان فى كل الشدائد معتمدًا على ربّه ، قوى الثقة فيه ، كما تدرك ذلك من مناجاته التى ناجى بها ربّه فى الطائف والتى قال فيها : (... إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوٍّ ملكته أمرى ، إن لم يكن بِكَ علىّ غَضَب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى) . ولا تعجب بعد ثقته هذه فى الله أن يقول له سبحانه : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) . فَيَدُ الرسول صلى الله عليه وسلم تحرّكت حين حصب أعداءه بالحصى فى غزوة بدر الكبرى وقال : « شاهت الوجوه » ، وصحبها فى حركتها قدر الله فَعَمِيَت أبصار الأعداء وباءوا بالهزيمة وبغضب الله ، ولعلك فهمت من تلك الصور كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بَأَعيُنِ الله من مبدئه إلى منتهاه .

خطرات فكرى :

ولقد سبّح فكرى مرة فى محيطه صلى الله عليه وسلم فوجدت اسمه « محمد » عظيمـًا وغير شائع فى زمانه ، ووجدت اسم أبيه « عبد الله » فلم يكن عبد اللات ولا عبد العزى ولا عبد شمس إلخ كما كان عرفهم فى الجاهلية حين كانوا يعبدون الأصنام ، ووجدت اسم أمه « آمنة » وفيه الأمن والإيمان ، واسم أبيها « وهب » فيه الوهب الذى يفوق الكسب ، واسم مرضعته « حليمة » وفيه الحلم سيد الأخلاق وهى من « بنى سعد » وفيه سعد الأبد ، واسم حاضنته « بركة » وفيه الزيادة والنّماء والبركات ، وكُنْيتها « أم أيمن » وفيه يمن الطالع ، ثم رجعت إلى نفسى وقلت : أشهد أن اجتماع هذه الفرائد ليست من المصادفات ولكنها من الآيات والهبات ، وتذكرت عند ذلك قوله تعالى : (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً) .

النبوة والرسالة :

ومن ذلك تتبين أن النبوة لا تكتسب بمباشرة أسباب مخصوصة كملازمة الخلوة والعبادة كما ذهب الفلاسفة خطأ . ويقول سيدى الشيخ الباجورى فى حاشيته على الجوهرة ، رحمه الله :

« فالذى ذهب إليه المسلمون جميعًا أن النبوة خصيصية من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها ويفسرونها باختصاص العبد بسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى تكليفى سواء أمر بتبليغه أم لا ، وهكذا الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ ، أقول : ومن ذلك تدرك أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا .

خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم :

أقول : وقد ختم الله النبوات بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى فى سورة الأحزاب : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) . وقد كتب الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم العصمة قبل الرسالة وبعدها ، ليعده لحمل أكبر الرسالات عبئاً ، فقد جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم عامة وقامت إلى يوم القيامة ، بخلاف رسالة غيره فقد كانت محدودة ، وكانت تنتهى بموت صاحبها ، وتنسخها الشريعة التى تليها .

عصمة الرسل :

ويقول سيدى الشيخ الباجورى رضى الله عنه فى حاشيته على الجوهرة :

« وقد حفظ الله بواطن الأنبياء والرسل من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى ، فهم محفوظون ظاهراً من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، ومحفوظون باطنًا من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن ، والمراد المنهى عنه ولو صورة ، فيشمل ما قبل النبوة ولو

فى حال الصغر ، ولا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأولى ، ولا مباح على وجه كونه مكروهًا أو خلاف الأولى أو مباحًا ، وإذا وقع صورة ذلك ، فهو للتشريع فيصير واجبًا أو مندوبًا فى حقهم ، فأفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب ، بل فى الأولياء الذين هم أتباعهم من يصل لمقام تصيير حركاته وسكناته طاعة بالنيات ، وأما المُحَرَّم فلم يقع منهم إجماعًا ، وما أوْهَمَ المعصيةَ فمؤول بأنه من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » والسهو ممتنع عليهم فى الأخبار البلاغية كقولهم : « الجنة أعدت للمتقين » ، وجائز عليهم فى الأفعال البلاغية وغيرها كالسهو فى الصلاة للتشريع ، لكن لم يكن سهوهم ناشئًا عن اشتغالهم بغير الله ولذا قال بعضهم :

يا سائلى عن رسول الله كيف سها ... والسهو من كل قلب غافل لاه

قد غاب عن كل شيء سره فسها ... عما سوى الله فالتعظيم لله

« وأما النسيان فهو ممتنع فى البلاغيات قبل تبليغها ، قَوْلية كانت أو فعلية ، فالقولية كالجنة أعدت للمتقين ، والفعلية كصلاة الضحى إذا أمرهم بفعلها ليُقتدى بهم فيها ، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول والثانية بالفعل ، وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر ويكون النسيان من الله تعالى — وأما نسيان الشيطان فمستحيل عليهم إذ ليس للشيطان عليهم سبيل ، أقول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أُنَسَّى لأُشَرِّع » .

« وبالجملة فيجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدى إلى نقص ، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك لأنها متعلقة بربهم ، لأن خصوصية الأنبياء والمرسلين فى بواطنهم ، وفى المِنَن كان معروف الكرخى يقول : « لى ثلاثون سنة فى حضرة الله تعالى ما خرجت ، فأنا أكلم الله والناس يظنون أنىّ أكلمهم ، يقول الشيخ رحمه الله : فإذا كان هذا حال أحد أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما بالك بالأنبياء خصوصًا رئيسهم الأعظم صلى الله عليه وسلم .

الأسوة الحسنة والعصمة :

ويتعرّض سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى لعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الباب ١٥٩ من كتاب (الفتوحات) فيقول رضى الله عنه :

وتشترط فى حقه العصمة فيما يبلغه عن الله خاصة ويلزمه تبيين ما جاء به حتى يُفْهَمَ عنه لإقامة الحجة على المبلغ إليهم ، وعصمته فى غير التبليغ عن الله تعالى تأتيه من مقام آخر ، وهو أنه يخاطب العباد المرسل إليهم بالتأسى به فيكون التأسى به أصلا ، فإن انفرد بأمر لزمه أن يبينه ، لابد من ذلك كما قال له تعالى فى نكاح الهبة (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ).

أقول : وهو كلام نفيس من فتح الله على أوليائه ، فقد استدل على العصمة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة يقتدى به تابعوه ، فلو كانت له ذنوب وتأسَّوْا به فى إتيانها ما عاقبهم الله لأنهم قلّدوا فيها الرسول الذى وجههم الله إلى تقليده فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا) . ولهذا نبه الله المؤمنين إلى أنَّ زواج الهبة مباح للرسول وحده دون أتباعه ، فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (... وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)

وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وأقول : إن هذه العصمة التى حلى الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم هى التى جعلته أهلا لقول الله تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) . ولقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ) . ولقوله تعالى : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ). ولقوله تعالى : (وَمَنْ

يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً). ولقوله تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). ولقوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ). ولقوله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً). ولقوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ولقوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً). ولقوله تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا). ولقوله تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا) ولقوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

وهكذا ينطق كتاب الله فى آيات لا عِدادَ لها بوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به أو ينهى عنه. وفى أمره صلى الله عليه وسلم أمر الله وفى نهيه نهى الله، فهو معصوم من هوى النفوس البشرية بعصمة الله له إذ يقول تعالى فى سورة النجم: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) وفى الاستجابة له حياة أرواحنا وسعادتنا فقد قال تعالى فى سورة الأنفال: (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ). ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره لهذه الاية:

المعنى إلى ما يحيى به قلوبكم فتوحدوه، وهذا إحياء مستعار لأنه إحياء من موت الكفر والجهل. وقال مجاهد والجمهور: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية.

البشرية والعصمة :

أقول : وإذا كان الله قد عصم رسوله الكريم من الصغائر والكبائر حتى يؤدى رسالة ربه ، فوجب أن ننظر إليه صلى الله عليه وسلم فى تصرفاته بعين العصمة لا بعين البشرية التى تغلب غيره فى تصرفاته ، ولا تغلبه هو لا فى الرضا ولا فى الغضب ، ولا فى النوم ولا فى اليقظة ، ولا فى الحرب ولا فى السلم ، ولا فى السفر ولا فى الحضر ، ولا فى خاصة أهله ، ولا فى عامة المؤمنين .

إنه كما قلنا فى الباب السابق بشر ، ولكنه فاق البشر بقلب نقى ، ووحى سماوى. وصفاء خصه الله به، وأدب أراده الله له،كما خصه بعلم لا يشوبه جهل ، وهو الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، وبنور لا تلابسه ظلمة ، وبرسالة عامة خصه تعالى بها وجعله رحمة للعالمين ، وما خص الله بها عالمًا دون عالم ، بل كانت الرسالة المحمدية عامة للجميع . وصدق سيدى محيي الدين بن عربي إذ يقول فى الفتوحات — باب ٣٣٧ — : فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك من جهة القابل ، فهو كالنور الشمسى أفاض شعاعه على الأرض فمن استتر عنه فى ركن وظل جدار فهو الذى لم يقبل انتشار النور عليه وعدل عنه فلم يرجع إلى الشمس ، من ذلك منع .

ويقول شاعر الصوفية الأكبر سيدى جلال الدين الرومى فى بعض أبيات المثنوى — فيما ترجمه وشرحه الدكتور عبد السلام كفافى — عن القياس الفاسد الذى يجعل الناس يقيسون الأمور على ظاهرها لا على جوهرها وحقيقتها[1] :

« فقد ادعى هؤلاء أنهم مساوون للأنبياء وظنوا أنفسهم مثل الأولياء وقالوا : انظروا إننا بشر وهم بشر ونحن وإياهم أسارى للنوم والطعام . ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقًا لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء .

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد ، ولكن يجىء من بعضها اللدغ ومن بعضها الآخر يأتى العسل .

---

(١) مثنوى جلال الدين الرومى — ترجمة وشرح ودراسة الدكتور عبد السلام كفافى — المكتبة العصرية بصيدا وبيروت — الكتاب الأول ص ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٢ و ١٦٩ .

والغزلان نوعان كلاهما يأكل العشب ويشرب الماء ، ولكن أحدهما يجيء منه البعر ومن الآخر يأتى المسك المصفى .

ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد ، ولكن أحدهما خال والآخر حافل بالسكر . فتأمل مائة ألف من أمثال هذه الأشياء ، وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عاماً[١] فهذا يأكل فتتولد منه القذارة ، وذاك يأكل فيصبح كله نوراً إلهيًّا ،

وهذا يأكل فينبعث منه البخل والحسد ، وذاك يأكل فيفيض منه عشق الأحد ،

وهذه أرض طيبة ، وتلك مالحة رديئة . وهذا ملك طاهر ، وذاك شيطان ووحش ضار . فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز ، فالماء الملح والماء العذب شبيهان فى الصفاء ، وليس يدرى الفرق بينهما سوى صاحب ذوق ، فأدركه ، فهو الذى يعرف الماء العذب من الماء الملح . فمن الناس من يقيس السحر بالمعجزة فيظن أن كليهما مبنى على المكر . فالسحرة من أجل منازعتهم لموسى أمسكوا عصيًّا مثل عصاه ، لكن بين هذه العصىّ وتلك العصا فرقًا واسعًا ، وبين هذا العمل وذاك العمل طريق عظيم .

فهذا العمل تشيّعه لعنة الله ، وذاك العمل تقابله رحمة الله ،

وإن عمل الرجال لنور وحرارة ، وأما عمل الأخساء فاحتيال ووقاحة ،

فقد يصنع الأسد من الصوف لأجل التسول . وقد خلع بعض الناس على مسيلمة لقب أحمد فبقى لمسيلمة لقب الكذاب ، ودام لمحمد نعت أولى الألباب ،

فلو كانت الإنسانية بالصورة وحدها لتساوى أحمد وأبو جهل .

أقول : فانتفع أيها القارئ العزيز بذلك الدرس القيم وعلمه غيرك .

التفاسير النابية :

وأقول : فيجب ألا نتأثر ببعض التفاسير التى لا تتفق مع تلك العصمة بحجة أنه بشر ، لأننا إذا نزلنا ببشريته إلى بشريتنا فى نزعات النفوس وأهوائها ، فقد بخسناه حقه ، وأسخطنا الله تعالى الذى سوّاه وكمّله بأعلى درجات الكمال البشرى ،

---

(١) متوسط عمر الإنسان .

وكما أبين ذلك فى حقه عليه الصلاة والسلام ، أبينه أيضًا فى حق إخوانه من سادتنا النبيين والرسل الكرام ، فقد ذهبت بعض التفاسير إلى مالا يليق بهم فى عصمتهم وكمالاتهم الخُلُقية . وإذا كان القرآن الكريم سكت عن تفاصيل بعض هذه المسائل مع بلاغته فى كل ما جاء به ، فلا يجوز أن نأخذ بقصص واهية من رواية الإسرائيليين لا تليق بالمؤمن العادى فضلا عن رسول كريم أو نبى أمين .

صور واقعية :

ولإبراز ما أريده فى صور واقعية، أسوق على سبيل المثال القصتين الآتيتين :

١ — قصة داود عليه السلام :

جاء فى بعض التفاسير ما لا يقبله عاقل ، فقد قالوا فى قصة التحاكم أن سيدنا داود عليه السلام أعجب بامرأة أوريا فأرسله فى الحرب ليموت فيتزوجها مع أنه كان متزوجاً بتسع وتسعين زوجة فأرسل الله له مَلَكَيْن ينبهانه إلى خطئه وتلك كانت فتنته . وقد وردت القصة فى سورة ص ، فى قوله تعالى :

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) .

ويقول القاضى بن العربى فى تعقيبه على بعض التفاسير الواردة فى القصة بقوله ،

كما جاء فى تفسير الإمام القرطبى : « أما قول من قال إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل ، وأما من قال إنه نظر إليها حتى شبع ، فلا يجوز ذلك عندى بحال ، لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب .

وحكى السدّى عن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرمًا لجلدته ستين ومائة ، لأن حد قاذف الناس ثمانون جلدة وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة » .

وجاء فى تفسير الإمام البيضاوى رضى الله عنه :

« وما روى أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان ، إن صح فلعله خَطَبَ مخطوبته أو استنزله عن زوجته ، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد واسى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى ، وما قيل إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً ، وأمر أن يقدَّم حتى قُتل فتزوجها هزء وافتراء . وقيل إن قومًا قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقوامًا فتصنعوا بهذا التحاكم ، فعلم غرضهم ، وأراد أن ينتقم منهم ، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له ، فاستغفر ربه مما همّ به وأناب .

وجاء فى تفسير الإمام النسفى رضى الله عنه : . . . . فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (وإنى أنزهه عن ذلك أيضًا لأنه يتنافى مع كمال الخُلُق) . وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة « أوريا » إلى غزوة البلقاء ، وأحب أن يُقتل ليتزوجها فلا يليق من المتّسمين بالصلاح من المسلمين فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وروى أن محدثًا حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذّب المحدّثَ به وقال : « إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرتَ وكفّ الله عنها ستْراً على نبيّه فما ينبغى إظهارها عليه ، فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس » .

٢ — قصة يوسف عليه السلام :

والقصة الثانية قصة يوسف عليه السلام ، وما جاءَ فى تفسير قوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) . من أنه عليه السلام حل تكة سراويله وجلس بين شعبها الأربع وهى مستلقية على قفاها . ويعقب على ذلك التفسير الإمام النسفى فيقول : إنه باطل ويدل على بطلانه قوله : (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) ولو كان ذلك منه أيضًا لما برأ نفسه من ذلك . وقوله تعالى : (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) . ولو كان كذلك لم يكن السوءُ مصروفًا عنه. وقوله تعالى :(مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) . وقوله تعالى : (الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) . ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره . وقد سماه الله مخلصًا فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم ناظرًا فى دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء .

أقول : وواضح من بقية القصة : (واسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) أنه عليه السلام حاول الهرب منها ، فاندفع نحو الباب ، فجذبته من خلفه تحاول إرجاعه حتى قطعت القميص ، وكان قطعُه من الخلف قرينةً على براءته ، وذلك ما يحكيه قوله تعالى : (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِد شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) .

ولست أدرى كيف يجلس بين شعبتيها ليزنى بها وهو الذى استغاث

بربه قائلا : (ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) والذى راق لى من التفاسير فى قوله تعالى : (وهمّ بها) تفسير ورد فى تفسير الإمام النسفى وهو «همّ طباع مع الامتناع» لأنه تفسير يثبت له الاستعداد الجنسى الكامل ، ومع استعداد الطبع امتنع مخافَةَ الله وذلك ليدفع الله عنه أن عزوفه كان لضعف فى استعداده الجنسى فلا يكون له فضل فى مغالبة هوى النفس والخوف من الله .

نظراتى :

وفى هذا المقام أذكر خلاصة ما قلته فى محاضرة لى كانت بنادى التجارة من نحو عشر سنين وتعرضت فيها للآيات القرآنية الكريمة التى قيل إن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عوتب فيها ، وعارضت نظرية العتاب بما أرانيه الله تعالى بعد اطلاعى على التفاسير المختلفة ، وأيدت وجهة نظرى بالنصوص القرآنية مراعيًا فى ذلك مبدأ العصمة الواجبة فى حقه صلى الله عليه وسلم .

عصمته صلى الله عليه وسلم :

لا يستنكف نبى أو رسول مهما علا قدره أن يعلمه الله تعالى أو يوجهه للخير لأنهم بشر مخلوقون وما بهم من نعمة فمن الله ، لكنى حين أقول بعصمته صلى الله عليه وسلم وعصمة إخوانه النبيين حتى قبل الرسالة ، فإنما أبرئهم من أن تنسب إليهم الذنوب صغيرها وكبيرها ، لأنهم مهيأون بعناية الله لدعوة الناس إلى الحق ، وقد أعدهم سبحانه إعداداً خاصًّا وعصمهم من الصغائر والكبائر ليكونوا أسوة حسنة لتابعيهم ، أو ليس الله تعالى يقول فى سورة الأنعام : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) ، كما يقول سبحانه فى سورة الزخرف : (وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيا) . ألست

ترى أن الله تعالى اصطفى على العالمين أنبياءه ورسله الكرام عنصراً وطوية ومسلكاً إذ يقول تعالى فى سورة آل عمران : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

وهذا الاصطفاء يفسر لنا كيف نشأ حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم — وهو سليل جده الأعلى إبراهيم عليه السلام — على مكارم الأخلاق من الصدق ، والأمانة ، والعزوف عن الدنايا ، واجتناب الآثام ، وعدم السجود للأصنام ، وعدم الاستقسام بالأزلام ، والخلوة بعيداً عن المجتمع الفاسد . وكل هذه الشمائل صاحبته صلى الله عليه وسلم قبل أن تأتيه الرسالة ، دون أن يوقفه عليها أب أو أم أو مدرس ، وإذا اجتمعت له كل هذه الفضائل فى النشأة والصبا الباكر ، فإنها تزداد وتزدان فى الشيخوخة و بعد الرسالة .

وإذا كان الأنبياء معصومين قبل الرسالة و بعدها بعصمة الله الذى يسرهم لما خلقهم له ، فما ظنكم بكبيرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى طهره الله وكمله فى ذاته ، وجعله مكملا لغيره ، ولو كانت له ذنوب ما استحق أن يقول له مولاه فى تأكيد واضح : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

أما ما تعرضت له بعض الآيات مما يوهم فى ظاهره العتاب أو نسبة الذنب إليه أو مؤاخذته صلى الله عليه وسلم ، فتأويله السليم يرد الفهم إلى الرأى الصحيح ويتفق مع كماله النبوى صلى الله عليه وسلم وسأتعرض لهذه الآيات فيما يلى :

فداء أسرى بدر :

يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

يعاوننا فى تفسير هذه الآية ما رواه الإمام مسلم رضى الله عنه ، فى حديث

عمر بن الخطاب قال أبو زميل :قال ابن عباس :

فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : « ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكنى من فلان (نسيب عمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده . فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت ، فلما كان من الغد ، جئتُ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، فقلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدتُ بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيتُ لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة كانت قريبة منه صلى الله عليه وسلم) .

أقول: والقصة على هذا الوجه ليس فيها مأخذ على النبى صلى الله عيله وسلم، لأن الأمر لايعدو واحداً من اثنين ، إما أن يكون قد أوحى إليه شىء فى جواز الأسر أو حظره بتاتًا ، ولو كان أوحى إليه بالحظر شىء ما استشار أصحابه فى الأمر مع قيام النص ونزول الوحى ، وإن لم ينزل وحى فلا ذنب ألبتة فى الاجتهاد بالرأى والسير على رأى الأغلبية كما تم فى هذه المشورة . ولو كان فى اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خطأ لنقض الله الخطأ وأوحى إلى رسوله بقتل الأسرى وبرد ما أخذ منهم من الفدية ، ولكن الوحى جاء صريحًا فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (فكلوا مما غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّباً) وبذلك أعلمنا الله تعالى أنه لم يقع خطأ ألبتة .

أما ما صدرت به الآية من قوله تعالى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ) فذلك من باب تقرير المبدأ بصفة عامة

بدليل تنكير كلمة نبي إذ لم يقل الله تعالى : (ما كان للنبي) بالتعريف . ولو تأملتم فيما جاء فى الآية ذاتها بعد ذلك من قوله تعالى : (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) لاستبان لكم أن المعاتبين بهذا الخطاب هم الصحابة الذين مالوا إلى أخذ الفدية وليس النبى صلى الله عليه وسلم لأن الآية قالت (تريدون) بالجمع ولم تقل (تريد) بالمفرد ، وسياق حديث مسلم يؤيدنى حيث جاء فيه : « لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة » .

الإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك :

يقول تعالى فى سورة التوبة : (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِين) .

(عفا الله عنك) تصدرت هذه الجملة الآية ومعناها : لاشيء عليك ، أما الاستفهام فى قوله تعالى (لم أذنت لهم) وهو ما يشعر بالإنكار على التصرف لو أخذ الأمر على ظاهره ، فردنا عليه أننا لو فرضنا وقوع الذنب جدلا فقوله تعالى (عفا الله عنك) يدل على حصول العفو ، وبعد حصول العفو لا يبقى محل لأن يوجه إليه الإنكار . أما إذا لم يكن ثمة ذنب ، فلا يبقى وجه لأن يحمل الأمر على الإنكار .

وعندى أن الآية إنما جاءت مهاجمة للمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعذار غير حقيقية كذبوا فيها ولم يكونوا صادقين عند استنادهم إليها ، كما أن الآيات التالية أقرت اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم فى الإذن لهم بالتخلف إقرارًا واضحاً لا شبهة فيه لأنه تعالى يقول : (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) بل إنها توجت تصرف رسول الله صلى

الله عليه وسلم بتاج رفيع وأعظمته ، وذلك واضح من قوله تعالى : (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) . وإذن لم يرد الله أن يخرج هؤلاء المنافقون مع المقاتلين ، فإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بالتخلف وافق إرادة الله العليا لأنه ينظر فى الأمور كلها بنور الله ، فكيف ينسب إليه العتاب فى إذنه لهم بالتخلف وقد أحبه الله وكره انبعاثهم .

ولو أنكم تتبعتم سورة التوبة بعد ذلك لوجدتم أن الآية ٩٤ منها جرت هكذا : (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) . وهى تؤيدنى فى أن قوله تعالى : (عفا الله عنك لِمَ أذنت لَهم) نزلت كاشفة لبواطن المنافقين ليقف المؤمنون على حقيقتهم ولا يصدقونهم فيما ادعوا من أعذار كاذبة .

أما قوله تعالى : «(لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

فمعنى التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قبل اجتهاده فى إذنه للمنافقين فى التخلف ؛ ولأهل المعانى فى هذه الآية كلام لطيف ، فقد قالوا : إنما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم معهم فى التوبة لأنه كان سبب توبتهم ، كقوله تعالى (فإن لله خمسه وللرسول) ، وساعة العسرة التى تشير إليها الآية هى اشتداد الأمر فى غزوة تبوك على أصحابه صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لقلة الدواب ؛ فقد كان العشرة منهم يعتقبون على البعير الواحد ، وكان الاثنان من الرجال يقتسمان التمرة الواحدة ، واشتد العطش من قلة الماء حتى نحروا الإبل وعصروا كرشها وشربوه ، وبسبب تلك الشدائد كاد البعض أن يميل إلى التخلف عن الجهاد

لولا أن ثبتهم الله على الإيمان والصبر وهو ما يستفاد من قوله تعالى : (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) .

الذنب المقدم والمؤخر :

تعرضنا فى الباب السابق لهذا الموضوع من بعض زواياه وإليك زيادة فى البحث من زواياه الأُخرى . قال تعال فى سورة الفتح : (إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأَخَّر ويتمّ نعمته عليك ويهديَك صِرَاطاً مستقيماً * وينصرك الله نصرًا عزيزا) .

يتساءل قارئ هذه الآيات عن الذنب المقدم والمؤخر ، وإنى أرتاح للتفسيرين التاليين وقد تخيرتهما من بين التفاسير الكثيرة التى اطلعت عليها :

أولهما : أن وقوع الذنب على سبيل الفرض ، أى لو وقع ذنب منك فرضاً فى الماضى أو المستقبل فهو مغفور لك . وفى الترمذى عن أنس قال : أنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) . مرجعه من الحديبية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنزلت على آية أحب إلىّ مما على وجه الأرض ثم قرأها صلى الله عليه وسلم .

ولا تعجب أن يقول ذلك صلى الله عليه وسلم فإنه كان يخاف ربَّه على قدر علمه بالله ومحبته له تعالى ، وكان يقول لأصحابه : « والله إنى لأخوفكم من الله » كما كان يقول لهم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » .

ثانيهما : أن الذنب المغفور ما كان منه وما يكون هو ذنب أمته صلى الله عليه وسلم لأَنه كفيل أمته وفى الحديث الشريف : أنا حظكم من الأَنبياء وأنتم حظى من الأمم ، وهو صلى الله عليه وسلم شافع مشفَّع فى أمته ، وقد بلَّغه سيدنا جبريل رسالة من ربه يقول الله تعالى فيها له : « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك . ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قولَ الله تعالى فى إبراهيم عليه السلام (فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وقول عيسى عليه السلام

(إنْ تعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ) . فرفع يديه وقال : «اللهم أمتى أمتى» . وبكى ، فقال الله تعالى لجبريل : اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك؟ فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره ، فقال الله تعالى لجبريل اذهب إلى محمد فقل له : إن الله يقول لك إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

وقد قال الإمام على كرم الله وجهه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية من كتاب الله تعالى : (قلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) قالوا إنا نقول ذلك ، قال : ولكنا أهل البيت نقول إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (وَلَسَوْفَ يُعْطِيك رَبُّك فَتَرْضَى) . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : «إذَن لا أرضى وواحد من أمتى فى النار» ويقول الشاعر مشيرًا إلى ذلك :

قرأنا فى الضحا ولسوف يعطى ... فسرَّ قلوبَنا هذا العطاء
وحاشا يارسولَ الله ترضى ... وفينا من يعذَّبُ أو يُساء

فإن قال قائل : إن الله تعالى أمر رسوله صلوات الله عليه بالاستغفار فى قوله تعالى فى سورة محمد : (فَاعْلَمْ أنَّهُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبك وَلِلْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ) .

وهو ما يوهم أن له ذنباً منفرداً ، فالرد على ذلك أن الله تعالى أمره بالاستغفار مع عصمته لتستن به أمته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر امتثالا للأمر الإلهى ، وتواضعًا لله ، واستقصاراً لعمله فى جنب الله . وقال بعض المفسرين فى معنى «ذنبك» أى ذنب أهل بيتك، وللمؤمنين أى للذين هم فى أمتك وليسوا من أهل بيتك . وقيل إنه صلى الله عليه وسلم كان فى ترق مستمر فكان كلما رقَىَ درجة استغفر من الدرجة التى كانت قبلها ، ولذلك فسر قوله صلى الله عليه وسلم

« إنه ليغان[١] على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » بأنه غين أنوار وليس بغين أغيار .

وقد ذهب عطاء الخراساني إلى أن الذنب المقدم هو ذنب أبويه آدم وحواء حيث غفر لهما ببركته صلى الله عليه وسلم ، والذنب المؤخر هو ذنوب أمته بدعوته صلى الله عليه وسلم . وأرى في القرآن الكريم ما يؤيد ما ذهب إليه عطاء ، وأسوق على سبيل المثال مما يدل على كفالة رسول الله صلى الله وعليه سلم لأمته من آيات الله ما يلي :

(ا) قوله تعالى في سورة النساء : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً) ، في حين يقول تعالى في حق غير المؤمنين في سورة التوبة : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) .

(ب) قوله تعالى في سورة التوبة : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) . فهو صلى الله عليه وسلم بالنسبة للمؤمنين المطهر والمزكي والراحم بالدعاء .

(ج) قوله تعالى في سورة التحريم : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

(د) قوله تعالى في سورة النور : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) يغطى .

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ـ اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وهو ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم القائم على شئونهم والمستغفر لهم الله .

كما يقول تعالى فى سورة آل عمران : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ) .

(هـ) قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) ، وهو ما يفيد أن تصرفه صلى الله عليه وسلم نافذ فيهم بأمر الله .

(و) قوله تعالى فى سورة الفتح : (لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعلِمَ مَا فِى قلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً) . وقامت بيعة الرضوان على أنْ يناجز المؤمنون قريشًا ولا يفروا ولما لم يحضر عثمان رضى الله عنه البيعة ، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله لمفاوضة أهل مكة ، وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليسرى على يده اليمنى وقال : « وهذه يد عثمان ، يُسْراىَ خيرٌ من يمينِ عثمان » ، وياله من شرف كبير لسيدنا عثمان حيث مثَّلته يد الرسول صلى الله عليه وسلم .

(ز) وقوله تعالى فى سورة النساء : (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقمْ طَائِفَةٌ مِنهمْ مَعَكَ وَلْيَأْخذوا أَسْلِحَتَهمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكونوا مِنْ وَرَائِكمْ ولْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخذوا

حِذْرَهمْ وَأَسْلِحتَهمْ) . وقد جعل الله الرحمة بهذه الصلاة قسمة بين المقاتلين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيتبرك الكل به استدرارًا لرحمة الله التى تأتيهم واسعة على يديه صلى الله عليه وسلم .

وغير ذلك كثير ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، فلأمته التى استجابت له النصيب الأوفى من تلك الرحمة ، وكيف لا وقد بكى صلى الله عليه وسلم وقال : أمتى أمتى ، فقال له ربه إنا سنرضيك فى أمتك ولانسوءك . اللهم احشرنا فى زمرته وتحت لوائه يوم لقائك يارب العالمين ، وشفعه فينا بجاهه عندك يا أجود الأجودين ، ويا أرحم الراحمين .

الركون للمشركين :

يقول تعالى فى سورة الإسراء : (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَنْ لاتَّخَذوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) . أى أدركتك عصمتنا فمنعتك من أن تقرب من الركون إليهم فضلا عن الركون ذاته . وكلمة لولا تفيد انتفاء الشىء لثبوت غيره ، تقول : لولا زيد لهلك عمرو ، ومعناه إن وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو . وكذلك الأمر هنا معناه إن تثبيت الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حصل فكان حصول التثبيت مانعًا من حصول الركون .

وظاهر الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وباطنه إخبار عن ثقيف وتعريف للأمة لئلا يركن مسلم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه . وكانت ثقيف عرضت ألا يدخلوا فى الإسلام حتى يعطيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خصالا يفتخرون بها على العرب فقد قالوا : لا نُعَشَّر (أى لا يؤخذ منا العشر) ولانُحشَر (أى لا نجمع للجهاد) ولا نجبى فى صلاتنا (أى لا نركع) وكل ربا لنا فهو لنا ، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات (صنمهم) سنة ، وأن تُحَرّم وادينا كما حَرَّمت مكة فإن قالت العرب : لِمَ فعلت هذا فقل : إن الله أمرنى .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه الآية المتقدمة : اللهم لاتكلني إلى نفسي طرفة عين .

قصة الأعمى :

قال تعالى فى سورة عبس : (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) .

الأعمى هو سيدنا عبد الله بن أم مكتوم، وهو ابن خال السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنه ، وهو من أجلاء الصحابة ، وقد دعا إلى الإسلام بين الأنصار مع سيدنا مصعب بن عمير قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وكان بلال رضى الله عنه يؤذن بليل، (وابن أم مكتوم رضى الله عنه يؤذن للفجر) ، وهو بذلك من أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرد من أفراد أسرته الشريفة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزه، وقد ولاه على المدينة مرتين فى أثناء غيابه عنها صلى الله عليه وسلم فى غزوتين .

وجاء فى التفاسير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخاطب بعض عظماء قريش طمعًا فى إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان من السابقين الأولين فى الإسلام فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شىء ويلح عليه ، وود النبى صلى الله عليه وسلم أن لو كف عن سؤاله ليتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من هداية الكافر إلى الإسلام ، فأعرض عن الرد عن ابن أم مكتوم وأقبل على الرجل الآخر فنزلت تلك الآيات ، قال الثورى فكان النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : مرحبًا بمن عاتبنى فيه ربى .

وهو وإن كان عتابا ، فإنما يعاتب الحبيب حبيبه إعزازاً له وإكرامًا ، وإرشاداً لأمته وبيانًا ، ألستَ تراه تعالى يقول : عبس ولم يقل عبست ، وقال : وتولى

ولم يقل : وتوليت، اكتفاء بسرعة إدراكه صلى الله عليه وسلم، كما يقول : (كلاَّ إنها تذكرة) ولم يقل إنها مؤاخذة ، وفى ذلك من الرقة والرعاية ما فيه — ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تفسيره :

قال علماؤنا ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالـماً بأن النبى صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه صلى الله عليه وسلم لئلا تنكسر قلوب أهل الصفّة[1] أو ليعلم المؤمنون أن المؤمن الفقير خير من الغنى الكافر ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيراً ، وأصلح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً فى إيمانهم وإن كان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة، وقيل إنما قصد النبى صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان فى قلب ابن مكتوم من الإيمان .

أقول : وحاشا أن يكون تشاغل النبى صلى الله عليه وسلم ازدراء لابن أم مكتوم لفقره ، فإنه صلى الله عليه وسلم اختار فى حياته فقر المال على الغنى حين عرض عليه ربه أن يحوّل له جبال مكة ذهباً وقال : « لا يارب أجوع يوماً وأشبع يوماً ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك » ، وعندها قال له سيدنا جبريل عليه السلام : ثبّتك الله بالقول الثابت يا محمد ، ويشير إلى ذلك الإمام البوصيرى فى بردته المباركة بقوله :

وراودته الجبالُ الشمُّ مِنْ ذهب　　عن نفسه فأراها أيّـما شمم
وأكّدت زهدَه فيها ضرورتُه　　إن الضرورة لا تعدو على العِصَم

وكيف يزدرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمناً لفقره وهو القائل : « لا تحقرن صغير المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير » وكيف يحتقر واحداً من أهل الصُّفّة الكرام البررة وقد أوصاه الله بهم فى قوله تعالى فى سورة الكهف :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهمْ تريدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . كما قال له تعالى فى سورة

(١) مكان بالمسجد النبوى كان يجلس فيه فقراء المهاجرين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وهو خلف حجرات النبى صلى الله عليه وسلم ويراه زائر المسجد النبوى مرتفعاً عن مستوى الأرض التى حوله .

الأنعام : (وَلا تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبهمْ بالْغَدَاةِ والْعَشِى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَىْءٍ فتطرُدَهمْ فتكون مِنَ الظالِمِينَ * وَكذلِكَ فَتَنَّا بَعْضهمْ بِبَعْضٍ لِيَقولوا أَهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَم بالشاكرينَ *، وَإذا جَاءَكَ الذِينَ يُؤْمِنونَ بِآيَاتِنا فقلْ سَلامٌ عَلَيْكمْ كتبَ رَبُّكمْ عَلى نفسِهِ الرحْمَةَ أَنهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجهالةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

أقول : وانظر كيف يسلى الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله : (وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزكَّى) وفى ذلك من التهوين بشأن الأغنياء المعرضين عن الإيمان ما فيه ، والمعنى : ماذا يضيرك من كفرهم بعد أن بلغتهم (ما على الرسول إلا البلاغ) .

الضلال والهدى :

قال تعالى فى سورة الضحى : (ووجدك ضالاً فهدى) وخير ما وجدته فى تفسير هذه الآية الأقوال الآتية :

ليس الضلال فى هذه الآية هو الكفر ، بل المعنى : وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها .

أو : وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم إليه .

أو : وجدك ضالا عن شريعتك ، أى لم تكن تعرفها فهداك إليها .

وقيل : وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها ، وقيل وجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها .

وقيل : وجدك متحيراً فى بيان ما نزل فهداك إليه وعلمك البيان ، فيكون الضلال بمعنى التحير لأن الضال متحير ، وقيل وجدك ضالا ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش ، وقيل وجدك ضالا

أى لا أحد على دينك وأنت وحيد فهديت بك الخلق إلىّ ، وقيل وجدك ضالا ، لايهتدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك . وفى قراءة (ووجدك ضالٌّ فهدى) أى وجدك الضال فاهتدى بك .

أما السادة الصوفية فقد قالوا فى إشاراتهم الرقيقة فى معنى : (ووجدك ضالا فهدى) أى وجدناك غارقًا فى أنوارنا فهديناك لمشاهدتنا .

وجماع القول أن الله تعالى صاحب المنة على رسوله صلى الله عليه وسلم فى إيمانه وعلمه ونوره ، كما مَنَّ الله تعالى على المؤمنين برسالته فاهتدوا على يديه ، ويبدو هذا المعنى جلياً فى قوله تعالى فى سورة الشورى : (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كنتَ تدْرِى مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نوراً نهدِى بِهِ مَنْ نشاءُ مِنْ عِبَادِنا وَإِنك لتهدِى إلى صِرَاطٍ مُسْتقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الذِى لهُ مَا فى السمَوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ أَلا إلى اللهِ تصِيرُ الأُمُورُ) .

والمعنى : أن عطاء ربك واضح فيك ، فقد وهبك الإيمان والقرآن وعلمك شرع الله مع أنك نشأت أُمياً بين قوم أميين ، لم يكن لهم عهد بذلك الشرع فعلمتهم مما علمك الله حتى صاروا أئمة لغيرهم ، وذلك من المعجزات الباهرات ولو أنهم رأوك تكتب العلم أو تتلقاه من معلم لارتابوا فى نبوتك وما اهتدى على يديك من اهتدى ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة العنكبوت : (وَمَا كنتَ تتلو مِنْ قبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تخطهُ بِيَمِينِك إذن لارْتابَ الْمُبْطِلون) .

الوزر الذى أنقض الظهر :

يقول تعالى فى سورة الانشراح : (أَلمْ نشرَحْ لك صَدْرَك * وَوَضعْنا عَنك وِزرَك * الذِى أنقض ظهرَك) وتفيد هذه الآيات أن الله تعالى شرح صدر حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم للإيمان وملأه حكمة وعلمًا ، ونهل المؤمنون من

العلم والحكمة، ما أنقذهم من ظلمة الكفر وجعلهم فى نور الإيمان الذى صانهم من فتنة النفس والشيطان :

أما الوزر الذى أنقض الظهر وأثقله فهو عبء الرسالة التى عهد الله بها إليه صلى الله عليه وسلم ، وهو عبء شديد لايعين على حمله إلا الله سبحانه وتعالى ، المعنى : إن الله قوّاك فحملت عبء الرسالة على الرغم من أن حمله أنقض الظهر وجعل له قضيضاً ، وعبء الأمانة عبء شديد ولكنه تعالى أعان رسوله صلى الله عليه وسلم فحمله دون رهبة أو عجز ، فأدى الأمانة وبلّغ الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين (أى الموت) . ويصور لك عبء الأمانة قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

(إنا عَرَضنا الْأَمَانَةَ[1] على السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشفقنَ مِنها وَحَمَلها الإِنْسَانُ[2] إنهُ كان ظلوماً جَهولاً) . فكل من ضيع أمانة التكاليف الشرعية التى كلفه الله بها فهو جاهل بل جهول بِقدْر الأمانة ، جعلنا الله ممن يؤدون ما ائتمنهم الله عليه من أمور ديننا ودنيانا .

(١) هى التكاليف الشرعية من عبادات أو معاملات .

(٢) الإنسان هنا هو الذى ضيع الأمانة ولم يعطها حقها الذى أراده الله تعالى . وقد كان إمامنا على كرم الله وجهه يتغير لونه إذا حان وقت الصلاة فلما سئل فى ذلك قال : جاء وقت الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وإنما دل خوفه على تقدير أمانات الله سبحانه وذلك من خشيته وتقواه لربه تعالى ، رضى الله عنه وكرم وجهه .

الباب التاسع

الاصطبار للعبادة

بين العقل والقلب :

قال تعالى فى سورة مريم : (رَبُّ السمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنهمَا فاعْبُدْهُ واصْطبِرْ لِعِبَادَتِهِ هلْ تعْلمُ لَهُ سَمِيًّا) . وتوحى هذه الاية الكريمة لتاليها باستعمال العقل والقلب فى معرفة الله تعالى ، فللعقل برهانه وللقلب عرفانه ، فبالعقل يستدل الإنسان بالخلق على الخالق فيكون استدلال العقل مدخلا إلى عقيدة القلب ، ومن ثمّ لايتفكر إلاّ عقل سليم ، ولايعتقد إلاّ قلب طاهر ، ولا عقل أسلم من عقل رسول الله ، ولا قلب أطهر من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد تحلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلم عقل وأطهر قلب منذ الصبا الباكر ، فتهيأ بتدبير الله وعونه لاستقبال الوحى الذى أوحاه الله إليه ، فبلّغ الأمة ما أنزل إليه ، ووقف عند أمر الله ونهيه ، وكيف لا يفعل وقد قال له تعالى فى سورة هود : (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) . وشرح بقوله وفعله وحاله ما أجمله كتاب الله الكريم ، فسمع أصحابه منه ، وأخذوا عنه ، وتأسَّوْا به ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولئن كانوا لم يبلغوا الغاية التى بلغها فقد حاكوا السير على منواله ، وترسّموا خطاه ما وسعهم الجهد ، وكانوا فى هذه الأمة الصف الأول الذى يليه ، صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى فى سورة المزّمل :

(إِنَّ رَبَّك يَعْلمُ أَنك تقومُ أَدْنى مِنْ ثلثى اللّيْلِ وَنِصْفهُ وَثُلُثَهُ وطائفةٌ مِنَ الذِين مَعَك) . وقد خاطبهم وخاطبنا سبحانه فقال : (لقدْ كان

لكمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَة حَسَنة لِمَنْ كان يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذكر اللهَ كثِيرًا) .

اصطباره صلى الله عليه وسلم للعبادة :

وقد عبد صلى الله عليه وسلم ربّه ، واصطبر لعبادته ، والاصطبار هو نهاية الصبر ، فكان العابد الأول فى خَلْق الله أجمعين ، وكان بهذه العبادة إمام الأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء ، فدانوا له بالزعامة ، ورضوا بأن تكون له الإمامة كما أحب الله تعالى ، لذلك لاتعجب أن يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فيطيل القيام بين يدى ربه مصليًا ، ويكثر من قراءته فى الصلاة ، حتى كان يقرأ فى الركعة الأولى سورة البقرة وفى الثانية آل عمران ، فلا تعجب أن يحدّث عنه ابن مسعود رضى الله عنه فيقول : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطال القيام حتى هَمَمْتُ بأمر سوء ، قيل : وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه » . وقد حدّثَتْ سيدتنا عائشة رضى الله عنها فقالت : « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟ » .

تطويل القراءة :

ولتطويل القراءة فى قيام الليل ، كانت ركعاته على الرغم من طول الوقت لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة (بالوتر الذى يختم به صلاته) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجَدّ وشَدّ المِئْزَر» ؛ كما قالت رضى الله عنها : «كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى » ؛ وحدّثت أيضًا رضى الله عنها فقالت : «كان صلوات الله عليه يذكر الله على كل أحيانه » .

نصيحة نبوية :

وعن معاذ رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال : « يا معاذ ، والله إنى لأحبك ثم أوصيك ، يا معاذ لا تدَعَنّ فى دُبرِ كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرِك وشكرِك وحُسنِ عِبَادَتِك » .

العلم والعبادة :

ولما كان العلم سبيلاً لصحة العبادة ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سَهل الله به طريقاً إلى الجنة » . وشجّع صلوات الله وسلامه عليه على تطبيق العلم فقال : « من عَمِلَ بما عَلِمَ وَرثَهُ الله عِلمَ مَالمْ يَعْلَمْ » . أقول والفتح الذى شاهدناه بأنفسنا على بعض الصالحين مِصْداق لصحة ذلك الحديث ، فضلا عما امتلأت به بطون الكتب من فتوحات أسلافنا الصالحين .

همة الأولياء فى طلب الله :

وكم ظهر فى الأمة المحمدية فى كل جيل من الأولياء الذين تأسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحلوا بالهمة فى طلب الله ، وآثروه تعالى عما سواه طمعاً فى رضاه ، وهم الذين عرفهم كتاب الله تعالى ، فقال : ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خوْف عَلَيْهِمْ وَلا همْ يَحْزَنونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانوا يَتَّقون لهمُ الْبُشرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هوَ الْفوْز الْعَظِيمُ﴾ ، ويقول فى وصفهم تفصيلا الإمام أبو بكر الكلاباذى رضى الله عنه فى كتابه « التعرف لمذهب أهل التصوف » .

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم ، وزكّتْ

أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فهموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويّون ، ومع الخلق ربّانيون ، سُكوتٌ نُظّار ، غُيّب حُضّار ، ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، ونفوسهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفويّة صُوفية ، نوريّة صَفِيّة ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته فى بريّته ، ووصاياه لنبيه ، وخفاياه عند صفيه ، هم فى حياته صلى الله عليه وسلم أهل صُفّته ، وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأوّل الثانى ، والسابق التالى بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله » .

وفى قوله رضى الله عنه : « ووصاياه لنبيه » يشير إلى وصاية الله بأهل الصُّفّة من فقراء المهاجرين فى قوله تعالى فى سورة الكهف : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) .

ووصاية الله هذه كان يقدّرها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها ، فكان دائم العطف عليهم والإكرام لهم ، حتى لقد قال مرة (من حديث مسلم) لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه : « أأغْضَبْتَهُم يا أبا بكر ؟ لئن كنتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ الله » ، فأسرع إليهم سيدنا أبو بكر وقال لهم : أغضبتكم يا إخوتاه ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك .

فانظر إلى همّتهم (يدعون ربهم بالغداة والعشىّ) ، وانظر إلى صفاء نيّتهم ، وطهارة طويّتهم (يريدون وجهه) . وقد حاكاهم أتقياء الأجيال التى جاءت من من بعدهم واتبعوهم بإحسان ، فسعدوا بولاية الله ، وكان منهم المؤمنون والمؤمنات ، وهاهى ذى السيدة رابعة العدوية قد حركت القلوب ، وألهبتها شوقًا إلى الله ، بما آتاها الله من فضله ، وكانت رضى الله عنها ذات عزم لا يبارى فى العبادة ، حتى لقد كانت تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وتقول : ما أريد بها ثوابًا ولكن ليُسَرّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول للأنبياء : انظروا إلى امرأة من أمتى ، هذا عملها فى اليوم والليلة .

شيخى والتجلى :

وصدق شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل إذ يقول فى إلهامه الارتجالى الذى نقلناه عنه :

بحرُ التجلى كلّه حكمةٌ ‏ ‏ كم تسكر الأرواحُ من عَذْبه
دع ما يقول الناسُ من علمهم ‏ ‏ ما دمت تلقى العلم من سَيْبه

ويقول :

علومى فى الورى نفحاتُ ربّى ‏ ‏ فما بلغوا مذاقى أو شمولى
ولى من مشرق الإيمان علم ‏ ‏ سموتُ به على كل الفحول

وكان رضى الله عنه من المصطبرين لعبادة الله ، شوقًا إلى الله وحُبًّا فيه، حتى هجر النوم قرابة أربعين عامًا ، وسهر الليل كله عابداً ، كما لمسنا ذلك منه بأنفسنا معاينة ، وقد علّمه الله من لدنه ما بهر العقول ، وشَهِدْتُ فى مجلسه مرات كثيرة كبارَ العلماء يستمحون إليه ويقرّون بفضله ، وقد تربى رضى الله عنه فى الطريقة الخليلية لصاحبها القطب الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المبارك بالزقازيق ، عن يد خليفته شيخى وسيدى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيّب الله ثراه ، ذلك المبارك الذى كان يتلقاه شيخه الإمام أبو خليل بترحاب خاص ويقول له أهلا بالولىّ الكامل وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة الواقعة :

(ثلّة مِنَ الأَولِينَ * وثلّة مِنَ الآخِرِينَ) . وحين يقول (ثلة مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقليل مِنَ الآخِرِينَ) . وقد مَنّ اللهُ علىَّ بصحبة هؤلاء الصالحين قبل انتقالهم ، فنفعنا الله بمقالهم وحالهم فى حياتهم ، ومازلنا نلمس بركاتهم بعد انتقالهم ، فجزاهم الله عنّا خيراً كثيراً ، ورحمة الله على صديقى وأخى فى الله الراحل الكريم الأستاذ محمد جاد الرب إذ يقول :

إذا لم يكن لى عزمُهم وجهادُهم ‏ ‏ فإنى بهم صبٌّ وفيهم متيّم
وإن ضاق خطوى عن لحاق بركبهم ‏ ‏ فإنى على آثارهم أتَرسّم

ومن يعتزم عَبْرَ الطريق فإنه سيهدَى إلى سر الطريق ويُلهَمُ
ولا بد للسارى وإن كان وانيًا إذا صح عزمًا أنه يتقدم

شيخك الذى يربيك :

وينصحنا سادتنا العارفون بالله تعالى فيقولون : والشيخ الذى يلقى إليه المريد بالقيادة (أى لتربيته فى جنب الله تعالى) هو العارف بأحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وسُقيت ذاتُه من نوره صلى الله عليه وسلم حتى صار على قدَم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمده الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان ، فإنه يجمع العبد على ربه ، ويقطع عنه الوساوس فى معرفته، ويرقيه فى محبة النبى صلى الله عليه وسلم ، والشيخ الموصوف بذلك متعدد والحمد لله فى البلاد والعباد ، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة ، فاطلبه تجده (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، كما يقول العارفون رضى الله عنهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المرآة الكبرى والمجلى الأعظم ، وإن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به، والمعرفة لانهاية لها، فما دام الإنسان يترقى فيها ، فهو يغترف من بحره صلى الله عليه وسلم ، ويستمد منه ، ومع ثبوت الإيمان للعبد لايستغنى فى التوصل إلى المعرفة عن خلفائه، صلى الله عليه وسلم، الذين ينوبون عنه فى الإرشاد من المشايخ المهتدين العارفين بالله تعالى .

ويقول الإمام جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه صديقى الشيخ الصاوى شعلان جزاه الله خيرا :

« سبحان من قدر فهدى ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، إن إلهام النحل هو الشهد، وإلهام حشرة القز نسج الحرير ، وإلهام البلبل أغانى السحر، وإلهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض :

صدقوهم هم مصابيح الدجى أكرموهم هم مفاتيح الرجا
اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون » .

كما يقول رضى الله عنه : الشيخ مثل القمر، والناس مثل الليل ، فاختر لك شيخاً مرشداً ، فإن السفر بدون المرشد كثيراً ما يكون مليئاً بالآفات والمخاوف والأخطار

ولا تمش وحيداً فى الطريق التى لم ترها قط ، ولا تحول وجهك عن الدليل، وبدون الدليل تكون حائراً حتى فى الطريق التى طرقتها مراراً.

ويقول العلامة العقاد رحمه الله فى كتابه « عبقرية محمد » :

فكَّرَ (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) فى الخلق فآمن بالخالق، واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر ، فقال : « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول : الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله. فيقول : من خلق الله ؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله » .

« تلك هى نهاية التفكير التى ينتهى إليها عقل مستقيم خلق للعبادة ، عامل لتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يُخلق ليوغل فى الفروض ويتقلب بين الشكوك .

« ولهذه السُّنة التى استنَّها النبى عليه الصلاة والسلام فى عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله، فقال فى حديث: "تفكّروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله"، وقال فى هذا المعنى : "تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا " وقال الله فى حديث قدسى : "كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف ، فخلقتُ الخلقَ فبى عرفونى " .

« أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب إلى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التى أثرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجية من سجاياه ،

« فكان أخف الناس صلاة بالناس، وأطول الناس صلاة لنفسه، وربما قام الليل أكثره أو أقله، ولا يدين أحداً بالتهجد كما كان يتهجد، أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدّوا فى العبادة فيصبحوا كالمُنْبَتّ " لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى "

« وكان محمد إذا حَزَبَهُ أمر صَلّى ، لأن النفس المفطورة على العبادة تكون الصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء، ومتى وجدت النفس " فرحة اللقاء " فى الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولا تضييع فيها لوقت .

نفحات القرآن الكريم :

وأقول : إن الآية التي صدرت بها هذا الباب أقضت مضجعي ليلة كاملة، وكنت كلما هجعت قليلا أستيقظ ويسبح فكرى فيها بقوة ، وكانت روحى تتأثر تأثيراً قويًّا وتنفعل بذلك الاستفهام الرائع التي ختمت بها الآية « هل تعلم له سميًّا ؟ » فهو استفهام إنكارى يدعونا به الله إلى بذل المجهود بين يدى المعبود الذى يستحق العبادة وحده لا إله إلا هو رب العالمين ؛ وقد تذكرت بانفعالى قول الإمام الصوفى أبى سليمان الدادانى : إنى أقرأ الآية من كتاب الله فيذهب فيها لُبِّى خمس ليال وسبحان الذى يَرُدّه علىّ بعد ذلك :

اللهم ارزقنا حسن عبادتك والاصطبار لها كما تحب وترضى ، فالتوفيق منك ، والصبر بك ، والقوة لك ، آمين .

والمؤمن بعباداته وطاعاته إنما يزكى روحه فى جنب الله تعالى فيكون من المفلحين حيث يقول سبحانه :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ، وقيمة الإنسان فى قوة إيمانه الباطنة التى تغيب عن العين كما تغيب عنها رائحة الوردة فإن رائحتها تشم ولا ترى ، ولا قيمة للوردة بغير رائحتها ، وصدق بعض صوفية الفرس فى قوله الذى ترجمه صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان :

إذا الورود خلت من طيب نفحتها	فلا تزاحم بها فى الأرض بستانا
إذا الوجوه خلت من نور سجدتها	لم تستحق غداة الموت أكفانا
إذا القلوب خلت من ذكر خالقها	فهى الصخور التى تحتل أبدانا
إذا خلا المرء من علم ومعرفة	ظلمت نفسك او تدعوه إنسانا

الباب العاشر

الأوصاف والخصائص المحمدية

الفصل الأول

أوصافه صلى الله عليه وسلم

شرف الأمة المحمدية :

وصف الله تعالى حبيبه الأول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم بأوصاف حميدة دلّت على عظيم فضله عليه وعلينا نحن المؤمنين ، لأن كل شرف له صلى الله عليه وسلم إنما يشرف به تابعوه . ولا عجب بعد ذلك أن يكون صلى الله عليه وسلم مِنّةً الله علينا كما جاء فى قوله تعالى فى سورة آل عمران :

(لَقَدْ منَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإِنْ كَانوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) . ولقد أيده سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم وهو أبقى المعجزات وأخلدها فانتفع به الأولون والآخرون من أمته ، وآتاه العلم الذى لم يؤت مثله أحداً من العالمين ، ففصّل بعلمه ما أجمله القرآن الكريم فجاءت السنة النبوية نوراً على نور ، فاستضاءت الأمة المحمدية بالنورين ، نور الكتاب ونور السنة ، وترسمت خطاه صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ الأحكام بالأقوال والأفعال والأحوال ، فاستنارت بهديه القلوب وتعلّقت بحبه الأرواح ، وكيف لا وقد اهتدى به المسلمون بعد الضلال ، وسعدوا بعد الشقاء ، والله يختص برحمته من يشاء . وصدق الله تعالى إذا يقول للأمة المحمدية : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ تَأْمُرون بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عنِ المنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) فهل كانت تلك السعادة لأمة قبلنا ؟!

وإذا أردت أن ترى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هداية أمته

فتدبَّر قوله تعالى فى سورة التوبة : «(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) . وقد قال الحسين بن الفضل بحق : لم يجمع الله لنبى من أنبيائه اسمين من أسمائه إلا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فسماه رءوفاً رحيماً ، وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم :

وإنى أوجه القارئ العزيز إلى الانتفاع بما يقوله بحق سيدى الشيخ يوسف النبهانى فى كتابه جواهر البحار ، فقد قال رضى الله عنه : إن اتصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسماء والصفات الإلهية إنما هو على الوجه الذى يليق به صلى الله عليه وسلم ، لا على الوجه الذى يليق بالله تعالى من أوصاف الألوهية المختصة به عزّ وجلّ ، فإن هذا لا يجوز أن يتصف به النبى صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الخلق ، ولكن الله تعالى قد خلع من فضله على سيد الخلق الأعظم وعبده الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً من أسمائه الحسنى وصفاته العليا تشريفاً له صلى الله عليه وسلم بما اختصه به بين الأنام .

ويقول فى هذا المقام القاضى عياض رضى الله عنه :

يجب أن يعتقد المؤمن أن الله جل اسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسن أسمائه ، وحلى صفاته ، لا يشْبه شيئًا من مخلوقاته ولا تتشبه به ، وما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق لاتشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ، إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق ، فكما أن ذاته تعالى لاتشبه الذوات ، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض وهو تعالى منزه عن ذلك ، بل لم يزل بصفاته وأسمائه ، وكفى فى هذا قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) .

ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين :

« التوحيد إثباتُ ذاتٍ غير مشبَّهة للذوات ولا معطلة من الصفات ، وقال الواسطى : ليس كذاته تعالى ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة ، إلا من جهة موافقة اللفظ ، وجلَّت الذات القديمة أن تكون لها صفة

حديثة كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة ، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضى الله عنهم .

أقول : وفى قوله تعالى : (بالمؤمنين رءُوف رحيم) إشارة إلى أن رحمته صلى الله عليه وسلم دائمة لا تنقطع عن مؤمنى أمته . وكان صلى الله عليه وسلم أحرص ما يكون على هداية قومه واستنقاذهم من غواية الشيطان وتوجيههم إلى الإيمان حتى لقد قال له ربه فى سورة الكهف : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنوا بِهَذَا الْحَدِيث أسفاً) ، أى كدت تقتل نفسك حسرة على فرارهم من الإيمان والانتفاع بالقرآن . كما يقول سبحانه فى سورة يوسف مواسياً له فى حرصه : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ولو حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) ، وفى سورة النحل : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

ومع هذا فقد رحمهم الله ولم يعذبهم بكفرهم كما فعل بكفّار الأمم السابقة ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) . فما أعظم فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم . وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد حزن على أهل الكفر حين لم يؤمنوا فما كان أعظم

سروره بالمؤمنين حين آمنوا . ولا غرو فهو بالمؤمنين رءُوف رحيم . وقد قالوا إن الرأفة أخص من الرحمة ، ولذا قيل رءُوف بالمطيعين منهم ، رحيم بالمذنبين منهم ، صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة رحمته صلى الله عليه وسلم أنه ترك الخروج لجماعة التراويح فى رمضان فى الليلة الثالثة بعد أن صلاها بهم ليلتين وقال : خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها ، كما ترك الأمر بالسواك عند كل وضوء ، وكان يتخول أصحابه بالموعظة ، فيعظهم حينًا بعد حين مخافة السآمة ، وكان يود راحتهم فى أحوالهم فقال : « اللهم مَنْ وَلِىَ من أمرِ أمتى شيئًا فشقّ عليهم فاشقُقْ عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به » وقال : « إذا أمَّ أحدُكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغيرَ والكبيرَ والضعيفَ والمريضَ وذا الحاجة ، وإذا صلى لنفسه فليطوّل ما شاء » ، وقال : « من آذى مُسْلِمًا فقد آذانى » .

وجاء فى كتاب «مواكب ربيع فى مولد الشفيع» لسيدى العالم العارف الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه وعن أبيه) أنه لما كان صلى الله عليه وسلم من ربه قاب قوسين أو أدنى (قرب مكانة لا مكان) قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إنك عذّبت الأمم بعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالخسْف ، وبعضهم بالمسْخ ، فما أنت فاعل بأمتى ؟ قال : أنْزل عليهم الرحمةَ ، وأبدل سيئاتهم حسنات ، ومن دعانى منهم لبّيتُه ، ومن سألنى أعطيته ، ومن توكّل علىّ كفيته ، وفى الدنيا أستر على العصاة ، وفى الآخرة أشفّعك فيهم ، ولولا أنّ الحبيبَ يُحب معاتبةَ حبيبه لَما حاسبتُ أمتك ، فلما أراد الانصراف قال يارب إنّ لكل قادم من سفر تُحْفة[1] فما تُحْفة أمتى ؟ قال الله تعالى : أنا لهم ما عاشوا ، وأنا لهم إذا ماتوا ، وأنا لهم فى القبور ، وأنا لهم فى النشور .

وجاء كذلك فى الكتاب المذكور أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربّه فى ذنوب أمته فقال : يارب اجعل حسابهم إلىّ لئلا يطلع على مساويهم غيرى ، فأوحى إليه :

---

(١) بفتح الحاء وسكونها .

همْ أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنْتَ ولا غيرك . وكذلك اختبأ لهم دعوته صلى الله عليه وسلم فقد روى مسلم « لكل نبى دعوةٌ مستجابة فتعجّل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى فهى نائلة إن شاء الله تعالى مَنْ مات مِنْ أمتى لايشرك بالله شيئًا » .

أمير المؤمنين عمر والفضائل النبوية :

ولما كان صلى الله عليه وسلم آخر المرسلين الكرام وكان أكثرهم تبعاً ، فقد جمع الله له من المكارم والفضائل ما تفرّق فيهم ، وقدمه فى القرآن الكريم عليهم فى قوله تعالى : (وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ومِنْكَ ومِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرِيم وأَخَذْنَا مِنْهُمْ ميثاقًا غَلِيظًا) . وقد جاء فى كتاب «جواهر البحار» لسيدى الشيخ يوسف النبهانى رضى الله عنه نقلا عن كتاب «المدخل» لسيدى الشيخ ابن الحاج رضى الله عنه .

«إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سُمِعَ بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم يقول وهو يبكى :

بأبى[1] أنت وأمى يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا واتخذت منبراً لتسمعهم فحنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم ،

« بأبى أنت وأمى يا رسول ، الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أنَّ أهلَ

(١) بأبى أنت وأمى أى أفديك بهما ، وذلك من سمو الأدب فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم .

النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يُعذَّبون يقولون : (يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأَطعْنَا الرسُولَا) .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فما ذاك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء ، صلى الله عليك .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله ريحًا غُدُوُّها شهر وَرواحها شهر فما ذاك بأعجب من البُراق حين سَرَيْتَ عليه إلى السماء السابعة ثم صلّيت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك ،

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فما ذاك بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مسمومة فقالت : لا تأكلنى فإنى مسمومة .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ،لقد دعا نوح على قومه فقال:(رَبِّ لا تَذَرْ على الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) ولو دعوت مِثلَها علينا لهلكنا عن آخرنا فقد وطىء ظهرك وأُدمى وجهُك وكُسرت رباعِيَّتُكُ فأَبيْت أن تقول إلا خيرًا ، فقلت : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد اتبعك فى أحداث سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحًا فى كبر سنه وطول عمره فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفئاً لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئاً لك ما نكحت إلينا ولو لم تُؤاكل إلا كفئاً لك ما آكلتنا ، ولبست الصوف وركبت الحمار ووضعتَ طعامك بالأرض ولعقت أصابعك تواضعًا منك صلى الله عليك » .

وقد كان ابن عمر كثيراً ما ينشد قول زهير بن أبى سلمى فى هرم بن سنان :

لو كنتَ من شىء سوى بشر   كنت لمضىء بلَيْلة البدر

فيقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد سمع ذلك : كان النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يكن كذلك غيره .

الخلق العظيم :

وكما تحلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرأفة والرحمة ، وعطف بهما على الطائعين والعاصين من المؤمنين ، فقد تحلى بسائر الكمالات الخلقية حتى تمت مكارمه واستغنى بقوله تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) عن كل وصف من كلام البشر ، وإنْ تكلمنا عن خلقه العظيم فإننا لا نضيف جديداً لهذا الوصف الجامع وإنما نفصِّل ما أجمله ، ونبين ما أوجزه ، ليتأسَّى به من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، فقد كمَّله الله وجمله حتى صار فى كل شىء على غاية من علاه وحلاه ، ولقد خلقه سبحانه فى أحسن تقويم فكان معتدل البنية ، كامل الرشد ، حسن الصوت ، فصيح اللسان ، رقيق الوجدان ، واجتمعت له من فضل الله الأوصاف المحمودة عقلا وشرعاً كالعلم والحلم والصبر والصدق والأمانة والحياء والسخاء والتوكل والرضا والذكر والشكر والعفو والرأفة والسكينة والوقار والتواضع والانكسار والشجاعة والنجدة والهيبة والخشوع والخوف والرجاء والوفاء والدعاء والبكاء والعبادة والانتصار للحق والرفق وحسن العشرة وحب الخير وبغض الشر ، والبر بالضّعاف والأيتام والمساكين ، وبلغ فى كل ذلك النهاية التى لا مطمع بعدها لبشر ، فلا كعلمه علم ، ولا كحلمه حلم ، ولا كصبره صبر ، ولا كشجاعته شجاعة ، صلى الله عليه وعلى آله .

وقد سئلت سيدتنا أم المؤمنين عائشة عن خلقه صلى الله عليه وسلم فأجملته فى قولها البليغ « كان خُلُقُه القرآن » ومعنى ذلك أنه ائتمر بأوامر القرآن وأمر بها ، وانتهى بنواهيه ونهى عنها ، وأوامر القرآن الكريم ونواهيه إنما هى أوامر الله ونواهيه ، وليس بعد تأديب الله تأديب ، ومَنْ أحسن من الله قيلا ؟ وفى رواية قالت رضى الله عنها للسائل : ألستَ تقرأ القرآن (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) تعنى اقرأ الآيات العشر من سورة « المؤمنون » فذلك خلقه صلى الله عليه وسلم من الإيمان الذى هو أصل الأخلاق القلبية ، والصلاة التى هى عماد الأخلاق البدنية ، والزكاة التى هى رأس الأخلاق المالية ، إلى آخر ما فى الآيات .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة ، وكان صلى الله

عليه وسلم يُعرف فى الليلة الظلماء بطيب ريحه ، وكان صلى الله عليه وسلم لاتفارقه قارورة الطيب فى سفره ولا المكحلة والمرآة والمشط والمقراض والسواك والخيط والإبرة، فيخيط ثيابه، ويخصف نعله، وكان صلى الله عليه وسلم يستاك بالأراك، وكان صلى الله عليه وسلم يشوص(١) فاه بالسواك فى الليلة ثلاث مرات قبل النوم، وبعده عند القيام لورده، وعند الخروج لصلاة الصبح، وكان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقًا ، وكان يحسن عشرة أزواجه ويقسم بينهن بالعدل ، ويكون فى مهنة أهله فى البيت ، وكان صلى الله عليه وسلم يكرم ضيفه ويبسط رداءه له كرامة ، وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تبسمًا وأحسنهم بشرًا ، وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما .

وكان صلى الله عليه وسلم يركب الفرس والبغل والحمار ويُردف خلفه عبده أو غيره ، وكان صلى الله عليه وسلم يمسح وجه فرسه بطرف كمه أو بطرف ردائه ، وكان صلى الله عليه وسلم يتوكأ على العصا ، ورعى صلى الله عليه وسلم الغنم وقال : ما مِنْ نبيّ إلاوقد رعاها ، وكان صلى الله عليه وسلم يعق(٢) عن المولود من أهله ويأمر بحلق رأسه يوم السابع ويتصدق بزنة شعره فضة، وعقّ صلى الله عليه وسلم عن نفسه بعد ما جاءته النبوة ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة(٣)، وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءه ما يحب قال : الحمد لله رب العالمين ، وإذا جاءه ما يكره قال : الحمد لله ربّى على كل حال، وإذا رُفع الطعام من بين يديه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين، وفى رواية أخرى : الحمد لله حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا ، وإذا عطس خفض صوته واستتر بيده أو بثوبه وحمد الله .

وكان صلى الله عليه وسلم أكثر جلوسه مستقبل القبلة ، وإذا جلس فى المجلس احتبى بيديه ، وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، ويستغفر فى المجلس الواحد مائة مرة ، وكان صلى الله عليه وسلم ينام أول الليل ثم يقوم من السحر ثم يوتر ثم يأتى فراشه، فإذا سمع الأذان وثب قائمًا،

---

(١) ينظف .

(٢) العقيقة : ذبيحة تذبح فى اليوم السابع ويطعم منها الفقراء شكراً لله على نعمته فى المولود أو المولودة .

(٣) أى أنه كان يتفاءل ولايتشاءم صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان جُنُباً أفاض عليه الماء، وإلا توضأ وخرج للصلاة، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى فى سبحته قائماً (النفل) وربما صلى قاعداً، قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : لم يَمُت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته جالساً، وكان صلى الله عليه وسلم يُسمع لجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجل من البكاء وهو فى الصلاة.

وكان صلى الله عليه وسلم يصوم الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وعاشوراء، وقلما يفطر يوم الجمعة، وأكثر صيامه فى شعبان، وكان صلى الله عليه وسلم تنامُ عيناه ولا ينام قلبُه انتظاراً للوحى، وإذا نام نفخ ولا يَغطُّ غطيطاً، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى فى منامه ما يروعه قال : هو الله ربى لا شريك له، وإذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن وقال : رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم يُبين كلامه حتى يحفظ من جلس إليه، ويعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه، ويخزن لسانه ولا يتكلم فى غير حاجة، ويتكلم بجوامع الكَلِم فصْلاً، لا فضولا ولا تقصيراً، وكان صلى الله عليه وسلم يتمثل بشىء من الشّعر، وكان يتمثل بقول بعضهم : ويأتيك بالأخبار من لم تُزوّدِ، وكان صلى الله عليه وسلم جُل ضحكه التبسم، وربما ضحك من شىء مُعجب حتى تبدو نواجذه من غير قهقهة.

وما عاب صلى الله عليه وسلم طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإن لم يشتهه تركه، وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل مُتّكِئاً ولا على خوان.

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل الهديّة ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، وكان يأكل ما وجد، إن وجد تمراً أكله، وإن وجد خبزاً أكله، وإن وجد لبناً اكتفى به، وكان يأتى على أهله الشهر والشهران ولا توقد فى بيته نار، وكان قوتهم التمر والماء، وكان صلى الله عليه وسلم يَعْصِب الحجر على بطنه من الجوع، وقد آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فأبى أن يقبلها واختار الآخرة على الدنيا، وأكل صلى الله عليه وسلم الخبز بالخل وقال : نِعْم الأُدْم الخل، وأكل صلى الله عليه وسلم لحم الدجاج، وكان صلى الله عليه وسلم

يحب الدُّبَّاء (القرع) ويأكله ويقول إنه شجرة أخى يونس ، ويعجبه الذراع من الشاة ، وقال صلى الله عليه وسلم إن أطيب اللحم لحم الظهر ، وقال صلى الله عليه وسلم : كُلُوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه الثُّفْل (ما بقى من الطعام)، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل .

وكان صلى الله عليه وسلم يشرب قاعداً . وربما شرب قائماً ، ويتنفس ثلاثاً ، وإذا فضلت منه فضلة وأراد أن يسقيها بدأ بمن عن يمينه ، وأكل صلى الله عليه وسلم خبز الشعير بالتمر وقال هذا أدم هذا ، وأكل صلى الله عليه وسلم البطيخ بالرطب ، والقثاء بالرطب ، والتمر بالزبد ، وشرب صلى الله عليه وسلم لبناً وقال : من أطعمه الله طعاماً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، وقال صلى الله عليه وسلم ليس شىء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن .

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، لم تمس يده قط امرأة إلا امرأة يملك رقيقها، أو عصمة نكاحها، أو تكون ذات محرم منه، وكان أسخى الناس ، ولا يلبث عنده دينار ولا درهم ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط، من أيسر ما يجد من الشعير والتمر، ويضع الباقى فى سبيل الله تعالى ، لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى يحتاج قبل انقضاء العام ، وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد، وكان يجيبُ دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، يتبع الأمَة والمسكين حيث دعواه، لا يغضب لنفسه ويغضب لربه ، وكان يشهد الجنائز .

وكان أشد الناس تواضعاً وأسكتهم من غير كِبْر وأبلغهم من غير عِيٍّ ، لا يهوله شىء من أمر الدنيا ، يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم، ويؤلف أهل الشرف بالبر ، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أحوج منهم ، ويقبل معذرة المعتذر ولا يجفوه ، لا يحتقر فقيراً لفقره ، ولا يَهاب ملكاً لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً ، ولا يقول إلا حقاً فى الرضا والغضب ، فقد أخرج الحاكم وصححه من طريق عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : « قلت يا رسول الله أتأذن لى فأكتب ما أسمع منك ؟ قال نعم ، قلت فى الرضا والغضب؟ قال : نعم فإنه لا ينبغى أن

أقول عند الرضا والغضب إلا حقًّا ، وبذلك وغَيْرِه مما فاتنا جمع الله له محاسن الأخلاق فى أكمل صورها صلى الله عليه وسلم ورحم الله من قال :

فبَالِغْ وأَكْثِرْ لن تُحيطَ بوصفه ... وأين الثريا من يَدِ المتناول

شرف العبودية الكاملة :

ومع ما نال صلى الله عليه وسلم من محاسن الأَخلاق وكريم السجايا والشمائل فإنه تحلى وتحقق بالعبودية لله كما تمنى وأَحب،فقد خيَّره ربه بين أَن يكون نبيًّا ملكا أَو نبيًّا عبدًا ، فاختار أَن يكون نبيًّا عبدًا . فشرف بوصف العبودية لربِّه فى آيات كثيرة من مثل قوله تعالى : (سبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) . وقوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

ومن طرائف إشارات سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى ما قاله بمذاقه السامى فى كتاب الرسائل :

« سبحان من أسرى إليه بعبده ... ليرى الذى أخفاه من آياته

سبحانه من سيِّدٍ ومهيمن ... فى ذاته وسماته وصفاته

قرن سبحانه التسبيح بهذا السفَر الذى هو الإسراء ، ينفى بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن تحكم عليه خياله من أهل الشبه والتجسيم ما يتخيله فى حق الحق من الجهة والحد والمكان ،فلهذا قال (لنريه من آياتنا) فجعله مسافراً به صلى الله عليه وسلم ، يعلم أن الأمر من عنده عز وجل هبة إلهية وعناية سبقت له مما لم يخطر بسره ولا اختلج فى ضميره .

« وجعله ليلا تمكينًا لاختصاصه بمقام المحبة لأنه اتخذه خليلا حبيبا ، وأكده بقوله ليلا ، مع أن الإسراء لا يكون فى اللسان إلا ليلا ، لا نهاراً ، لرفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه ويزيل بذلك من خاطر من يعتقد من الناس أنّ الإسراء ربما يكون نهاراً ، فإن القرآن وإن كان نزل بلسان العرب فإنه خاطب به الناس أجمعين أصحاب اللسان وغيرهم .

« والليل أحب زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل، ولتكون رؤية الآيات بالأنوار الإلهية خارجة عن العادة عند العرب ، ولا فائدة عند السامع لو كان العروج به نهاراً في رؤية الآيات .

« وأدخل الباء في قوله بعبده من أجل المناسبة بين العبودية ، التي هي الذلة ، وبين حرف الخفض والكسر فإن كل ذليل منكسر ،

« وكذلك ذكر المسجدين الحرام والأقصى ، والمسجد مُفْعِل موضع سجود الرجل، والسجود عبودية ، والحرام يقتضى المنع والحجر ، فهو يطلب العبودية والأقصى يقتضى البُعْد ، والعبودية في غاية البعد من صفات الربوبيّة ، فاختار سبحانه لنبيه الشرفَ الكامل بهذين الأمرين بأعلى ما يكون من صفات الخلق ، وليس إلا العبودية وما يشاكلها من حروف الخفض والمساجد والحرام والأقصى .

ويقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الإشارات :

افتتح سبحانه سورة الإسراء بذكر الثناء على نفسه فقال (سبحان الذى . . .)الحق سبح نفسه بعزيز خطابه ، وأخبر عن استحقاقه لجلال قدره، وعن توحده بعلو نعوته .

ولما أراد أن يَعْرِفَ العبادُ ما خصّ به رسوله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من علو مارقّاه إليه ، وعظَم مالقّاه به، أزال الأعجوبة بقوله (أسرى) ونفى عن نبيّه خطر الإعجاب بقوله (بعبده) لأن من عرف ألوهيته واستحقاقه لكمال العز فلا يتعجّب منه أن يفعل ما فعل . ومن عرف عبودية نفسه وأنه لايملك شيئًا من أمره فلا يعجب بحاله . فالآية أوضحت شيئين اثنين :

نفى التعجّب من إظهارفِعْل الله عز وجل ، ونفى الإعجاب فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، . . . ويقال لما كان تعبّده صلى الله عليه وسلم وتهجده بالليل جعل الحق سبحانه المعراج بالليل ، ويقال :

ليلــة الوصــل أصــفى من   شهور ودهور سواهـــــا

ويقال أرسله الحق سبحانه ليتعلم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رقاه إلى السماء ليتعلم منه الملائكة آداب العبادة ، قال تعالى فى وصفه صلى الله عليه وسلم : (ما زاغَ البَصَرُ ومَا طَغَى)[1] فما التفت يمينًا ولا شمالا ، وما طمع فى مقام ولا فى إكرام ، تجرّد عن كلّ طلب وأرب . ،

---

(١) آية ١٧ من سورة النجم .

أحسن التأديب :

ويقول الإمام الزرقانى رضى الله عنه ، فى كتاب المواهب اللدنية شارحا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى » أى علّمنى رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة بأفضاله علىّ بالعلوم الألوهية مما لم يقع نظيره لأحد من البرية ، وقال بعضهم أدب الله روح رسوله ورباها فى محل القرب قبل اتصالها ببدنه، باللطف والهيْبة، فتكامل له الأنس باللطف ، والأدب بالهيبة، واتصلت بعد ذلك بالبدن، ليخرج من اتصالها كمالات أخرى من القوة إلى الفعل، وينال كلٌّ من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال ما يليق بالحال ويصير قدوة لأهل الكمال .

ويقول أيضا رضى الله عنه : وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبى صلى الله عليه وسلم وهو معصوم، والاستغفار يقتضى وقوع معصية، وأجيب بأجوبة منها : إن استغفاره تشريع لأمته ومن ذنوبهم فهو كالشفاعة لهم ، وقال الإمام الغزالى رضى الله عنه كان صلى الله عليه وسلم دائم الترقى ، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها ذنبًا فاستغفر من الحال السابق ، وقال ابن بطال : الأنبياء أشد الناس اجتهاداً فى العبادة لما أعطاهم الله من المعرفة ، فهم دائبون فى شكره ومعترفون له بالتقصير .

وأقول ، تأييدًا لما ذهب إليه ابن بطال ، إنه جاء فى تفسيره قوله تعالى فى سورة سبأ : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ . أن سيدنا داود عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجبُ بدورها شكرًا آخر ، فقال الله تعالى : يا داود الآن عرفتنى وشكرتنى . كما أقول إن الاعتراف بالعجز عن شكره تعالى مَظهرٌ من مظاهر مَنْ تحقّق بالعبودية ، ألستَ تراه تعالى يُثنى على سيدنا سليمان بن داود وقد أوتى مُلْكًا عريضاً فلم يُخرجه المُلك عن أدب العبودية ، فقال سبحانه واصفاً له ﴿نِعْمَ العبْد إنّه أوّاب﴾ .

ويقول الإمام أبو على الدقاق رضى الله عنه ليس للمؤمن من صفة أتم ولا أشرف من العبودية ، ولهذا أطلقها الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم فى أشرف المواطن بقوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده) وقوله تعالى : (الحمد الله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله تعالى : (تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده) . وقوله تعالى: (فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

ويقول أبو حفص النيْسابورى رضى الله عنه : العبد هو القائم بأوامر الله سيده على حد النشاط حيث جعله محل أمره . وقال الإمام ابن عطاء رضى الله عنه : العبد الذى لا ملك له . وقال الإمام رُويم رضى الله عنه : يتحقق العبد بالعبودية إذا سلّم القياد من نفسه إلى ربه وتبرأ من حوْله وقوته وعلم أنّ الكلّ له وبه .

معنى العبودية الكاملة :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فى الباب ١٣٠ من الفتوحات المكية : العبودية نسبة إلى العبودة ، والعبودة مخلصة، فمقام العبودية مقام الذلّة والافتقار، فالعبد معناه الذليل ، يقال أرض معبّدة أى مذللة ، قال عز وجل : (وما خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) . وما قال ذلك فى غير هذين الجنسين لأنه ما ادعى أحد الألوهية ولا اعتقدها فى غير الله، ولا تكبّر على خلق الله، إلا هذان الجنسان ، فلذلك خصّهما بالذكر دون سائر المخلوقات ، فقال ابن عباس فى معنى (إلا ليعبدون) معناها إلا ّليعرفونى ، فلابد من المعرفة به أولا ، وأنه ذو العزة التى تذل الأعزاء لها ، فلذلك عدل ابن عباس فى تفسير العبادة إلى المعرفة، ولم يفسرها بحقيقة ما تعطيه دلالة اللفظ ، ولم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عبداً محضاً ، زاهداً فى جميع الأحوال التى تخرجه عن مرتبة العبودية ، وشهد الله أنه عبد مضاف إليه من حيث هُويّته واسمه الجامع ، فقال فى حق اسمه (وأنّهُ لمّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ . . .) وقال فى حق هويته (سبحان الذى أسرى بعبده) فأسرى به عبداً .

قول الإمام سهل التسترى :

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : « يا مسكين كان (أى الله) ولم تكن ، ويكون ولا تكون ، فلما كنتَ الآن صرت تقول : « أنا » كن الآن كما لم تكن ، فإنه الأول كما كان » . وما أبدع ذلك الكلام عند أهل الأفهام .

قول الإمام ابن القيم :

ويقول الإمام ابن القيم رضى الله عنه فى كتابه أعلام الموقعين ما يأتى :

« . . . . ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته ، سِوَى العبودية العامة التى سَوَّى بين عباده فيها ، فعلى العالم من عبوديته نشر السنة والعلم الذى بعث به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه مَنْ هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتى ، وعلى الغنى من عبودية أداء الحقوق التى فى ماله ما ليس على الفقير ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما ، وهو كلام نفيس فليحرص القارئُ على الانتفاع به .

أقول : ومن تحقَّق بالعبودية استبان مقام الربوبية ، ومن هنا جد صلى الله عليه وسلم فى عبادة ربه فسهر ليله وأطال قيامه حتى تورّمت قدماه فقالت له أمنا السيدة عائشة رضى الله عنها : لِمَ تفعل ذلك يا رسول الله .وقد غفرَ الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وقد أشفق عليه ربُّه فخاطبه من عليائه :

(طَهَ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) مع أنه سبحانه هو القائل له : (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) . وقد قالوا إن الاصطبار هو نهاية الصبر

فانظر رعاك الله إلى همة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبادته وإلى شفقة الله به .

وصدق سيدنا حسان بن ثابت إذ يقول واصفاً همته صلى الله عليه وسلم :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقال الكلبي — كما جاء فى تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بمكة اجتهد فى العبادة ، واشتدت عبادته فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزل قوله تعالى : (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فأمره الله أن يخفف عن نفسه فيصلي وينام ، فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام ثم نسخ ذلك بالفرض فنزلت الآية .

وجاء فى تفسير القرطبي لسورة المزمل من حديث مسلم أن السيدة عائشة رضى الله عنها سئلت عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لسائلها : ألستَ تقرأ (يا أيها المزمل) قلت بلى ، قالت : فإن الله عز جل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا ، وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثنى عشر شهراً فى السماء حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعـًا بعد فريضة . ويقول الإمام القرطبى فى معنى قوله تعالى :

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا) . أى قم ثُلثى الليل أو نصفه أو ثلثه ، وفريضة الصلاة وإن خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم كانت عامة له ولغيره صلى الله عليه وسلم . والمزمـّل اسم مشتق من الحالة[1] التي كان عليها ، وهى من ملاطفة المخاطب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام على رضى الله عنه وكان نائمـًا وقد لصق بجنبه التراب : قم أبا تراب ، وقال لحذيفة رضى الله عنه وكان نائمـًا : قم يانومان . وقال الإمام القرطبى أيضـًا : لما نزلت الآيات المذكورة شق ذلك على

(١) فقد جاء عليه الصلاة والسلام مرعوب الفؤاد من غار حراء بعد أن نزل عليه الوحى أول مرة ، فقال لسيدتنا خديجة رضى الله عنها : زملونى ، زملونى ، أى غطونى .

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم فقال تعالى :

(عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) . وبيّن سبحانه علة التخفيف بقوله تعالى : (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى . . .) .

ويرحم الله الإمام البوصيرى إذ يقول منوّهاً بهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل تلذذاً بمناجاة ربه والوقوف بين يديه وقفة العبادة والعبودية :

ظلمتُ سنة من أحيا الظلامَ إلى أن اشتكت قدماه الضرَّ من ورم

وأقول بعد ذلك إن العبودية كانت على لسانه فى دعواته صلى الله عليه وسلم مثل قوله فى الاستغفار (وهى الصيغة التى عرفت بسيد الاستغفار) :

« اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

فهو صلى الله عليه وسلم عبد ، ولكنه عبد الله ورسوله ، وقد تحقق بعبوديته لله تعالى فتحرر مما سواه فشرفه سبحانه بها حين نسبه إلى نفسه فى قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده . .) وأبقى له وصفه الخالد (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، فاجتمع له خلة الخليل عليه السلام ، وشكر نوح عليه السلام ، وصبر أيوب ويعقوب عليهما السلام ، وإخلاص موسى عليه السلام ، وتواضع سليمان وعيسى عليهما السلام ، وصدق إسماعيل عليه السلام ، فقد كان كل منهم مختصاً بخلق كريم غالب على سائر أخلاقه ، واجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما تفرق فيهم ، وصدق بعض العارفين فى قوله :

لكل نبىّ فى الأنام فضيلة وجملتها مجموعة لمحمد

وقال بعضهم : من أراد أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعمل بسنته لا سيما فى مكان أميتت السنة فيه ، فإن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما هى حياة سنّته ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً لأنه المجموع الأتم الأكمل ،

فَمَبْلَغُ العلم فيه أنه بشر وأنه خيرُ خلق الله كلّهم

وقال العارفون : أحسن أخلاق المرء فى معاملته للحق سبحانه: التسليم والرضا، وأحسن أخلاقه فى معاملة الخلق : العفو والسخاء ، كل ذلك مع الإيمان به تعالى، إذ قد توجد مكارم الأخلاق ولا إيمان ، كما أنه قد يوجد الإيمان ولا أخلاق ، إذ لو كان الإيمان يُعطِى بذاته الأخلاق لم يقل الله للمؤمن افعل كذا واترك كذا، ولذلك ائتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر الله وانتهى بنواهيه فكان صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم عدد ما فى علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله .

الإمام الرازى والأفضلية :

ومما جاء فى تفسير الإمام الفخر الرازى فى أفضليته صلى الله عليه وسلم :

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم، فوجب أن يكون محمد صلى الله الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ، وبيان الأول قوله تعالى : (كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس) وبيان الثانى أن هذه الأمة إنما نالت هذه الفضيلة بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ).وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع ،وأيضًا إن محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر أتباعًا، لأنه مبعوث إلى الجن والإنس ، فوجب أن يكون ثوابُه أكثر لأن لكثرة المستجيبين أثراً فى علو شأن المتبوع ، كما أنه عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل فوجب أن يكون أفضل ، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح فى المعقول ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنةَ أحدٌ من النبيين حتى أدخلَها أنا ، ولا يدخلها أحدٌ من الأمم حتى تدخلَها أمتى » وروى أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مُبشّرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدى ، وأنا أكرمُ ولد آدم على ربّى ولا فخر » وروى الحكيم الترمذى رحمه الله فى كتاب « النوادر » عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلا ، وموسى نجيًا ، واتخذنى حبيبًا »ثم قال « وعزتى وجلالى لأوثرنّ حبيبى على خليلى ونجيّى» .

الشيخ الأكبر وأحدية الشرائع :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربى فى الباب العاشر من الفتوحات: فإن قيل قد ورد قوله صلى الله عليه وسلم « لاتفضلونى »[1]، فالجواب: نحن ما فضّلناه، بل الله فضّله فإن ذلك ليس لنا . وإن كان قد ورد : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ لمَّا ذَكَر الأَنبياء عليهم السلام فهو صحيح فإنه قال : (فبهداهم) وهداهم من الله وهو شرعه صلى الله عليه وسلم ، أى الزم شرعك الذى ظهر به نوابك من إقامة الدين وعدم التفرق فيه، ولم يقل « فبهم اقتده » ، وفى قوله تعالى : (ولا تتفرقوا فيه) دليل على أحدية الشرائع ، وقال (اتبع ملّة إبراهيم) وهو الدين ، فهو مأمور باتباع الدين . فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره ، وانظروا فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يَتَّبعنى » فأضاف الاتباع إليه،وأمره صلى الله عليه وسلم باتباع الدين والاقتداء بهدى الأنبياء ،لا بهم،فإن الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوابه حكم ... وقال صلى الله عليه وسلم « كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين » وما قال كنتُ إنسانًا ، ولا كنت موجوداً ، وليست النبوة إلا بالشرع المقرر عليه من عند الله ، فأخبر أنه صاحب النبوة قبل جميع الأنبياء الذين هم نوابه فى هذه الدنيا . . فهذه منزلة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء والرسل ، وشريعته مع الشرائع كالشمس مع نور الكواكب التى اندرجت أنوارها فى نور الشمس إذ هى كلها حق من الله منزل كما قررنا .

---

(١) الحديث بتمامه « لاتفضلونى على يونس بن متى » وقال العلماء إن السر فى تخصيص سيدنا يونس بالذات خشية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتقص المؤمن قدره ويسىء فهم الآية الكريمة (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) ولو تأمل المنصف لرأى أن قصته عليه السلام انتهت بقوله تعالى (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) وبهذا نستطيع أننفهم من الحديث الشريف التزام الأدب مع جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الفصل الثانى

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله

بيّن الله تعالى فى كتابه الكريم خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم فى آيات كثيرة ، كما بينت السنة النبويّة خصائص أخرى عديدة ، ومن ذلك فى كتاب الله تعالى :

١ ـ قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق سَعِد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخَسْف والغرق. وكان تكذيب الرسل قبله صلى الله عليه وسلم مُوجباً لعذاب المكذبين كما يؤخذ من قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

ولكن كانت رسالته صلى الله عليه وسلم بشير رحمة للعالمين بنص الآية السابقة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم بحق : « إنما أنا رحمةٌ مُهْداة » وقد عَمَّت رسالته الإنسَ والجن ، ومن لم تنله رحمته صلى الله عليه وسلم فما ذلك من جهته وإنما ذلك من جهة القابل كمن استتر عن نور الشمس فى ركن أو ظلِّ جدار ، وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : لم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت أو بطنت نلنا بها حظّاً فى دينٍ أو دنيا ، أو دفع بها عنا مكروه فيهما ، أو فى واحد فيهما ، إلاّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم سببها .

٢ ـ وقوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) . وقد روى البخارى عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ، ويفتح به أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً » . وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار .

٣ ــ وقوله تعالى فى سورة الجمعة : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

وكفاهم معجزة أن يتلو عليهم صلى الله عليه وسلم كتاباً معجزاً لا عهد لهم به ولا قوة لهم على معارضته ، مع بيان معانيه بعلم غزير تميز به صلى الله عليه وسلم عن قومه ، كما أنه نقلهم بتأديبه من الرذائل إلى الفضائل . وكذلك انتفعت الأجيال اللاحقة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك من فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد ختم الله بشريعته جميع الشرائع السماوية ، وجعلها باقية يعمل بها العاملون إلى يوم القيامة ، فهو صلى الله عليه وسلم أكثر الرسل تبعاً ، ولم يقع لغيره من المرسلين أن يتزايد تابعوهم بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة كما وقع فى الأمة المحمديّة ، حتى إن مسلمى زمانه صاروا فى عددهم قلة قليلة فى عدد أمته وإن امتازوا فى صفاتهم ، رضى الله عنهم ، وعلى جميع الأجيال التى تَلَتْهم .

٤ ــ وقوله تعالى فى سورة الأعراف : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى ويُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِى الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) . وهى آية تدل على عمومية الرسالة المحمدية للناس كافة ، وقد كانت رسالة مَنْ سبقوه خاصة فى أقوامهم وهو ما يستفاد من قوله تعالى

فى سورة إبراهيم : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «بُعثت إلى الأَحمر والأَسود» وهو ما يُؤيده قوله تعالى : (وما أَرسلْناك إلَّا كافة للناس)، وقوله تعالى : (تبارك الذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا). وقد أخرج الشيخان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أُعطيت خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنبياءِ قبلى ، نُصرت بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لِيَ الأَرضُ مسجدًا وطَهورًا فأَيّما رجل من أمتى أَدركته الصلاة فَلْيصلِّ ، وأُحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأَحد قبلى ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبْعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامّة .

٥ ـ وقوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظونَ). وقوله تعالى : (وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيانًا لِكلِّ شَيْءٍ). وكذلك كل الآيات التى بيّنت فضلَ القرآن الكريم إنَّما هى منةٌ كبرى من الله تعالى على هذه الأُمة المحمديّة ، فقد أكرمها الله تعالى فأَبقى لها القرآن تِبْياناً لكل شىء وهُدى ورحمة لقوم يؤمنون ، ويتحدث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاكرًا ربَّه على تلك المنَّة فيقول فيا أخرجه الإمام البخارى رضى الله عنه عن أَبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من الأَنبياءِ نبىّ إلَّا أُعطى ما مِثْله آمن عليه البشر وإنَّما كان الذى أُوتِيتهُ وَحْيًا أَوحاه الله إلىّ فأَرجو أن أَكون أَكثرَهم تابعاً».

٦ ـ قوله تعالى فى سورة الحجر : (لَعَمْرُكَ إِنَّهمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) فقد أقسم الله تعالى بعظيم قدر نبيّه صلى الله عليه وسلم ، والمعنى «وحياتك» فهو

قسمٌ إلهيّ دَلَّ على نهاية التكريم والتشريف . وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : «ما خلق الله وما ذَرَأَ وما بَرَأَ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم» . وقال أبو الجوزاء : ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غيره صلَّى الله عليه وسلَّم لأنه أكرم البريّة عند الله تعالى .

٧ - قوله تعالى فى سورة النجم : (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) وقوله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ، وقوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) وقوله تعالى : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) . فقد كشفت تلك الآيات البيّنات عن تزكية جمّلته صلى الله عليه وسلم وعصمته عن الآفات فى هذا المسرى والمعراج . فما كذب فؤاده ما رأى مما تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه ، وما نطق لسانه عَن هوى النفس ، بل نطق عن وحى ربه ، وكمل أدبه فى بصره فما زاغ البصر وما طغى ، والشاهد بذلك رب العالمين سبحانه وتعالى وكفى بالله شهيدًا .

٨ - قوله تعالى فى سورة القلم : (وإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غيرَ مَمْنونٍ) . فما أعجب أجرًا يجرى عليه بلا انقطاع ولا نفاد . وكذلك قوله تعالى فى السورة ذاتها : (وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، وفى صيغة الآية من التأكيد ما فيها . وقد سُئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت كما مر عليك : كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن : (قد أفلح المومنون . . .) فدلَّتنا بجوابها رضى الله عنها على أنه كان يستمسك بالأخلاق المحمودة فى القرآن الكريم ويتحلى بها . فكان على الصراط المستقيم وهو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

وقد قال تعالى ناصحًا لنا : (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاط

مُسْتَقِيمٍ) . وعلَّمنا أن نسأله تعالى الصراط المستقيم فى صلواتنا حين نقرأ الفاتحة قائلين : (إياك نعبد * وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم) . وقد قالوا للإمام سهل التسترى رضى الله عنه : أليس قد هدانا الله فلماذا نقول : اهدنا ؟فأجابهم : نسأله أن يثبتنا على الهدى ويزيدنا منه لأنه تعالى يقول : (ولدينا مزيد) . وأقول بعد قول الإمام سهل : إن الله تعالى مع ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم قال له : (وقلْ ربِّ زِدنِي عِلْمًا) .

٩ ـ قوله تعالى فى سورة آل عمران : (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرَنَّه قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قال المفسرون أخذ الله الميثاق بالوحى ، فلم يبعث الله نبيًّا إلَّا ذكر له محمدًا عليه الصلاة والسلام ، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به ، وقيل أن يبيّنه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبيّنوه لمن بعدهم . وقال الإمام علىّ كرم الله وجهه : لم يبعث الله نبيًا من آدم فَمَنْ بعده إلَّا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بُعث وهو حىّ ليؤمنن به ولينصرنّه ويأخذ العهد بذلك على قومه .

١٠ ـ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا) . فانظر كيف قدم الله تعالى رسولَنا محمداً صلى الله عليه وسلم على الذين سبقوه فى زمانهم من سادتنا المرسلين أولى العزم تعظيماً لقدره وتشريفًا لمكانته بينهم ، ولذلك رتبهم الشاعر فى قوله :

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

ولقد خاطب سيدنا عمر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام[١] بكى به صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الكلام : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم وقرأ الآية المذكورة .

١١ — وكل نداء نودى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم جاء بلغة تدل على التكريم الخاص (يا أيها النبى . . .) (يا أيها الرسول . . .) (ياأيها المزّمل . . .) (ياأيها المدّثر . . .)

بينما نودى إخوانه النبيون بأسمائهم (يا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) ، (يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيَا) ، (يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ) ، (يَا مُوسَى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) ، (يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ).

١٢ — وكذلك يستفاد من كتاب الله تعالى أن أمم الرسل السابقين عليه صلوات الله وسلامه كانوا يُخاطِبون الرسلَ بأسمائهم : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) . (يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) . (يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) . وهكذا ، فى حين أن الله تعالى نهانا أن ندعو رسول الله صلى عليه وسلم باسمه فقال تعالى فى سورة النور : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانوا يقولون يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عن ذلك إعظامًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، قال فقالوا : يانبى الله، يارسول الله ، فوجب علينا أن نوقره كما علمنا الله ، ولهذا كان كبارُ سادتنا الصحابة يقولون له : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . . . أى أفديك بأبى وأمى . ولا يخفى على القارئ الكريم أن حرمته صلى الله عليه وسلم باقية بعد انتقاله كما

---

(١) وفى الفصل الأول من هذا الباب ترى كلاما أوسع لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فى هذا المجال ، قاله بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كانت فى حياته ». ألست تلحظ أننا نخاطبه فى التشهد قائلين « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ويقول الإمام النووى رضى الله عنه فى كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » ولو خاطب المصلىّ آدمياً غيره ، صلى الله عليه وسلم بطلت صلاته .

ونحن إذا قارنا بين نبينا صلى الله عليه وسلم وإخوانه النبيين الكرام فإننا لا نقصد بالمقارنة حطاً من أقدارهم التى شرّفها الله فى القدم حين اختصهم جميعاً بفضل النبوّة والرسالة ، وإنما نقصد أن نبين أنهم مع علو أقدارهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقدّمهم فى قدْره باعتباره كبيرهم ، وكيف لا وقد أمّهم حين قدمه جبريل عليه السلام فصلى بهم فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء كما مر عليك فى الباب الرابع .

١٣ ــ ويقول تعالى فى سورة آل عمران : (ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وهذا النَّبِىُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ) . وقد جمع الله فى الآية الأخيرة بين خليله عليه الصلاة والسلام وحبيبه صلى الله عليه وسلم . ومع رفعة مقام الخلّة (واتَّخذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) فقد ذكره الله فى الآية باسمه على حين ذكر الله تعالى حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بالنبوة بقوله : (وهذا النبىّ) .

١٤ ــ ولعلنا نلحظ أنه حيث ذكر الله حبيبه فى القرآن الكريم باسمه إنما ذكره فى غير مقام النداء ، ومع ذلك أتبع اسم الحبيب بوصف الرسالة ، فمثلا يقول تعالى فى سورة الفتح : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ . . .) ويقول فى سورة آل عمران : (وما محمدٌ إِلَّا رَسولٌ قد خَلَتْ من قبلِه الرُّسُلُ . . .) ويقول فى سورة الأحزاب : (ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ من رجالِكُمْ ولَٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وخاتَم النَّبِيِّين. . .) ، أما وقد عظّم الله قَدْرَ نبيّه

صلى الله عليه وسلم فواجب علينا نحن المؤمنين أن نحفظ عليه قَدْرَه الذى حفظه الله ، فلا يقول خطيبٌ يتكلم عنه صلى الله عليه وسلم : كان محمد بن عبد الله . . . كما يفعل بعض الجهّال الذين يتزيّون بزى العلماء وليس لهم من العلم إلّا شَقْشَقَةُ اللسان وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً ، وليتق الله أيضاً أولئك الذين يجترئون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة أنه بشر مثلنا ، فيتخرصون بما لا يتفق مع قدره كصاحب وحى ، وما يتنافى مع عصمته التى شهد بها قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) . وإذا كان الله قد ارتضى خلقه ووصفه بالعظمة ، فكيف ينتقصه البشر ويخالفون وصف الله العليم الحكيم .

١٥ – وقد أخبرنا القرآن الكريم بما كان من دفاع سادتنا ، المرسلين عن أنفسهم ، وبيّن لنا أن الله تعالى تولّى الدفاع عن رسولنا صلى الله عليه وسلم ، فمثلا حين قال قوم نوح عليه السلام : (إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِين) . دافع عليه السلام عن نفسه فقال فيما حكى الله عنه : (يا قَوْمِ لَيْسَ بى ضَلَالَةٌ . . .) ، وقال قوم هود عليه السلام : (إِنَّا لَنراكَ فى سَفَاهَةٍ . . .) فقال نافيًا عن نفسه السفاهة (ياقوم ليس بى سَفاهةٌ . . .) ، وقال فرعون لموسى عليه السلام (إِنِّى لأَظُنّكَ يا موسَى مَسْحورًا) . فقال موسى عليه السلام (وإنى لأَظُنُّكَ يَا فِرْعونُ مَثْبُورًا) . ولكن حين قال كفار مكة إن محمدًا ساحر أو كاهن أو مجنون ، وحين قالوا إنه شاعر نتربّص به رَيْبَ المنون ، رَد الله بكلامه عليهم مدافعاً عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : (ما أَنت بِنِعمَةِ رَبِّكَ بمجنونٍ) . وبقوله : (إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وما هو بِقَوْلِ شاعرٍ قَليلاً ما تُؤمِنُونَ * ولا بِقَولِ كَاهِنٍ قَليلًا ما تَذَكَّرُونَ) ، وبقوله تعالى : (وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لهُ إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ) .

١٦ – ويقول الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه دلائل النبوة :

إن الله تعالى قَرن اسمَ نبيّنا عليه الصلاة والسلام باسمه تعالى فى كتابه

عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعده ووعيده فقال تعالى : (وأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ) . وقال تعالى : (وأَطيعُوا اللهَ ورسولَه إِنْ كُنتمْ مُؤْمنينَ) . وقال تعالى : (ويُطِيعُونَ اللهَ ورَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ) . وقال تعالى : (إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمنوا بِاللهِ ورَسُوله . . .) وقال تعالى : (اسْتَجِيبُوا لِلهِ ولِلرَّسُولِ . . .) . وقال تعالى : (ومَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ . . .) وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ ورسولَهُ . . .) . وقال تعالى : (بَرَاءَةٌ من اللهِ ورسولِهِ) . . . وقال تعالى : (وأَذانٌ من اللهِ وَرَسُولِهِ . . .) وقال تعالى : (ولَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ . . .) .

وقال تعالى :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ من يُحادِدِ اللهَ ورسُولَهُ . . .) . وقال تعالى : (إِنَّمَا جَزَاءُ الذينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَه . . .) وقال تعالى : (ولا يُحَرِّمونَ ما حرَّم اللهُ ورَسُولُه . . .) . وقال تعالى : (ومن يُشاقِقِ اللهَ ورسُولَه . . .) وقال تعالى : (قُلِ الأَنفالُ لِلهِ والرَّسُولِ . . .) وقال تعالى : (فَرُدُّوه إلى اللهِ والرسول . . .) وقال تعالى : (ولَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُم اللهُ ورسُولُه . . .) وقال تعالى : (وقَالُوا حسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ورسُولُه . . .) وقال تعالى : (فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ . . .) وقال تعالى : (وما نَقَمُوا إِلَّا أَن أَغْنَاهُمُ اللهُ ورسولُه . . .) . وقال تعالى : (وقَعدَ الَّذين كَذَبُوا اللهَ ورسُوله) وقال تعالى : (وإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عليه وأَنْعَمْتَ عليه . . .) يقول الإمام أبو نعيم : قرن سبحانه اسمه باسمه فى ذلك تعظيماً له وتشريفاً صلى الله عليه وسلم .

١٧ ـ قوله تعالى : (النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأَزْواجُه أُمَّهاتُهُمْ) ويقول الإمام ابن الحاج رضى الله عنه فى كتابه المدخل فى تعقيبه على هذه الآية : فحقه عليه الصلاة والسلام أعظم من حقوق الوالدين ، قال عليه الصلاة والسلام : ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول ، فقدّم نفسه على غيره ،

والله عز وجل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفس كل مؤمن ، ومعنى ذلك إذا تعارض له حقان ، حقٌّ لنفسه وحقٌّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، فآكدهما عليه وأوجبهما حق النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يجعل حق نفسه تبعاً للحق الأول .

١٨ ـ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وما كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ولا أَن تَنْكِحُوا أَزواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً) . قال الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تفسيره : حرَّم الله نكاح أزواجه من بعده صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهن حكم الأمهات ، وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهًا على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهنّ ومن استحلّ ذلك كان كافرًا لقوله تعالى : (وما كان لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسولَ اللهِ . . .) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : «زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة» . وقال : «كُلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ يَنْقَطِعُ إِلَّا سَبَبى ونَسَبِى فإِنَّهُ باقٍ إلى يوم القيامة» .

١٩ ـ قوله تعالى : (وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) . قال الإمام أبو نعيم إن الله فرض طاعتَه على العالم فرضًا مُطلقاً لا شرط فيه ولا استثناء .

٢٠ ـ قوله تعالى فى سورة البقرة : (قد نَرَى تَقَلُّب وَجْهِكَ فِى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلةً تَرْضَاهَا) . وتدل هذه الآية الكريمة على أن الله يسارع فى هواه صلى الله عليه وسلم كما قالت سيدتنا عائشة رضى الله عنها .

٢١ ـ وقال ابن سبع من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى وصفه فى كتابه عضوًا عضوًا ، فقال فى وجهه : (قد نرى تَقلب وجهك فى السماءِ . . .) ، وقال فى عينيه : (ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما متَّعْنَا به أزواجاً مِنْهُمْ . . .) . وقال فى لسانه : (فإنما يَسَّرناهُ بلِسَانِكَ . . .) وفى

يده وعنقه (ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ . . .) . وفى صدره وظهره (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) . وفى قلبه (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ) . وفى خُلُقِهِ : (وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . أقول وفى نفسه قال تعالى : (مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينة وَمَنْ حَوْلهُم مِنَ الأَعرَابِ أن يتخَلَّفُوا عَنْ رسُولِ الله ولا يرغبوا بأَنْفُسِهِمْ عن نَفْسِه) .

٢٢ ـ قوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) . قيل إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معى وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقيل فى الأَذان . وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه يعنى ذكره صلى الله عليه وسلم عند الإيمان بالله تعالى والأَذان ، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

٢٣ ـ وقال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : من تمام نعمته عليه أَن جعله حبيبه ، وأَقسم بحياته ، ونسخ به شرائع غيره ، وأَحلّ له ولأمته الغنائم ، وجعله شفيعاً مُشفَّعاً ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله أَحد ركنى التوحيد ثم قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنما يُبَايِعُونَ اللَّهَ) ببيعتهم إياك (يَدُ اللهِ فَوقَ أَيْدِيهِمْ) . يريد عند البيعة ، قيل فى معنى يد الله : قوة الله ، وقيل ثوابه ، وقيل سنته ، وقيل عقده ، وهذه استعارة وتجنيس فى الكلام وتأْكيد لعقد بيعتهم إياه وعظيم شأْن المبايع صلى الله عليه وسلم .

٢٤ ـ قوله تعالى فى سورة الشورى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِى القُرْبَى) . ويقول سيدى الشيخ الأَكبر محيى الدين بن العربى فى الباب ٣٤٢ تعقيباً على هذه الآية :

« قالت الرسل لأممهم عن أمر الله تعالى تعريفاً للأمم بما هو الأمر عليه : (قُلْ مَا سأَلتُكُمْ من أجرٍ فَهُوَ لَكُمْ إن أجرىَ إلاّ على الله) . فذكروا استحقاق الأجر على من استعملهم ، ولم يقولوا ذلك إلاّ عن أمره ، فإنه قال لكل رسول : (قل ما أسألكم عليه من أجر) . واختص محمداً صلى الله عليه وسلم بفضيلة لم ينلها غيره ، عاد فَضْلُها على أمته ، ورجع حكمه صلى الله عليه وسلم إلى

حكم الرسل قبله في إبقاء أجره على الله، فأمره الحقُّ أن يأخذ أجره الذى له على رسالته من أمته ، وهو أن يُوادُّوا قرابته فقال له : (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى على تبليغ ماجئت به إليكم (إلا المودةَ في القربى) فتعين على أمته أداء ما أوجبه الله عليهم من أجر التبليغ ، فوجب عليهم حبُّ قرابته صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وجعله باسم المودّة وهو الثبوت على المحبة .

« فلما جعل له ذلك ولم يقل إنه ليس له أجر على الله، ولا إنه بقى له أجر على الله، وذلك ليجدّد له النعم بتعريفه ما يُسر به ، فقيل له بعد هذا: قل لأمتك أمراً ما قاله رسول لأمته (قل ما سألتكم[1] من أجر فهو لكم إن أجرى إلاّ على الله) ، فما أسقط الأجر عن أمته في مودتهم للقربى ، وإنما ردّ ذلك الأجر بعد تعينه عليهم، فعاد ذلك الأجر عليهم الذى كان يستحقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعود فضل المودة على أهل المودة ، فما يدرى أحد ما لأهل المودة في قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأجر إلاّ الله تعالى » .

وكلام سيدى الشيخ الأكبر كما ترى كلام نفيس ينكشف به الأمر ، وينشرح له الصدر ، وعلينا جميعاً أن نحفظ مودّة سادتنا آل البيت بالثبات على محبتهم ، ويرحم الله المحب دِعْبل الخُزاعى إذ يقول في قصيدته المشهورة :

أحبُّ قَصِىَّ الرَّحْمِ من أجل حُبِّكُمْ ... وأهجر فيكم أُسرتى وبناتى

فيا ربِّ زدنى مِنْ يقينى بصيرةً ... وزد حبَّهم يا ربِّ في حسناتى

٢٥ ـ قوله تعالى في سورة الأحزاب : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكم تَطْهِيرًا) . ويقول في تعقيبه على هذه الآية سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربى في الباب ٢٩ من الفتوحات :

« لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً محضاً قد طهره الله وأهل بيته تطهيراً وأَذْهَبَ عنهم الرجس (وهو كل ما يشينهم) ، فلا يضاف إليهم إلاّ مطهر ولا بد، فإن المضاف إليهم هو الذى يُشْبهم، فما يضيفون لأنفسهم إلا مَنْ له حكم الطهارة والتقديس، فهذه شهادة من النبي صلى الله عليه وسلم لسلمان

(١) آية ٤٧ من سورة سبأ .

الفارسىّ بالطهارة والحفظ الإلهى والعصمة حيث قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « سَلْمان مِنا أهل البيت » وشهد الله لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم ، وإذا كان لا يضاف إليهم إلا مطهر مقدس وحصلت له العناية الربانية الإلهية بمجرد الإضافة ، فما ظنك بأهل البيت فى نفوسهم فهم المطهَّرون ، بل عين الطهارة . . .

« فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم رضى الله عنهم ، ومن هو من أهل البيت، مثل سلمان الفارسى رضى الله عنه ، إلى يوم القيامة فى حكم هذه الآية من الغفران ؛ فهم المطهرون اختصاصاً من الله وعنايةً بهم لشرف محمد صلى الله عليه وسلم وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلاّ فى الدار الآخرة فإنهم يُحشرون مغفوراً لهم ، وأما فى الدنيا فمن أتى منهم حدًّا أقيم عليه . . . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سَرَقَت لقطعت يدها » وقد أعاذها الله من ذلك رضى الله عنها ، فوضع الأحكام لله يضعها كيف يشاء وعلى أى حال يشاء ، فهذه حقوق الله تعالى . . .

«أما عن حقوقنا فنحن مخيَّرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا، والترك أفضل عموماً ، وليس لنا ذمّ أحد ، فكيف بأهل البيت ، فإنا إذا نزَلْنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم فى ذلك أى فيما أصابوه منا ، كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى، فإن النبى صلى الله عليه وسلم ما طلب منّا عن أمر الله إلا المودة فى القربى ، وفيه سر صلة الأرحام ، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه ، فبأى وجه يلقاه غداً أو يرجو شفاعته ؟ وهو ما أسعف نبيه صلى الله عليه وسلم فيما طلب منه من المودة فى قرابته، فكيف بأهل بيته وهم أخص القرابة . ثم إنه جاء بلفظ « المودة » وهى الثبوت على المحبة ، فإنه من ثبت ودّه فى أمر استصحبه فى كل حال ، وإذا استصحب المودّة فى كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم فى حقه فما له أن يطالبهم به ، فيتركه ترك محبة وإيثار على نفسه لا لها . . . فلو كشف لك يا ولىّ عن منازلهم عند الله فى الدار الآخرة لودَدْتَ أن تكون مولى من مواليهم ، والله يلهمنا رشد أنفسنا . أقول وقد أفردنا باباً خاصًّا بآل البيت استيفاء للبحث وهو الباب الخامس عشر

فليرجع إليه القارئ الكريم .

٢٦ ـ قوله تعالى فى سورة البقرة : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عليكم شهيدًا) ، قال سيدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله أنزل أمته منزلةَ العُدول من الحكّام ، فيشهدون على الناس بأن رُسُلَهم بلغتهم ، وهذه الخصِّيصَة لم تَثْبُت لأحد غيره من الأنبياء . وأخرج البخارى والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُدْعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بَلّغتَ فيقول : نعم ، فتُدعَى أمتهُ فيقال لهم : هل بَلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا أحدٌ ، فيقال : من يَشهدُ لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فذلك قول الله تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) الوسط العدول ،فتُدْعَون فتشهدون له بالبلاغ ، وأشهدُ عليكم . وأخرج أحمد والنسائى والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبى ومعه الرجلان فأكثر من ذلك ، فيقال لهم : هل بَلّغْتُم ؟ فيقولون نعم ، فيدعى قومهم ، فيقال لهم : هل بَلّغوكم ، فيقولون : لا ، فيُقال للنبيين : مَنْ يشهد لكم أنكم بلّغتم ؟ فيقولون أمة محمد ، فتُدعى أمة محمد فيشهدون أنهم قد بَلّغوا ، فيقال لهم : وما علمكم أنهم قد بَلّغوا ؟ فيقولون : جاءنا نبينا بكتاب أخبرنا أنهم قد بَلّغوا وصدقناه ، فيُقال : صدقتم ، فذلك قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً) قال عدولا ، (لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً) .

٢٧ ـ قوله تعالى فى سورة آل عمران (وشاوِرْهمْ فى الأمرِ) وقد أخرج ابن عدىّ والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال لما نزلت (وشاوِرْهم فى الأمر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إنّ الله ورسوله لغنيّان عنها ولكن جعلها الله رحمةً لأمتى » ومن ذلك يدرك القارئ الكريم أن الله تعالى شرع الشورى لرسوله صلى الله عليه وسلم لتتأسَّى به أمتُه فيها فتأمن الوقوع فى الضلالة أو الخطأ الفردى .

٢٨ ــ قوله تعالى فى سورة المائدة : (واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ) فكان صلى الله عليه وسلم فى وقاية ربه فلا يستطيع أعداؤه أن يصلوا إليه بسوء قلّوا أو كثروا ، ولما نزلت هذه الآية سَرَّحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين كانوا فى حراسته اكتفاءً بحراسة الله تعالى وحفظه .

٢٩ ــ قوله تعالى فى سورة الحشر : (ما أَفاءَ اللهُ على رسُولِهِ من أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وللرَّسُولِ ولِذِى الْقُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ كَىْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوه وما نَهاكُمْ عنه فانْتَهوا واتّقوا الله إنَّ الله شَديدُ العِقابِ) .

يقول الإمام القرطبى فى تفسيره :

الأموال التى للأمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب :

الأول : ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم كالصدقات والزكوات .

الثانى : الغنائم ، وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقَهْر والغَلَبة .

الثالث : الفَىْء ، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفواً من غير قتال ولا إيجاف(١) ، كالصلح والجزية والخراج والعُشور المأخوذة من تجار الكفار . ومِثْله أن يهربَ المشركون ويتركوا أموالهم ، أو يموت أحدٌ منهم فى دار الإسلام لا وارث له .

فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملون عليها حسب ما بيّنه الله تعالى ، وأما الغنائم فكانت فى صدر الإسلام للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء كما قال فى سورة الأنفال : (قُلِ الأَنفالُ للهِ والرَّسُولِ . . .) ثم نسخ بقوله تعالى(واعلموا أنما غَنِمْتُمْ من شىء فَأَن لله خُمُسَهُ ، ولِلرَّسول ولِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكينِ وابنِ السَّبيلِ) . وأما الفىءُ فَقسمته وقسمة الخمس سواء .

---

(١) من غير إيجاف أى من غير إعمال الخيل والركاب .

(٢) سكتت الآية عن أربعة الأخماس الباقية لتدل على أنها حق للغانمين .

والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قَسَّمه كله بين الناس، وسوَّى فيه عربيهم ومولاهم ، ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا ، وذوو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم يـعطـوْن من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام ، وليس له حد معلوم ، واختلف فى إعطاء الغنى منهم، فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم . وقال مالك : لا يـُعطى منه غير فقرائهم لأنه جـُعل عوضاً من الصدقة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من مال الفىْء نفقةَ سنـَتِـهم ثم يأخذ ما بقى فيجعله مَجْعل مالِ الله ، ولما توفى صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا ولىُّ رسول الله ، فعمل فيه بما عمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره :

واختلاف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال :

(ا) قريش كلها ، قاله بعض السلف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما صعد الصَّفا جعل يهتف: « يابنى فلان، يابنى عبد مناف، يابنى عبد المطلب يابنى مـُرَّة ، يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار » الحديث .

(ب) وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو المطلب لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب قال : « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبَّك بين أصابعه ، أخرجه النسائى والبخارى . قال النسائى وأسهم النبى صلى الله عليه وسلم لذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير، وقد قيل إنه للفقير منهم دون الغنى كاليتامى وابن السبيل . . وهو أشبه القولين بالصواب عندى والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء ، لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، وليس فى الحديث أنه فضّل بعضهم على بعض .

(ج) بنو هاشم خاصة ، قاله مجاهد وعلى بن الحسين ، وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم .

٣٠ ـ قوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) . قال الإمام الفخر الرازى : أجمع المفسرون على أن المحمود هو مقام الشفاعة ، وقال العلماء إن كلمة « عسى » من الله واجب ، وفى البخارى من حديث ابن عمر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : « هو الشفاعة » .

٣١ ـ قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) . وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال لما عرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال : «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت : ما هذا يا جبريل ، قال : هذا الكوثر » .

٣٢ ـ قوله تعالى : (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) . قيل « لا » زائدة أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرّفته بمكانك فيه . والبلد هى مكة حرسها الله تعالى ، وبحلوله صلى الله عليه وسلم فيها صارت حرمًا ، ومهبطًا للوحى ، ومنبعًا للدين ، وقد قالوا إن هذا القسم أدخل فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم من القسم بذاته وبحياته كما أشار إليه عمر رضى الله عنه بقوله : بأبى أنت وأمى يارسول الله قد بلغت من الفضيلة عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال (لا أقسم بهذا البلد) .

٣٣ ـ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . والصلاة من الله زيادة فضل وتكريم وتشريف ، وصلاة الملائكة دعاء بالزيادة ، وصلاة المؤمنين دعاء يقابلون به معروف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا يستطيعون مكافأته عليه ، فيرجعون إلى الله ضارعين أن يكافئه عنهم بما رسم الله لهم من أمره تعالى بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم .

ويقول الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه فى تفسيره : إنّ صلاة الملائكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من السجود لآدم ، لأن الله تعالى أمرهم بالسجود لآدم تأديبا ، وأمرهم بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم تقريبًا[1] ، كما أن الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم دائمة إلى يوم القيامة ، وأما سجود الملائكة

---

(١) أى يتقرب المؤمن إلى ربه بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

لآدم عليه السلام فما كان إلاّ مرة واحدة، وكذلك السجود لآدم إنما تولاه الملائكة، وأما الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم فإنما تولاها ربّ العالمين . ثم أمر بها الملائكة والمؤمنين .

وأخيراً لا يفوت القارئ الكريم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هى طريق الفتح ، وأنها من ذكر الله تعالى الآمر بها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » وقد أفردنا لها باباً خاصاً وهو الباب الرابع عشر فليرجع إليه القارئ الكريم .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدِنا محمد وعلى آله عددَ ما في علمِ الله صلاةً دائمةً بدوام مُلْكِ الله .

الباب الحادى عشر

أزواجه صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم

تعدد الأزواج بعد وفاة السيدة خديجة :

روى الإمام الطبرى بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى عن تسع زوجات .

ومما هو جدير بالذكر أن تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم إنما كان بعد وفاة أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وهى أول النساء إيماناً ، وقد عاشرها صلوات الله وسلامه عليه ربع قرن من الزمان ولم يتزوج عليها قط ، وكانت حين تزوجها أرملة فى سن الأربعين وماتت فى الخامسة والستين — على أرجح الروايات — وكان هو صلى الله عليه وسلم عند زواجه منها فى سن الخامسة والعشرين ، وكان عند وفاتها فى سن الخمسين ، وقد ماتت فى حياته الشريفة وقبل هجرته إلى المدينة المنورة بثلاث سنوات،ومما هو جدير بالذكر أنه على كثرة أزواجه الشريفات لم يتزوج بكراً إلا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

خصوم الإسلام ورد العقاد عليهم :

وإليك ما يقوله فى روعة ظاهرة العلامة العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » رداً على خصوم الإسلام الذين أرادوا عمداً وعبثاً تشويه سمعة النبى صلى الله عليه وسلم فى تعدد الزواج :

« ما اتفق خصوم الإسلام عن سوء نية على شىء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه

الإسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي عليه السلام ، وتمثيله لأتباعه فى صورة معينة لاتلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح ، وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشَّهْوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح

« . . . وإنهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شىء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فإذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه .

« فلا حجة للمسلم على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فى رسالته أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبي الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

« ما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه .

« لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية .

« ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

« فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

« هل فعل محمد ذلك فى مطلع حياته ؟

« كلا لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد أن يفقد أزواجه لشكايتهن من شظَف العيش فى داره .

« لم يحدث قط أن اختار زوجة واحدةً لأنها مليحة أو وسيمة ، ولم يَبْنِ بعذراء قط إلا العذراء التى علم قومه جميعاً أنه اختارها لأنها بنت صدّيقه وصفيه وخليفته من بعده أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

« هذا الرجل الذى يفترى عليه الأئمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق فى لذات حسه ، قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين وكان هو فى عنفوان الشباب يجاوز الخامسة والعشرين ، وقد اختارته زوجاً لها لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفو الصدق والأمانة فيه ، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفّى لها بعد موتها فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له فى عزلته فخطبت له السيدة عائشة بإذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

« وما بنى عليه السلام بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن . ومعظمهن كنّ أرامل مأيمات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله .

« فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها إلى الرِّدَّة أو تتزوج بغير كفء لها أو بكفء لها لا يريدها ،

« والسيدة هند بنت أبى أميَّة — أم سلمة — مات زوجها عبد الله المخزومى وكان أيضاً ابن عمها أصابه جرح فى غزوة أحد فقضى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بسنها لتعفيه من خطبتها فواساها قائلا : سلى اللهَ يؤْجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيراً ، فقالت : ومَنْ يكون خيراً لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به إليه ، فطيَّب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها ،

« والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى عليه السلام

إلى النجاشي يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها في سبيل دينها ، ولعل في الزواج بها سبباً يصل بينه وبين أبي سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة إلى مودة تخرجه من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام ،

« والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبي بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت ، وبث عمر أسفه للنبي فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التي شرف بها أبا بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبي بكر وعثمان ،

« والسيدة صفية الإسرائيلية بنت سيد بني قُرَيْظة خيرها النبي بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى ذويها ، ولولا الخلق الرفيع الذي جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع إحدى صواحبها تعيبها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : إنك قد نطقت بكلمة لو ألقيت في البحر لكدّرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغريبة أن تسمع في بيته ما يكدرها ويغض منها .

« والسيدة زينب بنت جحش — ابنة عمته — زوّجها من مولاه ومتبناه زيد ابن حارثة ، فنفرت منه وعز على زَيْد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبي في طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لأنه المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيّاً عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها ،

« والسيدة زينب بنت خُزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا في غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل في صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها عليه السلام ، إذ لا كفيل لها من قومها ،

« وهذا هو الحريم المشهور في أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هي بواعث النفس التي استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا

منها إلا أنها بواعث إنسان غارق فى لذات الحس شهوان .

« ولقد أقام هؤلاء الزوجات فى بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثيرين من الرجال ، مسلمين كانوا أو مشركين . . . فاتفقن على مفاتحته فى الأمر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة ، وهى موفورة لديه لو شاء أن يزيد فى حصته من الفيء فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه ، إلا أن الرجل المُحَكَّم فى الأنفس والأموال – سيد الجزيرة العربية – لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة فأمهلهن شهراً وخيَّرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلْن ما قبل لنفسه من ذلك العيش الكفاف . وهذا الخبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر فى كتب التنزيل من نزول هذه الآيات فى سورة الأحزاب .

(يـأَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا * وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهُ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهُ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً) .

« . . . أَعَنْ مثلِ هذا الرجل يقال إنه حِلْس شهوات وأسير لذّات ؟

« . . . أعن مثله يقال إنه ابتغى من رسالته مأربًا يبغيه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

« فيم كل هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها ، من ميْعةِ الشباب إلى سنٍّ لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر ، أو لمن صاحبته الخيبة والهزيمة ؟

« ومن أراد الدعوة لغير الهداية والإصلاح فلماذا يريدها ، وما الذى يغنمه من ورائها ؟

« أتراه يريدها مخاطراً بأمته وحياته مستخفًّا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ، ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلاهم شرفًا بالانتماء إليه ؟

« أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة

العربية وأقدر رجالها على اصطفاء النساء الحسان من الحرائر والإماء ؟

« وهل يتزوج بهن الشهوان الغارق فى لذات الحس ليقتدين به فى اجتواء الترف والزينة وخلوص الضمير للإيمان بالله وابتغاء الدار الآخرة ؟

« وما مأربه من كل ذلك إن كان له مأرب فى طويته غير مأربه فى العلانية ؟ وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد فى بيته وبين قومه إن لم تكن له رسالة يؤمن بها ولم تكن هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان ؟

« إن المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج فى السيرة النبوية مقتلا يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة ، لا حجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها فى سره كإخلاصه لها فى علانيته ، ولو أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لا جتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها .

التعدد مشروع فى الأديان الكتابية :

ويتعرض العلامة العقاد مرة أخرى لتعدد الزواج فى كتابه « الفلسفة القرآنية » فيقول رحمه الله :

« من الأوهام الشائعة بحكم العادة أن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية .

« وهذا وهم قد سرى إلى الأخلاد بحكم العادة كما أسلفنا ، لأن الواقع الذى تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعاً عند أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم ، فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى « وستر مارك » العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية : أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تُقرّان تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الأسر الكبيرة .

وكل ما حدث فى القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل

الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بتة ، فكانت الفكرة التى دعت إلى استحسان الزواج الموحد ، هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فإن لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شرًّا من امرأتين .

« . . . فكان تعدد الزوجات مباحًا فى الأديان الكتابية جميعًا ، ولم يحرم حين حرم إكباراً للمرأة وتنزيهًا لها عن قبول المشاركة فى زوجها بل كانت الفكرة الأولى فى تحريمه أن المرأة شر يكتفى منه بأقل ما يستطاع .

« . . . أباحت شريعة الإسلام تعدد الزوجات ولم تفرضه كما يبدو إلى أخلاد المتكلمين فى هذا الموضوع من الغربيين .

« . . . فلا الأديان الكتابية حرّمت تعدد الزوجات ، ولا الإسلام حرّم توحيد الزوجة وأوجب على المسلم أن يتزوج أكثر من واحدة ، وإنما أباح تعدد الزوجات مع ضمان العدل بين النساء .

ويقول رحمه الله فى كتابه « عبقرية محمد » .

« نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، فى غير مشقة عندهم ولا معابة .

« ونسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسَر وبين الفتيات .

« ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ،

« ونسوا أنه اختار أحسابًا فى حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختر جمالاً مطلوبًا للمتاع .

«ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه ، ولو شاء لما كلّفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى يديه .

« نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام ، فلماذا نسوه ؟

« نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقوّلوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمّدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

رد الدكتورة بنت الشاطىء :

وحيا الله الدكتورة « بنت الشاطئ » إذ قالت فى كتابها « نساء النبى » .

« . . . وقد قال المستشرقون فى تعدد الزوجات ما قالوا ، ولم يرْوا فى هذا الجمع بين عدد النساء تحت رجل واحد سوى مظاهر مادية مسرفة ، وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى الجامح وانحراف عن النهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد[1] وأبعاد .

« وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة يتبع فى دقة وينفذ نصًّا وروحًا .

وجهة نظرى :

هذا وأقول بعد ما تقدم إن قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً) . يستشف منه الفَطِن أَنَّ زواجه صلى الله عليه وسلم إنما هو باختيار الله له ، ولا تهمة مع الحلال ، ولا مأثم فى الطيِّب المباح ولذلك يقول تعالى فى زواجه بالسيدة زينب بنت جحش بعد أن طلَّقها زيد بن حارثة (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) .

---

(١) أزمان .

كما دفع الله عنه الحرج فى تعدد زواجه وزيادة عدد أزواجه عن الحد الأقصى الذى يجمعه المؤمن وهو أربع نسوة ، وكذلك فى زواجه بمؤمنة تهبه نفسها خالصة له من دون المؤمنين . فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَك وَامْرَأَةً مؤمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا) . فهو صلى الله عليه وسلم لا يتصرف فى زواجه إلا بوحى من ربه وتستشف ذلك عن قرب من قوله تعالى فى سورة التحريم : (عَسَى رَبُّه إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خيرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) . وتأمل فى وصف ما يختاره الله لنبيه من النساء من ذوات التقوى والإيمان الحق، وكيف علّق الله إبدالهن بطلاقهن ، فحيث تمت توبتهن ولم يطلقهن فقد بقين بأمر الله فى شرف عصمته صلى الله عليه وسلم وهن متحليات بصفات المؤمنات القانتات عليهن رضوان الله .

وإذا أردت أن تعرف الخلق النبوى الزكى فى معاملتهن الكريمة مع كثرتهن فاقرأ بتدبرّ قوله تعالى فى سورة التحريم : (لِمَ تُحرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) . وانظر كيف كشف الله بقوله : (تبتغى مرضاة أزواجك) عن نيّته الخفية فى العمل على تطييب نفوسهن ، ثم اقرأ بعد ذلك ما هدّد الله به زوجتيه الكريمتين عائشة وحفصة رضى الله عنهما فى السورة ذاتها (إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ والْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

فانظر رعاك الله كيف كانت غيرة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكيف كانت ولايته له وعنايته به . وإذا جاء التهديد بهذه القوة لزوجتيه وهما ابنتا صديقيه الأثيرين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما وقد غارتا غيرة نسوية معتادة من النساء بطبيعتهن ، فكيف بمن تطاول على حرمته أو سنته من الجاهلين أو الحاقدين والحاسدين ، أعاذنا الله من ذلك بمنّه وكرمه ، وجعلنا ممن يصونون حرمته ، ويحفظون عهده ، وينصرون سنته ، فى الغيب والشهادة .

هذا وأضيف أن العرف لم يكن إلى عهد قريب يستنكر تعدد الزواج وخاصة فى الريف حيث يعتز الناس بعصباتهم وذراريهم ، ولقد تزوّج جدى لأبى كثيرات وأنجب كثيراً من الأبناء والبنات حتى ورثه ستة عشر رجلا وثلاث عشرة بنتا وأربع نسوة ، ولم يكن المجتمع ينكر عليه ذلك بل كانوا يعدونه مظهراً من مظاهر العيشة الراضية الناعمة ، وكان أعمامى جميعاً يعتزون بأبى ويقدمونه عليهم بفضله ، ولم يكن له شقيق منهم على كثرتهم ، وكذلك عدّد أخوة جدّى زوجاتهم وإن لم يصلوا بالعدد إلى ما وصل إليه جدى رحمهم الله جميعـًا ، وكان القوم يفرحون بمصاهرة جدى لهم ، مع علمهم بضرائر يعشن فى بيت واحد ، حيث كان العرف جاريـًا بالتعدد دون إنكار .

وإلى اليوم يقع التعدد فى المملكة العربية السعودية كأمر عادى وتعيش أكثر من زوجة مع زوجها فى بيت واحد ، وشهدنا ذلك بأنفسنا ، وها هى ذى إيطاليا ، وهى مهد البابا الكاثوليكى ، قد أباحت الطلاق بقانون صدر قريبـًا ، ومؤدى الطلاق أن يتعدد الزواج الذى يستنكره على نبينا صلى الله عليه وسلم المتعصبون من المستشرقين والمبشرين ، فماذا هم قائلون لحكومة إيطاليا التى واجهت الحياة الاجتماعية بواقعها العملى فى غير مغالطة أو تدليس ، وإن عارضها رجال الدين المسيحى عن ظن بأن أهون الشرور الزواج بشرّيرة واحدة ، دون استناد إلى نص دينى بتحريم التعدد فى كتب العهد الجديد ، وكتب العهد القديم تبيح التعدد ، وهى التى تستند إليها كتب العهد الجديد عند عدم النص فيها على التحريم ، وقد بان لك مما قاله العلامة العقاد أن التحديد بواحدة جاء من رجال الدين المسيحيين أساس أنّ المرأة شر فليكن الاقتران بها فى أضيق الحدود إن لم يستطع رجل

الدين أن يعيش بغيرها ، ولم يكن التحديد بواحدة راجعًا إلى نص دينى .

وإذا كان المستشرقون والمبشرون يخوضون فى مسألة التعدد فلماذا ينسون أن يذكروا لنبينا صلى الله عليه وسلم أنه رفض أن يتزوج إمامنا على بن أبى طالب بزوجة أخرى على ابنته الزهراء ، وهو ما ينفى أنه أراد التعدد لنفسه عن غرام بالنساء الكثيرات ، والقصة معروفة ، فقد همّ الإمام على أن يتزوج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، فذهبت السيدة الزهراء إلى أبيها باكيةً وقالت له : يزعمون أنك لا تغضب لبناتك . وجاء بنو هشام بن المغيرة ليستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى تزويج علىٍّ بابنتهم ، فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر والغضب باد عليه وقال على مَسْمَعٍ من الحاضرين : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتى بضعة منّى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها . ومما قاله عندئذ صلى الله عليه وسلم : « إنى لست أحرِّم حلالاً ولا أحل حرامًا ، ولكنّ اللهَ لا يجمع بنت رسولِ اللهِ وبنت عدو الله فى بيت واحد أبداً » .

وعمرو بن هشام والدُ تلك الفتاة التى أراد أن يتزوجها الإمام على هو عدو الله أبو جهل الذى طالما آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شخصه وفى رسالته وفى أصحابه .

وكانت تلك الفتاة قد أسلمت وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت فى كتابى « السيدة خديجة الكبرى » :

« والإمام على كرم الله وجهه كان ينظر إلى السيدة الزهراء نظرتين ، أولاهما أنها زوجته الحبيبة ، وثانيتهما أنها بنت الرسول الذى آثره بها على أبى بكر وعمر ، ومعاذ الله أن يقصد إيذاءها ومضايقتها ، لذلك نراه كف عن الزواج عندما تكشف له غضبها وغضب الرسول عليه الصلاة والسلام .

« وإنك لتعجب من رقة شعور الإمام ، ومن سماحة زوجته الزهراء رضى الله عنهما ، فإنه حين عاد الإمام إلى داره بعد أن سمع الكلام المتقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى زوجته الزهراء تبكى اعتذر إليها قائلا :

« هبيني أخطأت فى حقك يا فاطمة ، فمثلك أهلٌ للعفو والمغفرة » .

فأجابته : « غفر الله لك يا ابن العم » .

وقد سقت ما تقدم للتدليل على أنَّ تعدد الزوجات كان أمراً عاديًّا فى مألوف ذلك الزمان من جهة ، ولأدلل على أن التعدد ليس بالأمر الحتمى فى الإسلام من الجهة الأخرى كما يدعى أعداء الإسلام .

ولا يفوتنا بعد هذا أن نوجه النظر إلى أن بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان ينزل فيه جبريل عليه السلام بوحى الله ، لم يكن بيت المادة الحسية والحظوظ الجسدية التى يراها أعداء الدين أنها الغاية القصوى من حياتهم ، بل كان بيت الروح الذى يُخرج الناس من ظلمات المادة الفانية إلى نور اليقين بالله واليوم الآخر ، ذلك النور الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وقد رأى هؤلاء الأعداء على الرغم من غشاوة أبصارهم كيف آثر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خشونة العيش وكفافه فى بيت النبوة على الحياة الدنيا وزينتها حين خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نعيم الدنيا الفانى ونعيم الآخرة الباقى ، وليس هذا الإيثار إلا من نزعات الروح ونور الوجدان .

وقد مرَّ علينا قول الله تعالى لأَزواجه صلى الله عليه وسلم فى سورة الأَحزاب (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ) . فبيوتهن ليست كبيوت غيرهن التى لا ينزل فيها وحى السماء ، ومن ثم قال تعالى لهن مرة أخرى فى السورة ذاتها : (يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحدٍ مِنَ النِّساءِ . . .!) . كما قال لَهن مرة ثالثة : (يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً) . وإنما افترقن رضوان الله عليهن ، كما قلنا من قبل ؛ عن سائر النساءِ بالتربية الروحية العالية وإن اتفقن مع النساءِ فى النوع .

وإذا كان ذلك شأنهن عند الله تعالى فكيف بشأن الرسول الأكرم صلى الله

عليه وسلم ، إنه تحلى فى أكمل الصور التى لا يستطيع عُمْىُ القلوب أن يروها وإنما يراها أهل الإيمان الحق ، بنور البصيرة والوجدان واليقين .

ولست أدرى كيف يجهل المسلم أنّ الإسلام ينظر للزواج نظرة روحية قبل أن ينظر إليه نظرة مادية . ألم يقل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وفى بُضْعِ (١) أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله نأتى النساء بشهوة وتكون لنا صدقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لسائله مجيبًا ومُعلمًا : أرأيت لو وضعتها فى الحرام أكنتَ تُؤزر ؟ قال نعم ، قال فكذلك إذا وضعتها فى الحلال فأنت تؤجر .

إن الله تعالى يقول فى منته علينا بالزواج : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) . ، فأبرزت الآية الكريمة إلى جانب السكون المودة والرحمة اللتين تربطان بين الزوجين وهما من سمات الروح وليستا من سمات الجسد .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر يقول : ما أتيت أهلى قط بنيّة الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يُوَحد الله ولا يشرك به شيئًا ، وكأنه رضى الله عنه يُفْهمنا بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

لا ، بل إن الله تعالى جعل الألفة الروحية فى المجتمع الإنسانى الهدف السامى من اقتران الرجل بالمرأة فقال تعالى مخاطبًا جميع الناس مؤمنهم وكافرهم : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . والتعارف سبيل الألفة الروحية وتبادل المنافع ، فأساس المنافع المادية ألفة روحية إنسانية ، وذلك ما رفع الله به العلاقة الجنسية بين الآدميين عن درجة الجنسية البهيمية .

---

(١) نطفة .

وإذا كانت الناحية الروحية ظهرت بارزة هكذا فى العلاقة الزوجية بين الزوجين فى المجتمع الإنسانى العام فكيف كانت قائمة فى بيت النبوة الذى شعت أنواره على العالمين ، فنعم بها المؤمنون وتعامت عنها قلوب الجاهلين من الجاحدين والمارقين .

إن الصحاح روت أن حنظلة رضى الله عنه لقيه أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال له : كيف أصبحت يا حنظلة ؟ قال : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ماتقول ؟ قال إنا نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا نراهما رأى عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا (١) الأولاد والزوجات والضيعات فنسينا كثيراً ، قال والله إنى أجد مثل ذلك انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا إليه فذكروا له ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى فرشكم وفى طرقكم ولكن ياحنظلة ، ساعة وساعة ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ». أقول وإذا كان ذلك شأن من اجتمع به صلى الله عليه وسلم من الصحابة فكيف بشخصه صلى الله عليه وسلم وكيف بأزواجه المؤمنات القانتات اللاتى عاشرنه عن قرب واتصال روحى .

إننا لم نقصد من كلامنا الرد على المتعصبين من المستشرقين ، فإنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه عامدين ، وإنما قصدنا أن نحمى الناشئ من المسلمين الذى قد يقرأ لهم قليلا أو كثيراً فيتأثر بما يتقولون به بهتاناً وظلماً عن ظن منه بأنهم قالوا ما قالوه عن بحث علمى وغرض سليم ، فى حين أن هوى نفوسهم أضلهم عن الحق وأرداهم فى الضلال القديم .

زواج الهبة :

إن الله تعالى أباح أن تهب بعض المؤمنات نفسها له صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا

---

(١) عافسنا أى خالطنا وتشاغلنا .

خالِصةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤمِنِينَ) . أى إن وهبت نفسها بدون صداق وهى مزيةٌ له وحده صلى الله عليه وسلم لا تتعداه إلى أحد غيره .

وفى تقييد الله الواهبة نفسها بالإيمان مزية أخرى له صلى الله عليه وسلم وللواهبات ، فإن الكافرة لا تحل له ، وقد قال ابن العربى : ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر ، فجوَّز لنا (أى نحن المؤمنين) نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصره صلى الله عليه وسلم على المؤمنات لجلالته ، وإذا كان لا يحل له من لم تهاجر من المؤمنات لنقصان فضل الهجرة ، فأحرى ألا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر .

أقول : وفى ذلك إشارة إلى قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً) .

فقوله تعالى : (اللاتى هاجرن معك) أى لا يباح لك من قرابتك إلا من هاجر إلى المدينة لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) . فمن لم يهاجر لم يكمل ، ومن لم يكمل لم يصلح للنبى صلى الله عليه وسلم الذى آتاه الله كل الشرف والكمال ، صلى الله عليه وسلم ، ومن باب أولى لا يحل له صلى الله عليه وسلم نكاح الحرة الكتابية وإن حلت لغيره من المؤمنين .

وقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة أن تهب نفسها لرجل ؟ حتى أنزل الله تعالى : (تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ

وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وقال الزمخشرى الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخَوْلَة بنت حكيم.

ويقول الإمام القرطبى : وفى بعض هذا اختلاف ، قال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث ، وقال الشعبى هى زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى أم شريك بنت جابر الأسدية ، وقال عروة بن الزبير هى أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

الفصل الثانى

سيداتنا أمهات المؤمنين
رضى الله عنهن

ترتيب الأزواج الطاهرات :

ترتيب نسائه التسع اللاتى توفى عنهن صلى الله عليه وسلم — فيما رواه الإمام الطبرى — كما يلى :

١ — السيدة سودة بنت زمعة (وكانت ثيِّباً) ، بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد وفاة السيدة خديجة وهاجر بها إلى المدينة (وقد توفيت سنة ٥٤ هـ) .

٢ — السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وهى البكر الوحيدة بين أزواجه رضى الله عنهن (وقد توفيت سنة ٥٩ هـ) .

٣ — السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكانت ثيِّباً رضى الله عنها (وقد توفيت سنة ٤٥ هـ) ، وقد طلّقها رسول الله طلقة واحدة حين أفشت للسيدة عائشة ما كان أسرَّه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم مارية (أو العسل فى رواية أخرى) فقال لها أبوها : لو كان فى آل الخطاب خير لما كان رسول الله طلقك ، ثم شفع فى مراجعتها جبريل عليه السلام ، وفى قول آخر إنه عليه الصلاة والسلام همّ بطلاقها ، فقال جبريل : لا تطلقها فإنها صوّامة قوّامة وإنها من نسائك فى الجنة ، فلم يطلقها صلى الله عليه وسلم .

٤ — السيدة أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة رضى الله عنها ، وكانت ثيِّباً وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل واقعة الأحزاب بسنة ثلاث من الهجرة (وسنة أربع فى قول آخر) ، وقد توفيت سنة ٥٩ على الأصح .

٥ — السيدة جُوَيْرِية بنت الحارث وكانت ثيِّباً وقد تزوجها رسول الله صلى الله

عليه وسلم سنة خمس فى عام المريسيع ،وكانت صفيته يوم المريسيع فأعتقها وتزوجها وسألتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم عِتْقَ ما فى يده من قومها فأعتقهم لها ، رضى الله عنها « وقد توفيت سنة ٥٦ هـ » .

٦ ــ السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت من مهاجرات الحبشة هى وزوجها ، فتنصر زوجُها وصبرت هى على إسلامها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى ليخطبها له ،وذلك فى سنة سبع وبعث بها النجاشى بعد زواجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم (وقد توفيت سنة ٤٤ هـ) .

٧ ــ السيدة زينب بنت جحش ، وكانت قبل زواج الرسول صلى الله عليه وسلم متزوجة من مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فلما طلقها زيد زوّجها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان سفيره فى ذلك جبريل عليه السلام ، وكانت رضى الله عنها تفخر على نسائه الأخريات وتقول : أنا أكرمكن وَلِيًّا وأكرمكن سفيراً ، زوجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات والسفير فى ذلك جبريل عليه السلام (وقد توفيت سنة ٢٠ هـ) وهى بذلك أسرعهن لَحَاقاً به صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لنسائه يومًا « أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يداً . فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هى صاحبة اليد الطولى ، ثم ظهر لهن أن المراد بطول اليد « الصدقة والعمل الصالح » فغبطن زميلتهن السيدة زينب هذه ، وكانت رضى الله عنها تعمل بيدها وتتصدق كثيراً على الفقراء .

٨ ــ السيدة صفية بنت حُيَىّْ بن أخطب ، وكانت صفيته يوم خيبر ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها سنة ست من الهجرة (وقد توفيت سنة ٥٠ هـ وقيل ٥٢ هـ) .

٩ ــ السيدة مَيْمُونة بنت الحارث ، وكانت ثيِّبًا ، وهى أخت أم الفضل امرأة عمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرف فى عمرة القضاء . والقرشيات من أزواجه الطاهرات خمس[1] وهن

(١) أى غير سيدتنا خديجة التى توفيت فى حياته الشريفة صلى الله عليه وسلم ، أوسع الله لها فى رضوانه .

سيداتنا وأمهاتنا : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن، وثلاث من سائر العرب وهن سيداتنا وأمهاتنا : ميمونة وزينب بنت جحش وجويرية وواحدة من بنى هارون وهى سيدتنا وأمنا صفية .

وأضاف الإمام الطبرى يقول :

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة زينب بنت خُزَيْمة وهى التى يقال لها أم المساكين ، من بنى عامر بن صعصعة وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب أخى عبيدة بن الحارث ، وقد توفيت بالمدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ٣٩ شهراً من الهجرة (وعاشرته ثمانية أشهر) .

وعدّد الإمام الطبرى أزواجه اللاتى لم يدخل بهن ، ثم قال : وأفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت زيد من بنى قريظة ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية ، أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية ، فولدت له إبراهيم عليه السلام .

عناية الله بالأزواج الطاهرات :

هذا والناظر فى كتاب الله عز وجل ، يرى أن نساءه الشريفات صلى الله عليه وعليهن كن موضع عناية خاصة من الله تعالى ، وإليك البيان :

أولا : قال تعالى فى سورة الأحزاب : (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِن أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) . ففرض الله لهن الأمومة والحرمة على جميع المؤمنين . ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه : وقد شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أى فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهن رضى الله عنهن بخلاف الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثًا كأمومة التبنى ، وجاز تزويج بناتهن ولا يُجْعلن أخوات للناس . وأضاف الإمام يقول : واختلف فى كونهن كالأمهات فى المحرم وإباحة النظر على وجهين :

أحدهما : هن محرم ، لا يحرم النظر إليهن .

الثانى : أن النظر إليهن محرَّم ، لأَن تحريم نكاحهن إنما كان حفظًا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقه تحريم النظر إليهن .

ثانياً : أن الله تعالى خاطبهن خطاباً مباشرًا وفى ذلك تكريم وأى تكريم فاستمع مثلا إلى قوله تعالى فى سورة الأَحزاب : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا) .

وظاهر من ذلك أن الله ضاعف لهن العقاب والثواب لمكانتهن الخاصة من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَنهن تشرفن بصحبته وعشرته فى مهبط الوحى الذى ينزل عليه بأَوامر الله ونواهيه ، فإذا خرجن عن حدود الله ، وحاشاهن ، تأذى بذلك صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى فى سورة الأَحزاب : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً) . وقد روى الإمام القرطبى عن أَبى رافع أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كان كثيرًا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأَحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ : (يا نساء النبى) رفع بها صوته ، فقيل له فى ذلك فقال: أُذكِّرهُنَّ العهد. وقال أهل التفسير إن الرزق الكريم هو الجنة .

وقد التزمن رضى الله عنهن ما وعظهن به الله حتى لقد قيل للسيدة سَوْدة رضى الله عنها : لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك ، فقالت : قد حججت واعتمرت فأمرنى الله أن أقر فى بيتى . قال الراوى : فو الله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها .

أما ما كان من خروج السيدة عائشة للعراق فقد كان للإصلاح بين إمامنا على وطلحة والزبير باعتبارها أم المؤمنين ، ولم تكن ولا كانوا جميعًا يتوقعون أن يقع بين الفريقين القتال المرير الذى وقع فى معركة « الجمل » ولكن غلب القضاء ، وندم كل من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وتابوا إلى الله توبة نصوحًا رضى الله عنهم .

وسأتعرض فى الفصل الثالث لتفاصيل موقف أم المؤمنين عائشة فى معركة « الجمل » إتمامًا للفائدة .

ثالثًا : وقد خاطب الله السيدتين عائشة وحفصة كذلك خطاباً مباشرًا فى سورة التحريم ، فقال تعالى : (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَت قلوبُكُما وإِنْ تَظاهَرَا عَلَيْهِ فَإِن اللهَ هُوَ مَوْلَاه وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمؤْمِنِينَ والمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

ثم وجه سبحانه الخطاب المباشر لجميعهن فقال تعالى فى سورة التحريم (عسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبات عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَات وأَبْكَارًا) .

أما ما خوطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية سورة التحريم فهو قوله تعالى : (يأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزواجِك والله غَفُورٌ رحيمٌ * قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُم والله مَوْلَاكُم وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) .

وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس عن عمر قال : دخل رسول الله صلى

الله عليه وسلم بأم ولده « مارية » فى بيت « حفصة » فوجدته معها ، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له : تُدْخلها بيتى ؟ ما صنعتَ بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك ، فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهى (أى مارية) حرام علىّ إن قربتها قالت حفصة : وكيفَ تحرم[1] عليك وهى جاريتك ، فحَلف لها ألا يقربها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تذكريه لأحد » فذكرته لعائشة ، فآلى صلى الله عليه وسلم لا يدخل على نسائه شهراً ، فاعتزلهن تسعًا وعشرين ليلة فأنزل الله عز وجل(ياأيها النبى لم تُحَرِّمُ ما أحلَّ الله لك ...)

وقد قلت فى محاضرة لى ألقيتها بنادى التجارة منذ عشر سنوات ما يأتى :

« والمقصود بالتحريم هنا هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حرامًا بعد ما أحلّه الله تعالى ، وكان الدافع له صلى الله عليه وسلم على التحريم غرضًا نبيلا كشف الله سبحانه عنه بقوله تعالى : (تبتغى مرضاة أزواجك) وما أعظمه من خلق رفيع وكيف لا يفعل وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا وخياركم خياركم لنسائهم » .

وأود أن أسترعى النظر إلى السياق الكريم الذي بدأت به السورة ، والذى تضمن تعظيم الرسول وتوقيره بقوله تعالى (يا أيها النبى) .

ثم أضفت قائلا :

« والمغفرة والرحمة التى جاءت بعد السؤال (لِمَ تُحرم . . .) تنصرفان إما إلى تضييقه صلى الله عليه وسلم على نفسه وإما إلى العدول عن المحلوف عليه عن اليمين ، ولا ينصرفان ألبتة -إلى ذنب يُؤخذ عليه ، إذ ليس له صلى الله عليه وسلم صغيرة ولا كبيرة ، وكيف نعد ذلك ذنبًا مع أن الله أكرمه فى هذه الواقعة فى ذاته ، وأكرم به أمته ، بأن أحل للأمة عقدةَ الأيمان فقال تعالى :

---

(١) وفى رواية مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، قالت فتواطأت أنا وحفصة أن أيّتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل إنى أجد منك ريح مغافير : أكلت مغافير (حلواء من صمغ متغير الرائحة) فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل ((لم تحرم ما أحل الله لك) إلى قوله (إن تتوبا إلى الله .....) لعائشة وحفصة .

(قَدْ فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أَيمانِكم . . .) فأجاز بذلك التحلل من اليمين بكفارتها إذا أحب الحالف استباحة المحلوف عليه وهو قوله تعالى فى سورة المائدة : (لا يُؤاخذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمانِكُمْ ولَكِنْ يُؤاخِذُكم بما عقَّدتمُ الْأَيمان فكفَّارَتُه إطعامُ عشرةِ مساكين من أوسط ما تُطْعِمون أَهليكم أو كِسْوتُهم أَو تحرير رَقبةٍ فمن لم يَجدْ فصيام ثلاثةِ أَيّامٍ ذلك كفارة أَيمانكم إذا حلفتم واحفَظُوا أَيمانَكُم كذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكمْ آياته لعلكم تَشْكُرون) .

« وانتفاعـًا بهذا الحكم الذى وسَّع الله به على الأمة المحمدية كفَّر صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعاد إلى عِشْرة السيدة مارية فعَمَّم سبحانه الرحمة ببركته صلى الله عليه وسلم .

« وكيف تعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أوخذ فى هذه الواقعة مع أن الله كشف له الخبء فيما تحدثت به السيدة حفصة للسيدة عائشة ، مخالفة بذلك ما وصاها به صلى الله عليه وسلم من كتمان الأمر ، وذلك مما تشير إليه الآية الكريمة :

(وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثًا فلَمَّا نبَّأَتْ به وأظهره الله عليه عرَّف بعضَه وأعرضَ عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبَّأَنِىَ العليم الخبير) .

« ثم ولِىَ هذا من باب التكريم والغيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نزل التهديد من السماء لزوجتيه حفصة وعائشة رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (إنْ تَتُوبَا إلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما . . .) وصغت معناها : مالت عن الحق .

« وهذا التهديد يكشف بكل وضوح عن رضا الله السامى وعن تصدِّى الله للدفاع عن مقامه صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فهو الحبيب المقرب والرسول المؤيَّد .

« ولو كان فيما أتاه صلى الله عليه وسلم من تحريم « مارية » ما يؤخذ عليه ، ما واجه الله زوجتيه اللتين تظاهرتا عليه بهذا الخطاب ، وتهديدهما بهذه القوة البالغة ينفى أى مأخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلقى بالمأخذ على سيدتنا حفصة وعائشة رضى الله عنهما لأنهما الطرف الآخر فى الخصومة ، ومن أصدق من الله حكماً .

« وما قرأت هذا التهديد مرة إلا تعاظمتنى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول لنفسى إذا جاء التهديد لزوجتيه المتظاهرتين ، وتعدى منهما لسائر أزواجه بهذه القوة عن غيرة نسائية طبيعية ، فكيف بالأمور الأخرى التى تنطوى على نقد لسنته صلى الله عليه وسلم ، أو الإساءة إلى أصحابه وأحبابه ؟ رزقنا الله وإياكم سمو الأدب فى حقه صلى الله عليه وسلم .

« وقد تابت بحمد الله الزوجتان الكريمتان المتظاهرتان ، وأنابَ قلباهما الطاهران إلى الله ، وكذلك فعل سائر نسائه صلى الله عليه وسلم فلم يطلقهن ، ولم يُبْدِ له الله خيراً منهن لأن الإبدال كان مشروطاً بالطلاق فى قوله تعالى : (عَسَى رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَه أزواجًا خيرًا منكنّ) . . . فبقين جميعاً فى عصمته وفى خيرٍ من عشرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا من فضل الله عليهن رضى الله عنهن .

وأود أن أضيف الآن إلى قولى المتقدم أنَّ ناساً من المتخرِّصين يتجرأون على مقامه صلى الله عليه وسلم فيما يكتبون ، ويحتجّون فيما يَخرجون به عن الأَدب بأنه بشر مثلنا ، ويسيئون فهم هذه البشرية ، فيقيسون نزعاته بنزعاتنا بجامع البشرية بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو تأملوا فى مثل قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) ، وفى مثل قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وفى مثل قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . بل أقول وفى مثل آيات سورة التحريم التى خاطب الله بها نساءه ، وهى التى مرّت عليك

من قبل ، أقول لو تأملوا أقل التأمل ، لوجدوا أنهم أخطأوا فى تصوير بشريته المطهرة صلى الله عليه وسلم وفى قياسها على بشريتنا الملوثة ، فهو بشر من حيث الجنس ، ونور من حيث النفس إذ طهّره الله من الرجس ، فتزكى حسه ، وصفا ظاهره وباطنه ، فاستقام فى جميع أحواله وأحيانه ، فى سره وجهره ، وفى رضاه وغضبه ، وفى يسره وعسره ، وسفره وحضره ، وكيف لا يكون كذلك وقد أحاطه الله بعنايته وكلأه برعايته حين قال له (فإنك بأعيننا) وإذا كان الله تعالى قد قال لأخيه موسى عليه السلام : (واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) كما قال له : (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وبِكَلَامِي فَخُذْ ما آتيْتُكَ وكُنْ من الشَّاكِرِينَ) فكيف بأمير الأنبياء والمرسلين ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه «لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعى »

إن اللؤلؤ أصله من بعض قطرات المطر ، يستودعها الله فى الأصداف فتكسب الصفاء من باطنها بعد استقرارها مدة فى بواطن البحار وذلك بقدرته سبحانه ، فهل استوى كل الماء مع اللؤلؤ الذى أصله من الماء حتّى يقول هؤلاء إن النبى بشر ويتهجمون عليه عن جهل بالمقارنة بينه وبين البشر بما آتاه الله من فضل كبير .

إن المؤمن والكافر ، والمنافق والفاسق ، والصادق والكاذب ، والأمين والخائن ، والذكى والغبى ، والفصيح والعيِىّ ، والضعيف والقوى ، كلهم من البشر من حيث أصلهم ، فهل تساووا عند الله أو عند البشر فى المواهب ؟ وهل يتساوون فى أولاهم وعقباهم فى أى ميزان ؟ إن أزواجه صلى الله عليه وسلم من النساء ، ولكن الله خاطبهن قائلا فى سورة الأحزاب (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء . .) وقد فارقن النساء فى المسلك وإن اتفقن معهن فى الجنس .

فإذا أردت أيها المسلم الصادق أن تعرف صورة رسولك عند ربك ، فاقرأ إلى جانب سورة التحريم سورة الحجرات حيث يؤدب الله المؤمنين فى معاملة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول تعالى: (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسُولِهِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عليمٌ * يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أعمالُكُمْ وأَنْتُم لَا تَشْعرون * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ للتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

ونأخذ من معنى هذه الآيات البينات ألا يسبق المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل، بل ينتظرون قوله وفعله فى أمور الدنيا أو الدين، وقد جاء فى تفسير الإمام القرطبى: إن من قدَّم قوله على الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل. أما رفع الصوت فى حضرته ففيه خروج على توقيره صلى الله عليه وسلم، ومن لم يرع توقيره كفر من حيث لا يشعر، لأن العمل لا يحبطه إلا الكفر والعياذ بالله. وقد قال القاضى أبو بكر بن العربى رحمه الله: حرمة النبى صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك فى مجلسه عند تلفظه به. وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحى، وله من الحرمة مثل القرآن.

وسترى فيما بعد أن الخليفة أبا جعفر المنصور رفع صوته بجوار القبر الشريف فنهاه إمامنا مالك وقال له: يا أمير المؤمنين.. إن الله أدَّب قوماً فقال: (يـٰأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى[1] . . .) ومدح قوماً فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله[2] . . .) فأذعن أبو جعفر.

---

(١) سورة الحجرات آية ٢.

(٢) سورة الحجرات آية ٣ :

أقول ، ولهذه الحرمة كان إمامنا مالك رضى الله عنه يغتسل إذا أراد أن يحدث الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان يجلس على المنصة وهو يحدثهم بالحديث النبوى الشريف ، وكان رضى الله عنه لا يركب دابة فى المدينة المنورة وكان يقول فى ذلك : كيف أطأ بحافر دابة أرضاً تضم جدث النبى صلى الله عليه وسلم ، واستفسر منه أبو جعفر المنصور : أيستقبل القبلة ويدعو أو يدعو وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له إمامنا مالك رضى الله عنه : ولِمَ تصرفُ وجهَك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم .

وقد حدثنى حين كنت فى المدينة المنورة السيد محمد صادق المجدّدى — سفير أفغان السابق بمصر — أنه كان يدعو ربه وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه بعض المتزمتين وقال له استقبل القبلة ولا تستقبل وجهَ رسول الله ، فأجابه السيد المجددى إنى أفقه دينى خيراً منك ، إن القبلة تستقبل فى الصلاة ، وأينما تولوا فثم وجه الله ، ولولا هذا الرسول الكريم ما عرفت القبلة .

وها أنت ذا قد رأيت فى كتاب الله الكريم أنّ خفض الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم من سما الأتقياء فقال تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) فكيف بنشر دعوته وسنته والدفاع عن شريعته والغيرة على مكارمه وفضائله واستحسان شمائله ، وكيف بالتأسى به قولا وفعلا وحالا .

وإذا كان رفع الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم موجباً للكفر والعياذ بالله فكيف بنقده فى تصرفاته والجرأة على تحسين ما استقبح أو استقباح ما استحسن ، وكيف بإنزاله إلى بشريتنا الدنية وأخلاقنا الغريزية المستهجنة بحجة أنه بشر ، ألا فليتق الله أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . .

أما وقد علمنا الله كيف نحفظ حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شخصه ، فلنحفظ حرمته فى بيئته ، بحفظ حرمة أهله وأزواجه وذريته وصحابته ، وما وقع من خلاف بينهم أو اختلاف لا يصرفنا عن ثناء الله عليهم وتخليدهم بفضلهم وجهادهم فى كتاب الله الكريم ، كما لا يجوز أن نغفل عن قوله تعالى :

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأَجرًا عظيماً).

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره لهذه الآية :

« إن قول الله منهم فى الآية ليست مُبَعِّضَةً لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسة مثل قوله تعالى (فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ منَ الأوْثان) لا يقصد التبعيض لكنه يذهب إلى الجنس أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، لأن الرجس يقع من أجناس شتى منها الزنا والربا وشرب الخمر والكذب ، فأدخل « من » يريد بها الجنس وكذا « منهم » أى من هذا الجنس يعنى جنس الصحابة ، وترى مزيد بيان فى عصمته صلى الله عليه وسلم وفى فضل السادة آل البيت والسادة الصحابة فى مواضع أخرى من الكتاب .

رابعاً : كان مما خوطبن به عليهن الرضوان قوله تعالى : (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وآتينَ الزَّكَاةَ وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * واذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحكمة إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) . وهو ما يدل على عناية الله بهن فى تطهيرهن وتزكيتهن بالتقوى والبعد عن المعاصى ، واعتبارهن من أهل بيته الذين لاحظتهم العناية الربانية عطاء واختصاصًا فى الأزل .

ولئن قال بعض العلماء بأن قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) إنما هو منصرف خاصة إلى الإمام على والسيدة الزهراء والسبطين الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فإن سادتنا عطاء وعكرمة وابن عباس رضى الله عنهم قالوا هم زوجاته خاصة لا رجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن . . .)

والذين خصصوها بالإمام على وزوجته وابنيه احتجوا بأحاديث واردة ، وبأنه لو أريد نساؤه لقال تعالى (عنكن) و (يطهركن) ، ورد أهل العلم عليهم بأن التذكير فى الآية راجع إلى لفظ الأهل ، وأيّدوا ذلك بقوله تعالى لامرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ

وبرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره :

« والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال تعالى (ويطهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليًّا وحسنًا وحسينًا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام .

أما قوله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . . .) فيقول الإمام القرطبي إن الذكر هنا يحتمل ثلاثة معان :

١ – اذكرن موضع النعمة إذ صيَّركن الله فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة .

٢ – اذكرن آيات الله وأقدرن قدرها ، وفكرن فيها حتى تكون منكن على بال ، لتتعظن بمواعظ الله تعالى .

٣ – بمعنى احفظن واقرأن فكأنه يقول : واحفظن أوامر الله وبَلِّغن إلى الناس ما يُنَزَّل فى بيوتكن وما تسمعنه أو ترينه من أقوال أو أفعال رسول الله .

أقول : وهذا التفسير الأخير يدل على أنهن نائبات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعليم الناس وتربيتهم فى دين الله ، وذلك شرف ما بعده شرف ، والناظر فى كتب السنة يرى أنهن رضوان الله عليهن قمن بهذا التكليف ما وسعهن الجهد ، وكان لسيدتنا عائشة فى هذا المجال على الخصوص قدم راسخة كما ترى فى مناقبها فى غير هذا الموضع بما هيأها الله له من استعداد كبير للحفظ والرواية والدراسة فى ذكاء مشهود وورع معهود . وكيف لا يقمن بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد قال تعالى لهن : (وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً) .

خامسًا : إن الله تعالى خيَّرهن فى قوله تعالى : (يٰأيها النبي قل لأزواجك إن كُنْتُنَّ تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمَتِّعكنَّ وأسرِّحكن سَراحًا جميلا * وإن كنتن تردن اللهَ ورسولهَ والدارَ الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات

منكن أجراً عظيماً) . واختلف العلماء فى كيفية هذا التخيير على قولين :

١ ــ خيَّرهن بين البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترْن البقاء .

٢ ــ خيرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيُمسكهن .

ويقول الإمام القرطبي : والقول الأول أصح لقول السيدة عائشة رضى الله عنها لمَّا سُئِلَتْ عن الرجل يُخَيِّر امرأته فقالت: خَيَّرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقـًا ؟

أقول : وأيـًّا ما كان التخيير على القول الأول أو الثانى ، فإنه يدل على عناية خاصة من الله بهن ، لأنه تعالى أفسح لهن ، وأعطاهن فرصة التخيير وشجعهن على البقاء فى عصمته اختياراً للآخرة على الدنيا بقوله تعالى : (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً) فكأنه قال لهن إن الإحسان فى بقائكن فى عصمته مع الصبر على عيشة الكفاف التى شكوتُنَّ إليه منها وطالبتُنَّه بالتوسعة عليكن وزيادة النفقة ، وقد بلغ من عيشة الكفاف التى ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر عليها وكانت موضع شكوى منهنّ أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كنَّا نرى الهلالِ والهلالَ والهلالَ ولا نوقد ناراً (أى لا يطبخن شيئـًا) ، فقيل لها ، فكيف كنتم تأكلون ؟ قالت كنا نعيش على الأسوَدَيْنِ التمر والماء .

ويرى العلامة العقاد أن عيشة الكفاف التى بلغت ذلك الحد وصبر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية وأموالها إنما هى برهان ساطع الدلالة على صدق نبوته ويقول رحمه الله : إن لم يكن هذا هو برهان النبوة فأى برهان يكون ؟

أقول : ولا تعجب من ذلك التقشف وقد خُيِّر صلوات الله وسلامه عليه بين أن يكونَ نبيـًّا ملِكـًا أو نبيـًّا عبداً فاختار أن يكون نبيـًّا عبداً ، فقد عرض عليه إسرافيلُ عند الصفا أن يحول له جبال مكة ذهبـًا بإذن الله فقال : لا يارب ، أجوعُ يومـًا وأشبع يومـًا ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك ، فقال له جبريل عليه السلام وكان مع زميله إسرافيل : ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد .

وقد روى أنه حين نزلت آيتا التخيير المذكورتان ، بدأ صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة وكانت رضى الله عنها أحبهن إلىّ قلبه الطاهر ، فخيّرها وقرأ عليها ما نزل وقال لها : إنى ذاكر لك أمراً ولا عليك أن تتعجلى فيه حتى تستأمرى (أى تستشيرى) أبويك ، فقالت وهى الرشيدة الموفقة : أفى هذا أستأمر أبوىّ ؟ إنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم وكذلك جاراها سائر أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

سادساً : أن الله تعالى ضاعف لهن العقاب والثواب فى قوله تعالى : (يانساء النبيّ من يأتِ منكُنّ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لها العذابُ ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يَقنُتْ منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحًا نُؤْتِها أجرَها مَرّتَيْنِ وأعتدنا لها رِزْقًا كريمًا) ويدل ذلك على منزلتهن الخاصة عند الله بما لهن من رابطة الزوجية برسوله ، فنى بيوتهن ينزل الوحى بأوامر الله ونواهيه ، وفى بيوتهن يشهدن من همة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طاعة الله مالا يراه غيرهن ، فضاعف الله لهن العقاب والثواب على قدر حرمتهن ومنزلتهن الخاصة ، لأنه كلما زادت الحرمات ضوعفت العقوبات ، ولذلك ضوعف حدّ الحر من العبد ، والثيِّبِ من البكر ، كما هو معلوم من أحكام الله .

سابعاً : إن الله تعالى جعل من زواجه صلى الله عليه وسلم بإحداهن ، وهى السيدة زينب بنت جحش ، وهى قرشية (وابنة عمته) تشريعًا للأمة المحمدية فى أمرين :

الأول : أن الكفاءة تكون بالإيمان لا بالنسب ، فهذه من صميم قريش ، وحين أراد أن يزوجها صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة امتنعت وامتنع أخوها ، فأنْزل الله تعالى قوله الكريم : (وَمَا كان لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أمراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمرهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَه فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بينًا) . فعندئذ قال أخوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « مرنى بما شئت » فزوجها لزيد رضى الله عنه ، ويقول الإمام القرطبى : فى هذه الآية دليل بل نص فى أن الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب ، وإنما تعتبر فى

الأديان ، وذلك أن الموالى تزوَّجت فى قريش ، تزوج زيد زينب بنت جحش ، وتزوج المِقْدادُ بن الأسْود ضباعة بنت الزبير ، وزوج أبو حذيفة مولاه سالمًا من فاطمة بنت الوليد ، وتزوج بلال أختَ عبد الرحمن بن عوف .

وأذكر فى هذه المناسبة أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدَّم « سالمًا » مولى أبى حذيفة على الصلاة بقباء فكان يؤمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من قريش ، وأمَّر صلى الله عليه وسلم « زيد بن حارثة » على الجيش ، كما أمَّر عليه ابنه « أسامة بن زيد » على الجيش ، فانظر كيف رفع اللهُ بالإسلام الموالىَ وقدَّمهم فى الزواج وفى القيادة ، وفيهم شيوخ قريش . فما أكرم المؤمنين بالإسلام .

الثانى : أنَّ امرأة الابن بالتبنى ليست محرمة كامرأة ابن الصلب بدليل قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا مِنْهُنَّ وطراً وكان أمر الله مفعولا) .

وقد لغط المستشرقون — كدأبهم فى الكيد الإسلام — فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب ، ويقطع ألسنتهم الكاذبة قوله تعالى : (زوجناكها) فوليُّه فى الزواج رب العالمين ، فهو لم يتزوجها لهوى فى نفسه كما يقول هؤلاء السفهاء الذين تعدوا على عصمته وقالوا إنه عشق السيدة زينب ، وكيف يعشقها وهو الذى زوَّجها باختياره لمولاه زيد بن حارثة فلم تكن جديدة عليه ، وقد زوَّجه منها رب العالمين للحكمة الواردة فى الآية ، وتلك الحكمة هى : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) وهى حكمة تشريعية ، فإنهم كانوا يظنون أن الابن بالتبنى تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الابن من الصلب على أبيه ، ولو صح ما يفترونه حقداً وحسداً من أنه عشقها وتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها من بعده لما قال له : (أَمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتقِ اللهَ) ، ولقال له : طلِّقها فى الفرصة المواتية له حين شكاها زيد إليه صلى الله عليه وسلم

أما قوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، فإنه صلى الله عليه وسلم عَلِم من ربه أنها ، رضى الله عنها ، ستكون زوجة له ، ومع ذلك قال لزيد حين شكا من دلالها عليه (أمسك عليك زوجك واتق الله) وللرسول صلى الله عليه وسلم عذره الشرعى فى ذلك كما سيأتى بعد قليل .

أقول : ولو كان الذى فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمره بإمساكها يعد خطيئة لأمره الله تعالى بالتوبة والاستغفار منه ولكن لم يقع ذلك . فليتق الله أولئك المتخرصون والجاهلون بحرمته وعصمته صلى الله عليه وسلم . ولأن الله تعالى زوّجها لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد دخل عليها صلى الله عليه وسلم بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق . وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين ، ولهذا كانت رضى الله عنها تفاخر ضَرائرَها وتقول لهن : زوّجكن آباؤكُن وزوّجنى الله تعالى . وقد استدل العلماء على ثبوت الولى فى الزواج بقوله تعالى : (زوجناكها) .

وإذا أردت أن تعرف مدى الثقة التى حظى بها « زيد » عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدى التقوى التى تحلّت بها سيدتنا زينب رضى الله عنها ، فهاك ما حدثنا به الإمام مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال :

« لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : « فاذكرها علىّ » ، قال فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخمّر عجينها ، قال فلما رأيتها عظُمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى ، فقلت يا زينب : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئًا حتى أُوامر (أى أستخير) ربى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . وكانت رضى الله عنها تقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأدل عليكَ بثلاث ما من نسائك امرأة تدلّ بهن : إن جدى وجدك واحد ، والله أنكحك إياى من السماء ، وإن السفير فى ذلك جبريل .

وقال العلماء إنها رضى الله عنها لما وَكَلَتْ أمرها لله وصدقت فى تفويضها له سبحانه تولى زواجها ولذلك قال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ، وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم (زوّجتُكَها)

أقول : وقد أظهر زيد رضى الله عنه فى نشأته[1] من الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جعله أهلا لثقته الغالية فيه . فقد روى أن عم زيد لقيه يومًا وكان قد ورد مكة فى شغل له ، فقال : ما اسمك ياغلام؟ قال زيد ، قال : ابن من؟ قال :

---

(١) وكانت السيدة خديجة اشترته وأهدته لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ابن حارثة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي ، قال : فما اسم أمك ؟ قال : سعدى وكنت فى أخوالى طى ، فضمه إلى صدره وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا وأرادوا منه أن يقيم معهم . فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله ، فَأَتوْه صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله تَفكون العانى وتُطعمون الأسير . جئناك فى ولدنا زيد عبدك فامْنُن علينا وأحسن فى فدائه .

قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد بن حارثة نريد شراءه .

قال : أو غير ذلك ، ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

قالوا : لقد زدتنا على النَّصَف (أى أنصفتنا فوق ما نتصور) .

فبعث صلى الله عليه وسلم إلى زيد وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم ، هذا أبى ، وهذا أخى ، وهذا عمى ، فقال صلى الله عليه وسلم : فأى صاحب كنت لك ؟ فبكى وقال : لِمَ سألتنى عن ذلك ؟ قال : أخَيِّرُكَ فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق . وإن أردت أن تُقيم فأنا من قد عرَفْتَ . فقال : ما أختار عليك أحداً ، فجذبه عمُّه وقال : يا زيد اخترتَ العبوديةَ على أبيك وعمك . فقال : أى والله العبوديّة عند محمد أحبُّ إلىّ من أن أكون عندكم .

فلما آثر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه وقومه، ذهب صلى الله عليه وسلم إلى قريش بالمسجد فقال : اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى ، وبهذا تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يدعى « زيد بن محمد » حتى جاء الإسلام ونزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . .) فرجع زيد إلى اسم أبيه حارثة .

وقد بادله رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبًّا بحبه حتى كان يقول له : « يا زيد أنت مولاى ومنى وإلىّ وأحب الناس إلىّ » . وكافأه تعالى على فرط حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره سبحانه فى القرآن المجيد باسمه ، فصار اسم زيد قرآنا يتلوه أهل الدنيا فى المحاريب وأهل الجنة كذلك أبداً ، كما يتلوه السفرة

الكرام البررة من أهل السموات العُلى .

وقد قلت فى محاضرتى « رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم » التى ألقيتها بنادى التجارة فى ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٨١ (٧ ديسمبر ١٩٦١) :

« وليس من خلق النبى صلى الله عليه وسلم اعتداء على حرمة مؤمن ولا مؤمنة ، ولوكان كما يقولون مال إليها بقلبه وتمنَّى أن يطلقها زيد ليتزوجها لما نسب الله إليه الإنعام على زيد فى قوله تعالى : (وإذْ تَقُولُ لِلذى أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأنْعَمْتَ عَلَيْهِ . . .) فقد أنعم حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بنعم كثيرة ، فقد أعتقه وتبناه وأحبه وزوَّجه ابنة عمته القرشية ليرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام خسيسة العبودية ويكسر عصبية الجاهلية . وما نال سيدنا زيد كل هذا الإكرام إلا ببركة النبى صلى الله عليه وسلم حين آثره زيد على أبيه وأهله ، وهذا هو الإيمان بعينه ، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه التى بين جنبيه » والنفس للإنسان أقرب إليه من الأهل والعشيرة .

وقوله تعالى : (وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ، إنما هى كما أفهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست عتاباً ، ولى على ذلك الفهم دليلان :

١ ــ أنه تعالى استطرد فقال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوَّجناكها) ، فالله هو الذى زوجه إياها ولم يتزوجها بنفسه صلى الله عليه وسلم ، وحكمة هذا الزواج تشريعية وهى التى بيَّنها سبحانه فى قوله الكريم : (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) وقد كانوا يظنون أن الابن بالتبنى تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الابن من الصلب على أبيه كما أسلفنا .

٢ ــ أنه تعالى قال : (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ

يُبَلِّغُون رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلا اللهُ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً) .

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى ما كان يخفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرج فى أن يقول الناس إنه تزوج امرأة زيد وهو ابنه بالتبنى ، فأزال الله عنه هذا الحرج الذى أخفاه فى نفسه بقوله تعالى : (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) وكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : لماذا تتحرج من الزواج بمطلقة ابنك بالتبنى وتحسب حساباً لما يقوله الناس مع أن ربك زوجك إياها لحكمة تشريعية وهى إحلال الحلال بالزواج من امرأة الابن بالتبنى ، خلافاً لما يظنه قومك من أنها تحرُم كما تحرُم امرأة الابن من الصلب ، ولا مأثم فى الطيبات ، إنما المأثم فى الخبائث ، وأنت من المرسلين الذين يبلغون رسالات ربهم ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه .

والذى أخفاه فى نفسه صلى الله عليه وسلم وأشار إليه قوله تعالى : (وتُخفى فى نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . . .) هو أن الله تعالى أعلمه بزواجها منه بعد أن يطلقها زيد ، فلما جاءه زيد يشكو إليه شدتها وأنها لا تطيعه ورغب إليه فى أن يطلقها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك زوجك واتق الله » يُريد بذلك ألا يذُمها فى خلقها وألا يطلقها . فإن قيل لماذا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمساكها مع علمه بأنها ستطلق ، فالرد على ذلك أنه من القواعد الأصولية المقررة فى الشرع أن الحاكم لا يحكم بعلمه ، وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه قال : لو رأيتُ رجلا على حدٍّ من حدود الله ما أخذتُه حتى يشهد على ذلك غيرى . وروى أن امرأة جاءت إلى عمر رضى الله عنه فقالت له : احكم لى على فلان بكذا فإنك تعلم مالى عنده فقال لها : إن أردتِ أن أشهد لك فنعم ، وأما الحكم فلا . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال : من يشهد لى ، فقام خزيمة فشهد فحكم ، خرَّج الحديث أبو داود وغيره .

وأقول بعد ذلك فلو قال له النبى صلى الله عليه وسلم : طلقها ، لكان قد

حكم بطلاقها بما علم من الله ، وليس فى أمره بإمساكها مأثم ، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن .

هذا وقد قرأت أخيراً فى حاشية المغفور له الشيخ الباجورى على الجوهرة ما يؤيد وجهة نظرى الدافعة لقولهم إنه صلى الله عليه وسلم رأى زينب فأعجب بها وقال : سبحان مقلب القلوب ، فقد قال الشيخ رحمه الله فى الحاشية ما نصه :

«وما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم تعلق قلبُه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه وإن جَلّ ناقلوه ، فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر ، فما بالك به صلى الله عليه وسلم . أرأيت إلى قول الشيخ رحمه الله « فلا يلتفت إليه وإن جل ناقلوه » وكيف أنه نظر فى المسألة بعين العصمة التى تحلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ بالنصوص التى تناقض العصمة وإن علا سندها . وصدق إمامنا على بن أبى طالب فى جوابه حين سأله الحارث الليثى : أتظن أن طلحة والزبير كانا على ضلال ؟ فقال الإمام كرم الله وجهه : يا حار (أى يا حارث على الترخيم) إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال فاعرف الحق تعرف أهله .

أقول وأرجو بعد أن أطلت الكلام فى هذه المسألة أن يرى القارئ فيما ذكرته وفيما أرشدت إليه الشرف الذى حلى به الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى قصة زواجه بالسيدة زينب فى أول القصة وآخرها ، حيث كانت البداية أن نهى الله أهلها القرشيين عن عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويجها لزيد لكسر عصبيته الجاهلية ورفع أخوة الإسلام بقوله تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينًا) ، وكانت النهاية أن تولى الله جل جلاله تزويجها بعد طلاقها لرسوله صلى الله عليه وسلم ليُحلّ حلالا ظنوه أنه حرام، وقالوا تزوج محمد امرأة ابنه ، فأجابهم تعالى بقوله : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليمًا) وبقوله تعالى :

(مَا كَانَ على النبىِّ من حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَه سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدرًا مَقْدورًا) . فإن تجلى ذلك الشرف للقارئ فى

حلاه وعلاه بالحقائق التى بيناها عن أول القصة ومنتهاها فليقل للمتخرصين من المستشرقين أو غيرهم من الجاهلين : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور .

ثامناً : إن الله تعالى رضى عن موقفهن فى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة حين خيَّرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلامة رضاه عنهن هو قوله سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ولا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَقِيبًا) . ولا تنفى دلالة الآية على الرضا قول بعض العلماء إنها منسوخة بالسنة وإن الناسخ لها حديث السيدة عائشة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء ، وروى الطحاوى عن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء إلا ذات محرم وذلك قوله عز وجل : (تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وتُؤوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ). وهو كذلك قول الإمام على وابن عباس وعلى بن الحسين والضحاك .

تاسعًا : إن الله تعالى أكرمهن ودفع عنهن الهم والحزن ووفر لهن السرور والرضا فقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (ترجى مَن تشاءُ منهن وتؤوى إليك من تشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَاجُنَاحَ عليكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَايَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ، وكَانَ الله عَلِيمًا حلِيمًا) . ومع هذا التفويض الواسع الذى أباح له ترك القَسْم ولم يوجبه عليه ، راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم القَسْم بينهن بالعدل ولم يرجح بعضهن على بعض مع أنه تعالى فوَّض له فى ذلك ، فظهر لنسائه فضلُه عليهن فى القَسْم بالسوية بينهن ، ولو كان صلى

الله عليه وسلم استعمل التفويض المعطى له ما تضررت منه واحدة منهن، لأنه كان يستند إلى حكم الله الفعال لما يشاءُ، ولا يفوتهن النزول على حكم الله تعالى والرضا به وقد قال لهن سبحانه: (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا).

عاشراً: أن الله تعالى فرض الحجاب بين نسائه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين على الرغم من أنه تعالى جعلهن أمهات للمؤمنين، وحرم عليهم زواجهن من بعده صلى الله عليه وسلم، وفى ذلك مزيد توقير لهن وتأديب للمؤمنين والمؤمنات فى التربية الاجتماعية، لأنه إذا لم يأذن الله تعالى فى مخالطة أطهر النساء وأتقاهن وأزكاهن، فكيف يخالط المؤمنون غيرهن كما يقع جهلا بأحكام الله، أو استهانة بحدود الله، واقرأ بعد ذلك قول الله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ[1] وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُم فَانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسِينَ لِحديث إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً). ومن ذلك ترى أن الدخول بدون إذن حرام، وجائز من أجل الطعام بإذن، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك (ينضج) الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون. وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها وجماعة:

---

(١) أى منتظرين أن ينضج الطعام، وكان بعض المؤمنين يبكرون وينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك كانوا إذا فرغوا من الأكل جلسوا يتحدثون فى بيته صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك ودخل فى النهى سائر المؤمنين.

سببها أن عمر قال : قلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البَرُّ والفاجر فلو أمرتَهن أن يحتجبن فنزلت الآية . ومعنى المتاع فى الآية ما يطلبه المؤمنون فى منافعهم من الأوانى المنزلية أو من فتوى شرعية ، وفى آية الحجاب دليل على أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها واستثنوا الوجه والكفين عند الضرورة لأن الغالب ظهورهما عادة وعبادة فى الصلاة والحج(١) كما أن فى الحجاب دليلا على أنه لا ينبغى لأحد من المؤمنين أن يثق بنفسه فى الخلوة بمن لا تحل له ، فمجانبة الخلوة أحصن لنفسه وأطهر لقلبه ، وليس أرفع فى التربية من أدب الله تعالى الذى أدّب به عباده المؤمنين والمؤمنات .

وقد قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) ،

وقيل إنما منع الله التزوج بأزواجه صلى الله عليه وسلم لأنهن أزواجه فى الجنة ، والمرأة فى الجنة لآخر أزواجها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « زوجاتى فى الدنيا هُنَّ زوجاتى فى الآخرة » وقال صلى الله عليه وسلم : « كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باقٍ إلى يوم القيامة » وهذا الحديث الأخير هو الذى حرص من أجله أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يتزوج بالسيدة أم كلثوم (زينب الوسطى) بنت الإمام على ، ولما تزوجها خرج إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : ألا تهنئوننى ؟ قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال تزوجت من أم كلثوم بنت على فصار لى نسب برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحادى عشر : إن الله تعالى قصر بعد الحجاب رؤيتهن على المحارم فقال تعالى : (لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ ولا ما ملكت أَيْمَانُهُنَّ

(١) وأما عورة الرجل فمن السرة إلى الركبة .

واتَّقِينَ اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) . حيث ظن الآباء والأبناء والأقارب أن آية الحجاب عامة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية مستثنية المحارم ، ولم يذكر الله العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين فى العرف .

الثانى عشر : وإلى جانب المحارم التى ذكرها الله تعالى فى الآية السابقة الخاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم بيّن الله سبحانه فى سورة النور بقية المحارم وبقية من أبيح لسائر المؤمنات مقابلتهم فقال تعالى : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِن وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَو آبائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ[١] أَوْ أَبنائِهِنَّ أَو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَو إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَو نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ[٢] مِنَ الرِّجَالِ أَو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ولا يضربْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : رحم الله نساءَ المهاجرات الأُول ، لما نزل (وليضربن بخمرهن[٣] على جيوبهن) شققن أُزُرَهن فاختمرن بها . وقد دخلت عليها حفصة بنت أخيها عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهم وقد اختمرت بشىءٍ يشف عن عنقها وما هنالك ، فشقته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذى يستر ،ومعنى قوله تعالى : (على جيوبهن) أى على صدورهن لأنها كانت مواضع الجيوب فى ثياب السلف رضوان الله عليهم .

---

(١) البعل هو الزوج والسيد .

(٢) أى الذين لاحاجة لهم بالنساء ، والإربة الحاجة والجمع مآرب .

(٣) الخمر جمع الخمار وهو ما تغطى به رأسها (الطرحة) .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبي : ذكر القاضى إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إن رؤيتهما لهن تحل ، قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى فى سورة الأحزاب (لا جناح عليهن فى آبائهن إلخ) وذهب ابن عباس إلى آية النور السابقة حيث قال تعالى : (أو أبناء بعولتهن) ، فانظر رعاك الله إلى أى مدى ذهب السبطان فى توقير أزواجه صلى الله عليه وسلم تمسكاً بآية الأحزاب الخاصة بهن والتى لم يرد فيها أبناء بعولتهن ∴

الثالث عشر : أراد الله سبحانه أن يزيد سيداتنا أمهات المؤمنين ستراً وتوقيراً فأنزل قوله تعالى : (يٰـأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) والجلباب هو ثوب أكبر من الخمارويستر جميع البدن . وفى صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : لتلبسها أختها من جلبابها . وإرخاء الثوب أن تلويه وتغطى به الصدر ومعظم الوجه .

وسياق الآية الشريفة السابقة يُرينا كيف خصّ الله بالذكر أزواجه وبناته صلى الله عليه وسلم قبل عامة نساء المؤمنين ، وفى ذلك توقير لا يخفى على ذوى الأفهام . وقد دخلت نسوة من بنى تميم على السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، وعليهن ثياب رقاق فقالت لهن : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنع النساء من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل ، تريد بذلك أن تقول إن الزمن تطور والأخلاق تغيرت عما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت رضى الله عنها تتمثل بقول لبيد الشاعر :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبَقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب

ثم تقول رضى الله عنها : كيف لو عاش لبيد إلى زماننا ؟

وكان عبد الله بن الزبير يقول « رحم الله أم المؤمنين حين كانت تتمثل بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم　　　وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم يُضيف رحمه الله قائلا : كيف لو عاشت أم المؤمنين إلى زماننا ؟ وقد قلت حين قرأت قولهما : فماذا نقول نحن اليوم ؟ اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلا فنجتنبه .

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره (الذى كتبه فى القرون الوسطى) : وقد قيل إنه يجب الستر والتقنع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء ، وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقول وكان القناع فى الزمن الأول مقصوراً على الحرائر دون الإماء حين كان الرجال والنساء على تقوى من الله . فلضعف التقوى أرادوا التحرز بتقنع الحرائر والإماء درءاً للمفاسد .

الرابع عشر : أن الله تعالى جعلهن محل عنايته فى الصلاة ، فقال تعالى فى سورة طه : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) ، وجاء فى تفسير الإمام ابن كثير أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أصابه خصاصة (حاجة) نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وأضاف ابن كثير رضى الله عنه أن الإمام الترمذى وابن ماجة رويا من حديث عمران بن زائدة عن أبى خالد الوالبى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله يا ابن آدم تَفَرَّغ لعبادتى أملأ صدرك غنًى وأَسُدُّ فقرك ، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلا ولم أسد فقرك » وأخرج أبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله رجلا قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » .

وقد قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (وأمر أهلك) تشمل أهل بيته

وأمته واستدلوا بقوله تعالى فى حق سيدنا إسماعيل عليه السلام: (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيًّا) ولكن الخصوصية واضحة فى أزواجه صلى الله عليه وسلم فقد عبَّرت عنهن بالأهل فى سورة آل عمران حيث قال تعالى : (وإذْ غَدَوْتَ منْ أهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال والله سميع عليم) ، وواضح فيها أنه خرج من بيته حيث يسكن أهله أى أزواجه رضوان الله عليهن ، وهذا التفسير لا ينافى أن الصلاة فريضة على جميع المؤمنين والمؤمنات بنصوص أخرى .

الفصل الثالث

أم المؤمنين عائشة

قصة الإفك

بمناسبة حديث الإفك يتعرض العلامة عباس العقاد إلى عظم خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابه « عبقرية محمد » فيقول رحمه الله :

« والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه فى حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين ،

« إلا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء ، فى هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى ، فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نسائه لديه ، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضى الله عنها :

« . . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه ، وأقرع بيننا فى غزوة (وهى غزوة بنى المصطلق) فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى ، وأقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسنى ابتغاؤه . . . وأقبل إلى الرهط الذين كانوا [1] يرحلون لى ، فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن[2] ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلق[3] من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج

---

(١) أى يحملون الرحل على البعير .

(٢) يثقلهن اللحم والشحم .

(٣) بضم ففتح ، وهى مافيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء .

حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن .

« ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مُجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى .

« فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان [١] بن المعطل السلمى قد عرّس من وراء الجيش فأدلج [٢] فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى واسترجع ، فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة [٣] .

« فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كِبْره [٤] عبد الله بن أبىّ ابن سلول ،

« واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يُفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك .

« ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نَقَهت ، وخرجتْ معى أم مسطح قبل المناصع [٥] .

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مِرْطها [٦] فقالت تَعِس مسطح .

« قلتُ : بئس ما قلتِ ، أتسبين رجلاً شَهِد بدراً ؟

« قالت : أى هنتاه [٧] ، أوَلمْ تسمعى ما قال ؟

---

(١) وقد جاء فيما رواه بسنده الإمام الطبرى أن السيدة عائشة كانت تقول : لقد سئل عن صفوان فوجدوه رجلا حصوراً ماياتى النساء وقتل شهيداً رضى الله عنه .

(٢) مسا آخر الليل .

(٣) أى فى شدة الحر .

(٤) الكبر بالضم والكسر ، الإثم .

(٥) أماكن فى الخلاء يقضى فيها الناس حاجتهم إذ كان العرب يكرهون اتخاذ الكنف فى بيوتهم ويستقذرونها بخلاف العجم فإنهم كانوا يتخذونها فى بيوتهم .

(٦) أى الكساء .

(٧) تنعى عليها طيبتها وعدم معرفتها بما كان منه فى حقها .

« قلتُ : وماذا قال ؟

« فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضًا إلى مرضى ، فلما رجعتُ إلى بيتى دخل علىّ رسول الله فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ واستأذنتُ أن آتى أبوىّ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى .

« قالت أمى : يابنية هوّنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاّ كثرن عليها .

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .

« ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

« وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدُقك .

« فدعا رسول الله "بَرِيرَة" يسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ، قالت : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قد أغمضه [1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن[2] فتأكله .

وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

« فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهّد ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنّى قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه .

---

(١) أى أعيبه .

(٢) الحيوان الذى يألف البيت كالغنم والدجاج .

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص[١] دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ، فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

« فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت كذلك ، والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلتُ لكم : إنى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة ، لا تُصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقوننى ، وإنى والله لا أجد لى ولك مثلاً إلا كما قال أبو يوسف[٢] :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، فو الله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان[٣] فى اليوم الشاتى .

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى ياعائشة ، أما الله فقد برأك .

« قالت لى أمى : قومى إليه .

« قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى .

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ، فأقسم لا ينفق عليه شيئًا أبدًا ، فأنزل الله عز وجل : (ولا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

---

(١) قلص وتقلص ارتفع وانزوى وجف .

(٢) قالت رضى الله عنها فيما رواه الطبرى : التمست اسم يعقوب فما أذكره وهو مايدل على مدى تأثرها بما شاع كذباً عنها ، شأن كل حرة كريمة عفيفة .

(٣) أى الدر .

فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ورجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه .

المنافقون والإفك :

والذى أشاع الفاحشة ونشرها حِقْداً وحسداً على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول لعنه الله فى الدنيا والآخرة ، وهو الذى رأى صفوان (١) آخذاً بزمام الناقة التى ركبتها أم المؤمنين فقال إفكاً وبهتاناً : والله ما نَجَتْ منه ولا نجا منها .

وروى الإمام الطبرى بسنده عن ابن إسحق عن بعض رجال من بنى النجار : أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قالت له امرأته : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب . أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله . قال فعائشة والله خير منك .

فانظر الفرق الشاسع بين مسلك المنافق عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين الذى تولى إشاعة الفاحشة عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مسلك الصحابى الأنصارى الخزرجى أبى أيوب رضى الله عنه وعن سائر الصحابة المكرمين .

القرآن الكريم والبراءة :

وما أروع كلامها رضى الله عنها فى التحدث بنعمة الله التى جاءتها من السماء فى براءتها حين قالت فيما رواه الطبرى فى تاريخه :

« وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله عز وجل فىّ قرآناً يُقرأ به فى المساجد ويصلى به . ولكنى كنتُ أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يُكَذِّبُ الله بهعنى لما يعلم من براءتى أو يُخْبِرُ خبراً ، فأما قرآن ينزل فىّ ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك » .

---

(١) كان صفوان رضى الله عنه من خيار الصحابة الكرام ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته .

سورة النور والبراءة :

وما أبدع ما قاله الله تعالى فى سورة النور فى تبرئتها مما لاكته الألسن زورًا وبهتاناً فى قصة الإفك (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) .

وقد تُؤثِّر الإشاعة الكاذبة فى بعض المؤمنين لانه تعالى يقول : (وفيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) وإذا شك أحد المؤمنين فى مسلك الزوجة الأثيرة ، فإنه يؤذى نفسه ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث لا يشعر ، لأن عِرْضه الشريف مرتبط بِعِرْض نسائه الطاهرات ، ولذلك أنَّب الله المؤمنين الذين تأثروا بالإشاعة وأسهموا فيها ،

فقال تعالى فى سورة النور : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم لَا تَحسَبوه شرًّا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعةِ شهداءَ فإذ لم يأتوا بالشُّهداءِ فأُولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسَّكم فى ما أفضْتُم فيه عذابٌ عظيم * إذ تَلقوْنه بألسنتكم وتقولون بأفواهِكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكونُ لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتانٌ عظيم * يعظكم الله أن تعُودوا لِمِثْلِهِ أبدًا إنْ كنتُم مؤمنين * ويبين الله لكم الآياتِ والله عليم حكيم * إنَّ الذين يُحبّون

أن تشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنوا لَهُمْ عذابٌ أليمٌ فى الدنيا والآخرة واللهُ يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمتُه وأنَّ اللهَ رءُوف رحيم * يـأيها الذين آمنوا لا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشيطانِ ومنْ يتبعْ خُطُواتِ الشيطانِ فإنَّه يـأمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ ولو لا فضْلُ اللهِ عليكم ورحمته مَا زَكَىَ منكم من أحدٍ أبدًا ، ولكنَّ اللهَ يُزَكِّى من يشاءُ والله سميعٌ عليم * ولا يَـأْتَلِ أُولو الفَضْلِ منكم والسَّعَةِ أن يُؤتُوا أُولِى القُرْبى والمساكِينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله ولْيَعْفوا ولْيَصْفَحُوا ألا تُحِبّونَ أن يغفر اللهُ لكم والله غفور رَّحيم * إن الذين يرمون المُحْصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيمٌ * يومَ تشهدُ عليهِمْ ألسنَتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعْملون * يومئذٍ يُوَفِّيهم الله دينَهمُ الحقّ ويعلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ * الخبيثاتُ للخَبيثينَ والخَبيثُون للخَبيثاتِ والطيِّباتُ للطيِّبين والطيِّبونَ للطيِّباتِ أُولئك مُبرَّءُونَ مما يقولونَ لهم مغفرةٌ وَرِزْقٌ كَريم) .

براءة صفوان وكرامة أم المؤمنين :

وفى قوله تعالى : (أولئك مُبرَّأون مما يقولون) شمول لبراءة السيدة أم المؤمنين وصفوان . ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره : قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمِىَ بالفاحشة برَّأه الله على لسان صبى فى المهد ، وإنَّ مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام . وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن . فما رَضِىَ لها ببراءة صبى ولا نبى حتى برَّأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وهذا الذى يقول به أهل التحقيق يدلنا على المكانة السامية التى لأم المؤمنين عند الله تعالى ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

إقامة الحد :

وقد روى أبو داود عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل عُذْرى قام النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضُربوا حدهم ، وسماهم : حسَّان بن ثابت ومِسْطَح بن أثاثة وحَسنة بنت جحش ، وفى كتاب الطحاوى : ثمانين ثمانين. والحد الذى أقيم على هؤلاء المسلمين يُظهر كَذبَ القاذف وبراءةَ المقذوفة كما قال تعالى : (لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ) . وكذلك يكَفِّر الحدُّ عن المحدودين ما صدر عنهم من القَذْفِ رجمًا بالغيب حتى لا يبقى عليهم تبعة منه يوم القيامة لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى الحدود : « إنها كفارةٌ لمن أقيمت عليه » .

جزاء السب :

وقد روى الإمام القرطبى عن هشام بن عمَّار قال : سمعت مالكًا يقول : من سب أبا بكر وعمر أُدِّب ، ومن سب عائشةَ قُتِل لأن الله تعالى يقول : (يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ويؤيد الإمام القرطبى رأى الإمام مالك فيقول : إنَّ أهلَ الإفكِ رَمُوا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرَّأها الله تعالى ، فكل من سبها بما بَرَّأها الله منهُ مكذِّب لله، ومن كذّب اللهَ فهو كافر .

تعقيب العلامة العقاد :

و يقول العلامة العقاد فى تعقيبه على القصة :

« تلك هى القصة التى عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهى مسبار[1] صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين ، فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضا التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمّية وتثير الحب وتثير النقمة وتثير فى النفس

---

(١) مقياس .

البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة ، فلم يكن فى هذه الحالة إلا كرماً خالصاً بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه، ولم يدع لحالم من حالمى الحضارة الحديثة مُرتقى يتطلع إليه فى جميع هذه الغايات .

« سمع النبى حديثا يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين . . .

« سمع النبى ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين ، فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها فى مرضها بما يخامر نفسه الكريمة » .

طهارة جميع الأزواج :

والآيات الكريمة التى نزلت فى قصة الإفك الخاص بالسيدة عائشة تمتد إلى سائر أزواجه الطاهرات لأن الله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلَات الْمُؤمِنَاتِ لُعِنُوا فى الدُّنْيَا والآخرة ولَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) . وقد قال ابن عباس والضحاك وغيرهما هى فى السيدة عائشة وسائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

أقول : وهذه بركة من بركات أُمّنا السيدة عائشة على زميلاتها أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن . وفى ذلك أيضًا من التكريم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لايخفى ، وإذا كان الله تعالى قد أنزل سيداتنا أمهات المؤمنين منازل الكرامة والحرْمة ، فلا يليق بمؤمن أن يطلق لسانه فيهنّ بالنقد جهْلاً بحرمتهن تحت ستار بحث علمى أو تاريخى أو تشيع للإمام علىّ حتى لا يتعرض للعنة الله فى الدنيا ، ثم للعذاب العظيم فى الآخرة . وسترى بعد قليل أن الإمام قد حفظ للسيدة أم المؤمنين عائشة حُرْمتَها وصان لها كرامتها وردّها إلى المدينة معززة مكرمة ، كما ستراها داعية له بالجنة حين كشفت النساء المصاحبات لها عن وجوههن .

والأولياء ليسوا معصومين عصمة الأنبياء ، ولكنهم محفوظون بحفظ الله للأتقياء ، ومن هنا كانت نفوسهم لوّامة ورجاعة إلى الحق . فلا تأخذهم العزة بالخطأ . وإن وقع منهم عن تأويل واجتهاد فى الرأى ،ولا تكمن فى قلوبهم ضغينة عن سبب

قام ومضى لحاله . ولهذا لامت أم المؤمنين نفسها فى موقفها من معركة الجمل وودّت أن لو كانت ماتت قبلها بعشرين عامًا : كما لامت ابن عمر رضى الله عنهما على أنه لم يمنعها من الخروج للعراق . وإذا كانت قد رجعت على نفسها باللوم والندم فقد حكمت على موقفها وأغنت غيرها من الحكم لها أو عليها . وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ولا تنس أنه تعالى كان كشف الغيب لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قال لنسائه : أَيتكن صاحبة الجمل الأَحدب تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأَب ، ثم نظر إلى السيدة عائشة وقال : أَخشى أَن تكونيها يا حُمَيْراء ، وقد همّت بالرجوع من الطريق حين نبحتها كلابُ الحوأَب وتذكرت هذا الحديث الشريف إلا أَنهم خدعوها بشهادة زور بأَنهم خَلَّفوا الحوأَب وراءهم وكانت تلك أول شهادة زور فى الإسلام .

السيدة عائشة ومعركة الجمل :

كان خروج السيدة عائشة رضى الله عنها إلى العراق للإصلاح بين الطائفتين باعتبارها أم المؤمنين جميعاً ، ولأَنه تعالى يقول حاضًا على الإصلاح بين المتخاصمين : (وإِنْ طائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) . ولكن شاءَ الله أَن يقع القتال المرير فى معركة الجمل بين الفريقين على غير ما أَرادوا جميعاً ، وغلب المقدور على تقديرهم ، فندمت أم المؤمنين على خروجها إلى البصرة أَشد الندم وقالت فى نَدَمِها : «ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً » . ولأَن بعض الكتاب ربطوا بين قصة الإِفْك وبين موقف أم المؤمنين من الإمام على ، نقول :

« ذكر الثعلبى وغيره أنها رضى الله عنها كانت إذا قرأت قوله تعالى (وقَرْن فى بيوتكن) تبكى حتى تبل خمارها . ولا تعجب أن يكون منها ذلك وهى الصديقة بنت الصديق التى نزلت براءتها فى كتاب الله الكريم وصارت متلوة فى المحاريب على ألسنة الصفوة الأبرار من عباد الله المتقين .

حملة الجمل والمشاركة فى الحكم :

ويرى العلامة العقاد فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » أنّ حملة الجمل إنما كان المقصود منها مشاركة الإمام فى الحكم ؛ فيقول :

« ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ، ولم تكن حملة تدبير وتقدير ،ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف ، وإلا فما يكون ذلك المصير ، إنّ أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على الإمام علىّ لِيُصْلِحُوه لمعاوية، فليس فيهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته ،

« ولم يتفقوا على ولايةِ واحد منهم بعد هزيمة الإمام إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هى بالمركب الذلول ،

« إنما هى حملة تهويل إلى المقاسمة فى الأمر على وجه من الوجوه التى أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة ، فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة على قولهم الذى عبروا به عن طلب الولاية فى بعض الأحاديث بينهم وبينه ،

« وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة فى موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

« . . . فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعليًّا لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ، ولم تكن هى غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها ،

« فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها ،

« والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذى اختارته لكنيتها فى بعض الروايات ، فكانت تُكَنَّى من أجله بأم عبد الله ،

« وعلىّ أقرب الناس إلى بيت النبى وزوج ابنته وأبو حفيديه (سبطيه) وصاحب الرأى الذى لا ينسى فى حديث الإفك وهو نصيحته للنبى بتطليقها .

« . . . ثم ها هى ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة

الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ومن هؤلاء الصحابة علىّ وطلحة والزبير ، وكلهم قد ندبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة وقال لهم عمر يومئذ :

« إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فشاوروا واختاروا رجلا منكم »

« وكان جائزاً أن يقع الاختيار فى بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى »

« ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذى شهدت عائشة قديمًا فى بيتها ، فمع مَنْ يكون شعورُها »

« إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح فى رأى بعضهم كالعرف الذى يجرى عليه التقليد . . .

« فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها ، فليس ذلك بغريب ولا بمخالف للمعهود فى طبائع الناس » .

نصيحة ابن عمر :

وقد نصح ابن عمر لنفسه ولطلحة والزبير فى الوقت المناسب أكثر من مرة ، وكانت نصيحته خالصة لله وواضحة بينة ، ولكن غلب قضاء الله وكان ما كان ، وقد جاء فى كتاب « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة ما يلى :

لما اجتمعت كلمة القوم على المسير إلى العراق قال طلحة للزبير : إنه ليس شىء أنفع ولا أبلغ من استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا :

«يا أبا عبد الرحمن ، إن أمَّنا عائشة قد خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين

الناس ، فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها ،

فقال ابن عمر : أيها الشيخان ، أتريدان أن تُخرجانى من بيتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ،

« إن الناس إنما يُخدعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عياناً فى عافية أنالها ، فانصرفا عنه .

ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير فقال لهما : عاوِدا ابن عمر فلعله يُنيب فعاوداه ، فتكلم طلحة فقال :

« يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لربَّ حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالحظ ، إن علياً يرى إنقاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهى الهلكة » .

فقال ابن عمر ، وما أبدع ما قال رضى الله عنه :

«إن يكن قولُكما حقاً ففضلا ضيعتُ ، وإن يكن باطلا فشرٌّ نجوت منه ، واعلما أنَّ بيتَ عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلاّ من كان خيراً منه » .

«وأما الشورى فقد والله كانت فقُدِّمَ وأُخِّرتما ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما» .

فهل ترى نصيحة أصدق من نصيحة ذلك التقى الورع الذى حج فى حياته المباركة ستين حجة واعتمر ألف عمرة ، ولكن ماذا تجدى النصيحة إذا حمّ القضاء وشاء الله ما كان .

وجهة نظرى :

أقول : ومن عجيب أن بعض المؤرخين تأثروا بما يقول غلاة الشيعة ، أو بما يكون فى طباع البشر ، عادة وربطوا بين موقف إمامنا على بن أبى طالب من حديث الإفك وبين موقف سيدتنا عائشة فى معركة الجمل حين خرجت رضى الله عنها مع

طلحة والزبير ، تريد أن تصلح بين الفريقين ، كما طلبوا إليها ، وقال هؤلاء بغير حق إن الإمام حين استشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والنساء سواها كثير — بقيت مرارةُ قوله هذا فى نفسها فانضمت إلى معسكر خصومه فى معركة الجمل، وهذا القول يجافى الحقائق الثابتة التى تناقض قولهم ، وهذه الحقائق هى :

أن الإمام رضى الله عنه نادى الزبير وكلمه قبل أن تبدأ معركة الجمل وذكّره بما كان قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى بياضة حين رآه يُسلم على الإمام ويعانقه فقال له صلى الله عليه وسلم : « أتحبه ؟ قال الزبير كيف لا أحبه وهو أخى وابن خالى ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له » ،

فلما ذكّره الإمام بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الزبير رضى الله عنه للإمام كرم الله وجهه : لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر ، أما إنى لو ذكرتُها ما خرجت ،

وعندما خرج الزبير من المعركة قال له ابنه عبد الله : ياأبتِ تعيِّرنا نساءَ قريش ، قال له أبوه : يا بنى لقد أَذْكرنى ما أنسانيه الدهر، يا بنى العارُ ولا النار ، ثم قال الزبير شعراً :

اخترت عاراً على نار مؤججة	ما إن يقوم لها خَلْقٌ من الطين
نادى علىّ بأمر لست أجهله	عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عدلٍ أبا حسن	فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى

ولا غرابة أن يرجع الزبير إلى الحق ، فإنه قال للسيدة عائشة يوماً : ما كنتُ فى موطن منذ عَقَلْتُ إلا وأنا أعرف فيه أمرى غيرَ موطنى هذا ، قالت : ما تريد أن تصنع ، قال : أريد أن أدَعَهم وأذهب .

وكذلك أقنع الإمامُ طلحةَ رضى الله عنه وكان فيما قاله له : إنك أول من بايعنى ثم نكث ، فخرج طلحة من المعركة ، فرماه مروان فقتله مع أنه حليفه ، وذلك بحجة أنه كان يؤلب الناس على عثمان ، وقال مروان حين رمى طلحة خرج الزبير ويخرج طلحة ، وقد قال طلحة — قبل أن يلفظ روحه — لرجل بجواره ،

من أى الفريقين أنت ؟ فقال الرجل من فريق أمير المؤمنين علىّ ، فقال طلحة : أبلغه أنى مبايعه ، فلما بلغ قوله أميرَ المؤمنين قال: أبى اللهُ أن يدخل طلحة الجنةَ إلا وبيعتى فى عنقه ، ثم نفض التراب على وجه طلحة وقال له: أعْزِزْ علىّ بأن أراك مُجنْدَلاً تحت السماء أبا محمد .

ومع أن الإمام انتصر فى المعركة ، إلا أنه كان شديدَ التألم لما وقع ، حتى ، إنه كان يقول : وددت لو أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عامًا ، كما كان يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ بنا ما بلغ ما دخلتُ فيه . كما أن الإمام حين رأى محمد ابن طلحة بين القتلى تألم لقتله وقال : رحمك الله يا محمد لقد كنتَ فى العبادة مجتهداً آناء الليل قوّامًا وفى الحرور صوّامًا ، ثم نظر إلى مَنْ حوله فقال : هذا رجل قتله بر أبيه (١) .

وشاء الله — برغم خروج طلحة والزبير من المعركة — أن يلتحم الجيشان التحامًا شديداً على غير ما أراده الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين، فقد كاد الصلح أن يتم بين الزعماء لولا أن الدهماء من الجانبين تراموا فقام القتال فجمحت الفتنة واستعصت على الرؤساء فاشتد القتال وقُتل من الفريقين قرابة عشرين ألفًا، وانتهت معركة الجمل لصالح أمير المؤمنين ، ولما عُقِرَ الجملُ الذى كانت تركبه سيدتنا عائشة قالت أم المؤمنين عائشة لأمير المؤمنين : يا ابن أبى طالب : ملكت فأسْجِحْ (٢) ، فقال : غفر الله لك ، فقالت : وغفر لك .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى لسورة الحجرات : إن الأمر بين الطرفين كان قد انتظم وتم الصلح والتفرق على الرضا ، فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكن منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدءوا بالحرب سحرة (٣) فى العَسْكَرَيْن ، وتختلف السهام بينهم ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ: غدرَ طلحةُ والزبيرُ، والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ، فتم لهم ذلك على ما دبروه ونشبت الحرب.

ثم أرسل الإمام سيدتنا عائشة رضى الله عنها معززةً مكرمة إلى المدينة ،

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) أعف .

(٣) وقت السحر .

وكان ذلك الإعزاز مثار سخط من الخوارج على أمير المؤمنين ، حتى إنه حين سار ابن عباس رضى الله عنه لجدالهم فى خروجهم على الإمام، أثاروا فيما أثاروا من اعتراضات على الإمام إفراجه عن أم المؤمنين عائشة بعد أن وقعت أسيرة فى يد جيشه ، فقال لهم ابن عباس وهو يحاجهم: تؤمنون بالقرآن ؟ قالوا : نعم ، قال : إن القرآن فرض أمومة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهن السيدة عائشة ، فهل كان يجوز للإمام أن يأسر أمه ؟

واقتنع الأكثرون من الخوارج بما قاله ابن عباس فى هذه المسألة وغيرها وكانوا عشرين ألفاً وانصرفوا ، أما القلائل الذين لم يرشدوا وكانوا أربعة آلاف فقد حاربهم الإمام وتغلب عليهم فى معركة النهروان وقتل أكثرهم كما هو معروف .

والدليل القاطع على أن أم المؤمنين أرادت بخروجها الإصلاح بين الناس، ورد صريحاً فى جوابها على رسالة بعثت بها إليها أم المؤمنين سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها ، وقد وصلتها تلك الرسالة فى الطريق وهى سائرة إلى البصرة ونصها :

يا عائشة ، إنك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، حجابُكِ مضروب على جرمته ، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه ، وسكِّنِي عقيراك فلا تصحريهما [١] ، اللهَ من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك .

« ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك بأطراف الفلوات ناصةَ قلُوصك [٢] ، قعوداً من منهل إلى منهلٍ ؟

« إن بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تعرضين .

« ولو أُمِرْتُ بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكةً حجاباً جعله الله علىّ » . فكتبت إليها السيدة عائشة رضى الله عنها تقول :

« ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك؛ وليس مسيرى على ما تظنين، ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين» [٣] . ولا شك أن أم المؤمنين فى

---

(١) أى إن الله ألزمك أن تبقى فى البيت .

(٢) سائرة بناقتك .

(٣) العقد الفريد والإمامة والسياسة .

تقواها لا تقول إلا حقًّا فيما أجابت به .

ثم إنها همت بالرجوع من الطريق لولا شهادة زور شهد بها بعض الأعراب ، فقد روى الطبرى وابن قتيبة أن السيدة عائشة سمعت فى طريقها إلى البصرة نباحَ كلابٍ فقالت : أى ماءٍ هذا ؟ فقالوا : الحَوْأَبْ .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنى لَهِيَه [1] وما أرانى إلا راجعة .

قالوا : ولم ؟

قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحداكن قد نَبَحَتْها كلابُ الحوأب ، وإياك أن تكونى أنتِ يا حميراء [2] .

فأتوا لها ببعض أعراب شهدوا زوراً أن المكان ليس هو الحوأب وكانت بكل أسف هذه أول شهادة زور وقعت فى الإسلام ، فسارت رضى الله عنها معهم مكذوبة مخدوعة .

فما كانت أم المؤمنين تتوقع أن يغلب قضاءُ الله ويقع القتال المرير بين بنيها المؤمنين من الفريقين ، ولقد قال الزبير حين رأى الغوغاء تحرش بين الناس وتفتح بينهم طرقاً إلى الالتحام : « ما كنت [3] أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه قتال » .

ولم يربط الإمام علىّ كرم الله وجهه موقف أم المؤمنين منه فى معركة الجمل بموقفه منها فى حديث الإفك، وهو فى ذلك الوقت كان أقدر من غيره على تحليل الموقف من أهل زمانه، وممن جاءوا بعدهم من باب أولى ، وإليك كتابه إليها وجوابها عليه ، منقولا من كتاب السياسة والإمامة لابن قتيبة :

كتب أمير المؤمنين لسيدتنا عائشة يقول قبل أن يقع قتال :

« أما بعد فإنك خرجت عاصية لله ولرسوله ، تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، ما بال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس .

« تطالبين بدم عثمان ، ولعمرى لَمَن عرّضك للبلاء ، وحملكِ على المعصية

---

(١) إنى المقصودة بما قاله النبى صلى الله عليه وسلم عن نبح كلاب الحوأب .

(٢) لقبه صلى الله عليه وسلم لسيدتنا عائشة رضى الله عنها .

(٣) كتاب البيان والتبيين .

أعظم إليك ذنبًا من قتل عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت ، وما هِجْتِ حتى هُيجت ، فاتق الله وارجعى إلى بيتك .

فأجابته فى إيجاز قائلة رضى الله عنها : جل الأمر عن العتاب .

وأرسل إليها أمير المؤمنين بعد ذلك ابن عمه عبد الله بن عباس يقول لها :
... إن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك فوقع الناس لاتفاقك معهم فى البلاء والعناء ، وخير لك أن تعودى إلى بيتك ، ولا تحومى حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودى ولم تطفئى هذه الثائرة ، فإنها سوف تعقب القتال ويقتل فيها كثير ، فاتق الله يا عائشة ، وتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو ، وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر يعقبه النار .

فلما بلّغها ابن عباس رسالة الإمام قالت رضى الله عنها : إنى لا أرد على ابن أبى طالب لأنى لا أبلُغُه فى الحِجَاج .

فانظر ، كيف أرجع أمير المؤمنين موقفها فى الرسالة الأخيرة إلى حب ابن أختها عبد الله بن الزبير والتحيز إلى ابن عمها طلحة بن عبيد الله ، وانظر كيف كان تصويرها للإمام فى قوة حجته وكأنما صدقته فيما قال ولم تدفع حجته بحجة معارضة ، وكيف تجحد فضله وقد قالت فى حقه : إن كان ما علمت صوّامًا قوّامًا ، وذلك حين سُئلت : أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : فاطمة ، فقيل لها : ومن الرجال ؟ قالت : زوجها إن كان ما علمت صوّامًا قوّامًا .

كما أنها وهى خارجة من البصرة قالت : أيها الناس لم يكن بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (أهل الزوج) فلم تكن الخصومة إذن عندها بسبب رأى الإمام فى قصة الإفك ، وإنما هى كراهة فطرية معتادة تكون بين المرأة وأهل زوجها ، والإمام كرم الله وجهه أثبت قيام تلك الكراهة ، ولم ينكرها أو يردها لموقفه منها فى حديث الإفك ، فقد قال فى إحدى خطبه كما رواها ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة « أما فلانة فقد أدركها ضعف النساء وضغن غلاً فى صدرها كمرجل القين ، ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلىّ لم

تفعل ، ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله ، والله يعفو عمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولا يفوتك أن تذكر للأمام أدبه العالى فى قوله : ولها بعد حرمتها الأولى ، وفى قوله « فلانة » دون تصريح باسمها صيانة لحرمتها ، ولا عجب فإنه يتمسك دائماً بالحق مع أنصاره وخصومه على السواء ، كرم الله وجهه .

أم المؤمنين وابن الزبير :

وليس بالأمر الغريب أن تحب الخالة ابن أختها وبخاصة أن أم المؤمنين لم ترزق بأولاد من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تُكَنَّى بأم عبد الله، لأنه صلى الله عليه وسلم قال لها : تكنى بابنك عبد الله ، فكان يقال لها : يا أم عبد الله، ولقد جاء فى شرح « نهج البلاغة » : ما سُمِعَتْ أم المؤمنين تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها لعبد الله بن الزبير وقد أعطتْ للذى بشَّرها بسلامته من القتل عشرة آلاف درهم ، ثم سجدتْ شكراً لله تعالى ، ولما اعتلَّت دخل عليها بنو أختها ومنهم عبد الله فبكى ، فرفعت رأسها تنظر إلى وجهه فانتبهت لبكائه ، فبكت ثم قالت : ما أحقنى منك يا بنى ما أرى ، فما أعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبوىّ أحداً أنْزِلَ عندى منزلتك ، وأوصت له بحجرتها .

ولم يقف تأثير عبد الله عند خالته أم المؤمنين، بل تعداه إلى أبيه الزبير رضى الله عنه ، حتى لقد كان أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه يقول : ما زال الزبير رجلاً من أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله .

تقوى الإمام :

على أننا نسترعى النظر إلى أن أمير المؤمنين علياً لم يكن فى القتال متشفياً فى خصومه ، بل كان أميراً تقياً رحيماً ، ينظر للمسلمين نظرة الأب إلى أبنائه بالسوية ، فقد نقل ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة عن الواقدى قوله :

« إنهم كانوا حول الجمل يُحامون عنه ولقد كانت الرءوس تندر عن الكواهل[1]

---

(١) تقطع الرءوس عن الأجسام .

والأيدى تطيح من المعاصم ، وأقتاب البطون تندلق من الأجواف ، وهم حول الجمل كالجبال الثابتة لا تتحلحلُ ولا تتزلزل ، حتى لقد صرخ علىّ بأعلى صوته : ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان ، اعقروه وإلا فنيت العرب ، لا يزال السيف قائمًا راكعًا حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض .

وروى الطبرى : ونادى علىّ أن اعقروا الجمل ، فإنه إن عقِر تفرّقوا، فضربه رجل فسقط ، فما سُمع صوت أشدّ من عجيج الجمل .

ولما احتُمِلَت السيدة عائشة رضى الله عنها بهودجها أَمر الإمام بالجمل أَن يحرق ثم يذر فى الريح ، وقال : لعنه الله من دابة ، فما أَشبهه بعجل بنى إسرائيل ، ثم قرأَ كرَّم الله وجهه : (وانْظُرْ إِلَى إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لنُحَرِّقنَّه ثم لنَنْسِفَنَّهُ فى اليَم نَسْفاً) .

وتفرق الناس بعد موت الجمل ، فنادى منادى أمير المؤمنين :

« ألاّ يُجهز على جريح » ، « وألاّ يُتبع مُوَلٍّ » « وألاّ يطْعن مُدْبِرٌ » ، « ولا يستحلن فرجٌ ولا مالٌ » .

ولما استشار سيدنا عمارُ بن ياسر رضى الله عنه أميرَ المؤمنين كرم الله وجهه فى الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم وقال له : أقتل هؤلاء الأسرى يا أمير المؤمنين ؟ قال الإمام : لا أقتل أسير أهل القِبْلة إذا رجع ونزع [١] ، فبايع الأسرى وأخلى سبيلهم .

ولما قال له أنصاره : مالنا فى هؤلاء الناس ، أجابهم :

لكم ما فى عسكرهم وعلى نسائهم العدة[٢] (أى نساء القتلى) ، وما كان لهم من مال فى أهليهم فهو ميراث على فرائض الله .

فقال له أنصاره : يا أمير المؤمنين كيف تحل لنا أموالهم ولا تحل لنا نساؤهم ولا أبناؤهم ؟ فقال : لا يحل ذلك لكم ، فلما أكثروا عليه قال : اقترعوا هاتوا

---

(١) التزم بطاعة الوالى .

(٢) أى تمتد بأربعة أشهر وعشراً وهى عدة من توفى عنها زوجها من المسلمين .

بسهامكم ، أيكم يأخذ أمكم عائشة فى سهمه .

فقالوا : نستغفر الله ، فقال : وأنا أستغفر الله (١) .

وقد روى ابن قتيبة فى كتاب « الإمامة والسياسة » أن محمد بن أبى بكر دخل على أخته عائشة (أى بعد المعركة) فقال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : علىّ مع الحق ، والحق مع علىّ ثم خرجْتِ تقاتلينه على دم عثمان ؟

قال : ثم دخل عليها الإمام علىّ فسلم وقال : ياصاحبة الهودج ، قد أمرك الله أن تقرى فى بيتك ثم خرجت تقاتلين ؟ أترتحلين ؟ قالت : أرتحل ، فبعث معها أمير المؤمنين كرم الله وجهه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العمائم ويتقلدن السيوف وأن يكن من الذين يلينها ولا تطلع على أنهن نساء ، فجعلت عائشة تقول فى الطريق (ظنًّا منها أنهن رجال) : فعل الله فى ابن أبى طالب وفعل ، بعث معى الرجال ، فلما وصل الركب المدينة وضَعْنَ العمائم والسيوف ودخلن عليها فقالت : جزى الله ابن أبى طالب الجنة ، فانظر كيف دعت للإمام بالجنة حين علمت حقيقتهن ، وهو صفاء ليس بمستغرب منها وهى إحدى نساء النبى صلى الله عليه وسلم اللاتى تأسّيْن بخلقه وتأدبن بأدبه وتميزن بذلك الأدب العالى عن سائر نساء المؤمنين . وهل ترى أروع من شهادة إحدى ضرائرها وهى السيدة زينب بنت جحش حين سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك فقالت بعد أن استعاذت بالله : « أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً » — كما أن أم المؤمنين عائشة شهدت بالفضل لضرتها السيدة سودة حين تركت ليلتها لها وهى راضية ، فقالت السيدة عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلىّ أن أكون فى مسلاخها (٢) من سوْدة » .

أقول : فبماذا تعلل المكارم إلا أن تكون من فضل الله عليهن ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أمير المؤمنين قبل أن يشير عليها بالرحيل أرسل إليها ابن عمه عبد الله

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) أى أكون مثلها .

ابن عباس رضى الله عنهما وكانت فى بيت من بيوت البصرة أنزلها أمير المؤمنين فيه ، وقال له الإمام فيما رواه — صاحب العقد الفريد : ائت هذه المرأة فلترجع إلى بيتها الذى أمرها الله أن تقر فيه .

بين أم المؤمنين وابن عباس :

قال ابن عباس ، فجئت فاستأذنتُ عليها فلم تأْذن لى ، فدخلتُ بلا إذن ، ومددت يدى إلى وسادة فى البيت فجلستُ عليها ، فقالت أخطأتَ السنة مرتين : دخلتَ بيتى بغير إذنى ، وجلستَ على متاعى بغير أمرى .

فقال : نحن علمناك السنة (يقصد أنه من بنى هاشم الذين شرفهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وعنه أخذتْ هى السنة ، وسيتضح مقصده هذا من بقية حديثه) والله ما هو بيتك إلا الذى أمرك أن تقرى فيه فلم تفعلى ، إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجت منه ،

قالت : رحم الله أمير المؤمنين ، ذاك عمر بن الخطاب .

قال : نعم وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ،

قالت : أبيْتُ أبيْتُ

قال : ما كان إباؤك إلا فَواق ناقة بَكية ثم [1] صرت ما تَحلّين وله تَمُرّين[2] ، ولا تأمرين ولا تنهين . قال ابن عباس : فبكت حتى علا نشيجها ، ثم قالت : نعم أرجع ، فإنّ أبغض البلدان إلىّ بلد أنتم فيه .

قال ابن عباس : أما والله ما كان ذلك جزاءنا منك ، إذ جعلناك للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك لهم صدّيقاً (يقصد بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وعلى أبيها كما أشرت آنفاً) .

قالت : أتمُنّ علىّ برسول الله يا ابن عباس ؟

قال : نعم : نَمُنّ عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننتِ به علينا .

(١) بكية أى قليلة اللبن ، والفواق مابين الحلبتين .
(٢) يقال أمررت الحبل والخيط أى فتلته فتلا شديدا .

قال ابن عباس : فأتيتُ علياً فأخبرته ، فقبّل بين عَيْنَىّ وقال : بأبى أنت : ذريةٌ بعضُها من بعض .

أم المؤمنين فى الغضب والرضا :

فانظر كيف كانت فى ساعة الغضب ، وكيف كانت رضى الله عنها فى ساعة الرضا ، فقد قالت فى الرضا عندما وصلت المدينة كما مرّ عليك : جزى الله ابن أبى طالب الجنة .

فهى رضى الله عنها وإن تأثرت بسخط النفس البشرية إلا ، أن طهارة نفسها التقية كانت تردها إلى الحق وتنأى بها عن مزالق الحقد ، وكيف لا يكون منها ذلك المسلك وغضب المؤمن كالبرق الخاطف كما جاء فى الحديث الشريف ، فكيف الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما ، وهى سفيرته الأولى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المؤمنات فى عصره والعصور التالية له ، فكانت رضى الله عنها تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جاسن إليه يسألنه فى أمور الدين وآداب الزوجية ، وكان أحياناً يعرض عن الجواب حياء ويعهد إليها بتفسير ما يقول . لابل إنها كانت كذلك مرجعاً للرجال فى السنن النبوية والأحكام الشرعية وفى الشئون العامة والخاصة ، وكان المؤمنون يفزعون إليها شاكين مما يسوؤهم من تصرفات الولاة فى خلافة أمير المؤمنين عثمان ، حتى قال رضى الله عنه فى تبرمه من مسلك أهل العراق : « أما يجد مُرّاق أهل العراق وفُسّاقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ » وذلك حين كانوا يطلبون عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وكان الوليد أخاً من الأم لأمير المؤمنين عثمان ، وكذلك شكا أهل مصر لأم المؤمنين واليهم عبد الله بن أبى سرح ، وطلبوا أن يولى عليهم محمد بن أبى بكر ، واستجاب الخليفة لهم ، وحين دخل بنو أمية مصر قتلوا محمداً هذا ومثلوا به أبشع تمثيل ، فقد قتلوه وهو ظمآن ووضعوه فى جوْف حمار ميت ثم شووه بعد أن جروه من رجليه فى أسواق مصر ، وأشهدوا السفلة والصبيان على مُثْلَته ، ثم أرسلوا قميصه وهو بدمه إلى المدينة ، وشوت أخت معاوية بن خَديج خروفاً وأهدته إلى أم المؤمنين فى العيد وأوصت رسولها أن يقول لها : هكذا كان شىٌ أخيك ، قالوا فما أكلت السيدة عائشة بعدها

شويًّا قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

وفى مناسبة واقعة التمثيل هذه يتعرض العلامة العقاد فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » إلى الأباطيل التى نسبت للسيدة عائشة فيقول :

« وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة فى قبولها ، وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان وهما : مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب علىّ ، يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم فى المُثْلة بأخيها والحيْف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة علىّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة على من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة فى هجمة قاتليه ، فضلا عن مصلحة القاتلين أنفسهم فى التعلل بهذا السند الذى يعفيهم من لوم كثير » .

ويقول العلامة العقاد رحمه الله فى موقف أم المؤمنين فى السياسة العامة فى خلافة أمير المؤمنين عثمان وبعده ما يلى :

« بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى فى السياسة العامة وهى إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار ،

« أما مشاركتها الثانية — أى فى معركة الجمل — فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافةَ علىّ من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم فى خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ، ويستوى فى جيرتها العسكران فتركوا لها مندوحة للمراجعة ، يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعى بينهم بالتوفيق .

« وأصوب ما قيل فى هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما ؟

مزايا أم المؤمنين :

روى الإمام القرطبي بسنده عن أم المؤمنين قولها رضى الله عنها وهى تتحدث بنعمة الله عليها : قد أعطيتُ تِسْعًا ما أُعْطِيَتْهُنَّ امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بِكْراً وما تزوج بِكْراً غيرى ، ولقد توفى صلى الله عليه وسلم وإنّ رأسه لفى حِجْرى ، ولقد قُبِرَ فى بيتى ، ولقد حفّت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحى لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يبيننى عن جسده ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عُذْرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وُعدْت مغفرة ورزقًا كريمًا ، تعنى بذلك قوله تعالى : (لهم مغفرة ورزق كريم) وهو الجنة .

وفى رواية أخرى قالت : فُضلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعشر : لم ينكح بكراً قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى ، وفى الليلة التى كان الدور علىّ فيها ، ودفن فى بيتى .

بلاء الإمام :

والحق الذى لامِرْية فيه أنّ بلاء الإمام فى هذه الفتنة كان بلاءً مُرًّا ، وقد صدق كرّم الله وجهه حين قال فى إحدى خطبه :

« . . . وإنى بليت بأربعة ، أدهى الناس وأسخاهم — طلحة ، وأشجع الناس — الزبير ، وأطوع الناس فى الناس — السيدة عائشة ، وأسرع الناس إلى فتنة — يَعلى بن أمية (كان واليًا لأمير المؤمنين عثمان على اليمن وعزله) .

ولم يغب عن الإمام أنه سيلقى فتناً كقطع الليل المظلم فقد كان ذا قلب مستنير وعقل كبير ، ولكن الخلافة أتته راغمة ولزمه شرعاً أن يحمل عبأها لوجه الله مهما ثقل عليه ذلك العبء كما بين ذلك فى إحدى خطبه حين قال بعد اشتداد الفتن :

أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (أى وقوع الفتن) وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها (أى لتخلى عن الخلافة لولا مالزمه شرعاً من البقاء فيها دفعاً للظلم عن المظلومين) .

ومن العجيب أن يبتلى الإمام بهذه الفتن المتكررة مع أنه لم يطلب الخلافة وإنما هى التى طلبته ، فقد روى الشريف الرضى — كما جاء فى نهج البلاغة — أنه حين تزاحم الناس على الإمام بعد استشهاد أمير المؤمنين عثمان ، وأرادوا بيعته خطب فيهم فقال :

دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميراً .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى شرح تلك الخطبة : وقد كان بعد بيعته ما تفرس به قبلها .

تزاحم الناس على بيعة الإمام :

هذا وإذا أردت أن تعرف كيف تزاحم الناس على بيعة الإمام على كرم وجهه فاستمع إليه وهو يصف التزاحم كما جاء فى نهج البلاغة :

« فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع — وهو كثيف الشعر — إلى ، ينثالون[1]

---

(١) يجتمعون .

عليَّ من كل جانب ، حتى لقد وطىء الحسنان ، وشق عطفاى ، مجتمعين حولى كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون » .

اتهام باطل :

ومن غريب الأمر أن يتهم الإمام بقتل أمير المؤمنين عثمان ، مع أن الإمام أمر ولديه السبطين الحسن والحسين بالوقوف على بابه لحراسته من الثوّار ، مع أنه كان يضن بهما كل الضن خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقد أصاب الإمام الحسن سهم الثوار وسال الدم على وجهه) ، وأمدَّه بالماء حين منعه الثوار عنه ، ولبس عِمَامته وتقلّد سيفه وقال لأمير المؤمنين عثمان مُرْنا فلنقاتل ، فلم يشأ أمير المؤمنين أن تراق بسببه ملء محجة من دم ، وكان الإمام عليّ السفير المؤتمن بينه وبين الثوار ، وكان أمير المؤمنين عثمان يستنجد به كلما ضاق عليه الأمر حتى إنه كتب إليه يقول :

فإن كنتُ مأكولا فكنْ خيرَ آكل ... وإلا فأدْرِكْنى ولمَّا أُمَزَّقِ

وقد كسر الإمام بيتَ المال بعد أن كان طلحة قد استولى عليه ، وأرضى الإمامُ الثوارَ بالعطاء ، وسَرَّ ذلك أمير المؤمنين عثمان ، ولما جاء طلحة وقال له جئتك تائباً قال بل جئتنى مغلوباً ، الله حسيبك ، ومع كل ذلك اتهموا الإمام بأنه قَاتِلُ عثمان ، وما ظهرت تلك التهمة الكاذبة إلا بعد بيعةِ الإمام بالخلافة حتى قال ابن سيرين رضى الله عنه كما جاء فى العقد الفريد : ما علمت أن عليا اتهم بدم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس .

صبر جميل ورأى حازم :

أقول : ومع مرارة البلاء الذى ابتلى به كان كرم الله وجهه صابراً محتسباً ، راضياً بقضاء الله وقدره ، لا يعتز إلا بالله ، ولا يعتمد على سواه ، ويبين لنا ذلك واضحاً فيما كتبه لأخيه عقيل ردًّا على جواب كان بعثه إليه فى بداية الفتنة ،

فقد كان فيما كتب الإمام ، كما روى ابن قتيبة :

« ... وأما ما سألتَ أن أكتب إليك فيه برأيي ، فإن رأيي جهاد المحقين حتى ألقى الله ، لا يزيدني كثرة من حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة لأني مُحِق ، والله مع المحق ، وما أكره أن أموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق :

« وأما ما عرضْتَ مِنْ مسيرك إلى ببنيك وبني أبيك ، فلا حاجة لي في ذلك ، فذرهم راشداً مهديًّا ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بني سليم :

فإن تسأليني كيف صبري فإنني ... صبور على ريْبِ الزمان صليب
عزيز عليّ أن أُرى بكآبة ... فيشمت واشٍ أو يساء حبيب

صفاء الإمام :

وإن أردت أن ترى صفاء أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في آخر الأمر كما رأيته في أوله فهاك ما رواه ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة .

دخل موسى بن طلحة على الإمام علي كرم الله وجهه بعد معركة الجمل ، فقال له الإمام :

« إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) » . فاعجب معي أيها القارئ من هذا التسامح الذي تخطى فيه الإمام كرم الله وجهه نزعات البشر في خصام أدّى للقتال المرير .

وأمسى عليّ بالبصرة [1] ذلك اليوم الذي أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن الكواء : أمسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين . (خافَ ابنُ الكواء أن يغدر به أهلها) .

قال الإمام : كان عندي ابن أخي .

(١) كانت البصرة في صف طلحة والزبير .

فقال ابن الكواء : ومن هو ؟

قال : موسى بن طلحة .

قال ابن الكواء : لقد شقينا إن كان ابن أخيك .

فقال الإمام : ويحك ، إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »[(١)] .

ولا تعجب مع مقالة ابن الكواء أن كان رأسًا بعد ذلك من رءوس الخوارج وداعية من دعاتهم حتى قتل فى موقعة النهروان . وقد ذهب هؤلاء الخوارج فى تطرفهم إلى القول بأن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم عليا ، وتولوا عليا إلى ما قبل التحكيم ، فلما قبل التحكيم ، قالوا بكفره وأباحوا دمه ودم كل مسلم لا يقول بقولهم ولا يدين بمذهبهم .

فقه الإمام :

وقد سئل الإمام على كرم الله وجهه عن خصومه فى معركة الجمل فيما رواه ابن أبى حديد فى شرح « نهج البلاغة » فقيل له : أكُفَّارٌ هم ، فقال : لا ، من الشرك فروا ، قالوا : أمُنَافِقُون هم : قال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا وهم ليسوا كذلك ، فقالوا له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا . وقد رأيتَ مما مر عليك أنّه قاتلهم قتال أهل البغى ، فلم يُجهز على جريح أو يقتل مُدْبراً ، أو يأسر مستسلمًا ، أو يسترقّ النساء .

رأى أهل السنة :

والرأى الذى يعتقده المسلمون من أهل السنة هو ما يقول به الأشاعرة وهو كما جاء فى كتاب « الملل والنحل » : إن أصحاب الجمل أخطأوا ، ولكنه خطأ مغفور ، كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع ولا يلزم به الكفر ولا الفسوق ولا التبرؤ ولا العداوة . فكن مع أهل السُّنَّة فى اعتقادهم هذا فإنهم بتوفيق الله على الحق .

---

(١) كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام سليم فى موقفه :

أما موقف الإمام فلا شك أنه موقف سليم من مبدئه إلى منتهاه، فإن الذين بايعوه بالمدينة هم الذين بايعوا الخلفاء أبا بكر وعمر وعثمان وكان من بينهم طلحة والزبير ، فالتزما رضى الله عنهما ببيعتهما ، ولكنهما أتياه بعد فراغ البيعة — فيما رواه بن قتيبة — فقالا له : هل تدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، على ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر ، فقال الإمام : لا ، ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز والأَوَد .

ولم يرض طلحة والزبير بموقف الإمام منهما ، وكان طلحة يقول : ما اللوم إلاّ علينا ، كنا ثلاثة من أهل الشورى (طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وقد تنحى سعد) كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما فى أيدينا ومنَعَنَا مافى يده .

وقد أشار ابن عباس على الإمام بأن يُولى البصرة الزبير ، ويولى طلحة الكوفة ، فقال له الإمام فيما قال : . . . ولو كنت مستعملا أحداً لضَرِّه ونفْعِه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى .

الأستاذ الخطيب فى إنصافه للإمام :

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه القيم « على بن أبى طالب » فى موقف كبار السادة الصحابة الكرام فى معركة الجمل :

« إن المرء ليحار إذ يرى هؤلاء النخبةَ المتخيرةَ من الناس تُغْلَب على أمرها فى بعض المواقف ، ويخذلها رأيها وبصرها ، وتركبها حيْرة محيرة فلا تدرى أية وُجهة تتجه ، ولا أى مسلك تسلك، ولا تأويل لهذا إلا أنه ابتلاء ابتلى الله به عباده، وامتحان امتحنهم به ، وما نحسب القتلى الذين سقطوا فى هذا البلاء إلا فى عداد الشهداء كمن يموتون بوباء من الأوبئة الجائحة .

« يقول الزبير ، رضى الله عنه ، عشية الاستعداد للمعركة ، إن هذه لهى الفتنة التى كنا نُحَدَّثُ عنها » ؛ فيسأله سائل : أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟

«فيقول له: ويحك ! إننا نُبْصر ولا نُبْصر . ما كان أمر قط إلا عرفت موضع قدمي فيه غير هذا الأمر ، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر (الطبرى) »

« إن الزبير رضى الله عنه ، يعلم أنها فتنة ويقاتل فيها . إنه لا يملك الفتنة ولكنها تملكه . إنها قَدَرٌ غالبٌ لا مردّ له »

« وإذا كان هذا هو شأن أصحاب الرسول والصفوة المتخيرة من صحابته ، فكيف بعامة الناس ، وكيف بمن انقاد للفريقين .

« . . . يقول الزبير ، رضى الله عنه ، وقد رأى الغوغاء تحرّش بين الناس ، وتفتح بينهم طرقًا إلى الالتحام والقتال . يقول : ما كنتُ أرى أنّ مِثْلَ ما جئنا له يكون فيه قتال[1] .

« ولو أنه خلى بين الصحابة وبين هذا الخلاف لعالجوه بغير الحرب ، ولأعطوا الرضا من أنفسهم ولكن كان ما كان ، ووقع ما لم يكن فى الحسبان :

« وأقول فى نهاية المطاف إن الحق كان مع الإمام على كرم الله وجهه . وغلبة المقدر عذرت خصومه فقد قدروا شيئًا وقدر الله غيره، فتابوا وندموا على ما كانوا . فلنذكر المحق والتائبين بالفضل . ولنرع حرمةَ الإمام وحرمة طلحة والزبير بالصحبة ، والثلاثة من العشرة المبشرين بالجنة ، ولنحفظ حرمة سيدتنا أم المؤمنين ، فهى أحب نسائه إليه صلى الله عليه وسلم ، وهى الصديقة بنت الصديق كما لقبها المحدثون عنها من الصحابة الأخيار ، وقد نزلت براءتها فى حديث الإفك من السماء وصارت قرآنا يتلى فى المحاريب . ولله الأمر من قبل ومن بعد » . ولعلك توافقنى فى أن رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب رأى منصف .

عذر الإمام :

أقول : وهب أن أم المؤمنين عائشة كانت تنتظر أن يشهد لها الإمام على فى حديث الإفك ، فهل شهد عليها فى قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله لم يضيق عليك ، وقد قصد الإمام بذلك أن يُفرِّج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو فيه من ضيق ، لا عن شك فى مسلك زوجه الأثيرة ، ولكن عن إشاعة الفاحشة فيها كذبًا على ألسنة ألد أعدائه من المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول .

---

(١) البيان والتبيين .

تسامح أم المؤمنين :

وقد دلتنا أم المؤمنين بموقفها بعد ذلك من سيدنا حسان بن ثابت على أنها لاتحمل بين جنبيها قلبًا حقوداً ، ولا خلقًا عنيداً ، فمع أن حسان كان ممن خاضوا فى حديث الإفك وجُلِد بسببه ، فإنها كانت ترثى له لفقد بصره ، فقد حدَّث مسروق فقال: دخلت على عائشة وعندها حسان فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل :

(والَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ[1] مِنْهُمْ لَهُ عذابٌ عَظِيمٌ) . فقالت : أما تراه فى عذاب عظيم قد ذهب بصره ؟

وقال هشام بن عروة عن أبيه : كنت قاعداً عند عائشة فمروا بجنازة حسان، فَنِلْتُ منه ، فقالت : مَهْلاً ، فذكرتها كلامه ، فقالت فكيف بقوله :

فإن أبى ووالدهُ وعرضى لعرضِ محمد منكم وقاء

وأضافتْ رضى الله عنها قائلة : إن اللهَ يَغْفِرُ له بهذا البيت .

ويقول العلامة العقاد فى تعقيبه على هذه الرواية : ولا شك أن الذى ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذى صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وإن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت .

أقول : فأيهما أولى بالصفح ؟ حسان الذى خاض فى حديث الإفك وأقيم عليه الحد ، أو الإمام فى موقفه من حديث الإفك حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الله لم يضيق عليك . النساء كثير ، وليس فى ذلك خوض بإفك بل تخفيف على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ضاق صدره بما يقولون كذبًا ورجمًا بالغيب .

وإذا كانت أم المؤمنين قد قدَّرت لحسان دفاعه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفلا تقدر لأمير المؤمنين دفاعه بسيفه فى نصرة الله ورسوله وافتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بات فى فراشه ، وهى الألمعية الرشيدة التى

(١) معظمه .

أدركت كذلك جهاده فى بدر وفيما والاها من الغزوات ، ثم هل كان يفوتها ما كان للإمام من مكانة وإعزاز عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل جهلت أن الله تعالى صان ذريته صلى الله عليه وسلم وجعلها من صلب الإمام ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معتزًّا بسبطيه الحسن والحسين رضى الله عنهما : « إنما هما ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما فأحبّهما وأَحبَّ من يُحبهما » وهل كانت تجهل ما كَنَّه صلى الله عليه وسلم من محبة للإمام وزوجته الزهراء ؟ فكيف لا تحب بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إرضاءً لله ورسوله وإن خالفت فى هذا الحب هواها ؟ إن السيدة الزهراء جاءت أباها صلى الله عليه وسلم برجاء من زوجاته فقالت له : إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت أبى بكر فقال لها : يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ، قال : فأحبى هذه يشير إلى عائشة ، فهذه تربيته الشريفة التى لا تفوت أم المؤمنين التى امتازت بسعة العلم وقوة الإدراك والحرص على مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الإمام مخيَّراً بين إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين إرضاء أم المؤمنين ، فمن الطبيعى أن يكون أكثر مواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى شدته النفسية فى حديث الإفك ، وإذا كان لابد لأم المؤمنين من إرضاء أحد الخصمين فى معركة الجمل فمن الطبيعى أن تكون أقرب إلى طلحة ابن عمها والزبير زوج أختها ، وبخاصة أنه لم يكن فى حسبانها أو حسبانهما أن يقع قتال مرير على النحو الذى شاءه الله وقدَّره ، وإذ كان لا مناص من أن يصون الإمام بيعتَه الشرعية وسلطانه الذى آتاه الله بهذه البيْعة ، فإنه نصح لخصومه قبل القتال وأعذر إلى الله وانتصح الزبير كما انتصح طلحة ولم تتهيأ فرصة لأم المؤمنين قبل أن ينشب القتال المفاجئ الذى بدأه الدهماء من الفريقين فغلب المقدور على ما قدَّرتْه رضى الله عنها من العمل على الإصلاح بينهما ، ونطق لسان الحال من كل من الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين :

قدرتُ أشياءً وَقَدَّرَ غيرَها حظٌّ يخط مصاير الإنسان

ومادام الإمام أَعْذَرَ إلى الله بنصح خصومه قبل القتال ثم استعمل فى القتال

حقه الشرعى حفاظاً على سلطانه ، وما دام طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تابوا إلى الله من موقفهم فقد آخذوا أنفسهم بأنفسهم ولم يتركوا مجالا لمؤاخذة جديدة من الباحثين فى أمرهم فإننا نشيد بتقواهم ونسأله تعالى الرضا عنهم .

أمانة التبليغ :

وإليك ما يقوله العلامة العقاد فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » ، عن أمانة التبليغ التى اضطلعت بها فى الإسلام أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :

« وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه ، فتورعت عن كتمان شىء من الأشياء التى تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصوم .

« فأسلوبها فى تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم ، وأسلوب أم المؤمنين فى خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن فى مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التى تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذى لا يغنى عنه مرجع فى سنن النبى ومأثوراته وأعماله ، فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سُنّة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

« وقد تكون هذه السيدة الفضلى التى أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهى ما تأذن لعمها فى الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبى عليه السلام . فأسلوبها فى تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ولم يكن شيمة الطبع واللسان » .

أم المؤمنين وصدق الرواية :

ويتعرض العلامة العقاد لصدق روايتها فيقول رحمه الله فى الكتاب ذاته :

« وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء . ولكنها كانت أشبه ما تكون فى خصلة الصدق التى بها

اشتهر ومن أجلها نُعت بالصدّيق ، وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه . . .

« ففى الغاشية التى أطبقت على العالم الإسلامى من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك ، وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . . .

« وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدفع خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى . . . ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق .

« ومن الصفات التى شابهت فيها أباها : الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأو .

« فحسبها أنها روت للنبى عليه الصلاة والسلام أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة . . .

« ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ، ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات ، حتى قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه :

« ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه » .

وقال عطاء بن أبى رباح : كانت أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيا فى العامة . وقال مسروق الهمذانى : « رأيت مشيخة رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض (المواريث) » .

وقال عروة بن الزبير : « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة » .

وهاك على سبيل المثال ما أوصت به معاوية حين طلب إليها النصيحة ،

فقد أرسلت إليه تقول : أما بعد فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَن التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومَن التمس رضاء الناس بسخط الله وكَّله الله إلى الناس .

ورع أم المؤمنين :

وفى طبقات ابن سعد أن موسى بن داود قال : سمعت مالك بن أنس يقول : قُسِّم بيت عائشة باثنين ، قِسْم كان فيه القبر وقسم كانت تكون فيه عائشة وبينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر بلا تَحفظ ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله إلا وهى جامعة عليها ثيابها .

وعن عائشة رضى الله عنها : ما زلت أضع خِمارى وأنفصل فى ثيابى (١) حتى دفن عمر فلم أزل متُحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً .

أم المؤمنين والتزام البيت :

ونعود إلى مجريات الحوادث فنقول: إن أم المؤمنين رضى الله عنها عادت إلى المدينة بعد معركة الجمل . والتزمت بيتها المبارك الذى كان ينزل الوحى فيه ، واستردت سعادتها بعيدة عن الخلاف والاختلاف ترجو الخير للأمة الإسلامية كلها ، وودت أنها لم تشارك فى ذلك الخلاف الذى سالت فيه دماء غزيرة عزيزة تألم لها الفريقان ، وغلب فى سفكها المقدور على الظن والتقدير . فما ظن القوم أن يقع القتال المرير كما وقع ، بل ظنوا أن يصلوا بالتفاهم إلى كلمة سواء . وقد أوشك التفاهم أن يتم فى سلام بين أمير المؤمنين وطلحة والزبير لولا أن تشابك الدهماء كما سبق القول واندفعوا فى القتال فى فتنة عمياء، فرد جيش أمير المؤمنين على الشر بمثله صيانة لحقه وإبقاء لسلطانه على الخارجين عليه ، وهو أول قتال يقع بين المسلمين من الفريقين وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

---

(١) أى أخلع الخمار وأتخفف من الملابس ، فلما دفن عمر تحرجت لأنه غريب — أما الرسول فزوجها وأما أبو بكر فأبوها — فتحفظت وأبقت ثيابها عليها . فعاملتهم معاملة الأحياء ولو أنهم فى القبور . وهذا من فقهها وذوقها وورعها رضى الله عنها .

أم المؤمنين تعاتب ابن عمر :

وقد بلغ من مرارة النفس عند أم المؤمنين من اشتراكها فى معركة الجمل أنها — فيما روى ابن عبد البر — رصدت لابن عمر من يُعْلِمها به إذا مر بها ، فلما مر بها وعلمت به ، قالت ادعوه ، فدعوه ، فقالت :

يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهانى عن مسيرى ، قال : رأيت رجلا غلب عليك ، وظننت أنك لا تخالفينه ، قالت : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت .

أم المؤمنين والأزدى :

كما روى الطبرى عن أبى جُنْدُب قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، فقالت : من أنت ؟ قلت رجل من الأزد أسكن الكوفة ،

قالت : أشهدتنا يوم الجمل ، قلت : نعم ، قالت : لنا أم علينا ؟

قلت : عليكم ،

قالت : أفتعرف الذى يقول : يا أمنا يا خير أُمٍّ نعلم[1] .

قلت : ذاك ابن عمى .

قال : فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت .

يوم الجمل :

وكذلك روى ابن الأثير فى أسد الغابة أن متحدثًا تحدث إليها فذكر يوم الجمل ، فقالت : والناس يقولون يوم الجمل ؟ قال نعم ، قالت : وددت لوأنى كنت جلست كما جلس صواحبى ، فكان ذلك أحب إلىّ من أن أكون ولدتُ من رسول الله بضع عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومثل عبد الله بن الزبير .

---

(١) هذا من رجز ارتجز به الحارث بن زهير الأزدى وكان فى جيش أمير المؤمنين ، قاله حين رأى قومه يسقطون قتلى وهم يتهافتون على خطام الجمل ، والرجز كاملا هو :

يا أمنا يا خير أم نعلم — أما ترين كم شجاع يكلم

وتُختلى هامته والمعصم

توبة نصوح :

وأنت ترى من ذلك أن نفس أم المؤمنين الزكية كانت نفساً كريمة لوّامة متطهرة ، والندم توبة صادقة وأى توبة ، واللوم طهارة باطنة وأى طهارة . فقد توالت بعد معركة الجمل أحداث جسام كانت تستطيع أن تشارك فيها السيدة عائشة ضد الإمام علىّ ، ولكنها لم تفعل.وهذا ما يؤيدنى فى دحض ما اتهمت به من عداوة أكيدة للإمام على بسبب شهادته فى حديث الإفك .

وقد رأيت ما كان من طلحة والزبير ، فقد بايع طلحة مرة أخرى قبل موته وقال لأحد جنود الإمام أبْلِغْه أنى مُبايِعه ، وانسحب الزبير من المعركة قبل أن يقع القتال قائلا لأمير المؤمنين : لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر ، والله لو ذكرتها ما خرجت . ومن هنا أجمع العلماء على توبة الثلاثة فى رشد ورجوع للحق .

رأى العلامة العقاد :

ومع أن العلامة أنصف أم المؤمنين رضى الله عنها فى آخر بحثه إلا أنه فى بداية البحث خطّأ الإمام فى مشورته فى حديث الإفك وخطّأ أم المؤمنين فى خصومتها للإمام وربط بين هذه الخصومة وقصة الإفك ، فقال فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » :

« فعلىٌّ قد أخطأه التوفيق فى نصيحته ، وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة .

وإنك لتعجب معى من أن يربط العلامة العقاد بين مشورة الإمام وموقف أم المؤمنين منه كما فعل غيره ، مع أن ما انتهى إليه رحمه الله يكاد يتفق مع وجهة نظرى ويباعد بين الأمرين ، وإليك ما انتهى إليه ، فى ذلك الكتاب بعد قوله المتقدم :

« ولكننا إذا ذكرنا هذا ، كان علينا أن نذكر معه أنها ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها :

« ليتنى ميتّ قبل يوم الجمل ، وكانت تقول : لَيَيْتَ كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل ، وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها . ثم أضاف يقول فى صدق رحمه الله :

« وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق علىّ رضى الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعضَ مَنْ بايعوه ، وقالت عنه مرة : إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

« وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة :

« حدة فى الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعلىّ ، وسعىٌ حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

« وإنها مع هذا أقدمت على مورد مُشْتَبِهٍ لا يتضح الشرُّ فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدَتْ أن الأمرَ لا يفضى إلى قتال ، وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه ، وهو حادث لابدّ له من عبرة ، وأن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل » .

الباب الثانى عشر

آل النبي وأهل البيت

أهل البيت :

قال تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . وجاء هذا القول الكريم فى معرض خطاب الله تعالى لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ .

وقد اختلفوا فى تحديد المراد بأهل البيت ، فجاء فى تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه :

يُراد به نساؤه ، وقيل يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ، وقال عطاء وعكرمة وابن عباس هم زوجاته بخاصة لارجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . وقال الكلبي : « هم عليّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة » ، وفى هذا أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقوله تعالى : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) . بالميم ، ولو كان للنساء خاصة

لكان (عنكن) و (يطهركن) إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل ، قال تعالى :

(أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

وأضاف الإمام القرطبى قائلا :

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال : (ويطهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وحسَناً وحُسَيْناً كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام ، فكيف صار فى الوسط كلاماً منفصلا لغيرهن ، وإنما جرى فى الأخبار أن النبى عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية دعا علياً وفاطمة الحسن والحسين ، فعمد النبى صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفها عليهم ، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ، فهذه دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية أحَب أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبىّ ومن وافقه فصيرها لهم خاصة ولا اعتداد بقول الكلبى وأشباهه .

وأضاف الإمام القرطبى كذلك :

أما إن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فدخل معهم تحت كساء خيبْرى وقال : « هؤلاء أهل بيتى » وقرأ الآية وقال : « اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : « أنتِ على مكانك وأنتِ على خير » أخرجه الترمذى وغيره ، وقال القشيرى : وقالت أم سلمة : أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : نعم وقال الثعلبى هم بنو هاشم فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب ، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم .

وجاء فى تفسير « روح المعانى » الإمام الألوسى رضى الله عنه :

أخرج ابن سعد عن عروة : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قال : يعنى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج المطهرات باعتبار الإضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بيت واحد ، وجمعه فيما سبق أو لحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهرات اللاتى كن متعددات ، وجمعه فى قوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلاّ أن يؤذن لكم) دفعاً لتوهم إرادة بيت النسب لو أفْرِد من حيث إن سبب النزول أمر واقع فيه ، وأورد ضمير جمع المذكر فى (عنكم) و (يطهركم) رعاية للفظ الأهل ، والعرب كثيراً ما يستعملون صيغ المذكر فى مثل ذلك رعاية للفظ ، ومنه على ماقيل قوله تعالى: (قَال لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نارًا) ، خطاباً من موسى عليه السلام لامرأته ، ولعل اعتبار التذكير هنا أدخل فى التعظيم ، وقيل المراد هو صلى الله عليه وسلم ونساؤه المطهرات رضى الله عنهن ، وضمير جمع المذكر لتغليبه عليه الصلاة والسلام عليهن ، وقيل المراد بالبيت بيت النسب ولذا أفرد ولم يجمع كما فى السابق واللاحق ، فقد أخرج الحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى معـًا فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم :

« إن الله تعالى قسّم الخلق قسمين فجعلنى من خيرهما قسماً ، فذلك قوله تعالى : (وأَصْحَابُ اليَمينِ) ، (وأَصْحَابُ الشِّمالِ) فأَنا من أَصحاب اليمين وأَنا خير أَصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرهم ثلثًا فذلك قوله تعالى : (وأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ * وأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ * والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) ، فأَنا من السابقين وأَنا خير السابقين ، ثم جعل الأَثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ، وأَنا أَتْقى ولد آدم وأَكرمهم على الله تعالى ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتًا فذلك قوله تعالى : (إِنَّما يُرِيدُ

الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)، وأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب » .

يقول الإمام الألوسى : فإن المتبادر من البيت الذى هو قسم من القبيلة البيت النَّسَبِى ، واختلف فى المراد بأهله فذهب الثعلبى إلى أن المراد بهم جميع بنى هاشم ذكورهم وإناثهم ، أراد مؤمنى بنى هاشم ، وهذا المراد بالآل عند الحنفية ، وقال بعض الشافعية المراد بهم آله صلى الله عليه وسلم مطلقًا ، وأسرة الرجل على ما فى القاموس رهطه أى قومه وقبيلته الأَدْنون ، وقال فى موضع آخر : صار أهل البيت متعارفًا فى آله عليه الصلاة والسلام ، وصح عن زيد بن أرقم فى حديث أخرجه مسلم أنه قيل له : من أهل بيته ؟ نساؤه صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا — أيْمُ الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حُرِموا الصدقة بعده صلى الله عليه وسلم .

وفى آخر أخرجه هو أيضًا مبين هؤلاء الذين حُرِموا الصدقة أنه قال : هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس .

الدعاء لأهل الكساء :

وساق الإمام الألوسى حديث أم سلمة السابق الذى رواه الترمذى ، وقال بعده : وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء وقال : « اللهم أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ثلاث مرات .

وفى بعض آخر أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساء فَدَكِيًّا (١)

---

(١) نسبة إلى فدك بفتحتين بلدة بينها وبين المدينة يومان بالإبل ، وهى مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم وضع يده عليهم ثم قال : « اللهم إن هؤلاء أهل بيتى ، وفى لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

وجاء فى رواية أخرجها الطبرانى عن أم سلمة أنها قالت : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه صلى الله عليه وسلم من يدى وقال : « إنك على خير » ، وفى رواية أخرى رواها ابن مردويه عنها قالت : ألست من أهل البيت؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنك إلى خير ، إنك من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم » .

بيت السكنى والأهل :

ويقول الإمام الألوسى كذلك رحمه الله :

وقال بعض المحققين : المراد بالبيت بيت السكنى وأهله على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها والأخبار التى لا تحصى كثرة ، ولا دلالة فى حديث الكساء على الحصر ، ولا فى الحديث الحسن أنه صلى الله عليه وسلم اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال : « يا رب هذا عمىّ وصنْو أبى وهؤلاء أهل بيتى فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتى هذه » ، فأمّنتْ أُسْكُفّة(١) الباب وحوائط البيت فقالت آمين ثلاثًا .

الملحقون بأهل الكساء :

وأضاف الإمام الألوسى يقول :

وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضمّ إلى أهل الكساء — على وفاطمة والحسنين رضى الله تعالى عنهم — بناته وأقاربه وأزواجه ، وصح عن أم سلمة فى بعض آخر أنها قالت : فقلت يا رسول الله : أما أنا من أهل البيت ؟ فقال : « بلى إن شاء الله تعالى » ، وفى بعض آخر أيضًا أنها قالت له صلى الله عليه وسلم : ألستُ من أهلك ؟ قال : « بلى » ، وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها

---
(١) أسكفة الباب أى عتبته .

الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم ، وقد تكرر — كما أشار إليه المحب الطبرى — منه صلى الله عليه وسلم الجمع وقول هؤلاء أهل بيتى والدعاء فى بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضى الله تعالى عنهما وغيرهما ، وبه جمع بين اختلاف الروايات فى هيئة الاجتماع ، وما جلل صلى الله عليه وسلم به المجتمعين وما دعا به لهم ، وما أجاب به أم سلمة وعدم إدخالها فى بعض المرات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلا بل لظهور أنها منهم حيث كانت من الأزواج اللاتى يقتضى سياق الآية وسباقها دخولهن فيهم بخلاف من أدخلوا تحته رضى الله تعالى عنهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لولم يدخلهم ويقل ما قال لتوهم عدم دخولهم فى الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك ، وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات المختلفة الحمل على أن النزول كان مرتين ، وقد أدخل صلى الله عليه وسلم بعض من لم يكن بينه وبينه قرابة سببية ولا نسبية فى أهل البيت توسعاً وتشبيهاً كسلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « سلمان منا أهل البيت » وجاء فى رواية صحيحة أن واثلة قال : وأنا من أهلك يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « وأنت من أهلى » فكان واثلة يقول : إنها لمن أرجى ما أرجو .

ثانى الثقلين :

ويضيف الإمام الألوسى قائلا :

ما روى عن زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه من نفى كون أزواجه صلى الله عليه وسلم أهل بيته وكون أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده عليه الصلاة والسلام ، فالمراد بأهل البيت الذين جعلهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثانى الثقلين ، لا أهل البيت بالمعنى الأعم المراد فى الآية .

ويشهد لهذا ما فى صحيح مسلم عن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً ، رأيتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وسمعتَ حديثه وغزوتَ معه وصليت خلفه ، لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً ، حدّثنا يا زيد بما

سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا ابن أخى : والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حدثتكم فاقبلوا ومالا تُكلفونيه ، ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى « خُما » بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال :

« أما بعد ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأُجيب ، وإنى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال « وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثاً ، فقال له حصين : ومَنْ أهلُ بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته مَنْ حُرِم الصدقة بعده ، قال : ومن هم : قال : هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس » الحديث ، فإن الاستدراك بعد جعله النساء من أهل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر فى أن الغرض بيان المراد بأهل البيت فى الحديث الذى حدث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهم فيه ثانى الثقلين ، فلأهل البيت إطلاقان يدخل فى أحدهما النساء ولا يدخلن فى الآخر ، وبهذا يحصل الجمع بين هذا الخبر والخبر السابق المتضمن نفيه رضى الله تعالى عنه كون النساء من أهل البيت .

وقال بعضهم إن ظاهر تعليله نفى كون النساء أهل البيت بقوله : أيم الله إن المرأة تكونُ مع الرجل العصْرَ من الدهر ثم يُطلقها فترجع إلى أبيها وقومها يقتضى ألا يكُنّ من أهل البيت مطلقاً ، فلعله أراد بقوله فى الخبر السابق نساؤه من أهل بيته ؟ أنساؤه بهمزة الاستفهام الإنكارى ، فيكون بمعنى ليس نساؤ من أهل بيته كما فى معظم الروايات فى غير صحيح مسلم ، ويكون رضى الله عنه ممن يرى أن نساءه عليه الصلاة والسلام لسْنَ من أهل البيت أصلاً ولا يلزمنا أن ندين الله تعالى برأيه لا سيما وظاهر الآية معنا وكذا العرف .

أهل القرابة والنسبة القوية :

وخلص الإمام الألوسى رضى الله عنه إلى قوله :

« والذى يظهر لى أن المراد بأهل البيت من لهم مزيد علاقة به صلى الله عليه وسلم ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام ، بحيث لا يقبح عرفًا اجتماعهم وسكناهم معه صلى الله عليه وسلم فى بيت واحد ويدخل فى ذلك أزواجه ، والأربعة أهل الكساء وعلى كرم الله تعالى وجهه مع ماله من القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نشأ فى بيته وحجره عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه ، وعامله كولده صغيراً ، وصاهره وآخاه كبيراً ، والإرادة على المعنى الحقيقى المستتبع للفعل .

« والآية لا تقوم دليلا على عصمة أهل بيته صلى الله عليه وسلم الموجودين حين نزولها وغيرهم ، ولا على حفظهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنة ، لأن المعنى حسب ما ينساق إليه الذهن ويقتضيه موقع التعليل للنهى والأمر نهاكم الله تعالى وأمركم ، لأنه عز وجل يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس (الذنوب) عنكم وتطهيركم ، وفى ذلك غاية المصلحة لكم ، ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود إليكم وهو على معنى الشرط ، أى يريد بنهيكم وأمركم ليذهب الرجس ويُطهركم إن انتهيتم وائتمرتم . والمراد بالرجس الذنب وبإذهابه إزالة مباديه بتهذيب النفس .

« وكأنّ مآل الإذهاب : التَّخْلية ، ومآل التطهير : التَّحْلية ، والآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم إن ينتهوا عما ينهى عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يُذهب عنهم لا محالة مبادئ ما يستهجن ويُحلّيهم أجلّ تحلية بما يستحسن ، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم وتَرَتُّب الآثار الجميلة عليها قطعًا ، ويكون هذا خصوصية لهم ومَزِية على من عداهم من حيث إن أولئك الأغيار (١) إذا انتهوا وأتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك .

---

(١) غيرهم .

أهل البيت وعبادة الله :

« ولذا نجد عبادة أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم فى العبادة الظاهرة وأحسن أخلاقاً وأزكى نفساً ، وإليهم تنتهى سلاسلُ الطرائق التى مبناها ، كما لا يخفى على سالكيها ، التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القُدْس ، والوقوف على أوكار الأُنس ، حتى ذهب قوم إلى أن القطب فى كل عصر لا يكون إلا منهم ، خلافاً للأستاذ أبى العباس المرسى حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التاج ابن عطاء الله إلى أنه قد يكون من غيرهم .

« والذى يغلب على ظنّى أن القطب قد يكون من غيرهم ، لكن قطب الأقطاب لا يكون إلا منهم لأنهم أزكى الناس أصلا وأوفرهم فضلا » .

وأنت ترى مما نقلتُه لك من كلام الإمام الألوسى أنه قال قوله فى الموضوع وأبدع فيما قال وفصّل ، ولكنى أتفق مع أهل السنة فى أن السادة آل البيت محفوظون من الكبائر بعناية من الله تعالى ، فقد فطرهم على حبه وحب طاعته ، والناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، ويقول سيدى بن عطاء : إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب إليك وهو تعالى فعال لما يريد وقد قال سبحانه (إنما يريد . . .) وإنما أداة حصر ، وقد قال سيدنا يوسف عليه السلام : (وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى) وقد اختص الله برحمته آل البيت ، والله يختص برحمته من يشاء ، ولا يتنافى ذلك مع جهادهم أنفسهم فى التخلية التى تعقبها التحلية لأنهم ممن قال تعالى فيهم : (يحبهم ويحبونه) .

الشيخ الأكبر وآل البيت :

وفى هذه المناسبة أمتع القارئ الكريم بروائع من كلام سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين فى الباب التاسع والعشرين من كتاب الفتوحات فى شأن سادتنا آل البيت ، فقد قال عفا الله عنه :

لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً محضاً ، قد طهره الله وأهل بيته تطهيراً ، وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم ، فإن الرجس هو القذ عند

العرب ، هكـــذا حكى الفراء ، قال تعالى : (إنمـــا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فهذه الآية تدل على أن الله قد أشرك أهل البيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ، وأى وسخ وقذر أقذر من الذنوب وأوسخ، فطهر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالمغفرة ، فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسى ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سلمان منا أهل البيت» إلى يوم القيامة فى حكم هذه الآية من الغفران، فهم المطهرون اختصاصًا من الله وعناية بهم ، لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا فى الدار الآخرة ، فإنهم يحشرون مغفوراً لهم ، وأما فى الدنيا فمن أتى منهم حدًّا أقيم عليه كالتائب إذا بَلَغ الحاكم أمرُه وقد زنى أو سرق أقيم عليه الحد مع تحقق المغفرة ولا يجوز ذمه؛ وينبغى لكل مؤمن بالله وبما أنزله أن يصدق الله تعالى فى قوله: (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فيعتقد فى جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه ، فلا ينبغى لمسلم أن يلحق المذمة بهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى رضى الله عنه فى حب آل البيت :

أرى حبَّ أهلِ البيت عندى فريضة   على رغم أهلِ البُعْدِ يورثنى القُربا
فما اختار خيرُ الخلقِ منا جزاءه   على هدْيِهِ إلاّ المودة فى القربى

ويقول رضى الله عنه فى الباب ٦٩ من الفتوحات المكية عند كلامه على كيفية الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم التى بيَّنها صلى الله عليه وسلم لأصحابه بقوله قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أى مثل صلاتك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » .

« واعلم أن آل الرجل فى لغة العرب هُمْ خاصته الأقربون إليه ، وخاصة الأنبياء وآلهم هم الصالحون العلماء بالله المؤمنون ، وقد علمنا أن إبراهيم — عليه

الصلاة والسلام — كان من آله أنبياء ورسل لله ، ومرتبة النبوة والرسالة قد ارتفعت في الشاهد في الدنيا ، فلا يكون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته نبيّ يشرّع الله له خلاف شرع محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول . . . فخفيت مرتبة النبوة في الخلق بانقطاع التشريع ، ومعلوم أن آل إبراهيم من النبيين والرسل الذين كانوا بعده مثل إسحق ويعقوب ويوسف ، ومن انتسل فيهم من الأنبياء والرسل بالشرائع الظاهرة الدالة على أن لهم مرتبة النبوة عند الله ، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق أمته وهم آله العلماء الصالحون منهم بمرتبة النبوّة عند الله وإن لم يشرعوا ولكن أبقى لهم من شرعه ضرباً من التشريع فقال؛ قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمّد أى صل عليه من حيث ماله آل كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، أى من حيث أعطيت آل إبراهيم النبوّة تشريفاً لإبراهيم ، فظهرت نبوّتهم بالتشريع ، وقد قضيت ألاّ شرعَ بعدى ، فصل عليّ وعلى آلى بأن تجعل لهم مرتبة النبوّة عندك وإن لم يشرعوا ، فكان من كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ألحق آله بالأنبياء فى المرتبة ، وزاد على إبراهيم بأنّ شَرْعَه لا ينسخ ، وبعضُ شَرْع إبراهيم ومن بعده نسخت الشرائع بعضها بعضاً ، وما علّمنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه على هذه الصورة إلاّ بوحى من الله وبما أراه الله ، وأن الدعوة فى ذلك[١] مجابة ، فقطعنا أن فى هذه الأمة من لحقت درجتُه درجةَ الأنبياء فى النبوة عند الله إلا فى التشريع ، ولهذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكد بقوله : « فلا رسول بعدى ولا نبى » فأكد بالرسالة من أجل التشريع ، فأكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء ، كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم . ثم خصّ هذه الأمة أعنى علماءها بأن شرّع لهم الاجتهاد فى الأحكام وقرر حكم ما أداه إليه اجتهادهم وتعبّدهم به وتعبد من قلدهم به ، كما كان حكم الشرائع للأنبياء ومقلّديهم ، ولم يكن مثل هذا لأمة نبيّ مالم يكن نبيّ بوحى مُنَزّل ، فجعل الله وحى علماء هذه الأمة فى اجتهادهم كما قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ فالمجتهد ما حَكَم إلاّ بما أراه الله فى اجتهاده ، فهذه نفحات من نفحات التشريع

---

(١) أى طلب المؤمنين من الله أن يصلى على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبه الله .

ما هو عينُ[(١)] التشريع ، فلآلِ محمد وهم المؤمنون من أمته العلماء مرتبةُ النبوّة عند الله تظهر فى الآخرة وما لها حكم فى الدنيا إلاّ هذا القدر من الاجتهاد المشروع لهم ، فلم يجتهدوا فى الدين والأحكام إلاّ بأمر مشروع من عند الله .

الجمع بين الأهل والآل :

وأضاف رضى الله عنه يقول :

« وإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذه المثابة من العلم والاجتهاد ، ولهم هذه المرتبة كالحسن والحسين وجعفر وغيرهم من أهل البيت ، فقد جمعوا بين الأهل والآل ، فلا تتخيل أن آل محمد صلى الله عليه وسلم هم أهل بيته خاصة ، ليس هذا عند العرب فإن الآل لا يضاف بهذه الصفة إلاّ لكبير القدر فى الدنيا والآخرة ، ولذلك قيل لنا : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم أى من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانهما خاصة دون المجموع ، فهى صلاة من حيث المجموع ، وذكرنا إبراهيم عليه السلام لأنه تقدم بالزمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت أنه سيد الناس يوم القيامة ، ومن كان بهذه المثابة عند الله كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم من حيث أعيانهما ، فلم يبق إلاّ ماذكرناه [(٢)] ، وهذه المسألة هى عن واقعة من وقائعنا فلله الحمد والمنة » .

ومن ذلك ترى أن الشيخ الأكبر أدخل بإلهامه الغزير وفتحه الفياض فى آل البيت العلماء الربانيين الذين آتاهم الله رحمةً وعلماً ، ولا حرج على فضل الله ، فإنه لا مانع لما أعطى ولا مُعطى لِمَا مَنَع ، غير أننا رأينا فيما سبق أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق سلمان الفارسى رضى الله عنه بأهل البيت بنص خاص . وكذلك أدخل واثلة بنص خاص فى أهل البيت ، والمشاهد فى واقع الأمر أن أهل البيت من الحسنيين والحسينيين على الخصوص هم أئمة أهل العلم

(١) أى أن المجتهدين فى الأمة المحمدية إنما يجتهدون فى إطار الشريعة المحمدية ولا يأتون بشرع جديد لأن مصدر اجتهادهم الكتاب والسنة .

(٢) أى صل على سيدنا محمد من حيث ماله آل لا من حيث شخصه كما صليت على إبراهيم وآله كما سبق أن بين ذلك رضى الله عنه .

والعمل فى كل قرن ، وقد سادوا المؤمنين بطيب عنصرهم وطهارة نفوسهم وسخائهم وعظم جهادهم فى سبيل الله عز وجل بالنفس والمال وزُهدهم الفطرى فى زخرف الدنيا وطرحها من قلوبهم ، فهم كما يصفهم العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى فى قصيدته المسماة « الحلواء فى مدح بنى الزهراء » .

بنفسى أَفدى الزهر من بَضعة الزهرا ... وإن هُم رضوا نفسى فقد عَظُمت قَدْرا
هم الدينُ والدنيا لعمرى هُمُو هُمُو ... فقل فيهمو ماشئت لاتَرْهَبَنْ نُكْرا
وعالِ بهم مَنْ شئت إن ذَكُروا العُلا ... وفاخر بهم مَنْ شئت إن ذكروا الفخرا
بدورٌ سمت عن شمسٍ أكرم مُرْسَلٍ ... أناروا دياجى الكوْنِ بالطلعة الغَرّا
وبالحلم والنَّدَى وبالبر والتّقوى ... وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى
ليَهْنِ بنيه المجد نُظِّم هكذا ... نبيٌّ الهدى فاطرب وحَيْدَرٌ والزهرا
بنفسىَ أهلُ البيت من مثلهم عَلاَ ... وهم فى عيون المجد نورٌ قد افترّا
ومَنْذَا يُدانى أَو يُقارب بضعةً ... لهم تنتهى العلياءُ والرتبة الكبرى
محبتهم بابُ الرضا ورضاهمو ... يُسام بأَرواح المحبِّين لو يُشرى
فيا من يُواليهم ويحفظُ ودَّهم ... ويُكرمُ مثواهم هنيئًا لك البشرى
فلا بد يوَم العرض تسمع قائلا ... تفَضَّل تَفضَّل فادخل الجنّة الخَضْرَا

رأى الفخر الرازى :

ويقول الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه فى تفسيره ما يأتى :

« فى قوله تعالى: (إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهركم تطهيراً) يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تَنْفَعْن الله فيما تأتين به وإنما نفعه لَكُنَّ ، وفيه لطيفة وهى أن الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى : (ليذهب عنكم الرجس) أى يزيل عنكم الذنوب ، ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ، وأضاف : ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكَّرين (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم ، واختلفت

الأقوال فى أهل البيت ، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلىّ لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى صلى الله عليه وسلم وملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم » . أقول وهو كلام بديع كما ترى .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الشورى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجرًا إِلَّا المَوَدَّة فِى القُربَى ومن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نزِدْ لَهُ فيها حُسْناً إنَّ الله غَفُورٌ شَكُورٌ) .

قال الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه : نقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يُزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السُنّة والجماعة ، ألا ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بُغْض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة ، ثم أضاف الإمام الرازي يقول :

« وأنا أقول : آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل .

« وأيضاً اختلف الناس فى الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل ، فثبت أن جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل »

فمختلف فيه ، وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يارسول الله مَنْ قرابتُك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم، فقال على وفاطمة وابناهما ؛ فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه :

« الأول : قوله تعالى (إلاّ المودة فى القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق .

« الثانى : لاشك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام ، قال صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة منى يُريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها » وثبت بالنقل المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب عليًّا والحسن والحسين ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله تعالى :

(واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) . ولقوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَو يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ) ولقوله تعالى : (قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكم الله) . ولقوله تعالى : (لقدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) .

« الثالث : أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قول المصلى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل..

« فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب — وقال سيدى الإمام الشافعى رضى الله عنه :

يا راكبًا قِفْ بالمحصب من منًى — واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى — فيضًا كما نظم الفراتُ الفائض
إن كان رفْضًا حبُّ آلِ محمد — فليشهد الثقلان أنى رافضى

كما قال رضى الله عنه :

يا آل بيت رسول الله حُبُّكمو — فرضٌ من الله فى القرآن أنزلهُ
يكفيكمو من عظيم القدر أنكمو — من لم يُصَلِّ عليكم لاصلاة لهُ

« وقوله تعالى : (إلا المودة فى القربى) فيه منصب عظيم للصحابة ، لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فكل من أطاع الله كان مُقَرَّبًا عند الله تعالى فدخل تحت قوله : (إلا المودة فى القربى) . والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلاّ على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العِتْرة والصحابة (١) (أما مذهب الشيعة فخارج عما ذهب إليه أهل السنة والجماعة) .

« وسمعت بعض المُذَكِّرين قال إنه صلى الله عليه وسلم قال : " مثلُ أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا " وقال صلى الله عليه وسلم : " أصحابى كالنجوم بأيهم اقْتَدَيْتم اهتديتم " ونحن الآن فى بحر التكليف وتَضْرِبُنا أمواج الشبهات والشهوات ، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين :

« أحدهما : السفينة الخالية عن العيوب والثقب ،

« الثانى : الكواكب الظاهرة والطالعة النيرة ، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبًا ، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة ، فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى (إلا المودة فى القربى) جُعِلوا مكانًا للمودة ومقرًّا لها ، كقولك : لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله ، وقوله تعالى : (إن الله غفور شكور) الشكور فى حقه تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين فى إيصال الثواب إليهم وفى أن يزيد عليه أنواعًا كثيرة من التفضيل ، ألا رضى الله عن إمامنا الفخر الرازى وعن علماء الأمة الأعلام .

من إلهام شيخى :

ويرضى الله عن شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل إذ قال فى سادتنا

---

(١) ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه فى هذا المعنى :

ألا إننى فى حب آل محمد   من الشيعة العليا ولكننى سنى
طبعت على حب الصحابة كلهم   كآل رسول الله من مبتدا سنى

آل البيت رضوان الله عليهم فى إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه عندما طلب إليه أحد الحاضرين أن يأتى بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته (١) :

بنفس أفدى الزهر من بَضْعة الزهرا وإن همْ رضُوا نفسى فقد عَظُمت قدْرا

فقال توًّا طيب الله ثراه :

بنفس أفدى الزهر من بضعة الزهرا بهم نِلْتُ كلَّ الخير دُنْياى والأخرى
لقد غرسونى من زهور رياضهم فطابت حياتى من مكارمهم زهرا
إذا قيل لى تهواهمو قلتُ مِلْكهم ووقف يمين لا يُباع ولا يُشْرى
إذا عَشِيَتْ (٢) عينى فَطَىٌّ جوانحى عيونٌ تُرينى سرَّ أنوا هم جَهْرا
تساموا على كل الأنام فضائلا وقد بيَن القرآنُ أوصافَهم طُهْرا
وعَيَّنا من القرآن سورة هل أتى صفا سعيُهم لله واستوجب الشكرا
فلو أن جود العالمين أقيسه على جودهم يومًا لما مثَّل العشرا
جداول من بحر النبيِّ محمد فما مثلها تلقى جداول أو بحرا
فإن كان ذنبى أنَّ قلبى يُحِبهم فإن ذنوبى لن تلم بها حصرا
وما أحسن الدنيا على صدق ودهم وما أحسن الأخرى لتابعهم ذُخْرا
وها أنا مشتاق إليهم وسائر على حبهم أنفقت سعيى والعمرا
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى ولى لذةٌ فى مدحهم تُثْلج الصدرا
إذا نظرونى زال من قلبىَ الأسى وإن منحونى عشت أغترِف الخيرا
على بابهم أسمو سُمُوَّ أُولى النهى فإن همْ رضوا نفسى فقد عَظُمت قدرا

وقد طلب إليه آخر أن يُخَمِّس له البيت الآتى :

هات النجوم أصغ بها أبياتى إن المقام سما عن الكلمات

فقال توًّا فى روعة ظاهرة :

آل النبى تزايدت لوعاتى لا تحرمونى الوصل قبل مماتى
ياطالبًا وصفى لهم بالذات هات النجوم أصُغ بها أبياتى
إن المقام سما عن الكلمات

(١) يريد بهذا الطلب اختبار الإلهام الفورى الذى اشتهر به الشيخ من عطاء ربه لأوليائه ، ولى رسالة مطبوعة عنه رضى الله عنه بعنوان : شاعر الأولياء .

(٢) كان رضى الله عنه كفيف البصر .

تحية الشاعر الصديق :

وقد كنت طلبت من الصديق الوفىّ الراحل المرحوم الأستاذ محمد جاد الرب أن يمدنى بشيء من شعره الرقيق لأضمنه كتابى « أم المؤمنين — السيدة خديجة الكبرى » وكان عفا الله عنه شاعراً مطبوعاً ، فقدم لى رباعية أثبتها فى ذلك الكتاب ومنها :

على الأعتاب يا آل النبيّ ... وقفنا بين أيديكم نحيّ
نحيّى بالصلاة على الصفىّ ... محمد . النبيّ الهاشمى

على الزهراء أم النيّرين ... على السبطين قرة كل عين
حبيبىّ روحنا : حسنٍ حسين ... على الأب فى معاليه علىّ

بكم وبزينب طرّزت شعرى ... بكل سُلالة البيت الأغر
وقفت عليكم شعرى ونثرى ... فياحظّ الفواصل والرّوِى

لقد باركتم الأقطارَ طُرا ... بمكة أو بطيبة أو بمصرا
مقامكم بها قد طاب نَشْرا ... فطاب الكون بالعـَرْفِ الشّذى

على أبوابكم باباً فباباً ... أناديكم وأنتظر الجوابا
لأدخل بالرضا تلك الرحابا ... فإنّ رضاءكم شِبَعى ورِيِّ

نشأت وعشت محسوباً عليهم ... وسوف أموت منسوباً إليهم
فَصَلِّ عليهمو ربّى وسلّم ... وأسْعِدْنى بِقُرْبٍ سرمدىّ

الباب الثالث عشر

الصحابة الكرام

الصحابة الكرام هم صفوة الأمة المحمدية، وهم أوائل الذين آمنوا على يديه صلى الله عليه وسلم ، ونصروا دعوته بأموالهم وأنفسهم ، وهم الذين تلقوا عنه أحكام شرْعِه ، وحفظوا أحاديثه الشريفة ، وهم الذين أفتوا فيما استجد من مسائل الفقه ، وهم الذين شَرفُوا بصحبته وقيادته وتربيته ، وهم الذين ائتلفوا تحت رايته فلم يختلفوا ، وهم الذين فتحوا الفتوحات الإسلامية من بعده فكانوا عُدَّة النصر فى حياته وعدة الفتح من بعده ، فلهم على كل مسلم فضل، ولهم على الإسلام اليد الطولى ، واقرأ إن شئت قوله تعالى فى سورة الأنفال :

(هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِين * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يٰأَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ، ولذلك رأيتُ أن أمتع القارئ الكريم بذكراهم العاطرة .

تعريف الصحابى :

المعروف من طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه ، قال الإمام البخارى فى صحيحه : من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيّب أنه لا يعد الصحابىَّ إلاّ من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين .

ولا شك أن شرف صحبته صلى الله عليه وسلم شرف عظيم ، وقد خوّلهم

هذا الشرف أن يكونوا خير قرن فى قرون الأمة المحمدية ، وفى الحديث الشريف : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » . ومع أن الصحابة الكرام نالوا شرف الصحبة النبوية بصفة عامة ، إلا أن السابقين الأولين منهم نالوا أشرفها بصفة خاصة ، فكانوا أفضل الصحابة وأفضل الأمة على الإطلاق .

السابقون الأولون :

وقد خلد القرآن الكريم السابقين الأولين بفضلهم فقال تعالى فى سورة التوبة : ﴿والسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ من الْمُهاجِرِينَ والأَنصارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ وأَعدَّ لهُمْ جَنَّاتٍ تجرى تَحْتَها الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم ﴾ .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه : هم الذين صلّوا إلى القبلتين من المهاجرين والأنصار فى قول سعيد بن المسيب وطائفة ، وفى قول أصحاب الشافعى هم الذين شهدوا بيعة الرضوان وهى بيعة الحديبية وقاله الشعبى . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر ، واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من الأولين من غير خلاف بينهم .

أفضل الصحابة :

وقال أبو منصور البغدادى التميمى : أصحابنا مُجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة [1] ، ثم البَدْريون ، ثم أصحاب أُحُد ، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية

أبو بكر أول المؤمنين إسلاما :

أما أولهم إسلامًا فروى مجاهد عن الشعبىّ قال : سألت ابن عباس مَنْ أول الناس إسلامًا ؟ قال : أبو بكر ، أوما سمعتَ قولَ حسّان :

---

(١) الستة بعد الخلفاء الراشدين الأربعة هم سادتنا طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وسعيد ابن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبوعبيدة بن الجراح رضى الله عنهم ، فإذا ضم إليهم سادتنا الخلفاء الأربعة بلغ العدد عشرة .

إذا تذكرتَ شجْواً مِنْ أخى ثقةٍ فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خـير البريَّة أتقاها وأعـدلها بَعْدَ النبيّ وأوفاها بما حملا
الثـانى التالى المحمود مشهـده وأول الناس منهم صدّق الرسلا

وكان إسحق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلى يقول : أول من أسلم من الرجال « أبو بكر » ، ومن النساء « خديجة » ، ومن الصبيان « علىّ » ، ومن الموالى « زيد بن حارثة » ، ومن العبيد « بلال » . وقال الليث بن سعد : حدثنى أبو الأَسْوَد قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين وروى أن عليًّا أسلم ابن سبع سنين وقيل ابن عشر .

بين التفضيل والمساواة :

وقال ابن خويز منداد : تضمنت الآية المذكورة آنفًا (والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ ...) تفضيل السابقين إلى كل مَنْقَبَة من مناقب الشريعة فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك فى العطاء فى المال والرتبة فى الإكرام ، واختلف العلماء فى تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يُفَضِل بين الناس فى العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة ، فكان عمر رضى الله عنه يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : إنما عملوا لله وأجرهم عليه ، وكان عمر يُفَضِّل فى خلافته ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقن أسفل الناس بأعلاهم ، فمات من ليلته .

بين أمير المؤمنين عمر وزيد بن ثابت وأبىّ بن كعب :

ويستطرد الإمام القرطبى قائلا :

وقرأ عمر (والأنصارُ) فراجعه زيد بن ثابت ، فسأل عمر أُبَيَّ بن كعب فصدَّق زيدًا ، فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلَّا أنَّا (يقصد المهاجرين) رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد ، فقال أبىّ : مصداق ذلك فى كتاب الله فى

أول سورة الجمعة : (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) . وفى سورة الحشر : (والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ) . وفى سورة الأنفال : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) .

الاتباع بالإحسان :

ويبن تعالى بقوله (بإحسان) ما يتَّبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات ، إذ لم يكونوا معصومين رضى الله عنهم . واختلف العلماء فى التابعين ومراتبهم ، فقال الخطيب الحافظ : التابعى من صحب الصحابى ويقال للواحد منهم تابع وتابعى ، وكلام الحاكم أبى عبد الله وغيره مُشْعِر بأنه يكفى فيه أن يسمع من الصحابى أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية .

وقد قيل إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحديبية ، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم [١] من مسلمة الفتح ، لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخالد : « دَعُوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أُحُدٍ [٢] ذهبًا ما بلغ مُدَّ [٣] أحدهم ولا نصيفه [٤] » .

كبار التابعين :

وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة وهم :
سعيد بن المُسَيَّب ، والقاسم بن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ، فقيل له : فعلقمة والأسود ؟ فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وقال أيضًا رضى الله عنه : كان عطاء مفتى مكة والحسن مفتى البصرة .

---

(١) قاربهم فى زمن إسلامهم . (٢) أحد جبل بالمدينة .
(٣) كيل وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ، وهو ملء اليدين ويوازى بالكيل المصرى ثلث قدح .
(٤) نصيفه أى نصفه .

وروى عن أبي بكر بن أبي داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن وثالثتهما – وليست كهما – أم الدرداء .

وفي التابعين طبقة تسمى « بالمخضرمين » وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم ، وأحدهم مُخَضْرَم (بفتح الراء) كأنه خضرم أي قُطِع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة .

أين نحن من السابقين :

ويضيف الإمام القرطبي قائلا :

وكفانا نحن قوله عز وجل : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وَدِدْتُ أَنَّا قد رَأَينا إخواننا[2]. . . » الحديث ، فجعلنا إخوانه إن اتقينا الله واقتفينا آثاره ، حشرنا الله في زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله .

الصادقون والمفلحون :

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ . قال الإمام القرطبي ، أي مع الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم ، وقيل هم المهاجرون لقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة [3] : إن الله سمانا

---

(١) أي عدولا .

(٢) والحديث بتمامه أثبته الإمام القرطبي في تفسير سورة الحشر هكذا :
وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة فقال :
« السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا : يا رسول الله ، ألسنا بإخوانك ؟ فقال : بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض » فبين صلى الله عليه وسلم أن إخوانهم كل من يأتي بعدهم ، والفرط هو الساقي فما أهنأنا بسقياه صلى الله عليه وسلم .

(٣) يوم انتخابه خليفة .

الصادقين ؛ فقال تعالى فى سورة الحشر : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) . ثم سمّاكم بالمفلحين فقال تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1] .

ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه :

والمهاجرون هنا : (أى فى الآية السابقة) من هاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم حبًّا فيه ونصرة له . قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبًّا لله ولرسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يَعْصِب الحجر على بطنه ليُقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحفيرة [٢] فى الشتاء ماله دثار[٣] غيرها . وروى أن أمير المؤمنين عمر خطب بالجابية [٤] فقال : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبىّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض (المواريث) فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله تعالى جعلنى له خازنًا وقاسمًا ، ألاَ وإنِىّ بادئٌ بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم فمُعْطيهن ، ثم المهاجرين الأوّلين أنا وأصحابى أُخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا .

ولا خلاف أن الذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها ، والمعنى أنهم لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما والتبوء هو التمكن .

---

(١) سورة الحشر أيضاً .

(٢) الحفرة التى تحفر فى الأرض .

(٣) غطاء .

(٤) بلدة قرب دمشق .

الأنصار يؤثرون على أنفسهم :

وكان المهاجرون ينزلون فى دور الأنصار ، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بَنِي النَّضِير ، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين فى إنزالهم إياهم فى منازلهم وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال : « إن أحببتم قسمت ما أفاء الله على من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم ؛ فقال سعد بن عبادة (رئيس الخزرج) وسعد بن معاذ (رئيس الأوس) : بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رَضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم ارحم الأنصار وأبناءَ الأنصار » .

أقول : ولا عجب أن يصف الله الأنصار بالإيثار فى قوله تعالى : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما : أُهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : إن أخى فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منّا ، فبعثه إليهم ، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات[1] حتى رجعت إلى أولئك فنزلت (ويؤثرون على أنفسهم)

سيدتنا عائشة والإيثار :

والإيثار هو تقديم الغير على النفس رغبة فى أجر الآخرة، وينشأ من قوة اليقين ، وتقدير أخوة الإسلام ، والمحبة فى الله تعالى . وفى مُوَطَّأ الإمام مالك أنه بلغه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن مسكيناً سألها وهى صائمة وليس فى بيتها إلاّ رغيف ، فقالت لمو ة (خادمة) لها : أعطيه إياه ، فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيه إياه ، قالت ففعلت ، قالت : فلما أمسينا

---

(١) بيوت .

أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدى لنا شاة وكفنها[١] فدعتنى عائشة فقالت : كلى من هذا ، فهو خير من قرصك . فكانت أم المؤمنين عائشة ممن أثنى الله عليهم بالإيثار على النفس مع ماهم فيه من الحاجة .

أبو عبيدة والإيثار :

وكان الإيثار دأب كثير من سادتنا الصحابة لحرصهم على مرضاة الله فى عباده الفقراء ، وفيما رواه ابن المبارك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها ، فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية : اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها .

معاذ والإيثار :

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل وقال : اذهب بهذه إلى معاذ بن جبل ، وتلكأ فى البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع ، فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك فقال : رحمه الله وصله ، وقال : يا جارية : اذهبى إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا ، فاطلعت امرأة معاذ فقالت : ونحن والله مساكين فأعطنا ، ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها ، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك وقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض .

ولا غرابة أن نرى تلك المكارم عند السادة الصحابة ، فقد سعدوا بعشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرصوا على التأسى به فى الأقوال والأفعال والأحوال ونصروا دعوته بأنفسهم وأموالهم ، فكانوا أئمة الهدى ، وقادة السالكين ، ومصابيح النور فى سبيل الرشاد ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

---

(١) كانوا يلفون الشاة المذبوحة بعجين القمح ، فإذا شويت انساب دهنها إلى لفافة العجين المسماة بالكفن وكان ذلك من طيب الطعام عندهم .

الإيثار فى الاحتضار :

وقال حذيفة العدوى : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شىء من الماء وأنا أقول : إن كان به رمق [١] سقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه آه ، فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك ؟ فأشار أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه آه ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .

السادة الصوفية والإيثار :

أقول : وقد قرأت فيما قرأت أن ابن بشّار الفقيه جاء إلى الإمام أبى بكر الشبلى (تلميذ الإمام الجنيد رضى الله عنهما) وقال له : كَمْ فى خمس من الإبل ؟ فسكت الشبلى ، فكرر ابن بشار سؤاله ، فقال الشبلى : تُريد زكاتهمَا ؟ قال : نعم ، قال : فى واجب الشرع شاة ، وفيما ينبغى لأمثالنا كلها ، قال ابن بشار : ألك فى ذلك إمام ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، خرج عن كل ماله فى سبيل الله ، ولما سأله صلى الله وسلم : وما الذى أبقيتَ لعيالك ؟ ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فذهب ابن بشار إلى الفقهاء مُتغير الوجه وقال لهم : ذهب الصوفية بالخيرِ كله ، وأضعنا عمرنا فى المجادلات .

وقال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : ما غلبنى أحد ما غلبنى شابٌّ من أهل بَلْخ قدم علينا حاجًّا فقال لى : يا أبا يزيد : ما حَدُّ الزهد عندكم ؟ فقلت : إن وجدنا أكلنا ، وإن فقدنا صبرنا ، قال : هكذا كلاب بلخ عندنا ، فقلت : وما حد الزهد عندكم ؟ قال إن فقدنا شكرنا ، وإن وجدنا آثرنا .

بين الإيثار والإمساك :

هذا ويتعرض الإمام القرطبى لموضوع الإيثار فيقول رضى الله عنه :

وردت أخبار صحيحة فى النهى عن التصدق بجميع ما يملكه المرء ، فإن

---

(١) الرمق : بقية الروح .

اعترض بهذه الأخبار على الإيثار فإننا نقول له : إنما كُره ذلك فى حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر ، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه ، فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم فلم يكونوا بهذه الصفة ، بل كانوا كما قال الله تعالى .

(والصَّابِرِينَ فِى البَأْسَاءِ والضَّراءِ وحِينَ البَأْسِ) . وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك ، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار .

الجود بالأرواح :

على أن جود الصحابة لم يقف عند بذل الأموال فحسب ، بل كانوا يجودون بأرواحهم إرضاء لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم حتى نزل فيهم قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (مِنَ الْمُؤْمنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْه فَمنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْديلًا * لِيَجْزِىَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحيمًا) . والنحب معناه النذر ، وقيل معناه الموت .

ومن أمثلة جودهم بأرواحهم ما رواه البخارى ومسلم والترمذى عن أنس قال :

قال عمى أنس بن النضر — سُمِّيت به — ولم يشهد بدْراً مع رسول الله صلى عليه وسلم فَكَبُرَ(١) عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع ، قال ، فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : واهًا (٢) لريح الجنة ، أجدها دون أحد ، فقاتل حتى

---

(١) أى عزعلى نفسه غيابه عن غزوة بدر .

(٢) إذا تعجبت من شىء طيب قلت واها له ما أطيبه .

قُتِلَ ، فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت عمتى الرُّبَيِّع بنت النضر : ما عرفت أخى إلا ببنانه ، ونزلت هذه الآية (من المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ . . .) الآية لفظ الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقالت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها فى قوله تعالى (مِنَ المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه . . .) الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ، فقال النبى صلى الله عليه عليه وسلم « أَوْجَبَ طلحة الجنة » . وفى الصحيح أن أبا طلحة تَتَرَّسَ على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتطلع ليرى القوم فيقول أبو طلحة لا تُشْرِفْ يا رسول الله ، لا يصيبونك ، نحري[1] دون نحرك ، ووَقى بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم فَشُلَّتْ .

يقين الصحابة بالله :

وإن أردت أن تعرف كيف كان يقين السادة الصحابة عند لقاءِ الأعداءِ فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً) . واعجب للثناءِ قبل البلاءِ ، وللصبر فى موطن الجزع ، وللأمن فى موضع الخوف ، وللثبات فى محل الاضطراب ، وللصدق عند البأساءِ ، ولقد أصاب من قال فيهم : كانوا عُبَّادًا بالليل وأسودًا بالنهار .

وذلك الذى يشيرون إليه ووعدهم الله ورسوله به يكشف عنه قوله تعالى فى سورة البقرة : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ولمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِين آمَنُوا

---

(١) أى أموت دفاعاً عنك لأفديك .

مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنةُ بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » ، وكذلك قوله تعالى فى سورة الحج : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) . وقوله تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) . وكذلك قوله تعالى فى سورة الحج : (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) . وفى ذلك القول الكريم تزكية ربَّانية لسادتنا الصحابة فى نصرهم لدين الله باتباع شرعه ، ووعد بنصرهم على الأعداء ، وهو ما يفسر لك كيف ازدادوا بوعد الله إيماناً مع إيمانهم وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة آل عمران فى وصفهم بعد واقعة أحد : (يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب[١] أصحابه للخروج فى طلب جيش أبى سفيان وقال : « لا يَخْرُجَنَّ معنا إلاّ مَنْ حضر يومنا بالأمس » ، وذلك حين بلغه صلى الله عليه وسلم أنه هم بالرجوع إلى المدينة بعد أن بلغ الروحاء بعد موقعة أحد ، وهى على ثمانية أميال من المدينة وكان بأصحاب الرسول القَرْح (الجروح) فتحاملوا على أنفسهم وهم جرحى حتى لا يفوتهم أجر الجهاد ، وبلغوا حمراء[٢] الأسد ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانصرفوا . وفى غزوة

---

(١) أى دعاهم للخروج .

(٢) موضع خارج المدينة المنورة .

الأحزاب (الخندق) كتب الله النصر للمؤمنين . وهل يخزى الله حبيبه ومصطفاه فى أصحابه ؟ وهل يتخلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمؤمنين رءوف رحيم عن نصرة أصحابه بنفسه وبدعائه .

الاستنجاد بالله تعالى :

فقد شاركهم صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق ، وعمل فيه بنفسه حتى غطى بطنه التراب ، ولما اشتد الأمر على المسلمين ، وطال المقام فى الخندق ، قام عليه الصلاة والسلام على التل الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى وتوقع ما وعده الله من النصر ودعا ربه فقال :

« يا صريخ [١] المكروبين ، ويامجيب المضطرين ، اكشف همّى وغمّى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى » ، فنزل جبريل عليه السلام وقال: « إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك » : فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : « شكراً شكراً كما رحمتنى ورحمت أصحابى » وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحًا ، فبشر أصحابه بذلك ، فأقبلت ريحٌ شديدة فيها حصباء [٢] فما تركت لهم ناراً إلاّ أطفأتها ، ولا بناء إلاّ طرحته . وجعلوا يتترّسون من الحصباء . وتفرقت الأحزاب .

عبرة :

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف يُجيب الله المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، فَقَلِّدْ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، واسْتَغِثْ ربّك فى مواطن شدّتك ، موقناً أنه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليكن شعار المؤمنُ : « لا إله إلّا هو عليه توكلت » ، وهو الشعار الذى أوصى به الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ)

---

(١) الصريخ هو المغيث . (٢) الحصباء هى الحصى .

وشعار جماعة المؤمنين : (حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الْوَكيلُ) .

وقد قلت فى مقال لى نشرته مجلة منبر الإسلام الغراء بعنوان « الصوفية فى إلهامهم » بعددها الصادر فى أول الحجة ١٣٩٠ ﻫ :

« والمتوكلون على الله فى أمورهم فى ثقة واطمئنان ، يكفيهم الله ما أهمهم وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ويعيدها .

واستشهدت فى مقالى المذكور بشعر لأستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل من إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه ومنه :

مَدُّ اليدين إليك أفضل شِرْعَة ... ولغير وجهك لا يصح سؤالى
إن مرَّ بى عَصْفُ الزمان وقصفه ... والله لست بما شهدت أبالى
أأحبَّه وأخاف سطوةَ غيره ... هذا وحقك لا تعيه خصالى
روض المحبة قد شهدت جمالَه ... وجلالَه فَثَبَتُّ فى أحوالى

أشداء رحماء :

وفى حين كان السادة الصحابة أشدَّاء على الكفار كانوا رُحماء بينهم ، يُعاون قويهم ضعيفهم ، ويعطف غنيهم على فقيرهم ، ويُعلِّم عالمهم جاهلهم ، فأثبتَ الله لهم وَصْفَىْ الشدة والرحمة فى قوله تعالى فى سورة الفتح : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِين مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاة وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وعمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً). والآية تفيد شدة مراسهم فى جهاد الأعداء، وقوة عزمهم فى جهاد أنفسهم بكثرة الصلاة (تراهم ركعاً سجدًا)، لأن الصلاة أفضل العبادات بعد توحيد الله، وهى عُدَّةٌ قوية من عُدَدِ النصر على الأعداءِ: (ولَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ الله لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)، وكان ابن مسعود رضى الله عنه يفضل صلاة النفل على صيام النفل، وكان يقول الصلاة أَحَبُّ إلَىَّ، وقد أثبت الله للسادة الصحابة حرصهم على قيام الليل فى قوله تعالى فى سورة المزمل: (إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَىِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ)، وقد أمروا أنفسهم بالمعروف قبل أن يأمروا غيرهم عملا بمبدأ: ابدأ بنفسك، فاستقاموا رضى الله عنهم على الطريقة، وأشرق عليهم نور الحقيقة، وكانوا جنود الله فأمدهم الله بجنوده.

صاحب الغار:

وإن شئت أن تتطلع إلى صورة سيدنا أبى بكر الصديق وهو كبيرهم، ومفخرتنا ومفخرتهم، فتدبّر قوله تعالى فى سورة التوبة: (إلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أَخْرجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِىَ اثْنَيْنِ إذْ هُما فِى الغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لم تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حكِيمٌ). وقد قال الإمام الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبى بكر الصديق. وقال الإمام سفيان بن عُيينة خرج أبو بكر من المعاتبة[1] بهذه الآية. وقال العلماء من أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله

(١) أى معاتبتهم على التخلف عن نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لأنه أنكر نص القرآن ، ومعنى (إن الله معنا) ، أى بالنصر والرعاية والحفظ والكلاءة .

وقال سيدنا عمر يوم السقيفة وهم يتشاورون فى اختيار الخليفة : من له مثل هذه الثلاث : ثانى اثنين ، إذْ هُمَا ، إن الله معنا — مَنْ هُمَا ؟ ثم بسط يده فبايع أبا بكر وبايعه الناس بيعة حسنة جميلة ، ولهذا قال بعض العلماء فى قوله تعالى (ثَانِيَ اثنين إذْ هما فى الغار) ما يدل على أن الخليفة بعد النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ، لأن الخليفة لا يكون أبداً إلا ثانياً . والقادح فى خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه . والذى يقطع به من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة فضل الصديق رضى الله عنه على جميع الصحابة ، ويجب أن تؤمن بذلك القلوب والأفئدة ، ويقول الإمام القرطبى فى هذا المقام : ولا مبالاة بأقوال أهل الشيع ولا أهل البِدَع . ثم بعد الصديق عمر الفاروق رضى الله عنه ثم بعده عثمان رضى الله عنه ، فقد روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما : كنا نُخَيِّرُ بين الناس فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فَنُخَيِّرُ أبا بكر ثم عمر ثم عثمان . واختلف أئمة أهل السلف فى عثمان وعلىٍّ فالجمهور منهم على تفضيل عثمان ، وروى عن الإمام مالك أنه توقف فى ذلك ، وروى عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور ، يقول القرطبى : وهو الأصح إن شاء الله .

أقول : وستأتيك بعد قليل شهادة الصدق التى شهد بها إمامنا علىٌّ للصدّيق والفاروق عليهما الرضوان ، ولا محل إذن لتشيع الجاهلين بعد أن شهد الإمام نفسه بفضلهما وسبقهما . وأنكر كرم الله وجهه على من يعاديهما ، وقال صراحة : « والذى خلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلاّ مؤمن ، ولا يبغضهما ويخالفهما إلاّ شقى مارق . فحبهما قُربة ، وبغضهما مُروق » ونعوذ بالله من الجهل والجاهلين .

ولا يفوتنى فى مناسبة قوله تعالى (ثانى اثنين) أن أنبه إلى أنّ هذا الوصف الجميل لازَمَ سيدّنا أبا بكر رضى الله عنه فى غير الهجرة ، فهو ثانى اثنين فى الإيمان ، وثانى اثنين فى الغار ، وفى الهجرة ، وثانى اثنين فى حكم الأمة المحمدية

(بعد الرسول صلى الله عليه وسلم) ، وثانى اثنين فى إمارة الحج [١] ، وثانى اثنين فى الروضة النبوية الشريفة ، فهو أول من دفن إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسعيد من أسعده الله .

وقد ميّز السادة الصحابة الدنيا من الآخرة بما أراهم الله فى قوله الكريم فى سورة الشورى : (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ، وجاء فى تفسير الآية أنها نزلت فى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه حين أنفق جميع ماله فى سبيل الله فلامه الناس .

كما نزل فيه رضى الله عنه قوله فى سورة الشورى أيضًا : (وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) . وقال الإمام على كرم الله وجهه : اجتمع لأبى بكر مال مرة ، فتصدّق به كله فى سبيل الخير ، فلامه المسلمون وخطّأه الكافرون فنزل قوله تعالى : (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .) إلى قوله تعالى : (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرونَ) . وقال ابن عباس : شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يَرد عليه شيئًا فنزلت الآية . يقول الإمام القرطبى : وهذه من محاسن الأخلاق ، يشفقون على ظالمهم ويحلمون على من جهل عليهم ، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه لقوله تعالى : (والْكاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ الناسِ) .

وتأمل قوله تعالى بعد ذلك فى سادتنا الأنصار : (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ومِمَّا رَزَقْنَاهمْ يُنْفِقُونَ) .

قال عبد الرحمن بن زيد : هم الأنصار بالمدينة . استجابوا إلى الإيمان بالرسول

---

(١) فتحت مكة فى السنة الثامنة من الهجرة وولى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابى الجليل عتاب بن أسيد أميراً عليها وولاه فى تلك السنة إمارة الحج ، وفى السنة التاسعة ولى على إمارة الحج سيدنا أبا بكر فحج بالناس . وفى السنة العاشرة حج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع .

حين أنفذ إليهم اثنى عشر نقيباً منهم قبل الهجرة ، فقد أقاموا الصلاة لأوقاتها ، كانوا يتشاورون فى أمورهم ويتفقون ولا يختلفون . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الآراء المتعلقة بمصالح الحروب (ولم يكن يشاورهم فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله) . وأول ما تشاور فيه الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة التى انتهت الشورى فيها إلى استخلاف أبى بكر رضى الله عنه ، وتشاوروا بعدها فى أهل الردة الذين حاربهم أبو بكر رضى الله عنه . وحق للسادة الصحابة أن يتشاوروا . فقد سَنّ لهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الشورى وهو أعقل العقلاء . وهو الذى قال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام الترمذى رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

« إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سُمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بُخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

ونعوذ بالله من سوء الحال والمآل .

الخلف بعد السلف :

ويقول الله تعالى فى سورة الحشر بعد الآيتين الخاصتين بسادتنا المهاجرين والأنصار : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) يعنى التابعين ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة. وجاء فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه : قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والأنصار ، والذين جاءوا من بعدهم فاجهد ألاّ تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم : كن شمساً ، فإن لم تستطع فكن قمراً ، فإن لم تستطع فكن كوكباً مضيئاً ، فإن لم تستطع فكن كوكباً صغيراً ، ومن جهة النور لا تنقطع . ومعنى هذا كن مهاجراً فإن قلتَ : لا أجد ، فكن أنصاريًّا ، فإن لم تجد فاعمل كأعمالهم . فإن لم تستطع فأحبهم واستغفرلهم كما أمرك الله (أى فى الآية

السابقة) . وروى مصعب بن سعد قال : الناس على ثلاث منازل فمضت منزلتان[١] وبقيت منزلة ، فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت .

فقه الإمام زين العابدين فى حب الصحابة :

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده على بن الحسين (زين العابدين) رضى الله عنه أنه جاءه رجل فقال له : يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقول فى عثمان ؟ فقال له : يا أخى أنت من قوم قال الله فيهم (للفقراء المهاجرين) قال : لا ، قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم (والذين تَبَوَّأوا الدارَ والإيمانَ . . .) قال : لا ، قال : فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام وهى قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . . . .) .

وقد روى محمد بن بن الحسين رضى الله عنهم . عن أبيه أن نفراً من أهل العراق جاءوا إليه فسبُّوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم عثمان رضى الله عنه فأكثروا فقال لهم : أمِنَ المهاجرين الأَوَّلين أنتم ؟ قالوا : لا ، فقال : أفَمِنَ الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ؟ فقالوا : لا ، فقال قد تبرأتم من هذين الفريقين ، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عزوجل فيهم : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) قوموا ، فَعَلَ اللهُ بكم وفعلَ .

فقه إمامنا على :

ولا تستغرب ذلك منه ، فقد جاء فى كتاب « الفاروق القائد » للواء الركن محمود شيت خطَّاب أن رجلا من قريش قال لإمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين نسمعك تقول فى الخطبة آنفًا : اللهم أصلحنا بما أصلحت الخلفاءَ الراشدين المهتدين فَمَنْ هم ؟ فاغرورقت عيناه ثم أهملهما[٢] فقال : هم حبيباى

---

(١) وهم الصحابة من مهاجرين وأنصار ، والمنزلة الباقية هم الذين جاءوا من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة .

(٢) أى فاضت عيناه بالبكاء .

وعمَّاك أبو بكر وعمر ، إمَامَا الهدى وشيْخا الإسلام ورجلا قريش والمُقْتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدى إلى صراط مستقيم ، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله وحزب الله هم المفلحون . وقال علىّ : إن الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهم من الولاة إلى يوم القيامة ، سبَقَا والله سبْقًا بعيداً، وأتْعَبا مَنْ بعدهما إتعابًا شديداً ، وقال وهو على المنبر : والذى خلق الحبة وبرأ النسمة لايحبهما إلا مؤمن فاضل، ولا يبغضهما و يخالفهما إلاّ شقىّ مارق ، فحبهما قُرْبة، وبغْضُهما مروق، ما بال أقوام يذكرون أخوَىْ رسول الله ووزيرْيه وصاحبيْه وسيِّدَىْ قريش وأبوَىْ المسلمين ، فأنا برىء ممن يذكرهما بسوء وعليه معاقب .

فقه الإمام مالك :

ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تفسيره :

هذه الآية (والذين جاءوا من بعدهم . . .) دليل على وجوب محبة الصحابة ، لأنه جعل لِمَنْ بعدهم حَظًّا فى الفىء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، وأنّ مَنْ سبّهم أو واحداً منهم أو اعتقد فيه شرًّا أنه لاحقّ له فى الفىء ، روى ذلك عن مالك وغيره . قال الإمام مالك : من كان يبغض أحداً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان فى قلبه عليهم غل ، فليس له حق فىْء المسلمين ، ثم قرأ (والذين جاءوا من بعدهم . . . .) الآية .

الاستغفار للصحابة :

وفى الآية أمر بالاستغفار للسابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : أمر الله بالاستغفار لأصحاب محمد وهو يعلم أنهم سَيُفْتنون . وقالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : أمِرْتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم ، سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول : لاتَذْهب هذه الأمة حتى يلعنَ آخرُها أولَها .

وقال ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا رأيتم الذين

يسبون أصحابى فقولوا : لعن الله أشركم .

وقال العوام بن حوشب : أدركت صدر هذه الأمة يقولون : اذكروا محاسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر فتجسروا الناس عليهم .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه :

« روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقرأ مالك هذه الآية : (مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) . . . حتى بلغ (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) ، فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية .

وعقب الإمام القرطبى قائلا :

لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله ، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه فى رواية فقد رد على الله رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين ، قال تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعه ... الآية)، وقال (لقد رَضِيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يُبَايِعُونَكَ تحت الشجرة . . . .)الآية، وقال(رِجَالٌ صَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه . . . .) الآية ، وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالتهم ومآلهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خيرُ الناس قَرْنِى ثم الذين يَلُونَهُم» وقال: «لاتسبُّوا أصحابى فلو أن أحدَكم أنفق مثل أحد ذهبًا لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولانَصيفه» خرَّجهما البخارى ، والنصيف هو النصف . وفى البزار عن جابر مرفوعًا صحيحًا « إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين ، واختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا — فجعلهم أصحابى » . وروى عويم بن ساعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله عز وجل اختارنى واختار لى أصحابًا فجعل لى منهم وزراء وأختانًا[1] وأصهاراً فمن سبّهم فعليه

---

(١) أزواج بناته صلى الله عليه وسلم .

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا — الصرف التوبة والعدل الفدية —» ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة فحذارِ من الوقوع فى أحد منهم .

واستطرد الإمام القرطبي رضى الله عنه قائلا : وعن عمر بن حبيب قال :

حضرتُ مجلس هارون الرشيد ، فتَجَرَتْ مسألة تنازعها الحُضور وعلت أصواتهم ، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم : لا يقبل هذا الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنَّ أبا هريرة مُتهم فيما يرويه ، وصرَّحوا بتكذيبه ، ورأيتُ الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيحُ النقل صَدُوق فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره ، فنظر إليَّ الرشيد نظر مُغْضب ، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلى ، فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب ، فدخل فقال لى : أجِبْ أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنط وتكفن ، فقلت : اللهم إنك تعلم أنى دفعت عن صاحب نبيك ، وأجللتُ نبيَّك أن يُطْعَنَ على أصحابه فسلّمنى منه .

فأُدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسى من ذهب ، حاسرٌ عن ذراعيه ، بيدِه السيف ، وبين يديه النَّطَع[1] فلما بصر بى قال : يا عمر بن حبيب : ما تلقَّانى أحد من الرد والدفع لقولى بمثل ما تلقيتنى به ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنَّ الذى قلتَه وجادلْتَ عنه فيه ازدراء عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعَلَى ما جاء به ، إذا كان أصحابه كَذَّابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول ، فرجع إلى نَفْسِهِ ثُمَّ قال : أحْيَيْتنى يا عمر بن حبيب أحياك الله ، وأمر لى بعشرة آلاف درهم :

وأضاف الإمام القرطبي يقول :

فالصحابة كلهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخِيرَتهُ من

(١) النطع بساط من جلد (بفتح النون وسكون الطاء أو فتحها) .

خـلقه بعد أنبيائه ورسله ، هذا هو مذهب أهل السنة والذى عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة ، وأن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلىّ وطلحة والزبير وغيرهم رضى الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى : (مغفرة وأجراً عظيماً) ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مُسْقِط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد ، وكل مجتهد مُصيب .

وفى تفسير سورة الحجرات قال الإمام القرطبى رضى الله عنه فى هذا المقام :

لايجوز أن يُنْسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عزوجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم وألاّ نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ، ولنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن سبّهم ، وإن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم . هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة على النبى صلى الله عليه وسلم . إن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً . وما صح وانتشر من إخبار علىّ بأنّ قاتلَ الزبير فى النار وقوله : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بَشِّر قاتلَ ابن صفية بالنار ، وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال .

... وقد سئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم . فقال : (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ولا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . وسئل بعضهم عنها أيضًا ، فقال : تلك دماء طَهَّرَ الله منها يدِى فلا أخَضِّب بها لسانى . وقد سئل الحسن البصرى عن قتالهم فقال : قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وغِبْنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتَّبعنا ، واختلفوا فوقفنا قال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسنَ ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا . ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عندما اختلفوا

فيه ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عزوجل ، إذ كانوا غير متهمين فى الدين .

أقول وقد وضحت للقارئ العزيز فى الباب الحادى عشر تاريخ معركة الجمل وبينت موقف كل من سادتنا طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ، وهو موقف التوبة الصادقة ، والرجوع إلى الحق دون التمادى فى الباطل ، وإنى أسلم كل التسليم بعدالتهم وعدالة الصحابة الكرام . وأربأ بنفسى أن أتعرض بالسوء لواحد من هؤلاء الثلاثة ، الذين حكموا على أنفسهم بأنفسهم بالندم والاستغفار ، فانسحب الزبير قبل أن تبدأ المعركة حين ذكره الإمام بما قاله يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنّك ستقاتله وأنت ظالم له » وجدد البيعةَ للإمامِ طلحةُ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة شهيداً فى ذمة الله ، وتمنت أم المؤمنين رضى الله عنها أن لو كانت ماتت قبل يوم الجمل بعشرين عاماً ، كما كانت تبكى حتى تبل خمارها .

وليس لنا بعد موقفهم من أنفسهم الرَّجّاعة إلى الحق أن نخوض فى أعراضهم ، بل علينا أن نقدر لهم رجوعهم للحق بعد ما تبين لهم وأن نسترضى الله عنهم .

بين عمرو بن العاص وبينى :

وفى هذه المناسبة أقول إنى حين قرأت تا يخ الإسلام ، دخل فى نفسى شىء كثير من موقف عمرو بن العاص من إمامنا علىّ فى معارك صفّين ، وتمنّيت ، وهو فاتح الشام ومصر ، أن لو كان موقفه غير ما كان، فرأيت فى المنام قائلا يقول لى : إنّ الله قابَلَ عمرو بن العاص بأتم رحمة . ولما قمت من نومى استغفرت الله وسألته تعالى أنْ يجنبنا الخوض فى أعراض الصحابة العدول ، وأخص منهم السابقين الأولين ، لِمَا لهم علينا من سبق فى الدين وجهاد فى سبيل الله . ولعل عمرو بن العاص قَبِلَ الله توْبته حين تاب إلى ربه وهو فى آخر عمره ؛ فقال : اللهمَّ أَمَرْتَ فَعَصَيْنَا ، وَنَهَيْتَ فَارْتَكَبْنَا ، اللهم لا بَرِيءٌ فأعتذر ، ولا قوى فأَنتصر ، ولكن لا إله إلَّا الله . يقول ابن عباس فجعل يُرَدِّدُها حتى فاض .

وأهل السنة على حق فى قولهم : إن الصحابة كلهم عدول ، لأنّ الحكم للغالب ، ومَنْ جانب الحقّ منهم قلة عضّدوا معاوية ، والقلة لا تغير من وصف الصحابة بأنهم عدول ككل ، ومن حاد منهم عن الحق فالملامة على نفسه لا على الباحث عن الحق وأهله لوجه الله تعالى دون تعصب ، لأن إقرار الباطل باطل لا يرضاه الله ، وتربية الناشئين على الحق خير من تزييف الباطل وإلباسه ثوب الحق تحت ستار الاجتهاد ، ومِنْ شَرْطِ الاجتهاد ألاّ يكون فيه هوى النفس الأمّارة بالسوء ، كتصرفات معاوية التى غلبه فيها هواه الشخصى لنفسه ولابنه يزيد وذريته من بعده ، حتى قال فيه القائل بحق :

فانظر رعاك الله فى أقوالــه ... وابحث هداك الله عــن أفعالــه
ترى الخداع والنفاق والكــذب ... مع الفجور والــرياء واللعـــب
وقتل[1] عمار وما عمـــار مَنْ ... قـــال فيـــه السيـــد المختـــار
ما فى الصحيحين أتى واشتهـــرا ... وعده السيـــوطى تـــواتـــرا
فالبغى حـــكم قاتليه قطعـــا ... واللعن حـــكم البغى ذاك شَرْعـًا
قصدت منها النصـــح لا سواه ... نصحـًا صحيحـًا ظاهـــراً هداه

رأيى فى معاوية :

لذلك لا أستطيع أن أقر موقف معاوية من الإمام على ، بعد أن خذله هواه الشخصى فخرج على الإمام بغير حق ، لأنه كان ملزمـًا وهو بالشام ببيعة الإمام التى بايعه بها أهل الرأى بالمدينة من المهاجرين والأنصار وأهل بدر ، وهم الذين بايعوا مَنْ قبله من الخلفاء الراشدين ورضى معاوية ببيعتهم .

---

(١) هو سيدنا عمار بن ياسر وكان النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ويح ابن سمية تقتله الفئة الباغية ، وقد قتلته فئة معاوية فى صفين .

ويلاحظ أن معاوية أسلم بعد فتح مكة ، وكان هو وأبوه من الطلقاء الذين أسرهم المسلمون وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الطلقاء أهلا للخلافة ، ولكنه خرج على الإمام على وانتزع الخلافة بعد حروب ذات كروب كما هو معروف ، ثم نبذ مبدأ الشورى وبايع بقوة السلطان لابنه يزيد الذى غزا المدينة وهدم الكعبة وقتل الإمام الحسين السبط وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم يكن يزيد أهلا لخلافة المسلمين ، بل كان مشهوراً بالفسق والمجون ولم يكن معاوية يجهل ذلك ولكن أعماه الهوى عن الحق .

وقد قلت قولى فى موقف معاوية فى كتابى « خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن على » وقد نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميه فى سنة **١٣٨٦** هـ ، ومما قلته فى مقدمة الكتاب موجهًا الكلام للإمام الحسن السبط رضى الله عنه :

« ولقد كان أبوك فى حربه بعد المسالمة مجتهداً ، وكنت أنت فى سلمك بعد الاستعداد للقتال مجتهداً ، وكان أخوك فى قتاله مكرهًا مجتهداً ، ذلك بأن مواقفكم كلها خلت من الأهواء النفسية والأغراض الدنيوية ، وكنتم تريدون خير الأمة وحفظ الدين الذى قام فى بيتكم ، فكان قيامه رحمة للعالمين .

« وعلى ضدكم كان خصومكم ، وإنى أقيم الشهادة لله ، فقد تلبَّسوا بهوى النفوس ، فجانبوا الحق ، وحادوا عن الصراط المستقيم ، ولئن كانت حرمة الصحابة واجبة على كل مسلم ، فحرمة آل البيت أوجب ، وبخاصة أن الحق كان على الدوام فى جانبهم ، كما كانوا هم على الدوام فى جانب الحق ، لاشبهة فى ذلك ، وتوضيح الواضحات من المشكلات كما يقولون .

« فإذا كانت قريش قد حاجت العرب والأمصار بالنبوة ، فبنو هاشم كانوا أولى من بنى أمية بالخلافة ، لا بالقرابة فحسب . ولكن بالسَّبق فى الإسلام والسبق فى الجهاد ، ذلك إلى العلم والورع ، وهو أمر لا يسبقهم فيه سابق ولايلحقهم لاحق ، باعتراف بنى أمية أنفسهم ، ولم ينل أمير المؤمنين عثمان الخلافة على أنه أموى بل نالها بسبْقه وجهاده وسخائه ، وهى سجايا شخصية له مَيَّزَتْهُ عن قومه من بنى أمية ، وحين كان عثمان فى السابقين الأولين وفى المهاجرين الهجرتين ، كان معاوية وأبوه من ألد أعداء الإسلام .

« . . . وما بال عمرو بن العاص يشاركه الخطيئة فى الخصومة التى قامت على الطلب بدم عثمان ، وكان عمرو من المحرّضين على عثمان حتى قال : كنتُ ألقى الراعى فأحرضه على عثمان ، وحين علم بقتل عثمان فرح وقال : أنا أبو عبد الله ما نكأت قرحة إلا أدميتها ، كما كان عمرو أول من أشار على عثمان باعتزال الخلافة ، وثار فى وجهه ، وقاطعه على ملأ من الناس وقال : اتق الله يا عثمان ، فقد ركبْتَ أموراً وركبناها معك ، فما تباكى عمرو على عثمان ؟

« وإذا كنّا مطالبين بحفظ حرمة الصحابة ، فمعاوية وأصحابه مطالبون بكف النفس عن الهوى قبل غيرهم من الأجيال التى تليهم ، حتى لقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حين نزل قوله تعالى : (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ومِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ) : ما كنتُ أحسب أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية ، ويقول العارفون تعقيباً على قوله هذا : فكان ابن مسعود فى هذا المقام فانياً عن الدنيا .

« وإذا كان خصومكم قد اتخذوا دَمَ عثمان رضى الله عنه تكئة لهم فى موقفهم من أبيك كرَّم الله وجهه ، فماذا صنعوا هم لقتلة عثمان حين صار لهم الملك والسلطان ؟ وما بالهم لم يقتصوا من الثوار ؟ وما بالهم غنموا ملك الدنيا ، وأرضوا ورثة عثمان بالفتات وببعض كلمات .

توبة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة :

« لقد خاصم أباك طلحة والزبير وعاونتهما أم المؤمنين عائشة ، رضوان الله عليهم ، ولكنهم رجعوا إلى الحق بعد أن تبين لهم . . . .

« أما معاوية فأبى من دونهم إلاّ كيداً ونفوراً ، وأعلنها حرباً شعواء ، صلى المسلمون بنارها فى صفين حتى كان التحكيم ، وقصة التحكيم كانت أخزى عَلَمَ اللهُ من قصة الحرب ، فاتفق أبو موسى مع عمرو على شىء ، وأعلنه أبو موسى فى براءة ونكث عمرو فى خديعة ، فخلع علياً كما خلعه أبو موسى ولم يخلع معاوية كما كان الاتفاق ، بل ثَبَّتَ معاوية بغير حق من كتاب أو سُنَّة .

« ولم يكن معاوية طالب خلافة ، ولو أنه حرص على قيام الخلافة لرأى أن أباك كان أحق بها وأهلها ، لكنه كان يهدف إلى مُلْك الأكاسرة والقياصرة ، وكان المجتمع قد فتن بزخرف الدنيا ، ولعبت الأموال والمناصب بأفئدة كثير من الناس ، وحين رأى الملك قد استوثق له ، ورّثه لابنه « يزيد » من بعده ، فخرج على مبدأ الشورى ، وهو من أقدس حقوق الأمة ، كما خرج عما اشترطتْهُ

أنتَ عليه فى شروط الصلح ، أما مستشاره عمرو فقد ورّثه معاوية مصر وخراجها كما شرط عليه عمرو حين وقف إلى جواره يؤازره .

« فكيف بالله أجارى من يقول إنّ معاوية كان مجتهداً ، وهل كان مجتهداً حين أمر ولاته أن يَسُبُّوا أباك وأهلَك على المنابر علانية على مسمع من الناس ، وأنتم الذين خلّدكم بفضلكم كتاب الله الكريم ، وفى ذلك السب إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أو كيف أجارى من يقول إنه كان مجتهداً وقد قتل حجر بن عدى بلا ذنب ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد المجاهدين فى الفتوحات الإسلامية ، كما قتل أصحاب حجر ، وكان معاوية يقول : ما قتلتُ أحداً إلا علمتُ فيم قتلته إلاّ حجراً فإنى لا أعلم فيم قتلته . . . .

« أو كيف أجارى من يقول إنه كان مجتهدًا ، وقد ألحق معاوية زيادًا بأبى سفيان ، وكان لزياد أب معلوم هو عبيد ، والله تعالى يقول : (ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) .

« أو كيف أجارى من يقول إنه كان مجتهداً وقد أخذ البيعة لابنه يزيد نابذاً الشورى وراء ظهره ، مع اشتهار يزيد بفسقه وفجوره ، وكان أخوك الإمام الحسين علماً خفّاقاً على ظهر الأرض يتمنى الناس إمامته ، ولم يكن معاوية يجهل أنّ استخلاف يزيد فيه خروج عن حدود الله ، وفيه خروج على شروط الصلح ، فقد عرض عليك معاوية أن يكون الأمر لك من بعده ، فأبيْتَ أنت إلاّ أن يكون الأمر شورى بين المسلمين .

« ولقد أراد معاوية أن يؤسس ملكًا خالداً على الزمن لبنى سفيان ، ولكن قدر الله أن يموت يزيد فى شبابه بعد أعوام أربعة من حكمه بل أقل ، ثم تحول الملك سريعًا إلى مروان وبنيه ، ولم يكن ذلك ليسر معاوية خاصة وأن مروان عارضه معارضة شديدة فى بيعة يزيد وقال له : فأقم الأمر يا ابن أبى سفيان واهدأ من تأميرك الصبيان ، واعلم أنّ لك فى قومك نظراً[1] ، وأنّ لهم على مناوأتك وزراً[2] ،

(١) النظر هو الند المماثل لمعاوية ممن هم أكبر سناً وتجربة من ابنه يزيد .

(٢) أى يستطيعون محاربتك .

« . . . وقد يسّر أمرى فى دراسة موقف معاوية بعض أهله من الأمويين المنصفين ، فقد أبطل بدعة السب على المنابر أمير المؤمنين الأموى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فكان عملهُ هذا شهادة ضد معاوية فى باطله .

« وحين تنازل معاوية الثانى بن يزيد عن الخلافة ، خطب خطبة زلزل بها دولة بنى أمية ومكّن لخلافة عبد الله بن الزبير ، فقد قال فى تلك الخطبة يكشف عن معاوية الأول ويزيد :

« أيها الناس إنّ جدّى معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته ، فصار فى قبره رهينًا بذنوبه ، وأسيراً بخطاياه ، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك وركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهينًا بذنوبه وأسيراً بجرمه ، وإنّ من أعظم الأمور علينا لسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عتْرةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرّب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم أمركم » .

« وتلك شهادة أخرى على معاوية الأول من حفيده ، فإن طعنوا فى شهادتنا نحن الآخرين فتلك شهادة أهله الأولين .

« أما عمرو بن العاص فقد عاون معاوية وعادى أهل البيت ، وشهد بنفسه على نفسه وهو يحتضر ، فندم على ما فرط منه ، فقد روى عنه ابن عباس رضى الله عنهما أنه حين احتضر قال : اللهم خُذْ منى حتى ترضى ، اللهم أمرتَ فعصينا ، ونهيت فركبنا ، فلا بَرِىء فأعتذر ولا قوى فأنتصر ولكن لا إله إلا الله ؛ يقول ابن عباس فجعل يرددها حتى فاض .

« وإنى أقول بعد أن سردت كارهًا لمعاوية وعمرو تلك المساوئ كما نقلها ثقات المؤرخين (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِين سَبَقُونا بالإيمان ولا تَجْعل فى قُلوبِنا غِلاًّ للذين آمنوا ربَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

وقد قلت في كتابي « المـُرَبّي » المطبوع بمطبعة الحلبي في سنة ١٩٤٧ في فضل سادتنا الصحابة ما نصه : وقد أخذ سادتنا الصحابة التربية العالية عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد غمرتهم أنواره غمراً ، فلانت قلوبـُهم بعد قسوتها ، وخشعت أرواحهم بعد جموحها ، وقد كان يجلس إليه صلى الله عليه وسلم البدوي الجلف فلا يقوم من مقامه حتى يصير ملكـًا رحيمـًا بعد أن كان شيطانـًا رجيمـًا ، وليس هذا بالعلم وحده ، بل بالتهذيب الروحيّ والنور القلبيّ فالعلم يبدد ظلمات الجهالة من العقل، والنور يـُبدد آفات القساوة من القلب (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ له نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ) .

« وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يذوقون من حلاوة القرآن ما لانذوق، وكانت تقشعر منه جلودهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، فما لنا لانحس بإحساسهم والقرآن لم يتغير ؟ الجواب عن ذلك ليس بعسير ، فالقلوب تغيـّرتْ ، والنفوس تكدرت ، والأرواح صدأت ، فصرنا نضحك حيث كانوا يبكون ، ونمزح حيث كانوا يجدّون ، وننام وكانوا قليلا من الليل ما يهجعون .

« أوليسوا هم الذين اغتربوا عن أوطانهم وأهليهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ؟ أوليس منهم الذين ضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت حين تابوا من تقصير وقع ؟ أوليسوا هم الموصوفين بالوصف الخالد (رُحماء بينهم تراهم ركعا سجـّداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود) ؟ أوليسوا هم الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ؟ فأين نحن من هذه الصفات وأمثالها ؟ » . .

بين التشيع وحب الصحابة :

هذا ويـُعجبني ما يقوله سيدي العارف بالله الشيخ أحمد الحلواني في الجمع بين حب السادة الصحابة والسادة آل البيت وهو مذهب أهل السنة :

ألاّ إنني في حـب آل محمـد   من الشيعة العليا ولكنني سُنّي
طبعت على حب الصحابة كلهم   كآل رسول الله من مـُبـْتدا سِنّي

الباب الرابع عشر

فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

الصلاة على الرسول فى الكتاب والسنة :

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : (إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . وقد جاء فى الحديث الشريف « من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً » كما جاء « أَوْلَى الناس بى يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » وجاء فى مسلم مرفوعًا « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صَلُّوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة صَلَّى الله عليه عشراً ، ثم سَلُوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تَنْبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلّت عليه الشفاعة » .

معنى الصلاة :

وقد سئل الإمام الغزالى رضى الله عنه : ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً ؟ وما معنى صلاة الله على من صلّى عليه ؟ وما معنى صلاتنا عليه ، وما معنى استدعائه من أمته الصلاة عليه ، أيرْتاح لذلك ؟ أم هو شفقة على الأمة ؟

فأجاب رضى الله عنه :

أما صلاة الله على نبيه وعلى المصلّين عليه فمعناه إفاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم ، وأما صلاتنا عليه وصلاة الملائكة فهو سؤال وابتهال فى طلب تلك الكرامات ورغبة فى إفاضتها عليه ، فتختص الصلاة بالأنبياء ، وطلب الترضّى [1] بالصحابة والأولياء والعلماء ، وطلب المغفرة والرحمة بالعوام .

وأما استدعاؤه الصلاة من أمته فلثلاثة أمور :

---

(١) أى بقولك عن أحد الصحابة أو الأولياء : رضى الله عنه .

الأمر الأول : أن الأدعية مؤثرة فى استدرار فضل الله ونعمته ورحمته لاسيما فى الجمع الكثير ، كالجمعة وعرفات والجماعات. فإن الهمم إذا اجتمعت وانصرفت إلى طلب مافى الإمكان وجوده على قرب ، كالمطر ورفع الوباء وغيره ، فاض مافى الإمكان من الفيض الحق بوسائط إلى روحانيات المترشحين لتدبير العالم الأسفل المقتضى لتقهرهم ، وإنما أثرت الهمم لما بين الأرواح البشرية والروحانية العالية فى المناسبة الذاتية فإن هذه الأرواح مجانسة لتلك الجواهر وإنما يقطع مجانستها التدنس بكدورات الشهوات ، ولذلك تكون همة القلوب الزكيّة الطاهرة أسرع تأثيراً ، وتكون فى حالة التضرع والابتهال أنجح، لأن حرقة التضرع تذيب كدورات الشهوات عن القلب فى الحال ، وتصفيه وتكشفه من الظلمة . ولذلك لايخطئ دعاء الجمع . ولايخلو الجمع من قلوب طاهرة تزيد التعاون تأثيراً . . . فإذا كانت الأدعية مؤثرة فى استجلاب موائد الفضل ، وكان ما وُعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحوض ومرتبة الشفاعة وغير ذلك من المقامات المحمودة غير محدود على وجه لا تتصور الزيادة فيها ، فاستمداده من الأدعية استزادة لتلك الكرامات .

الأمر الثانى : ارتياحه به كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنىّ أباهى بكم الأممَ » ، وكما لايبعد أن يطّلع النائم منا على الغيب من أحوال الموتى مع كوننا فى هذا العالم المظلم ، فلا يبعد أن تحصل للأرواح معرفة بمجارى أحوالنا مع أنهم فى عالم القُدْس والصفاء .

الأمر الثالث : الشفقة على الأمة. فحرضهم على ماهو حسنة فى حقهم وقربة لهم ، وإنما تضاعف الصلاة لأن الصلاة ليست حسنة واحدة بل حسنات ، إذ فيها تجديد الإيمان بالله أولا . ثم بالرسول ثانيًا ، ثم بتعظيمه ثالثًا ، ثم بالعناية بطلب الكرامة له رابعًا . ثم بتجديد الإيمان باليوم الآخر وأنواع الكرامات خامسًا ، ثم بذكر آله سادسًا . وعند ذكر الصالحين تتنزل الرحمات — ثم بتعظيم آله ونسبتهم إليه سابعًا ، ثم بإظهار المودة لهم ثامنًا — ولم يسأل صلى الله عليه وسلم من أمته إلاّ المودة فى القربى . ثم الابتهال والتضرّع فى الدعاء تاسعًا ، والدعاء مُخ العبادة ، ثم بالاعتراف عاشراً بأن الأمر كله لله ، وأن النبىّ وإن جل قدره فهو محتاج إلى رحمة الله عزوجل ، فهذه عشر حسنات سوى ما ورد الشرع به من أن الحسنة الواحدة بعشرة أمثالها وأن السيئة بمثلها فقط . وسر ذلك أن الجوهر

الإنسانى حنّان إلى ذلك العالم العلوى ، وهبوطه إلى العالم الجسمانى غريب فى طبعه ، والسيئة تُبَسْطِشُهُ عن الترقى إلى ذلك العالم على خلاف طبعه ، والحسنة ترقيه إلى موافقة الطبع ، والقوة التى تحرك الحجر ذراعا إلى فوق هى نفسها إن استعملت فى تحريكه إلى أسفل تحركه عشرة أذرع أو زيادة ، فلهذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

فضائل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم :

ويقول العلامة الزرقانى رضى الله عنه فى شرح المواهب :

وأما فضيلة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فقد ورد التصريح بها فى أحاديث قوية منها تكفير الخطايا ، وتزكية الأعمال ، ورفع الدرجات ، ومغفرة الذنوب ، وصلاة الملائكة واستغفارهم لقائلها ، وكتابة قيراط مثل أحُد من الأجر ، والكيل بالمكيال الأوفى ، وكفاية أمر الدنيا والآخرة ، ومَحْق الخطايا ، وفضلها على عتق الرقاب ، والنجاة بها من الأهوال ، وشهادة الرسول بها ، ووجوب الشفاعة ، ورضا الله ورحمته ، والأمان من سَخَطه ، والدخول تحت ظل العرش ، ورجحان الميزان ، وورود الحوض ، والأمان من العطش ، والعتق من النار ، والجواز على الصراط ، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت ، وكثرة الأزواج فى الجنة ، ورجحانها على أكثر من عشرين غزوة ، وقيامها مقام الصدقة للعسر ، وأنها زكاة وطهارة ، وينمو المال ببركتها ، وتُقضى بها مائة من الحوائج بل وأكثر ، وأنها عبادة وأحب الأعمال إلى الله تعالى ، وتزين المجالس ، وتنفى الفقر وضيق العيش ، ويلتمس بها نطاق الخير ، وأن فاعلها أولى الناس به صلى الله عليه وسلم ، وينتفع هو وولده وولد ولده بها ، وتقرب إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنها نور ، وتنصر على الأعداء ، وتطهر القلب من النفاق والصدأ ، وتوجب محبة الناس ، ورؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وتمنع من اغتياب صاحبها ، وهى من أبرك الأعمال وأفضلها وأكثرها نفعًا فى الدين والدنيا .

حدّاد موهوب :

ويحكى سيدى ابن عربى فى الباب ٥٤٠ من الفتوحات أن حدّاداً بأشبيلية

كان يعرف « باللهم صل على محمد » وما كان يُعرف بغير ذلك الاسم رأيته ودعا لى وانتفعتُ به، لم يزل مشتهراً بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لا يتفرغ لكلام أحد إلاّ قدر الحاجة إذا جاءه أحد يطلب منه أن يعمل له شيئاً من الحديد فيشارطه على ذلك ولا يزيد ، وما وقف عليه أحد من رجل ولا صبى ولا امرأة إلاّ ولابد أن يصلى على محمد ذلك الواقف إلى أن ينصرف من عنده .

اللهم وفقنا لكثرة الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم كما تحب وترضى .

الباب الخامس عشر

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

فضل المدينة المنورة

أرض الله :

هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه إلى المدينة المنورة ، فشرّفها الله بهجرته إليها صلى الله عليه وسلم ، فصارت مركزَ الدعوة إلى الله ، وحصن الدفاع عن الإسلام كما كانت مهبط الوحى ومنزل ملائكة السماء ، وقد سماها كتاب الله « أرض الله » فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فتُهَاجِرُوا فيها) .

ويقول الإمام القرطبي إن الآية تشير إلى جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا، وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم ، وفتن منهم جماعة فافتتنوا ، فلما كان أمر بدر ، خرج منهم قوم مع الكفّار فنزلت الآية ، وقولهم (كنّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ) أى فى مكة هو اعتذار غير صحيح ، إذ كانوا يستطيعون أن يتحايلوا على الخروج من مكة ، ولذلك تقول لهم الملائكة تقريعًا لهم :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعةً فَتُهَاجِرُوا فِيها) . أى المدينة المنورة ، وما أفخر ما حلاها الله به فلقبها بأرض الله ، فلئن كانت مكة المكرمة حرم الله فالمدينة المنورة أرض الله ، وكيف لايجعلها الله أرض الله ، وقد هاجر إليها رسول الله وصارت آخر الأمر مثواه ؟

فضل المدينة :

وقد جاء فى فضل المدينة المنورة أحاديث كثيرة ، وكفاها فخراً أن يقول فيها صلى الله عليه وسلم « إن الإيمان ليأرِزُ [١] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرِها » ، وقد قيل فيها بحق :

دار الحبيب أحق أن تهـواهـا   وتَحِنّ من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممت بزورة   يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
لا كالمدينة منزل وكفى لهـا   شرفًا حلولُ محمـد بفناهـا
جزم الجميع بأن خـير الأرض ما   قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علـت   كالنفس حين زكت زكى مأواها

وقال ابن وهب : سمعتُ مالِكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال : إن المدينة تَبَوَّأت بالإيمان والهجرة ، وإن غيرها من القرى افتُتِحَتْ بالسيف ، ثم قرأ (والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهِمْ . . .) الآية .

وهو ابتداء كلام فى مدح الأنصار والثناء عليهم ، فإنهم سلَّمُوا الفيء [٢] للمهاجرين ، وكأنه تعالى قال : الفيء للفقراء المهاجرين ، وقد أحبهم الأنصار ولم يحسدوهم على ماصفا لهم من الفيء .

ويقول صديقى الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب — وهو من أهل الطائف بالسعودية — فى قصيدة أهداها لى فى مناسبة تعارفنا بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم وذلك فى سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١م) :

بَلْدةٌ قـدَّسها الرحمـنُ إذ   حازت الفخرَ بخيْرِ المـرسلين
فهى والبيت العتيـق المجتبى   منبعُ الدين ومأوى اللاجئـين
كل عـام لى إلى أكنافهـا   رحلة أشفى بهـا قـلبى الحزين

---

(١) يأرز أى ينضم ويجتمع بعضه إلى بعض فيها .

(٢) الفيء : الأموال التى تؤول للمسلمين من أعدائهم بغير حرب .

كم سفَحْتُ الدمع إذ لم أرهـا مرة يا صاح فى كر السنين
وضربت الكفَّ بالكف فيا حسرتى للبُعْدِ عن ذاك القطين
وبقلبى من جراحات النوى ألمٌ يبدو لعين الناظرين
حرمُ المختار أسمى منزلا بفؤادى من قصور المترفين
إذ به الروضةُ قرب المصطفى كم سعى جبريل فيها للأمين
كم بها من عَبْرةٍ فياضة لمُحِب كم بها من صالحين
كم تبارى لثراها هائمٌ كم علا فيها دعاءُ الساجدين
كم تلا القرآن فيها مُخْبِت وسعى للخير سعى المحسنين
فلآثار سجود المصطفى فى ثراها طيب عَرْفِ الياسمين

تربة المدينة مؤمنة :

أقول : ولله در القائل :

أرض مشى جبريلُ فى عَرَصاتها والله شرَّف أرضَها وسماها

وقد حدثنى صديقى الصالح المبارك الحاج حسين أبو العلا (وهو مدنى يسكن المدينة المنورة ، وله بها بستان قريب من الحرم الشريف) ــ فقال إنه حين أراد أن يزرع بستانه دق فى أرض البستان ما سورة مياه ارتوازية ، ولما ذاقَ الماء الذى أتوْه به أول مرة وجده مالحاً لاتصلح به الزراعة ، فقال يارب : إن رسولك الكريم صلى الله عليه وسلم وصف المدينة فقال : « والذى نفسى بيده إنَّ تربتها لمؤمنة » ، والمؤمن حلو يارب . فكيف خرج الماءُ مالحًا . قال عفا الله عنه ومدَّ فى عمره : فألهمنى ربّى أنْ ننزل بالماسورة مسافة أخرى ، فقلت : انزلوا بالماسورة إلى مسافة أبعد ، قال ففعلوا ، فجاء الماء حُلْوا زُلالا ، وجاء أوفر مما أردنا ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وعلى الرغم من أنى أصادقه من سنوات . فإنه كاشفنى من نحو عامين لأول مرة بأنه كان يستمع لدرسى الذى كنت ألقيه بالحرم الشريف ، فكان يعجبه ما يسمعه منى ، فقال : يارب أشهدك أنى أحب هذا الرجل فيك ، قال : ولم أصارحك بها قبل ذلك . فانظر إلى فضله وأدبه ، وهو رجل مبارك ، ومُقْبِل على الله بهمة

الصالحين حتى إنه لا يصلى الصلوات الخمس إلا فى الحرم الشريف ، كما أنه يعتكف فيه العشر الأواخر من رمضان كل عام ، وينفق الكثير فى سبيل الله .

حفل مبارك :

وفى العام الماضى دعانا فى عيد الفطر إلى حفل بقصره المشيد فى بستانه ، فوجدنا سرادقًا كبيراً قد اجتمع فيه أحبابُه من زوار الحرم الوافدين من البلاد الإسلامية المختلفة ، وتغنى المغنون على مسمعنا بالمدائح النبوية وذكرى المدينة المنورة ، وكان من بيننا نحن المصريين الشيخ سيد النقشبندى فتغنى بشعر العارف بالله سيدى الشيخ يوسف النبهانى الذى يقول فيه :

يا رعى اللهُ طيْبةً مــن رياض　　طاب فيها الهــوى وطاب الهواء

وتغنى مغنى المدينة فقال :

يا عيدُ عُدْتَ فهل عادت ليالينا　　وهل ترنَّم فى الصحـــراء حادينا

وكان من بين الحاضرين أخى الصالح وزميلى الأستاذ أنور شلبى وكيل وزارة الخزانة ، فسرّه الحفل غاية السرور حيث لم يكن شهده معنا قبل ذلك .

دعاء نبوى للمدينة :

قال ابن إسحق :

« وحدثت عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبوبكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبى بكر فى بيت واحد فأصابتهم الحمى ، وكانوا يهذون وما يعقلون من شدة الحمى فذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها

وصاعها[1] وانقل وباءها إلى مهيعة (الجحفة وهى ميقات أهل الشام) .

أقول : وقد استجاب الله دعوة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لتلمس حب المدينة بين جنبيك قبل أن تذهب إليها ، فإذا رأيتها وعشت فيها ، نسيت بها وطنك وكأنها الموطن الأصلى الذى نشأت فيه . أما بركة الطعام فباقية تشاهدها بنفسك ، وترى فيها المعجزة النبوية محققة ، وكنت فى أول أمرى بالمدينة أطلب من صاحب الدار التى ننزل فيها وهو السيد حامد بافقيه وهو من السادة الأشراف — رحمه الله رحمة واسعة — أن يشترى لنا أقة من اللحم ونحن خمسة رفقاء ، فيتعجب الرجل رحمه الله مما أطلب ويقول فى لهجته المدنية اللطيفة : أقة ؟ إيش تعملوا بالأقة ، هذا كتير ؛ هنا المدينة فيها البركة بدعوة النبى ، فأقول له: وماذا تريد أنت يا عم حامد فيقول : نصف أقة وهو كتير على غداكم وعشاكم ، ثم تأكد لى صدق كلامه عمليًّا ، وتلك بركة طعامها ، أما حلاوته فحدث عنها ولا حرج ، فصلوات الله وسلامه على من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما أرق أهل المدينة حين كانوا يتغنون بمدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون فى محافل ذلك السيد المبارك فيهزّوننا بقولهم :

خـــير البريـــه نظـــره إليـــا
مـــا أنـــت إلاّ كـــنز العطيـــه

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو أمامة أسعد بن زرارة ، اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو أمامة نقيبهم (أحد نقباء العقبة كما سلف القول) فقالوا له : يا رسول الله ، إن هذا قد كان منّا حيث قد علمت ، فاجعل منّا رَجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم أخوالى (لأن الخزرج أخوال أبيه صلى الله عليه وسلم) وأنا بما فيكم وأنا نقيبكم » ، فكان بنو النجار يزهون بأن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم .

---

(١) يعنى بارك لنا فى الطعام الذى يكال بالمد والصاع . والمد رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز ، والصاع أربعة أمداد عند الحجازيين .

المساجد المفضلة :

وردَ فى الحديث الشريف « لاتشدّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة » .

ويقول الإمام تقى الدين السبكى : ليس فى الأرض بقعة لها فضلٌ لذاتها حتى تُشَدّ الرحال لذلك الفضل غير البلاد الثلاثة ، قال : ومرادى بالفضل ما شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكمًا شرعيًّا ، وأما غيرها من البلاد فلا تُشَدّ إليها لذاتها بل لزيارة أو لجهاد أو علم أو نحو ذلك من المندوبات أو المباحات .

مسجد التقوى :

وقد أخرج الإمام مسلم رضى الله عنه عن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذى أسّس على التقوى[1] قال : « مسجدكم هذا » .

وقال الإمام مالك إنه مسجد المدينة ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس فى هذا ويأتونه أولئك من هنالك ؟ وقال تعالى : (وتركوك قائمـًا) فإنما هو هذا .

وقد أخرج الإمام أحمد رضى الله عنه عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صلّى فى مسجدى أربعين صلاة كتبت له براءة من النار وبراءة من العذاب وبرِئ من النفاق » .

أفضل البقاع :

وقال القاضى عياض رضى الله عنه : أجمعوا على أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض ، وأن مكة والمدينة أفضل بقاع الأرض بعده . ثم

---

(١) وهو المذكور فى قوله تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) الآية .

اختلفوا فى أيهما أفضل ، فذهب عمر وجماعة من الصحابة إلى تفضيل المدينة وهو قول مالك وأكثر المدنيين ، وذهب أهل الكوفة إلى تفضيل مكة وبه قال ابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك ، وإليه ذهب الشافعى .

أقول : وما من نفس مؤمنة إلا وتحنّ إلى كل من مكة والمدينة ، حرسهما الله من كل سوء ، ففى مكة بيت الله الحرام ، وفى المدينة روضة نبينا المختار عليه الصلاة والسلام ، ولسان المشتاق يحنّ إلى كل منهما ويقول :

هى الدار ما شوقى القديم بناقص إليها ولا دَمْعِى عليها بجامدِ

أو يقول :

روحى على بعض دور الحى حائمة كظَامِئِ الطيْرِ إذ يهفو على الماء

ويرحم الله الشيخ النبهانى إذ يقول متشوقًا إلى المدينة المنورة :

يارعى الله طيْبة من رياض طاب فيها الهوى وطاب الهواء
شاقنى فى ربوعها خير حى حل لا زينب ولا أسماء
حيث قبر الحبيب يعلوه من نو ر قباب أقلها الخضراء

بين مكة والمدينة :

وقد تنازع مدنىّ ومكىّ فى فضل مكة والمدينة . وتعصب كل منهما لبلده فى شعر طويل ، فأجابهما ناسك كان يقيم بجدة مرابطا فقال فيما قال — كما جاء فى الفتوحات المكيّة :

إنى قضيت على اللذيْن تماريا فى فضل مكة والمدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحق فافْهَموا فالحُكْم وقتًا قد يجور ويعدل
يا أيها المدنى أرضك فضلُها فوق البلاد وفضل مكة أفضل
أرض بها البيتُ المحرَّمُ قِبْلة للعالمين بها المساجد تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها والصيد فى كل البلاد محلل
وبها المشاعر والمناسك كلها وإلى فضيلتها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم مُتْرعًا والحجر والركن الذى لايجهل

والمسجد العالى المحجر والصفـــا ... والمشعران ومن يطوف ويرْمُـــل
وبمكة الحسنات يضعف أجرها ... وبها المسيء عن الخطيئة يُسْأل
ما ينبغى لك أن تفاخر يا فـتى ... أرضًا بها ولد النـبى المرسـل
وبها أقام وجاءه وحى السمـا ... وسرى به الملكُ الرفيع المنزل
هل بالمدينة هاشمىٌّ ساكـنٌ ... أو من قريش ناشئٌ أو مكهل
إلاّ ومكـة أرضـه وقـراره ... لكنهم عنها نبـوا فتحولـوا
وكذاك هاجـرَ نحوكم لمّا أتى ... أنّ المدينة هجرةٌ فتحمّلوا
فأجرتمو وقرْيتموا ونصرْتمـو ... خيرَ البرية حقكم أن تفعلـوا
فضل المدينة بيِّنٌ ولأهلهـا ... فضـل قديم نـوُره يتهلـل
من لم يقل إن الفضيلةَ فيكمـو ... قلنا كذبْتَ وقول ذلـك أرذل
لا خير فيمن ليس يَتعـْرف فضلكم ... من كان يجهله فلسنا نجهـل
فى أرضكم قبـُر النبى وبيتـُه ... والمنبر العالى الرفيـع الأطـول
وبها قبور السابقين بفضلـهم ... عمر وصاحبه الرفيـق الأفضل
والعترةُ الميمـونة اللاتى بها ... سبقت فضيلة كل من يتفضـل
آل النبى بنو علىّ إنهـم ... أمسوا ضياء للـبريـة يشمـل
إنّا لنهواهـا ونهوى أهلهـا ... وودادهـا حق على من يعقـل
ساق الإله ابِطَحْن مكة ديمـة ... تروى بها وعلى المدينة تسبـل

مزايا المدينة المنورة :

هذا ومن مزايا المدينة المنورة أنها فتحت بالقرآن الكريم ولم تُفْتح بالسيف، وأن الله تعالى اختص بها رسوله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق..) أى المدينة لاختصاصها به اختصاص البيت بساكنه، وقيل من بيته بها، وقد سماها الله حسنة فى قوله تعالى (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة . . .) أى[1] مباءة حسنة وهى المدينة، وقد حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف « من أخاف أهلَ حرمى أخافه اللهُ » وفى حديث آخر « حَرَّمُ إبراهيم مكة وحرمى

---

(١) أى هيأ لهم المدينة سكناً .

المدينة »، وترابها شفاءٌ للحديث الشريف « ترابها شفاء من كل داء » وكانت تسمى « يثرب» فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طيبة » ، وفى حديث آخر « إن الله سمى المدينة طابه » وفى خبر : « والذى نفسى بيده إنَّ تربتها لمؤمنة » وفى آخر : « إنها مكتوبة فى التوراة مؤمنة » وقد سمّاها الله فى كتابه الكريم« مُدْخَلَ صدق » وذلك فى قوله تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا) . فمدخل الصدق : «المدينة » ، ومخرج الصدق : « مكة » . وتأمل كيف قدم الله المدخل على المخرج مع أن المخرج فى الترتيب مقدم على المدخل . والسلطان النصير : « هم الأنصار » كما روى عن زيد بن أسلم ، وصار اسم « المدينة » علمًا عليها ولا يستعمل إلاّ معرفة ، والنكرة اسم لكل مدينة ، ونسبوا للكل مدينى ، وللمدينة المنورة مَدَنِىّ ، للفرق بين النسبتين .

المدينة وأهلها :

وفى الحديث الشريف : « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ » . ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك .

وناهيك بقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أخاف أهلَ المدينة فقد أخاف ما بين جنبىّ » أى قلبى وروحى . فانظر إلى عطفه وغيرته صلى الله عليه وسلم على جيرانه بالمدينة المنورة .

وقد كان صديقنا الكريم الذى كنا ننزل فى داره وهو السيد حامد بافقيه طيّب الله ثراه ، يعتز بهذا الجوار السعيد ويكرر كثيراً على مسمعنا : نحن فى كفالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أكرم بقعة :

ولابن الجوزى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما قُبض النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى دفنه ، فقال علىّ كرم الله وجهه : ليس فى الأرض بقعة أكرم

على الله من بقعة قَبض فيها نفس حبيبه صلى الله عليه وسلم، قال الإمام السمهودى فى كتاب خلاصة الوفاء معقّبًا ، فهذا أصل الإجماع على تفضيلها لرجوع الباقين إليه ولقول أبى بكر رضى الله عنه حينئذ : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يُقْبض النبى إلاّ فى أحب الأمكنة إليه ، رواه أبو يعلى ، قال وأحبُّها إليه أحبُّها إلى ربه لأن حبه تابع لحب ربه ، قال : وقد سلكت فى تفضيل المدينة هذا المسلك وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد » أى بل أشد . كما رُوِىَ به ، وأجيبت الدعوة حتى كان يُحَرِّك(١) دابته إذا رآها من حبها وقال : « ما على الأرض بقعة أحب إلىّ من أن يكون قبرى بها منها » .

ويقول الإمام السمهودى فى كتابه المذكور : قال عمر لعبد الله المخزومى : أنت القائل: مكة خير من المدينة؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأمنه وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله وبيته شيئًا . ثم كرر عمر قوله الأول فأعاد جوابه فأعاد له عمر : لا أقول فى بيت الله وحرمه شيئًا ، فأشير إلى عبد الله فانصرف .

وقال الإمام السمهودى رضى الله عنه : قيل للإمام مالك أيما أحب إليك المقام هنا يعنى بالمدينة أو بمكة ؟ فقال: «ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلاّ سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل عليه السلام ينزل من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟ » . وأضاف الإمام السمهودى قائلا : وقد ثبت فى الأحاديث تفضيل الموت بالمدينة فيثبت تفضيل سكناها لأنها طريقه .

وأضاف الإمام السمهودى يقول كذلك : وفى الصحيحين « أمِرْتُ بقرية تأكل القُرَى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خَبَثَ الحديد» ، وفى صحيح مسلم حديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هَلُمَّ إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون . والذى نفسى بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلاّ أخلف الله فيها خيراً منه » وفيه إشعار بذم الخروج منها مطلقًا وهو عام أبداً كما نقله المحب الطبرى عن قوم وقال إنه ظاهر اللفظ . وفى حديث الصحيحين « إن الإيمان لَيأْرِزُ إلى المدينة كما تأرز الحيّةُ إلى جُحْرها » أى تنقبض وتنضم وتلجأ مع أنها أصل انتشاره . فلكل مؤمن من نفسه سائق

(١) أى يجعل الدابة تسير بسرعة .

إليها فى جميع الأزمان لحبه فى ساكنها صلى الله عليه وسلم .

ولأبى يعلى عن العباس رضى الله عنه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فالتفتَ إليها وقال « إن الله برَّأ هذه الجزيرة من الشرك » .

وفى الصحيحين « من صبر على لأوائها وشدّتها كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » وفى صحيح البخارى مرفوعاً « لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع المِلْحُ فى الماء » . ولمسلم « من أراد أهلَ هذه البلدة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » . ولئن كان لمكة مزية العدد (أى فى الحسنات) فللمدينة مزيّة البركة والمدَد . ولئن كان لمكة جوار بيت الله تعالى فللمدينة جوار حبيب الله صلى الله عليه وسلم وهو أكرم الخلق على الله تعالى . وفى الصحيحين « اللهمّ اجعل بالمدينة ضِعْفَىْ ما جعلتَ بمكة من البركة » . وفى الصحيحين أيضاً « اللهم باركْ لهم فى مِكْيالهم وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مُدّهم » . ولمسلم « اللهم بارك لنا فى مدينتنا . اللهم بارك لنا فى صاعنا ، اللهم بارك لنا فى مدّنا ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتيْن » . وفى الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقاب المدينة ملائكة يحرسونها لايدخلها الطاعون ولا الدجّال » .

وفى الصحيحين حديث « إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها ، وفى رواية — ودعا لأهلها — ، وإنى حرَّمتُ المدينة . كما حرم إبراهيم مكة » . وللبخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « إن الله حرم ما بين لابتى المدينة على لسانى » « قال وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال : « أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم » ثم التفت فقال : « بل أنتم فيه » . . ولمسلم « المدينة حرم ما بين عير إلى ثور » (وهما جبلان بها) .

ولأبى داود مثله وزاد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يُختلى(١) خلاها(٢) ، ولا يُنفَّر صيدها ، ولا يَلتَقِطُ لقطتَها إلاّ من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلاّ أن يعلف رجل بعيره » .

---

(١) يختلى : أى يقطع .

(٢) الخلا (مقصوراً) : النبات الرطب الرقيق .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : لو وجدت الظبا بين لابتيها ما ذعرتها ، وجعل اثنى عشر ميلا حـــول المدينة حمى . وفى الصحيحين عن عبد الله بن زيد « ما بيْن بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وللبخارى عن أبى هريرة مثله وزاد « ومنبرى على حوضى » . وللبخارى ومسلم عن ابن عمر « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

طريق النور :

أقول : وإذا أردت أن ترى طريق النور بنفسك ، فاذهب إلى أرض الحجاز ، واسلك الدرب الذى سلكه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون إلى المدينة المنورة ، وانظر إلى طوله وأنت تقطعه بالسيارة السريعة . وقَدِّرْ كَمْ تحمَّلوا فى قطعه على الإبل من المشقة فى عزم أهل الإيمان وهمة أهل اليقين ، وإذا استرحت قليلا فى بدر فاستنشق رائحة الجنة عند شهدائها . وتَطلَّع إلى الجبال بينها وبين المدينة . وإلى خشونة الصخور على جانبى الطريق المرصوف ، وقدِّر لسلفك الصالح جهادهم فى حماية العقيدة التى وصلت إليك منهم وأنت ناعم البال فى أمن وإيمان ، واستغفر لهم كما أمرك الله تعالى . واستنشق روائح المدينة وتطلع إلى مائها وهوائها ونورها .

ولقد كنت أسير فى ذلك الدرب المبارك وحان ميعاد العصر . فآويت إلى مكان فى جانب الطريق فصليت العصر مع أصحاب لى على الرمال ، وإذا بى أتذكر فجأة قول الإمام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لدن	وادى قُباء إلى حمى أم القـــرى
وتَوخَّ آثار النبى فضع بهـــا	متشرفًا خديك فى عَفَرِ الثَّرى
وإذا رأيت منازل الوحى الـــتى	نشرت على الآفاق نـــوراً أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهَه	مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يُرى

فعملت بنصيحة الإمام الذائق . ووضعت خدى على التراب الذى مشى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأرض الطيبة ، التى أشرق منها على يديه الكريمتين نور الإسلام ، وكيف لا أفعل وقد قال أمير المؤمنين عمر رضى الله

عنه : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أنه أقسم بالتراب الذى مشت عليه قدماك ، فقال تعالى : (لا أقسم بهذا البلد * وأنت حل بهذا البلد) ، وكيف لا أفعل وقد قال حبر الأمة وحجتها ابن عباس رضى الله عنه : ماخلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله عز وجل أقسم بحياة أحد غيره – يشير ابن عباس إلى قوله تعالى (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) أى وحياتك إنهم يتحيرون ؛ ويرضى الله عن الإمام البوصيرى إذ يقول فى بردته المباركة :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

الفصل الثانى

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

فضل مثواه صلى الله عليه وسلم :

كان صلى الله عليه وسلم يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بين نسائه تطييباً لقلوبهن وكان يقول أين أنا اليوم ؟ أين أنا غداً ، وكان فى مرضه الذى توفى فيه يُطاف به محمولا على بيوت أزواجه إلى أن استأذنهن أن يقيم فى بيت السيدة عائشة وبقى حتى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى ودفن صلى الله عليه وسلم فى حجرتها ، لأن الأنبياء والمرسلين يدفنون حيث يقبض الله أرواحهم ، وقد قالت سيدتنا عائشة : فلما كان يومى قَبَضَهُ الله تعالى بين سحْرى[١] ونحرى صلى الله عليه وسلم . والبقعة التى دفن فيها صلى الله عليه وسلم هى أفضل بقاع الأرض ولذلك قال سيدى أبو محمد البكرى رضى الله عنه :

جَزَم الجميعُ بأن خيرَ الأرض ما　　قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت　　كالنفس حين زكت زكا مأواها

حرمته صلى الله عليه وسلم :

هذا ، واعلم أن حرمته صلى الله عليه وسلم وهو فى قبره كحرمته صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فى كتاب الشفاء للقاضى عياض بسند جيد عن ابن حميد قال :

ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالِكًا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالِك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد ،

---

(١) السحر : الرئة تريد أنه قبض وهو على صدرها ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

فإن الله تعالى أَدَّبَ قوماً فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) وَمَدَحَ قوماً فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّون أَصواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امتحنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ) . وإن حرمته مَيِّتاً ، كحرمته حيًّا فاستكان أبو جعفر .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أتيت المدينة وأقمت بها فإن مت دفنت فى الرابع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر . فقال : والله لأن يعذبنى الله عزَّ وجل بكل عذاب إلا النار أحب إلى مِنْ أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا .

الموت والحياة فى البرزخ :

يقول الإمام الزرقانى رضى الله عنه فى شرح المواهب اللدنية :

فإن قلت القرآن ناطق بموته عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى (إنك ميّت وإنهم ميتون) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنى امرؤ مقبوض » ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك ، فأقول : أجاب الشيخ تقى الدين السبكى بأن ذلك الموت غير مستمر ، وأنه صلى الله عليه وسلم أُحْيِيَ بعد الموت حياة أخروية ، ولاشك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء، وهى ثابتة للروح بلا إشكال ، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لاتَبْلى ، وعوْد الروح إلى الجسد ثابت فى الصحيح لسائر الموتى ، فضلاعن الشهداء، فضلا عن الأنبياء ، وإنما النظر فى استمرارها فى البدن[1] ، وفى أن البدن يصير حَيًّا كحالته فى الدنيا أو حيًّا بدونها وهى حيث شاء الله تعالى ، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادى لا عقلى ، فهذا مما يُجوّزه العقل ، فإن صح به سمعٌ اتبع ، وقد ذكره جماعة من العلماء ويشهد له صلاة موسى فى قبره كما ثبت فى الصحيح ، فإن الصلاة

---

(١) بدن الإنسان جسده ، وقوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) . أى ننجيك يا فرعون بجسد لا حياة فيه .

تستدعي جسداً حيًّا ، وكذلك الصفات المذكورة فى الأنبياء ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام ، ولايلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت فى الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب ، وغير ذلك من صفات الأجسام التى نشاهدها ، بل يكون لها حكم آخر ، فليس فى العقل ما يمنع من إثبات الحياة الحقيقية لهم ، وأما الإدراكات كالعلم والسماع فلا شك أن ذلك ثابت لهم ، بل ولسائر الموتى كما ورد فى الأحاديث .

أقول : وإذا كان الشهداءُ أحياءً عند ربهم يُرزقون كما دل على ذلك كتاب الله فكيف بالأنبياءِ والمرسلين ، وكيف بأمير الأنبياءِ والمرسلين صلى الله عليه وسلم . وقول الله تعالى : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجرُهُ عَلَى اللهِ وكَانَ اللهُ غفورًا رحيماً) ليس مقصورًا على حياته الشريفة وفى الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيَّات وإنَّما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ولأبى داود بسند صحيح عن أبى هريرة « ما من أحد يسلم علىَّ إلاَّ رَدَّ الله علىَّ روحى حتى أرُدَّ عليه السلام » . وقد صدر الإمام البيهقى رضى عنه باب الزيارة بهذا الحديث الشريف . واعتمد على ذلك جماعة منهم الإمام أحمد رضى الله عنه لِتَضَمُّنِه فضيلة رده صلى الله عليه وسلم وهى عظيمة ؛ واستدل الإمام البيهقى بهذا الحديث على حياة الأنبياء . ويقول الإمام السمهودى رضى الله عنه : فهو صلى الله عليه وسلم يسمع مَنْ يُسلم عليه عند قبره ويرد عليه عالماً بحضوره عند قبره . وكفى بهذا فضلا حقيقًا بأن يُنْفَقَ فيه ملكُ الدنيا حتى يُتوصَّل إليه . ولابن النجار عن إبراهيم بن بشّار : حججتُ فى بعض السنين فجئتُ المدينة فتقدمتُ إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فسمعت من داخل الحجرة : وعليك السلام .

وجاء فى تذكرة القرطبى عن شيخه أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى .

وفى مناسبة حياة الشهداء أقول إنى بحمد الله رأيت الوصف الذى وصف الله به الشهداء فى رؤيا منامية سعدت فيها – وكنت عندئذ بالمدينة المنورة – برؤية شهيد فَرِحٍ جداً مستبشرٍ للغاية ، يتحرك حركات سريعة وقوية من الفرح والاستبشار ، وتعجبت من منظره ولم أعرفه ، فقال لى شخص فى المنام : هذا عبد الله بن[1] رواحة ، وقمت من نومى مسروراً بهذه الرؤيا ، ولم أكن أذكر اسمه الأول « عبد الله » إنما كنت أعرفه باسم « ابن رواحة » فسألت أحدَ رفقائى عن اسم ابن رواحة الكامل فقال لى « عبد الله » فقلت صدق الله تعالى فى وصفه للشهداء (أحياء عند ربهم) ، وفى قوله فى الأنصار رضى الله عنهم (يحبون مَنْ هاجر إليهم) .

حياته صلى الله عليه وسلم فى قبره الشريف :

ويقول الحافظ السيوطى رضى الله عنه فى كتابه « تنوير الحلك بإمكان رؤية النبى صلى الله عليه وسلم والملَك » بعد استيعابه لأكثر نقول العلماء والأحاديث الدالة على إمكان رؤية النبى صلى الله عليه سلم فى المنام واليقظة ما يأتى :

قد تحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم حىّ بجسده وروحه ، وأنه يتصرف[2] حيث شاء فى أقطار الأرض وفى الملكوت وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شىء ، وأنه يغيب عن الأبصار كما غُيِّبَتْ الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم ، فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد كرامته برؤيته رآه على هيئته التى هو عليها لا مانع من ذلك ولاداعى إلى

---

(١) وهو الأنصارى الشاعر ، وهو صاحب اللواء فى مؤتة بعد زيد وجعفر رضى الله عنهم .

(٢) أى يتصرف بإذن الله وقدرته فيما مكنه الله فيه ، ولنذكر قوله تعالى مخاطباً له صلى الله عليه وسلم (وكان فضل الله عليك عظيما) .

التخصيص برؤية المثال[1] .

ويقول الإمام نور الدين الحلبي رضي الله عنه في رسالته المسماة « تعريف أهل الإسلام والإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم لايخلو منه مكان ولا زمان» ما يأتي :

ألا ترى أن الرائين له يقظة أو مناماً في أقصى المغرب يوافقون في ذلك الرائين له كذلك في تلك الساعة بعينها في أقصى المشرق ، فمتى كان ذلك مناماً كان في عالم الخيال والمثال ، ومتى كان يقظة كان بصفتيَ الجمال والجلال وأعلى غايات الكمال كما قال القائل :

ليس على الله بِمُسْتَنْكَر　　أن يجمع العالم في واحد

ومن الأدلة التي ساقها الإمام الحلبي رضي الله عنه قوله :

١ — ثابت عند إمام الأمة الحافظ الإمام البخاري وغيره أن الملكيْن يقولان للمقبور : ما تقول في هذا الرجل ؟ واسم الإشارة لا يُشار به إلا لحاضر .

٢ — إن غالبَ الأولياء والعارفين كانوا يجتمعون غالباً بسيد المرسلين يقظة ومناماً ، وكان العارف بالله خليفة بن موسى كثير الاجتماع به، واجتمع به في ليلة واحدة سبعة عشر مرة وقال له : يا خليفة لاتَمَل[2] مِنّا فقد مات كثير من الأولياء بحسرة رؤيتنا .

فالحجابُ من قِبَلِنا بِمُوجب مَسَاوينا لا من قِبله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى فارق نفسه ولو بالنّوم وأغمض عينيه يراه إذا قَسَمَ اللهُ تعالى له ذلك ، ومتى قتلها بقمعها وأماتها بردعها لم يبق بينه وبينه حجاب لا مناماً ولا يقظة .

. . . وكان السيد أبو العباس أحمد المرسي يقول : لو حُجِبَتْ عني رُؤية النبي صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين .

---

(١) عالم المثال هو العالم الذى تمثل فيه جبريل لمريم عليها السلام فى شكل بشر مع أنه ليس من البشر والأرواح القوية يعطيها الله قوة التمثل .

(٢) أى من كثرة رؤيتك لنا وظهورنا لك ، وهو تدليل منه لذلك الولى المبارك .

٣ – من الممكن المعقول المشاهد فى رأى العين أن يجعل الله تعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم بمكان كمكان جعل فيه البدر فيراه الذى فى أقصى المشرق كما يراه الذى فى أقصى المغرب وهو فرد (أى بدر واحد) وضوؤه ملأ الأكوان ، وكذلك عين الشمس والزهرة وبقية النجوم فإنه قد استوى فى رؤيتها كل من كان على ظهر الأرض ، لأن الله تعالى قد جعل لها مكاناً يقتضى ذلك (أى هيأها لأن يراها من كان على ظهر الأرض) فلا بِدْعَ أن يكون قبر النبى صلى الله عليه وسلم بطيبة كذلك ، ولاغرو فى أن يجعل الله تعالى شبحاً[1] من نبينا بغير طيبة أيضاً يُرى منها ويُشاهد كذلك ما لم يكن الرائى أعمى البصيرة . . . وقال رضى الله عنه شعراً :

انظر إلى المختار كيف وجـوده ملأ السما والأرض والأكوانا
فتراه مثل البدر فى كبد السما وضياؤه ملأ الوجودَ عيانـا

٤ – ومن البراهين على ذلك أيضاً أنه يجوز ويمكن ويتعقل أن يجعل الله تعالى العوالم العلوِّية والسفلية بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم كجعله تعالى الدنيا بين يدى سيدنا عزرائيل ، فإنه سئل كيف تقبض روحَ رجليْن حضر أجلُهما معاً أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب فقال : إن الله تعالى قد زوى لى الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يدىّ كالقصعة بين يَدَىْ الآكل أتناول منها ما شئت .

٥ – ومن البراهين أيضاً على ذلك أن أمر البرزخ لايقاس على غيره ، ألا ترى لِمَلَكَىْ السؤالِ مع تناهى عِظمِهما فى أضيق اللحود ، ومن أين يأتيان ؟ ومن أين يذهبان ؟ وكيف يسألان ميّتيْن أو أمواتاً فى وقت واحد، منهم من هو فى أقصى المشرق ومنهم من هو فى أقصى المغرب . . ؟

ويقول الإمام نور الدين الحلبى كذلك فى رسالته المذكورة :

وعند أبى داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولايتمثل الشيطان بى » ،

---

(١) أى شخصه صلى الله عليه وسلم ..

ومعنى هذا الحديث التبشير بأن من فاز من أمته برؤيته فى المنام لا بدّ ألبتة إن شاء الله أن يراه فى اليقظة ولو قبيل الموت بهنيهة ، ويسلم إن شاء الله تعالى العبد فى ذلك الوقت من المقت(١)، إذ هو وقت الحاجة(٢) .

أقول : وقد ذكر العارف ابن أبى جمرة رضى الله عنه فى كتاب بهجة النفوس أن ابن عباس رضى الله عنهما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام بعد انتقاله للرفيق الأعلى ، ولما استيقظ دخل على خالته ميمونة أم المؤمنين وأخبرها بالرؤيا فناولته مرآة فذهب ينظر فيها فلم ير وجهه بل رأى النبى صلى الله عليه وسلم بصورته التى يعرفها .

٦ ــ ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضًا أن الله تبارك وتعالى نَصَّبَهُ شاهدًا على أعمال العباد خيرها وشرها ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ، والشاهد لا بد أن يكون حاضرًا للمشهود عليه وناظرًا للمشهود إليه فَعُلِم أنه ملأً كلَّ عالَمٍ ، وحاضرٌ فى كل مكان . فإن قيل قد قال تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ) . وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) . فقد سوى بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين الأمة فى معنى الشهادة ، وسوى بَيْنه وبين الأنبياء فى ذلك المعنى أيضًا ، فالجواب إن شاء الله تعالى أنه لاتسوية لأنه فى الآية الأولى قال (وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) وقال فى الآية الثانية : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) . وورد أن هذه الأمة تشهد على جميع الأمم وتشهد لأنبيائها بالتبليغ ونبيها يُزكّيها فلا مساواة به ولا أحد فى درجته . وأما شهادة الأنبياء فلا إشكال فيها لأنهم موجودون بالأجسام فى قيد الحياة بين أظهُرِ أممهم لأنهم شاهدون وحاضرون حسًّا ومعنى . وأما شهادة هذه الأمة فإنما هى من باب الشهادة على الشاهد ، لأنها إنما تلقَّت ذلك من القرآن العظيم الصادق الوارد على لسان النبى المصدوق ، فتَبَيَّن بهذا بأنه لما كان كل رسول

---

(١) أى يسلم من غضب الله تعالى .

(٢) أى وقت احتياج العبد إلى مرضاة الله تعالى .

إذا مات انتهت شريعته وأرسل رسول غيره ، ولم يكن نبيُّنا كذلك بل شريعته مستمرة ودعوته قائمة باقية إلى يوم القيامة ومعها و بعدها إذ لانبيّ بعده، فتبين أن شهادته صلى الله عليه وسلم بموجب حضوره فى جميع العوالم وامتلأ الكون والزمان به ، فكان مثاله كما أسلفناه وكما أشرنا كبدر فى سماء علو الفضل ونحن تحته سائرون فى ضوء نوره ، متى رفعنا رءوسنا إليه ونحن فى شدة العَدْوِ أو المشى أو التأنىّ أو جلسنا أو نمنا أو استيقظنا نراه معنا فوق رءوسنا، ولو مشينا إلى أقصى المشرق، ومشى آخرون إلى أقصى المغرب، وركب آخرون السفن فى لجج البحار، وصعد آخرون الجبال، وسلك آخرون القفار، كل ذا ونبيّهم محمد صلى الله عليه وسلم حاضر معهم كحضور البدر مع هؤلاء كلهم .

وأقول : بعد هذا لا تستكثر فضلَ الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له ربُّه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ) . والعالمون هم كل ما سوى الله تعالى، وإذا كانت رحمة الله شملت العالمين مع اختلاف أجناسهم فلا تعجب أَن شرفه الله تعالى بصلاته عليه هو وملائكته ، كما أَمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه بقوله تعالى :

(إن الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ، وما أَعظم شرفه بهذه الصلاة الدائمة على مَرِّ الدهور ، فحدِّث عن فضله ولا حرج ، وصدق سيدى العارف الشيخ أَحمد الحلوانى (والد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراهما) . إذ يقول فى همزيته رضى الله عنه :

فليس فى القوم من يعلو عليه ولو ... نال الثريا ولا فى القوم أكفاء
أزكى النبيين أخلاقًا مطهرة ... وعنصر طيب تنميه أضواء
لا مجد والله إلا وهو مقتبس ... من مجده والكلّ منه إنشاء[1]

---

(١) يشير إلى حديث : أول ما خلق الله نورى ومن نورى خلق كل شيء ، ويقول رضى الله عنه فى قصيدة أخرى :

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى ... فرداً لفرد والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته ... من نورك السامى فيا عظم الكرم

وقد تُضيء مصابيحٌ معددةٌ — من واحد وهو لا ينفك وضاء
وليس بدْعَ اتمام الأنبياء به — فَلِلآلئ بالإتمام(١) لألاءُ
وَهَبْه نَجلا أما نالوا به شرفًا — ياحسن ما شرُفت بالنجل(٢) آباء
فَزِكْ آباءَهُ طرًا وكن بطلا — فى حُبهم فهمُ القومُ الأجلاء
يا سيدى يا رسولَ الله معذرة — فإنَّ كفىَّ فى مَدْحيْك شلاء
وبى إليك حنين طالما ارتجفت — منّى به أعظُمٌ رَقَّت وأحشاء
وأنت أرحم بى منى وإن كثرت — جرائمى ورَحِيم الحىّ معْطاء
دامت عليك صلاة الله واصلة — مع السلام كذا الآلُ الأوُدَّاءُ

زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وروى الدارقطنى والبيهقى وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ زار قبرى وجبت له شفاعتى » ومعنى وجبت أنها ثابتة لابد منها بالوعد الصادق

ويقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه : وأفاد بقوله « له » أنه يختص بشفاعة ليست لغيره ، إما بزيادة النعيم ، وإما بتخفيف الأهوال عنه ، وإما بأن يدخل الجنة بغير حساب ، وإما بغير ذلك ، وفيه بشرى بموته مؤمنا .

وللدارقطنى والطبرانى عن ابن عمر : « من حج فزار قبرى بعد وفاتى ، كان كمن زارنى فى حياتى » .

وروى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليهبطَنَّ ابنُ مريمَ حكمًا عادلا وإمامًا مُقْسِطًا ، ولَيَسلُكَنَّ فجًّا

---

(١) أى ختمت برسالته صلى الله عليه وسلم الرسالات السماوية فكانت مسك الختام وضياء كل ظلام لأنها جاءت بعد الرسالات ، فاتت نوراً على نور .

(٢) ولئن كان ابنا من أبناء المرسلين قبله (لأنه صلى الله عليه وسلم من سلالة إبراهيم ومن ذرية إسماعيل) عليهم جميعا صلوات الله فقد نالوا به شرفاً كبيراً حيث كانت رسالته أتم الشرائع وأعمها وأبقاها على الزمن وكان صلى الله عليه وسلم أكثرهم تبعا .

حاجا أو معتمراً، وليأتيَنّ قبرى حتى يُسلّم علىّ ولأرُدّنّ عليه » صححه الحاكم وسلّمه الذهبى .

ويقول صديقى فضيلة الشيخ أحمد مرسى تعليقاً على الحديث الشريف المذكور : وهو يفيد سُنيّةَ زيارة القبر الشريف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة سيدنا عيسى له فى قبره وأقرّه[١]، ويضيف فضيلته قائلا : ولم يتفطن أحد لهذا الاستدلال قبلى ولله الحمد والمنة .

وقد قال الإمام السمهودى : روى أحمد بسند حسن : أقبل مروان يوماً فوجد رجلا[٢] واضعاً وجهه على القبر ، فأخذ مروان برقبته ثم قال : هل تدرى ما تصنع ؟ فأقبل عليه فقال : نعم ، إنى لم آت حجراً، إنما جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم آت الحجر ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لاتبكوا على الدين إذا وليَه أهله ولكن ابكوا على الدين إذا وَليَهُ غيرُ أهله » .

وجاء فى « جواهر البحار » نقلا عن المقرى صاحب « نفح الطيب » حكاية طريفة وهى : ذكر جماعة أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والحجاز وفاتح البلاد ومنقذها من عبدة الأصنام ، وهو من أجَلِّ ملوك الإسلام ، أهديت له مروحة مكتوب فى أحد وجهيها :

هذه هدية ما أهْدى مثلها لك ولا لأبيك ولا لأحد من الملوك ، وكانت الهدية من شريف المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام ، فغضب السلطان فقال له حامل الهدية ، أرجو أن تقلب الوجه الآخر ، فقلبَه فوجد فيه هذين البيتين :

أنا من نخلة تجاور قبراً ساد َ منْ فيه سائر الخلق طُرّا
شملتنى سعادة القبر حتى صرتُ فى راحة ابن أيوب أُقْرا[٣]

---

(١) أى لم يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم على زيارة سيدنا المسيح عليه السلام بل أقرها ووافق عليها .

(٢) قالوا إنه أبوأيوب الأنصارى رضى الله عنه .

(٣) أى يقرأ السلطان خبرى فيما هومكتوب .

فقال السلطان صلاح الدين : صدق والله، وفرح بها، ووضعها على محاجره[١] وجعلها خير متاجره .

وفى هذه المناسبة أذكرك بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة قبل أن يُصنع المنبر ، فلما تحوّل صلى الله عليه وسلم إلى المنبر حَنّ الجذع وأنّ لفراقه صلى الله عليه وسلم ، فَخَيَّره صلى الله عليه وسلم بين أن يُغرس ويُورق ، وبين أن يصبر ويكون فى الجنة ، فاختار أن يصبر ، وفى ذلك يقول سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه :

وَالجذع حَنّ وخار إذ فارقته فجبرته وخواره عندى نَغَمْ
فالمرءُ إن لم تَعْرُهُ لك هِزّةٌ كالجذع فهو مُضَلَّل أعمى أصَمّ

وأذكر واقعة طريفة كانت لى مع أخى فى الله المرحوم السيد بكرى حامد الموظف السابق بالبريد ، فقد كان محتفلا فى بيته كعادته السنوية بذكرى المولد النبوى الشريف ، وكان على رأس الحفل سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى نوّر الله ضريحه ، فأمرنى أن أقول كلمة فى الذكرى العاطرة ، فكان فيما قلته من الشعر البيتان المذكوران ، فَتَهَيَّمَ الأخ بكرى وأقبل فى سكرة النشوان كأنما يريد أن يضربنى ، ثم ألقى بنفسه على الأرض ، وأرغى كالإبل ، واضطربت رِجلاه فصارتا تتحركان يمينًا وشمالا ، فَسَكَتُّ عن الكلام ، وفكوا عنه رباط الرقبة وبعد قليل قال سيدى الشيخ : لقد سَكَتَّ فَتَكَلَّمْ ، فأتممتُ حديثى ، وكنت أمزح معه بعدها وأقول له : يا سيد بكرى ، تريد أن تضربنى وأنا ضيف عليك فى بيتك ، فكان يقول : إنى لا أجن إلا حين أسْمَعُكَ تتكلم ، اللهم ارحمه وارحم أسلافنا رحمة واسعة، واغفر للأولين منا والآخرين، يا أكرم الأكرمين وأجود الأجودين .

ويقول بعض العارفين : إنى والله أجد محبته صلى الله عليه وسلم فى قلبى وروحى وجسمى وشَعَرى وَبشَرِى[٢] كما أجد سريان الماء البارد فى وجودى إذا شربته بعد الظمأ الشديد فى الحر الشديد ، وَحُبُّه صلى الله عليه وسلم فرض واجب على كل مؤمن ، قال تعالى: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وقال صلى الله عليه وسلم:

(١) أى وضع المروحة على عينيه احتراماً . (٢) البشر هو ظاهر جلد الإنسان .

« ان يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله و ولده »؛ فإذا لم تجد هذه المحبة التي وصفتها لك فاعلم أنك ناقص الإيمان ، فاستغفر الله ، وتضرَّع إليه وتُب من ذنوبك ، وتولَّع بدوام ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والتأدّب معه ، والقيام بما أمر مع اجتناب ما نهى ، لعلك تنال ذلك فتحشر معه ، لأنه صلى الله عليه القائل : « المرء مع من أحب » ، وقد قال الشهاب الخفاجي في كتابه « ريحانة الألباب » : اعلم أنه في حديث صحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنت أحبُّ إليّ من نفسى وأهلى ومالى ، وإنى إذا ذهبت لدارى لاتطيب نفسى حتى آتيك وأراك ، فإذا متَّ أنتَ كنتَ فى أعلى مقام فأخشى ألاّ أراك ، فلم يُجبه الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله عز وجل :

(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرءُ مع من أحب » .

ولو تأمل هؤلاء الفاترون فى محبته صلى الله عليه وسلم لوجدوا أنهم فى صلاتهم يسلمون عليه فى التشهّد ، فهل هم يُسلّمون بقولهم (أيها النبى) على حىّ حاضر أو على ميّت غائب ؟ وإذا كان سلامهم فى التشهُّد على ميّت غائب فإن سلامهم يكون عبثًا وتبطل به الصلاة .

وأقول : ألم يتدبر الفاترون فى محبتهم قول الله تعالى فى سورة الكهف : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . أَلَا يلاحظون أَنَّ كلباً غير مكلف صحب أهل الكهف الصالحين فعدّه الله منهم بفضله ، ولم يقل ثلاثة والرابع الكلب بل قال رابعهم ، وسادسهم وثامنهم ؛ وجعل من شرف ذلك الكلب الذي أحب الصالحين ولزمهم أن يذكر بشرف محبتهم وصحبتهم على ألسنة العابدين فى المحاريب . فكيف بالمؤمن الذى يلتزم محبة رسول الله وشرعه .

الزيارة وشدّ الرحال :

ويقول الإمام السمهودى : وإذا ثبت أن الزيارة قُرْبَة ، فالسفر إليها قُرْبَة[1] كذلك ، وقد ثبت خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لزيارة الشهداء ، وقد أطبق (اتفق) السلف والخلف وأجمعوا عليه . أما حديث « لا تُشَدّ الرِّحَال إلاّ إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » فمعناه لاتُشدّ إلى مسجد لفضيلة ، لما فى رواية لأحمد بسند حسن عن أبى سعيد الخُدْرى « لاينبغى للمَطِىّ أن تُشَدَّ رحالها إلى مسجد يبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » ، وللإجماع على شد الرحال لعَرَفَة لقضاء النسك (الحج) وكذلك للجهاد والهجرة من دار الكفر وللتجارة ومصالح الدنيا[2] .

الزيارة سنة واجبة :

وقد كره الإمام مالك رضى الله عنه أن يقال زُرْنا[3] قبر النبى صلى الله عليه وسلم لأن الزيارة من شاء فعلها ومن شاء تركها ، وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم واجبة قال عبد الحق يعنى من السنن الواجبة ، وقال السادة الحنفية زيارته صلى الله عليه وسلم من أفضل المندوبات والمستحبات بل تَقْرُبُ من الواجبات . وقال القاضى ابن كج من أصحاب الشافعية : إذا نذر أن يزور قبر النبى صلى الله عليه وسلم فعندى أنه يلزمه الوفاء وجهاً واحداً ، وإذا نذر أن يزور قبر غيره ففيه وجهان ، والقطع به هو الحق لأنه قُربة مقصودة للأدلة الخاصة فيه ، وقد وجب من جنس ذلك الهجرة إليه فى حياته صلى الله عليه وسلم .

آداب الزيارة :

ومن الآداب التى يراعيها الزائرُ إذا دخل إلى حرم المدينة أن يقول بعد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أى يتقرب المؤمن بها إلى الله تعالى .

(٢) فليس المقصود من الحديث النهى وإنما هو لبيان فضيلة المساجد الثلاثة عما عداها ، وكان صلى الله عليه وسلم يشد رحاله إلى مسجد قباء وهو غير الثلاثة .

(٣) كأنه يود أن يقول الزائر : أدينا واجب الزيارة بدلا من زرنا ، لأن الزيارة سنة واجبة .

اللهم إنّ هذا هو الحرم الذى حرّمته على لسان حبيبك ورسولك صلى الله عليه وسلم ودعاك أن تجعلَ فيه من الخير والبركة مِثْلَىْ ما هو بحرم بيتك الحرام فحرّمْنى على النار ، وأمِنّى من عذابك يوم تبعث عبادَك ، وارزقنى ما رزقته أولياءك وأهل طاعتك ، ووفقنى فيه لحسن الأدب وفعل الخيرات وترك المنكرات .

وفى كتاب الشفا أن أبا الفضل الجوهرى لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجّل (نزل عن دابته) باكيًا وأنشد :

ولما رأينا رَسْمَ منْ لم يدَع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم[1] ولالُبّا
نزلنا عن الأكوار[2] نمشى كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبـا

ومن آداب الزيارة أن يبتدئ الزائر بتحية المسجد قبل أن يأتى القبر الشريف ، وهذا قَوْل الإمام مالك ، ورخّص بعض المالكية فى تقديم الزيارة على الصلاة وقال كل ذلك واسع ، وقال ابن حبيب : يقول الزائر إذا دخل : باسم الله والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم — يريد أنه يبتدئ بالسلام فى موضعه — ثم يركع[3] ، ولو كان دخوله من الباب الذى بناحية القبر ومروره عليه فوقف فسلم ثم عاد إلى موضع يصلى فيه لم يكن ضيقاً[4] ، يريد ابن حبيب الإتيان أولاً بالسلام المستحب لداخل المسجد لحديث :

« إذا دخل أحدكم المسجد فيسلم على النبى صلى الله عليه وسلم »

ويتوجّه بعد تحية المسجد إلى الضريح الشريف ، مستعيناً بالله فى رعاية الأدب بهذا الموقف المُنيف[4] ، فيقف بخضوع ووقار ، وذلة وانكسار ، غاضّ الطرف ، مكفوف الجوارح ، واضعًا يمينه على شماله كما فى الصلاة فيما قاله الكرمانى من الحنفية ، مستقبلا للوجه الشريف ، ولا تقرب من قبره إلاّ كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان على قيد الحياة .

---

(١) الرسم هو الأثر .

(٢) الكور جمعها أكوار أى الرحل والمعنى أنه لم يرد أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا بل نزل عن ظهر البعير احتراماً و إجلالا لمقامه الشريف حيث بدت معالم المدينة المنورة .

(٣) أى يصلى تحية المسجد .

(٤) أى مباح .

(٤) المهيب .

وقال المجد اللغوى : روينا عن عبد الله بن المبارك قال : سمعتُ أبا حنيفة يقول : قَدِمَ أيوب السختيانى وأنا بالمدينة فقلت لأنظُرنّ ما يصنع ، فجعل ظهره مما يلى القبلة ووجهه مما يلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى غيرَ مُتَبَاكٍ[١] فقام مقام رجل فقيه . وعن أصحاب الشافعى وغيره يقف وظهره للقبلة ووجهه إلى الحضرة[٢] وهو قول ابن حنبل . ولابن زُبالة عن سلمة بن وردان قال : رأيتُ أنس بن مالك إذا سلّم على النبى صلى الله عليه وسلم يأتى فيقوم أمامه .

ولينظر الزائر إلى أسفل ، ولا يشتغل بشىء من الزينة فإنه صلى الله عليه وسلم كما جاء فى « الإحياء » عالم بحضورك وقيامك وزيارتك له ، فمثّل صورته الكريمة فى خيالك ، وأحضر عظيم رتبته فى قلبك ، ثم قل من غير رفع صوت ولا إخفاء ، مع مراعاة الحياء والوقار :

السلام عليكَ أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاته (ثلاثا) السلام عليك يا رسول رب العالمين ، السلام عليكَ يا خير الخلائق أجمعين ، السلام عليكَ يا سيد المرسلين وخاتم النبيين ، السلام عليكَ يا إمام المتقين ، السلام عليك يا قائد الغُرّ المحجّلين ، السلام عليك أيها المبعوث رحمة للعالمين ، السلام عليك يا شفيعَ المذنبين ، السلام عليكَ يا حبيبَ الله ، السلام عليكَ ياخيرة الله ، السلام عليك يا صفوة الله ، السلام عليكَ أيها الهادى إلى الصراط المستقيم ، السلام عليكَ يا من وصفه الله بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) وبقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) السلام عليك يا من سبّح الحصى فى يديه وحنّ الجِذْعُ إليه ، السلام عليكَ يامن أمرنا اللهُ بطاعته والصلاة والسلام عليه ، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وملائكة الله المقربين ، وعلى آلك وأزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين ، وأصحابك أجمعين ، كثيراً دائماً أبداً كما يحب ربنا ويرضى ،

---

(١) بكى فعلا .

(٢) الوجه الشريف .

جزاك الله أفضلَ ما جزي رسولا عن أمته ، وصلّى الله عليكَ أفضل وأكملَ وأزكى وأنْمىَ صلاة صلاها على أحد من خلقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أنّكَ عبده ورسوله وخيرته من خلقه ، وأشهد أنّكَ قد بلّغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونَصحْتَ الأُمة ، وكشفت الغمّة ، وأقمت الحجّة ، وأوضحت المَحَجّة(١)، وجاهدتَ فى الله حق جهاده ، وكنتَ كما نَعَتَكَ اللهُ فى كتابه حيث قال :

(لقَدْ جَاءَكمْ رَسُول مِنْ أَنفسِكمْ عَزِيز عَلَيْهِ مَا عَنِتمْ حَرِيصٌ عَلَيْكمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم) . فصلوات الله وملائكته وجميع خلقه فى سمواته وأرضه عليكَ يا رسول الله ، اللهم آته الوسيلةَ والفضيلة ، وابعثه مقامًا محموداً الذى وعدته، وآته نهاية ما ينبغى أن يسأله السائلون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدَر خيره وشره، اللهم فثبتنى على ذلك ، ولاتردنا على أعقابنا ، ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وَهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

اللهم صلى على سيدنا محمد عبدك ورسولك ، النبيّ الأمىّ ، وعلى آله وأزواجه وذريته ، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

هذا ومن ضاق عليه الوقت أو عجز عن حفظ ذلك ، فإنه يقتصر على بعضه وأقلّه : السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم .

وفى المُسْتوْعَب لأبى عبد الله السامرى الحنبلى : ... ثم يأتى حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره ويذكر السلام والدعاء ومنه : اللهم إنك قلت فى كتابك لنبيك عليه الصلاة والسلام : (ولو أَنّهمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفسَهمْ جَاءُوك فَاسْتَغْفَروا الله

---

(١) الطريق المستقيم .

واستغفر لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تواباً رَحيماً) ، وإنى أتيت نبيّك مستغفرًا فأسألك أن توجب لى المغفرة كما أوجبتَها لمن أتاه فى حياته .

وعن ابن عمر — رضى الله عنه — وغيره الاقتصار جداً . وعن الإمام مالك رضى الله عنه يقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ؛ واختار بعضهم التطويل ، وعليه الأكثر .

ثم إن كان أوصاك أحد بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل :

السلام عليك يا رسول الله من فلان بن فلان ، أو تقول : فلان بن فلان يُسلّم عليك يا رسول الله ، أو نحو ذلك .

ثم يتحرك الزائر إلى يمينه قدر ذراع ، فيصير تجاه سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول : السلام عليك ياسيدنا أبا بكر الصديق ، يا صفىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانيه فى الغار ، ورفيقه فى الأسفار ، جزاك الله عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الجزاء .

ثم يتحرك إلى يمينه مرة أخرى قَدْرَ ذراع فيصير تجاه سيدنا عمر ، فيقول : السلام عليك يا سيدنا عمر الفاروق ، الذى أعز الله به الإسلام ، جزاك الله تعالى عن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير الجزاء . هذا ما ذكره الإمام النووى وغيره .

وذكر ابن حبيب (المالكى) السلام والثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعطف عليه قوله : السلام عليكما يا صاحبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيرى صدق فى حياته ، وخلّفتماه بالعدل والإحسان فى أمته بعد وفاته فجزاكما الله تعالى على ذلك مرافقته فى جنته وإيانا معهم برحمته .

قال الإمام النووى وغيره : ثم يرجع الزائر إلى موقفه قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتوسل به ويشفع به إلى ربه .

ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول مخاطبًا له صلى الله عليه وسلم :

مدحتُ المالكين فــزدتُ قدراً وحين مدحتك اقتدت السحابا

سألت الله في أبناء ديني فإن تكن الوسيلة لى أجابا
فما للمسلمين سواك حصن إذا ما الضر مسّهمو ونابا

وقال بعضهم فى شعر رقيق :

من زار قبر محمد نال الشفاعة فى غد
بالله كرر ذكره وحديثَه يا منشدى
واجعل صلاتك دائماً جهراً عليه تهتدى
فهو الرسول المصطفى ذو الجود والكف النّدى
وهو المشفع فى الورى من هول يوم الموعد
والحوض مخصوص به فى الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا مالاحَ نجمُ الفرْقَد

شيخي والحجاز :

وفى هذا المقام أضع تحت نظر القارئ الكريم بعض ما تغنى به إلهاماً فَوْرياً من عطاء الله لأوليائه شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل قدّس الله سره ؛ فقد قال يوماً فيما قال من كلام طويل :

دع زماناً مضى وَعُدْ بى لأرض شغفتنى بنورها المتَلالى
بين بيداء روعت ووهاد وذئاب تختال فى إقبال
ونجوم مثل الحُباب على الكأس تسامت أو كالحُلَى واللآلى
قيل ماذا تريد من هذه الأرض أتبْغِى البقاءَ فى جمع مال
قلت والله غيرُ أحمد مالى بَعْدَ ربِّ العباد من آمال
يا حبيبي رضاك دنيا ودين فهما باتباعكم صَحَّالى

بشرى الوصول :

وأذكر أنه حين سَعدتُ بزيارة المدينة المنورة لأول مرة (فى عام ١٩٣٤م) كان معى صديقى المرحوم الشيخ محمد محروس محرم وكان فى ذلك الوقت واعظاً لمركز الأقصر ، والتقى بنا « المدَعى »[١] الذى يصحبنا فى زيارة الآثار المباركة ،

---

(١) كلمة عامية تطلق على من يرشد الزائر إلى المزارات بالمدينة المنورة .

فطلب من الشيخ مـبلغـاً لأتعابه فاستكثره الشيخ وقال له إننا علماء ولسنا فى حاجة للإرشاد كغيرنا ، فرد عليه « المدعى » وقال : وهل نحن نأخذ منكم أجرة ؟ قال لقد طلبت مبلغاً كبيراً ، فقال إنه ليس أجرة ولكنه بشرى وصولكم للمدينة المنورة ، فطربت من تلك الإجابة وأقسمت على صديقى أن يعطيه ما طلبه كاملا غير منقوص ، فأعطاه ما طلب ، فلله ما أرق الطلب وما أسمى الأدب . ولئن سمّاها « المدعى » بشرى الوصول فإنى أسميها بشرى الوصال ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لا يزار إلا بإذنه ، وما أسعد الزائر فى دنياه بإذنه الشريف ، وفى أخراه بشفاعته يوم يقوم الناس لرب العالمين .

سيدى العارف الحلوانى الكبير والملائكة :

ومما وقع لسيدى العارف الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه (وهو والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه) أنه بات ليلة بالحرم النبوى بإذن الوالى ، واستمر طول الليل يقرأ القرآن ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف مستقبلا القبر الشريف على صاحبه أفضل وأزكى تحية ، فبينما هو كذلك رأى أشخاصاً نورانية نازلة من السماء على القبر الشريف ، فأدرك فى الحال أنها من الملائكة ، وكان معه الشيخ محمد الغرباوى البلقاسى وكان نائماً ، فأيقظه ليُريَه هذه الأنوار ، فدهش ورُعب ، فأشار عليه سيدى الشيخ الحلوانى بالنوم ، قال : وبقيت هذه الأنوار إلى الفجر .

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى رضى الله عنه — كما جاء فى كتاب « الفيض الرحمانى » الذى ألفه ابنه المبارك المرحوم الشيخ محمد عبد العزيز الحلوانى غفر الله له « ذكر ابن حجر المكى فى كتابه الجوهر المنظم ، كما ذكر البرزنجى فى كتابه نزهة الناظرين ، روى ابن المبارك والإسماعيلى وابن بشكوال والبيهقى والدارمى وابن الجوزى عن كعب الأحبار أنه « ما من يوم وليلة إلا وينزل عند الفجر سبعون ألفاً من الملائكة يحفّون بقبر النبى صلى الله عليه وسلم ويصلُّون عليه إلى الليل ، ثم ينزل سبعون ألفاً كذلك الفجر وهكذا . . . إلى أن يقوم صلى الله عليه وسلم من قبره فى سبعين ألفاً يزفونه وفى رواية يوقّرونه » .

رأى العلامة ابن حجر :

ويقول العلامة ابن حجر ، فإن قلتَ ما معنى يصلّون عليه مع إفادة آية (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) أن جميع الملائكة مع كثرتهم التى لايحيط بها إلاّ خالقهم يصلون عليه دائمًا ، قلتُ معناه أن هؤلاء السبعين ألفًا يُؤمرون بصلاة مخصوصة مناسبة لوقوفهم فى حضرته صلى الله عليه وسلم .

إكرام والدتى فى الرحاب النبوى :

وقد حدثتنى المرحومة والدتى عليها الرضوان (وكانت من الصالحات القانتات المباركات كما كانت مستجابةَ الدعوات) بما أكرمها الله به عندما تشرّفتْ لأول مرة بزيارته صلى الله عليه وسلم فقد استُقْبِلت من جهة القبر الشريف بعطر زكى جداً وقعت نقطة منه على وجهها ونقطة أخرى على خمارها ، وقالت ما شممت فى حياتى رائحة أزكى منه بل ولا رائحة تقاربه ، وأضافت طيّب الله ثراها أن الرائحة الزكيّة بقيت فى خمارها ستة أشهر ، وحين حدثتنى بذلك قلتُ لها لاتَقُصّيه على غيرى ، فإن ذلك مما يحسدك الناس عليه .

بين شاب صالح وبينى :

ومن طريف ما وقع لى فى إحدى زياراتى للمدينة المنورة ، أنّى لقيتُ شابًا صالحًا من بنى وطننا العزيز فقال لى : ألست السيد حسن الملطاوى ؟ قلت : بلى إننى هو ، هل رأيتنى قبل ذلك ؟ قال : نعم ، إنك حاضرتنا فى جمعية الشبان المسلمين بمغاغة فى سنة ١٩٤٨ ، ومن يومئذ أعرفك ، فتذاكرنا معًا فى زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فيها من الأنس والسعادة والبركة . وقلتُ له : أتدرى أيها الأخ . لولا كرم ضيافة الرسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعه . لما استطاع القادم أن يُقْرِئه السلام لما أعطاه الله من الهيبة التى تخرس الألسنة . فبدا عليه التعجب وقال : كأنك تصف ما وقع لى فى أول وقفة بين يديه صلى الله عليه وسلم . قلت : فماذا كان من أمرك : قال : حُبِسْت عن الكلام فلم أستطع سلامًا ولا قولا . وانصرفت عاجزاً . وقلت فى ذلك شعراً ، فسألته عما قال

فكان مما رواه من شعره وأذكره :

عَجَبٌ لسانٌ عند قبرك يَنْطِق   خُرْسُ الشِّفاه لديك هن الأصدق
غَشَّى الجلالُ لديك كلَّ مشاعرى   فوقفت مضطربًا وقلبى يخْفقُ

مرارة الفراق :

وإذا كان ذلك فى لحظات اللقاء ، فإنك تقدر الشدة التى يلقاها الزائر عند الوداع ، وقد كان يزاملنى فى الزيارات الصديق الصالح المرحوم الحاج محمود جنوب ، وكان تاجراً بشارع الأزهر ، وفى مرة بكى عند مغادرة الحرم الشريف مودعًا ، فقلت له : لاتبكِ فإننا عائدون إن شاء الله كل عام : فقال : وهل يَخفَف عنى ألمَ الفراق إلا نية العوْدةِ ، فأعجبنى هذا المعنى ، وعندما عدت للوطن العزيز ، رجوت صديقى الوفىّ المرحوم الشاعر الأديب محمد جاد الرب ، أن يصوغ ذلك المعنى فى بيتين من شعره العبقرى الذى يُعجبنى كلَّ الإعجاب ، فقال غفر الله له :

أسكان دارِ العزّ حان رحيلنـا   على رغمنا منى السلامُ عليكمو
وليس يسلينى عن البعد عنكمو   سوى نيّتى أنى أعود إليكمو

فأطربنى ما قال .

تحية القدوم عند تكرار الزيارة :

ثم رجوته أن يصوغ على لسانى أبياتاً أنشدها بين يديه صلى الله عليه وسلم إذا قدمت عليه فى زيارة لاحقة ، فقال طيب الله ثراه :

لقد عدْنا وكان العَوْدُ أحمد   سـلامًا يا حبيبى يا محمـد
سعيدٌ مـن يُحبُّك من بعيد   ومن يسعى لبابك كان أسعـد
فَجُدْ بالوَصْلِ للمشتاق فضلا   فأنت من السحاب الجوْدِ أجود
وصلى عليـه يـاربى وسـلم   ووفّق كلّ مشتاق ليشهـد

فقلت له : أرجو أن تغير الشطر الثانى من البيت الأول ، قال ولِمَ ؟ قلت لا أستطيع أن أخاطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال إنى قصدت

أن يختم الشطر الأول بأحمد والثانى بمحمد ، ولا يعاب فى الشعر أن يذكر باسمه صلى الله عليه وسلم ، قلت إنى لا أتكلم فى سلامة الشعر ولكنى أتكلّم فى مذاق الزيارة وأدبها ، قال : إنى أعتذر من تغيير ليس له فى رأيى مقتض ، فقلت إنك صنعت الشعر على لسانى لا على لسانك أو لسان غيرى ، وأنا الطالب وأنت المتفضل بتحقيق ما طلبتُ ، قال : ولكنى أعتذر :

فضحكت وقلت: ستضطرنى أن أغير الشطر بنفسى ولو أنى لست شاعراً أو أديباً مثلك ، قال فماذا تقول ؟ قلت : أقول ما أحب ، دون تمحل الشعراء، فألح أن يسمع منى ما أحب أن أقوله ، فقلت :

لقد عدنا وكان العود أحمــد سلاما يا مُقـَرَّب يا مُؤيَّــد

فقال : التركيب الأول أحسن ، قلت له : ولو ، وضحكنا . اللهم اجمعنا بأحبابنا الذين سبقونا بالإيمان فى مستقر رحمتك يا أرحم الراحمين .

واجبات الزائر بالمدينة المنورة :

وعلى الزائر فى أثناء إقامته بالمدينة أن يتصدّق بما يستطيع ، وأن يُكْرِم أهل المدينة باعتبارهم جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويخص برعايته وأدبه السادة الأشراف من سادتنا آل البيت لحديث مسلم « أذكركم الله فى أهل بيتى » وما أرق قول القائل :

فياساكنِى أكنافَ طيْبةَ كلُّكُم إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

وليغتنم الزائر فى أثناء إقامته بالمدينة ملازمة المسجد إلا لمصلحة راجحة ، وليحرص على ختم القرآن العظيم به ، وعلى أن يبيت فيه ولو ليلة يُحْيِيها بالقيام والطاعة .

المزارات بالمدينة المنورة :

يُستحب الخروج إلى البقيع كل يوم بعد السلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم خصوصاً يوم الجمعة قاله الإمام النووى ، وليأت قبور الشهداء بأحد ، ويزور جبلَ أحد فى الصحيح : «أحدٌ جبلٌ يُحبنا ونُحبه» . ويُستحب استحباباً

متأكداً إتيان مسجد قباء وهو فى يوم السبت أولى ، فيتوضأ ويذهب إليه ، ويستحب إتيان بقية المساجد والآثار المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم . وفى مناسك الإمام خليل المالكى بعد ذكر استحباب زيارة البقيع ومسجد قباء ونحوهما : وهذا فيمن كثرت إقامته وإلا فالمقام عنده صلى الله عليه وسلم لاغتنام مشاهدته أحسن .

وليلاحظ الزائر مدةَ إقامته بالمدينة جلالَتها ، وتردده صلى الله عليه وسلم فيها ، ومشيه فى بقاعها ، ومحبته لها ، وتردد جبريل عليه السلام بالوحى فيها ، ولا يركب بها دابة ، وقد كان الإمام مالك يقول : إنى أستحيي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، وفى رواية أخرى : أخشى أن يقع حافرُ الدابة فى محل مشى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أدب مغادرة المدينة :

وإذا أراد الزائر مغادرة المدينة المنورة ، فليودع المسجد النبوى الشريف بركعتين بالمصلى النبوى إن أمكن أوما قرب منه، ثم يقول بعد الحمد والصلاة والسلام :

اللهم إنى أسألك فى سَفَرِنا هذا البِرَّ والتقوى ، ومن العمل ما تُحب وترضى ، إلى غير ذلك مما يستحب للمسافر ، ويدعو فيما يدعو به قائلا : اللهم لاتجعله آخر العهد بهذا الحرم ، ويَخْتِم بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، ويأتى القبر الشريف ، ويسلم ويدعو بما تقدم أولا ويقول : نسألك يا رسول الله أن تسأل الله تعالى ألا يقطع آثارَنا من زيارتك ، وأن يعيدنا سالمين ، وأن يبارك لنا فيما وهب لنا ، ويرزقنا الشكر على ذلك .

اللهم لاتجعله آخر العهد بحرم رسولك صلى الله عليه وسلم وحضرته الشريفة ، ويسِّر لى العَوْد إلى الحرمين سبيلا سهلة ، وارزقنى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

والأصل فى صلاة الركعتين حديث « كان لايَنْزِل[1] منزلا إلاّ ودّعه بركعتين »، ويكون الزائر بعد انصرافه متعلق القلب بالزيارة ، مشتاقًا إلى تكرارها كما قيل :

---

(١) أى الرسول صلى الله عليه وسلم .

أحنُّ إلى زيارةِ حيِّ ليلى ... وعهدى من زيارتها قريب
وكنت أظن قُربَ الدار يُطفى ... لهيبَ الشوقِ فازداد اللهيب

وينوى الزائر بعد ذلك أن يلتزم التقوى، ويحذر المعاصى حتى يلقى الله تعالى ، وليكن على باله قوله تعالى فى سورة الفتح : (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيماً) .

عطف نبوى كريم :

وقد عطف علىَّ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى زياراتى . وكان ذلك العطف أحب إلىَّ والله مما طلعت عليه الشمس . فمنذ أكثر من عشرين عامًا كنت متشرّفًا بزيارته ، وأردت أن أرحل إلى مكة المكرمة معتمراً وحاجًّا ، فاغتسلت ولبستُ ملابس الإحرام استعداداً لعقد النية بالعمرة فى مطار المدينة ، ودخلت الحرم للتوديع ، وتشرَّفت بالوقوف بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وخرجتُ لأركب السيارة من ميدان المناخ ، وبينما أنا سائر فى شارع العَيْنيَّة . وإذا بصوته الشريف يرِن فى أذنى بقوله المبارك : شيَّعتْكم السلامة ، ولم يكن لى عهد بلفظ شيعتّكم إذ كان المعروف لنا : رافقتكم أو صَحِبتكم . فما كدت أسمع صوته الشريف حتى داخلتنى حالة روحانية ، فانهلَّت دموعى على خدى وتوالت ،

فلم أملك دموعَ العين منّى ... ولا النفس التى جاشت مرارا

وظن من معى أن ذلك البكاء من أثر الفراق ، ولم يدر أنه من أثر الحنان الأبوىّ والعطف النبوىّ على ضعفاء الأمة .

ثم وصلنا إلى المطار ، وركبنا طائرة من طراز « داكوتا » كانت من مخلفات الحرب ، وما كادت تصعد فى السماء حتى تعرضت للمطبات الجوية ، فإذا هى تنزل حتى نقول لا تَصْعَد ، وتصعد حتى نقول لاتنزل . واضطرب الركاب ، وخرج مساعد الطيار ليطمئنهم ، ومنهم من تقايأ ، ومنهم من تغيّر لونه وامتقع ، فكنت أقول لهم : لا تخافوا ففيها سلامة إن شاء الله ، وأدركت سرَّ ذلك العطف عندئذ ،

وأنه صلى الله عليه وسلم طمأننا بلغة الجمع لا بلغة المفرد فقال « شيّعتكم السلامة » لتشمل الجميع سلامة الله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكانت كلمته سكنًا لنا جميعًا . فما أبرّه صلى الله عليه وسلم. وما أرأفه بالمؤمنين وما أرحمه بزائريه .

صديق يحيى :

وأمتع القارئ الكريم بأبيات من قصيدة حيّاني بها صديقي العبقري الشيخ الصاوي شعلان من نحو عشر سنين ؛ وكنت قد عدت من العمرة والزيارة وسكنْتُ داري التي بنيتُها بمدينة الأوفاف . قال عفا الله عنه ومدّ في عمره :

بالله كيف شهدتَ أنوار الحِمَى ... تشفي بمرآها المحبَّ المغرما
ودخلتَ من باب السلام على الذي ... صلى عليه ذو الجلال وسلما
وسعدت يا حسنَ الرضا برحابه ... فبلغت تكريمًا وعدت مكرَّما
ووقفتَ بين الصاحبَيْن تخشُّعا ... وكأنما القمران فيضٌ منهما
في باب جبريل ومهبطِ وحْيه ... يجد الدعاءُ إلى الإجابة سُلَّما
ورأيت جنات البقيع نواضراً ... تختال أجداثًا وتشرق أعظما
أصغيت في أحُد إلى شهدائه ... قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
جمعتهم الفردوسُ تحت ظلالها ... بالسفح أقماراً تضيء وأنجما
في كعبة الله اعتمرت مقبّلا ... من وجهها الركنَ العليَّ الأعظما
ومن الطَّواف إلى المقام إلى الصفا ... يا فوز مشتاق سعى وترسما
المرءُ يكرم ضيفَه بشرابه ... والله أكرمُ حين يَسقي زمزما
يستقبل البيت الجديد مناره ... لو يستطيع مشى إليك مُسَلِّمَا
هو منزل في مسجد في روضة ... وجد المواهبَ كلَّها من يَمَّما

البَابُ السَادسَ عشَر

التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم

الرسول باب الله :

أكثر المعترضون على التوسل ، وقالوا ما قالوا ورموا المتوسلين بالكفر ، والأمر من البساطة بحيث لا يحتمل كل ذلك الجدل العقيم .

فالمتوسل حين يتوسل إلى الله برسوله صلى الله عليه وسلم ،إنما هو لاجئ إلى الله تعالى لا إلى غيره ، فإنّ رسوله صلى الله عليه وسلم هو بابه بدليل قوله تعالى : (وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ) ، فقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ولم يَرَ اللهُ فى ذلك كفراً ، بل قال سبحانه : (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنوا بِى لَعَلَّهمْ يَرْشُدُون) . ومثل ذلك فى كتاب الله كثير : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هوَ أَذًى) ، و (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) . ولم يقل الله لماذا يسألُونك عنى ؟ ولا يسألون الله مباشرة فيجيبهم مباشرة ، بل أقر سبحانه لجوءهم فى السؤال إلى رسول الله وأجابهم على ما سألوا عنه رسول الله . وأما إنه سبحانه لم يقل لرسوله قل لهم (إنى قريب) على غير ما أجاب به الأسئلة الأخرى فلأن سؤالهم كان عن « الله تعالى » بدليل قوله (عنى) فمن الطبيعى أن تكون الإجابة (فإنى قريب) وهى جواب الشرط (وإذا سألك . . .) بينما تم سؤالهم فى المسائل الأخرى بدليل قوله تعالى ويسألونك ، كما أنك تلاحظ أن قوله « قل » لأن المسئول هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعلّمه الله الجواب بقوله تعالى (قل . . . .) والتوسل برسول الله ليس معناه ترك سؤال الله بل هو لجوء إليه من بابه الذى جعله رحمة للعالمين ، وإليك التفصيل .

تبليغ الدعوة :

إن الله دعانا إلى الإيمان على يد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخاطبنا بالقرآن الكريم الذى أوحاه الله إليه وعهد إليه بإبلاغه ، ولم يجعل الله رابطته بعباده رابطة مباشرة ، بل جعلها بالواسطة . لا بل إنَّ وحيه وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالواسطة ، قال تعالى فى سورة الشعراء : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين) ، وجعل الله بيعته بيعة لله (إِنَّ الَّذِين يُبَايِعُونك إِنَّمَا يُبَايِعُون الله) ، لأنه رسول ربه للناس .

الرسالة المحمدية رحمة :

ورسالته صلى الله عليه وسلم قامت على الرحمة ولم تقم على الغضب؛ فى الحديث القدسى «سبقت رحمتى غضبى» وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فجعله تعالى مناولاً للرحمة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم: « إنما أنا قاسم والله مُعْطٍ » كما قال صلى الله عليه وسلم: « إنما أنا رحمة مهداة» ومع أن الله تعالى هو الفعّال لما يشاء فإنه أقامها أسبابًا لتؤتى ثمرتها بإذن مسببها سبحانه ، فيخلق الأرض للنبات . فإذا قُلْتَ أنبتتْ الأرضُ الزرعَ فالمعنى أنها أنبتته بإذن خالق الأرض ، فهو على المجاز لا على الحقيقة .

معرض التوحيد ومعرض الأسباب :

فهناك معرضان لابد من الفصل بينهما ، معرض التوحيد ، ومعرض الأسباب التى أقامها الله لتؤتى ثمرتها بإذنه ، أما فى معرض التوحيد فليس مع الله أحد لا كبير ولا صغير . فهو المقدّر وهو المدبّر وهو الرازق وهو المعطى وهو الشافى . .

إلخ ، فالله فعّال لما يشاء فى قضائه الذى هو من سلطانه المطلق ، لكنه تعالى شاء أن يرزق البعض بالبعض ، ويُعَلِّم البعض بالبعض ، بل ويخلق البعضَ بالبعض .

اللجوء للأسباب لا ينافى التوحيد :

واللجوء للسبب ليس معناه الانصراف عن المسبب ، فإنى ألجأ إلى الطبيب باعتباره أداة أقامها الله لعلاج الأمراض مع ثقتى فى أن الشفاء من عند الله (وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) ، فأنا لاجئٌ إلى الله بالأسباب التى أقامها ومعتمد عليه فى أن تؤتى ثمرتها بإذنه . وقد كلفنا الله أن نسعى للمعاش ونتخذ الأسباب مع أنه هو وحده الرازق ، لكنه جعل للرزق أسباباً يطرقها المسترزقون بأمره ليعطيهم ما قسم لهم من الرزق ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

وما هو كائن فى أمور الدنيا على يد البعض للبعض ، يقوم مثله فى أمور البرزخ حين ينتقل العباد من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ ، فمع أنه سبحانه هو الغفور الرحيم ، فقد أمرنا بصلاة الجنازة على موتانا ، فندعو لهم فى صلاة الجنازة بالمغفرة ، فإن لم نُصَلِّ عليهم كنا عنده من الآثمين ، فشاء سبحانه أن يَشْفَعَ الأحياءُ للأموات فى صلاة الجنازة من باب ربط الثمرات بأسبابها — وليس فى هذا تقييد لله ، ولا انصراف عنه ولا إشراك به ، بل فيه تضرّع ودعاء ولجوء له ، وأمل فيه من طريقِ شرْع الله وهو سبحانه الغيور على توحيد ذاته ، وهو ما يفيد انتفاع الميّت من صلاح الحى لأن صلاة الجنازة عمل صالح .

وعكس هذه الصورة واقع بنص كتاب الله ، فقد شاء سبحانه أن يحفظ للغُلامَيْن اليتيمين كنْزهُما حتى يَبْلغا أشدّهما ، فأوحى للخضر عليه السلام أن يقيم الجدار على الكنز ، وبيّن سبحانه أن ذلك منه رعاية لأبيهما الصالح فى ذرّيته من بعده ، فقال تعالى : (وأمّا الجِدَارُ فكان لِغُلَامَيْنِ يَتِيميْنِ فى الْمَدِينةِ وَكان تحْتَهُ كَنزٌ لهُمَا وَكان أَبُوهُمَا صَالِحًا فأَرَادَ رَبُّك

أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى : ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) . وهو ما يفيد قطعاً انتفاع الحى من صلاح الميِّت بعد موته .

وقد جمع الله تعالى بين معرض التوحيد ومعرض الأسباب فى قوله تعالى : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ) . فقد أسلم سيدنا زيد ، وأُعتق من الرق ، وتزوّج بالسيدة زينب بنت جحش ، وكان ذلك كله على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسببه ، فجعل الله رسولَهُ مُنعمًا على زيد من باب السببية ، والله سبحانه وتعالى منعم بقضائه وقدره ، وكان تنفيذ قضائه على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نعت الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإنعام مع أنه لا مُنْعِم إلا الله تعالى ليبين أنَّ إنعام السبب هو من إنعامه جل جلاله ، وليس فى ذلك ما ينافى توحيد الله تعالى .

وشاء الله أن يدفع الناسَ بعضَهم ببعضٍ فقال تعالى فى سورة البقرة آية ٢٥١ : (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) ، وبيّن سبحانه الحكمة من دفع الناس بعضهم ببعض ، فقال تعالى فى سورة الحج آية ٤٠ : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) ، وهو ما يفيد أن الله يكرم الناس بصالحيهم العاكفين على العبادة فى دور العبادة ، وقد أكرم الله الكفَّار فى مكة بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم فقال تعالى فى سورة الأنفال الآية ٣٢ ، ٣٣ : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ

هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ معَذِّبَهُم وهم يَسْتَغفِرون) .

وفى مَعْرض التوحيد يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إنَّكَ لا تَهدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلِكنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ) . وفى مَعْرِض الأسباب يقول له سبحانه : (وإنَّكَ لَتَهْدِى إلَى صِرَاطٍ مسْتَقِيمٍ) ، أى تهدى مَنْ قضى اللهُ أن يهتدى . فليس بين المعرضين تصادم ، بل هو الحق من ربك ، فهو المسبب ، والأسبابُ أسبابُه ولا يكون لها ثمرة إلا بإذنه : (وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى) .

وهذا يفسر لك كيف قال جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام : (إنمَا أنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهبَ لَكِ غُلَاماً زكيا) . وليس فى مقدور جبريل أن يهبها غلاماً بنفسه ، ولكنه استند إلى سلطان الله الذى آتاه وقال فى ثقة بربه (لأَهبَ لك غلاماً) . لأنه تعالى قال له اذهب بأمرى فهب لها غلاماً بإذنى وقُدرتى .

وكذلك قول سيدنا المسيح عليه السلام : (وأُبْرِئُ الأَكْمه والأَبْرَص وأُحْيِى الْمَوْتَى بإذنِ الله) ، وأيضا قول سيدنا موسى عليه السلام : (ربِّ إنى لا أملكُ إلاَّ نَفْسِى وأخى) وهو لا يملك على الحقيقة نفسه ولا أخاه ، وإنما الله ملَّكه نفسه وأخاه – فقد قال تعالى : (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) .

وسخَّر اللهُ الملائكةَ فى الاستغفار للمؤمنين وكشف الله لنا عن فضله فى ذلك فقال تعالى فى سورة غافر الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ : (الَّذِينَ يَحْمِلونَ العَرْش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤمِنُونَ بهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمنُوا رَبَّنَا

وسِعْتَ كلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وقِهِمْ عذَابَ الجحيم * رَبَّنَا وأَدْخِلْهُم جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ من آبائِهِم وأَزْواجِهِم وذُرِّياتِهِم إنك أنت العزيز الحكيم * وقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذ فَقَدْ رحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

إذا فَصَلْنا بين المعرضين معرض التوحيد ومعرض الأسباب ، وربطنا بينهما برابطة القضاء وتنفيذه بأسباب ، أجزنا فى غير حرج التوسّلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربّه ، وكذلك التوسل بالصالحين من عباد الله المتقين الذين قال تعالى فيهم : (إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم) .

أقوال العلماء :

وإليك ما يقوله الإمام السمهودى رضى الله عنه فى كتابه خلاصة الوفا :

التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسير السلف الصالحين .

آدم يتوسل :

وقد صحح الحاكمُ حديثَ : لما اقترف آدمُ الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم لَمـَّا غفرت لى[1] ، فقال : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىَّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، فعرفت أنك لم تُضيفْ إلى اسمك إلاّ أحبَّ الخلق إليك فقال الله صدقت يا آدم إنه لأحبُّ الخلق إلىّ ، وإذ سألتنى بحقّه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ماخلقتك .

وقال سيدى العلامة الزرقانى : ولله در القائل حيث ضمن مضمون الحديث حاكياً عن سيدنا آدم عليه السلام فقال :

وكان لدى الفردوس فى زمن الصبا ... وأثوابُ شمل الأنس مُحْكمةُ السّدى
يشاهدُ فى عدن ضياءً مُشَعْشَعا ... يزيد على الأنوار فى الضوء والهُدَى
فقال إلهى ما الضياءُ الذى أرى ... جنودَ السما تَعْشُو إليه تَرَدُّدَا

---

(١) طلب المغفرة متوسلا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال نَبِيٌّ خيرُ من وطئَ الثَّرى وأفضلُ مَنْ فى الخَيرِ راح أو اغتدى
تَخَيَّرتُه من قبل خلقك سيِّداً وألبستُه قَبل النبيـــين سُؤددا
وأعددتُه يـــوم القيامة شافعـًا مُطاعـًا إذا ما الغير حَادَ وحَيَّدا
فيشفـَعُ فى إنقاذ كلِّ مُوَحِّد ويُدخله جنات عـــدن مُخلَّدا
وإنَّ له أسماء سمَّيتُه بها ولكننى أحْبَبْتُ منها محمدا
فقال إلهى امنُنْ علىَّ بتوبـــة تكون على غَسْلِ الخطيئة مَسْعَدَا
بحرمة هذا الاسم والزُلْفَةِ التى خَصصتَ بها دون الخليقة أحمدا
أقِلْنِى عِثَارِى يا إلهى فإنَّ لى عدوًّا لعينـًا جارَ فى القَصْد واعْتدى
فتاب عليه ربُّه وحمـــاهُ مـــن جِنَايةٍ ما أخْطَاه لا متعمِّدا

ضرير يبصر :

وللنسائى والترمذى عن عثمان بن حنيف أنَّ رجلا ضرير البصر أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقال : ادْعُ الله لى أن يعافينى ، قال : إن شئت دعوتُ وإن شئتَ صبرتَ فهو خيرٌ لك ، قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهمَّ إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيِّك محمد نبىِّ الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتُقْضى ، اللهم شفِّعه فىَّ » ، وصححه البيهقى وزاد « فقام فأبصر » .

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانوا إذا قحطوا استَسْقَوا بالعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فقال : اللهمَّ إنَّا كنا نتوسل إليك بنبيِّنا صلى الله عليه وسلم فتَسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم فاسقنا قال فيُسقون . وفى رواية للحافظ أبى القاسم هبة الله عن ابن عباس أن عمر رضى الله عنه قال : اللهم إنا نستسقيك بعمِّ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ونستشفع إليك بشيْبَته فَسُقُوا ، وفى ذلك يقول عباس بن عتبة :

بعَمِّى سقَى الله الحجازَ وأهلَه عشية يَستَسقى بشَيْبَتِه عُمر

وفى رواية للزبير بن بكار أن العباس رضى الله عنه قال فى دعائه : وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيِّك صلى الله عليه وسلم فاسْقِنا الغيث ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض . وفى رواية له عن ابن عمر أن ذلك عام الرمادة .

حكمة الاستسقاء بالعباس :

ويقول المعترضون : لماذا توسلوا بالعباس رضى الله عنه ولم يتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم إن كان التوسل به صحيحًا وجائزاً . فنقول لهم لأن الاستسقاء له صلاة تؤدى ، وهى ركعتان ، وهى سنة مؤكدة — ويندب بعدهما خطبتان ويعقبهما دعاء ، ولا يعقل أن يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم من قبره الشريف لتأدية ذلك .

ولو تدبر المعترضون قليلا لفطنوا أن السادة الصحابة اختاروا فى استسقائهم العباس رضى الله عنه لأنه عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأقرب الناس إليه ، فهو توسل بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سقاهم الله وسمى العباس رضى الله عنه « ساقى الحرمين » وقد قال العباس صراحة فى دعائه كما مر عليك : « وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك صلى الله عليه وسلم فاسقنا الغيث » وقد استجاب الله له .

وقد حكى أهل العلم عن الإمام العتبى (أحد شيوخ الإمام الشافعى رضى الله عنهما) — مستحسنين له — قال :

كنتُ جالسًا عند قبرِ النبى صلى الله عليه وسلم فجاءَ أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : (ولو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوَّابًا رَحِيماً) ، وقد جئتك مستغفرًا من ذنبى مستشفعًا بِكَ إلى رَبِّى ، ثم أَنشأَ يقول :

يا خيرَ من دُفنت فى القاع أعظُمُهُ ... فطابَ من طيبهن القاع والأكم
نَفْسِى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفافُ وفيه الجود والكرم

قال العتبى : ثم انصرف ، فغلبتنى عيْنَاىَ فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال : ياعتْبِىّ إلحَقْ الأعرابىّ فبشّره أن الله غفر له .

ويحكى الأصمعى رحمه الله أن أعرابيًّا وقف مقابل القبر الشريف فقال : اللهمّ هذا حبيبك ، وأنا عبدك ، والشيطان عدوّك ، فإن غفرتَ لى سُر

حبيبُك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفرلى غضب حبيبك ، ورضى عدوك ، وهلك عبدُك ، وأنت أكرم من أن تُغْضب حبيبَك ، وتُرضِى عدوَّك، وتهلك عبدك ، اللهم إن العرب الكرامَ إذا مات فيهم سيّد أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فاعتقنى على قبره .

قال الأصمعى فقلت : يا أخا العرب إن اللهَ قد غفر لك وأعتقك بحسن السؤال .

المحبة ليست شركاً :

وليت شعرى كيف يشكك الجاهلون فى محبته صلى الله عليه وسلم ويرمون المحب بالشرك ، أين المحبة من العبادة ؟ إننا نَتَشَهّد فى كل تَشَهُّد أنه عبد الله ورسوله ، فمن أين تأتى الشركة ؟ ومن أين يأتى اللبس ؟ وكيف لا أحبه بحب الله له ؟ وكيف لا أكرّمه بتكريم الله له ؟ وكيف لا أعظمه بتعظيمه له ؟ وقد جعل سبحانه اتّباعه صلى الله عليه وسلم الدليل على محبة الله تعالى فى قوله سبحانه :

(قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ، وهل اتباعه صلى الله عليه وسلم كان وقفاً على حياته ، أو هو قائم إلى يوم القيامة ؟ وهل أمرنا الله تعالى بالصلاة والتسليم عليه فى حياته أو إلى يوم القيامة ؟ وهل كان الخليفة الأول أبو بكر الصدّيق علم الأمة الأشهر جاهلا بالتوحيد حين حرص على أن يُدفن فى قبره صلى الله عليه وسلم وإلى جواره الحسى صلى الله عليه وسلم ؟ وهل جهل أمير المؤمنين عمر التوحيد حين استأذن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن يدفن إلى جانب صاحبه ؟ هل نرميهما بالشرك لأنهما أرادا أقرب جوار فى القبر الشريف وفضّلاه عن مقبرة المسلمين العامة ، وهل كان ابن عمر جاهلا حين كان يدخل المسجد النبوى ويسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان عمر بن عبد العزيز جاهلا حين كان يرسل عامل البريد للمدينة للسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان الإمام مالك جاهلا حين كان يقول : كيف أطأ بحافر دابة أرضاً تضم جسدَث النبى صلى الله

عليه وسلم ؟ أو حين استفتاه الخليفة المنصور فى الدعاء فيما إذا كان يواجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يستدبره ويتجه للقبلة ويدعو ؟ فأفتاه قائلا : وَلِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى، بل استقبله واستشفعه ، فَيُشَفِّعه الله تعالى : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابـًا رحيمـًا) .

ولم أرد بهذه الكلمة أن أقنع المعترضين، لأنهم لايقتنعون، ويتمسكون برأيهم فى تعصب شديد ، ولكنى أردت أن أطمئن المؤمنين الذين يتبركون بأسلافهم الصالحين ويتوسلون بهم إلى الله الذى أكرمهم فى جواره وهم السابقون بالخيرات بإذن الله ، وكفاهم شرفاً أن يقول تعالى فى أحبابه : (لهم مايشاءون عند ربهم) وهو سبحانه القائل : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعض) وقد سَنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعين بالصالحين حين استأذنه سيدنا عمر فى الخروج إلى مكة للعمرة فقال له : « لا تنسنى يا أخى من دعائك » فإذا كان الفاضل يجوز له أن يستعين بدعاء المفضول ، فكيف لا يستعين المفضول ببركات الفاضل ؟

وإذا كان لكل مؤمن شفاعة عند الله يومَ القيامة فلماذا لا تكون للمقربين شفاعة فى البرزخ ، وهو سبيل إلى الآخرة ، والله تعالى يقول فى شأنهم : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . ولا شك أنه مما تَقَرُّ به أعينُهم أن تجرى رحمةُ الله للمؤمنين على أيديهم ، وأن يُكْرِم الله زوَّارهم فى حاجاتهم ، وقد زاروهم زيارة خالصة لله وفى محبته تعالى ودعوا لهم بالمغفرة ، ويسرهم أن تكون لهم من الله الجائزة ، وهو سبحانه وتعالى صاحب الفضل على عباده أجمعين (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) .

بيان للناس :

أقول : وفرق بين حب الصالحين وعبادة الأوثان ، ولا محل إذن للتشكيك فى عقيدة المحبين بدعوى أن عُبَّاد الأصنام تقربوا بعبادتها وقالوا : إنما نعبدهم

ليقربونا إلى الله زلفى ، والمحبون لا يقولون : نعبدهم ، إنما يقولون نحبهم لأن الله أحبهم وأحبوه (يحبهم ويحبونه) ، فهى مغالطة مكشوفة تحت شعار الغيرة على العقيدة ، والعقيدة تلزمنا محبة الصالحين ممن أنعم الله عليهم برضاه سبحانه ، وشجعنا على تقليدهم ، والسير على منوالهم فى طاعة الله ورسوله لنحشر معهم ، وننعم برضوانه فقال تعالى :

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) ، وعلّمنا سبحانه أن نسأله هدايتنا لصراطهم فى كل فاتحة (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .وما أروع ما يقول فى شأنهم سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فى الباب التاسع والعشرين من كتاب « الفتوحات المكية » :

« قال تعالى لإبليس : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ، فأضافهم إليه وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم فى الآخرة ، وما تجد فى القرآن عبادًا مضافين إليه سبحانه إلا السعداء خاصة ، وجاء اللفظ فى غيرهم بالعباد .

التبرك بالآثار النبوية :

إن القرآن الكريم شرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعبودية ، وكل مؤمن مصدّق بالقرآن الكريم ، فكيف نتهم المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالشرك ؛ وقد سأل أبو هريرة رضى الله عنه الحسن السبط رضى عنه أن يكشف له المكان الذى قبّله رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سُرّته ، فقبلها تبركًا بآثاره وذريته صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان ثابت البنانى رضى الله عنه لا يدع يد أنس بن مالك رضى الله عنه حتى يقبلها ويقول: يَدٌ مست يَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورحم الله من قال :

يا من يذكرنى حديث أحبّة طاب الزمانُ بذكرهم ويطيب
أعِدِ الحديثَ علىّ .من جنباته إن الحديث عن الحبيب حبيب

ابن تيمية يتعجب :

وجاء فى كتاب « جواهر البحار » : قال المحب الطبرى : يمكن أن يُستنبط

من تقبيل الحجر واستلام الأركان تقبيل ما فى تقبيله تعظيم الله تعالى ، فإنه إن لم يَرِد فيه خبر بالثواب ، فلم يرد فيه خبر بالكراهة ، وقال الحافظ زين الدين العراقى (١) : أخبرنى الحافظ أبو سعيد بن العلاء قال : رأيت فى كلام أحمد ابن حنبل فى جزء قديم ، عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ ، أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبى صلى الله عليه وسلم وتقبيل منبره فقال : لا بأس بذلك ، فأريناه الشيخ تقى الدين ابن تيمية ، فصار يتعجّب من ذلك ويقول : عجيب ، أحمد عندى جليل يقول هذا ؟ قال : وأى عجب فى ذلك ، وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصًا للشافعى وشرب الماء الذى غسله به ، وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فكيف بمقادير الصحابة ؟ فكيف بآثار النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ولقد أحسن مجنون ليلى حيث يقول :

أمُر علـى الـديار ديار ليلى ... أقبلُ ذا الجدار وذا الجدارَ
وما حبُّ الديار شغفن قـلبى ... ولكن حبُّ مَنْ سكن الديارَ

وجاء فى كتاب « جواهر البحار . . . » وفى كتاب « العلل والسؤالات » لعبد الله ابن أحمد بن حنبل ، سألت أبى عن الرجل يمس قبر النبى صلى الله عليه وسلم يتبرك بمسّه وتقبيله ويفعل بالقبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى فقال: لا بأس به .

أقول ، ولله در القائل فى المحبة وأثرها :

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها ... غبارُ ثَرى ليـلى لجدَّ وأسرعا

وإن كان قد ورد فى « التحفة » لابن عساكر أن ابن عمر رضى الله عنه كان يكره أن يَكثُر مَسُّ القبر النبوى الشريف ، كما ورد عن أنس رضى الله عنه أنه رأى رجلا وضع يده على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فنهاه وقال : ما كنا نعرف هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقول بعد ذلك ما جاء فى الحديث الشريف (إنما الأعمال بالنيّات وإنّما لكل امرئٍ ما نوى) ، وحسن الظن بالمؤمنين فى نياتهم أولى من سوء الظن بهم إلى حد التكفير ، وفى ذلك التكفير مغالاة لا محل لها مع استقرار الإيمان فى القلوب

---

(١) جواهر البحار — الجزء الثالث ص ١٧٧

بنعمة الله وفضله ، وإذا كان المعترض لا يؤمن بالتبرك بالبركات التى أفاضها الله على عباده الصالحين ، فهو وشأنه، ولكن لايجوز له أن يُكفِّر بغير حق غيره من المؤمنين الذين يتبركون فى حسن اعتقاد بالله ، وهم مؤمنون بالله ورسوله ، ويصلّون للقبلة ، وبواطنهم فى علم الله وليعْلَم ذلك المعترض أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقتسمون شَعْره الشريف إذا قصه ، وكانوا يقترعون على الشَّعرة الواحدة إذا كان طُلاّبها أكثر من واحد، وتبرك أحدهم بشرب دمه الشريف حين احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يوارى الدم فى الأرض خلف الجدار ، فأحسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه شربه فسأله : أين واريت الدم ؟ فقال: خلف الجدار يا رسول الله فكرر عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله نفستُ على دمك أن أهريقه فى الأرض فابتلعته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحرزت بطنك من النار » .

أبو أيوب يتبرك :

وقال أبو أيوب الأنصارى : وكنا نصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء ، ثم نبعث به إليه ، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغى بذلك البركة حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له بَصَلا أو ثُومًا ، فردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أر ليده فيه أثراً ، قال فجئته فزعًا : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا ، تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة ، قال : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أُناجَى ، فأمَّا أنتم فكلوه ، قال : فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد .

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبركون بآثار يده فى الطعام ويتتبعونها ، ولم يروا فى ذلك شركًا كما يرى بعض الجفاة الذين يعترضون على المتبركين بالأولياء والصالحين من ذرية سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ويقولون فى الاستهزاء إنهم قبوريون، أى يتعلقون بالقبور ، وما دروا أنها تزهو على سائر القبور بتقوى نزلائها ، تلك التقوى التى جعلتهم

أكرم الناس على الله كما قال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

ابن عمر يتبرك :

وكان ابن عمر رضى الله عنه ـــ وهو الفقيه الحجة ـــ إذا أسرعت به ناقته وهو ذاهب لمكة يشد زمامها ويقول لها : لعل خُفًّا يقع على خف ، أى ضيّقى خطاك لعلى أسعد وتسعدين بأن يقع خفك على خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى سارت من قبل فى هذا الدرب .

رؤيا رسول الله فى المنام :

روى ابن الأثير فى أسد الغابة فى ترجمة سيدنا بلال بن رباح رضى الله عنه أن بلالا ـــ وكان بالشام ـــ رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وهو يقول : « ما هذه الجفوة يا بلال ما آن لك أن تزورَنا ؟ فانتبه حزينًا فركب إلى المدينة فأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وجعل يبكى عنده ويتمرغ عليه ، فأقبل الحسن والحسين عليهما السلام فجعل يقبلهما ويضمهما ، فقالا له نشتهى أن تُؤذّن فى السحر ، فعلا سطح المسجد . فلما قال : الله أكبر الله أكبر ، ارتجّت المدينة ، فلما قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، زادت رجّتها ، فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رؤى أكثر باكيًا وباكية من ذلك اليوم . أقول : لأنهم تذكروا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يُؤذن فيه بلال بِلَيْل ، ولم يكن يؤذن بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

رؤيا لسيدى العارف الحلوانى :

ولا يفوتنى أن أمتع القارئَ الكريم بما قاله سيدى العارف العالم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) ، وكان قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم له فى المنام :

بُشراىَ إنَّ حُلاكَ تبسمُ بالمُنى   إنَّ الكريم إذا رأى الضيف ابتسم
وبوجهك الميمون يَسعدُ من رأى   أنـوارَه ممن بِمِلَّتك اعتصم

أرنيه فهو سعادتى ومجادتى أبداً ولو نوماً وَعَنِّىَ لا تنم
يا رحمة الله الأمانَ فكنْ لنا سُوراً على الإيمان يا أفق الهمم

ويقول سيدى الشيخ عبد العزيز الحلوانى (شقيق شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) فى كتابه « الفيض الرحمانى فى تاريخ الإمام الحلوانى » ما نصه :

رأيت فى مذكرات والدى ما نصه :

« . . . ثم إن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق، ففى البخارى عن أبى هريرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ولايتمثل الشيطان بى » ولا يشترط فى حقيقة رؤيته صلى الله عليه وسلم أن يُرى على صورته التى كان عليها ، ولكن إذا رؤى عليها كانت الرؤية على ظاهرها لا تحتاج إلى تعبير .

وأضاف الشيخ عبد العزيز قائلا . . . وفى كتاب والدى « الضوء الشارق » : وكان سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه يقول: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : « يا محمد[1] ما أنا بميّت وإنما موتى عبارة عن تسترى عمن لا يفقه عن الله تعالى ، وأما من يفقه فهو يرانى وأراه » . وقال المرحوم والدى مضمنا للحديث الشريف الوارد فى الجامع الصغير للإمام السيوطى :

إنّ أزكى الأنام فى القبر حىّ مترفُ الجسم رطبُه كالورد
ولهذا قال عند انتقال افرشوا لى قطيفتى فى لحدى

« وهذا الفرش خصوصية له صلىّ الله عليه وسلم ، وفى الحديث الشريف « إن الله عز وجل حرّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء » .

أقول : وكان سيدى الشيخ أحمد الحلوانى طيب الله ثراه يرى النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ، وأكتفى هنا بإثبات بعض تلك الرؤى كما جاءت فى الكتاب المذكور[2] :

---

(١) كان رضى الله عنه يسمى محمداً وكنيته أبو المواهب .

(٢) الفيض الرحمانى .

قال رحمه الله تعالى : فى ليلة الخميس ٢٥ من ربيع أول ١٣٠٣ هـ رأيتُ فيما يرى النائم أنى بطيبة (المدينة) كرّمها الله تعالى ، وأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حيّ وكذا الزهراء والسبطان رضى الله عنهما وهما شابان يافعان أمردان وعندها خلق كثير من رجال ونساء مُحْدِقَات[1] بها ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسقى الخلق شرابًا حلواً فى كوب كبير ، فأقبلت عليه فأقبلَ صلوات الله وسلامه علىّ وأعطانى كوبًا وأمرنى بشربه ، فشربته كله حتى اكتفيت ، ووجدت بَرْدَه ولذّته فى جميع أعضائى ، ثم ناولنى كوبًا آخر فأخذتُه وقلت إنى اكتفيت فقال : اشرب فشربته كله ، وكل ذلك وهو صلى الله عليه وسلم واقف على مكان عال فى مقصورة تُنْسب إليه[2] لا أقدر على وصف حُسنها وبديع صنعتها ، ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم تنزل إلىّ فجلس فى ليوان كبير طويل مرتفع قدر قامة رجل تقريبًا وأخذ يعتب على الزهراء رضى الله عنها فى إسرافها العطايا والنفقة التى بذلتها فى الفرح ، فأخذت أنا أخفض من سَوْرَته[3] وأذكره أنها الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك كله فى جانب ما أعطاه الله نَزْرٌ يسير ، وأعطانى صلى الله عليه وسلم قدمه المبارك الشريف ، فصرت ألثمه عاريًا ظاهراً وباطنًا وأضعه على وجهى وعينى وجبهتى وأكرر ذلك ، ثم قلت يا رسول الله : تُحْفَتِى على فرح السبطين قال : وما تريد ، قلت أن تلتفت إلىّ ولا تنسانى ، فأنعم لى بذلك مبتسمًا ، ولا أنسى بياضَ وجهه الشريف وسوادَ لحيته الشريفة وحسنَ عينيه ثم استيقظت .

وقال رحمه الله تعالى : رأيت فى النصف الثانى من رمضان سنة ١٣٠٤ هـ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام يقول : جئتك ببشارة من رب العزة وهى : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) ، ثم جاء بكتاب قديم بخط القلم فيه هذا المعنى مرويًا فى جملة أخبار مرفوعة إلى

---

(١) مجتمعات عليها .

(٢) مخصصة له صلى الله عليه وسلم .

(٣) غضبه .

النبي صلى الله عليه وسلم رقيقة الألفاظ مبشرة جداً واستيقظت فرحًا مسروراً والحمد لله .

وقد قصدت بإثبات هذه المرائى أن أبيّن للقارئ الكريم أن صلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الروحيّة متصلة على الدوام بأبنائه المؤمنين ، وأنه لولا تلك الصلة لتزعزع إيماننا بطول القرون بيننا وبينه ، وكثرة الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ولا يذوق هذه الصلة الروحيّة إلاّ أهل التقوى من المؤمنين ، وقد ورد فى الحديث الشريف : « حياتى خيرٌ لكم ومماتى خيرٌ لكم »، فسئل كيف يكون مماتك خيراً لنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تُعرض علىّ أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدتُ الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم » . وهذا مايدلُّنا على أنه فى قبره الشريف عامل بقول الله تعالى فى سورة محمد :

(فَاعْلَمْ أنه لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) . وقد جاء فى تفسير «ذنبك» . أى ذنب أهل بيتك خاصة ، والمؤمنين والمؤمنات عامة ، لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم من الذنوب بعصمة الله له ، وقد سلف القول فى العصمة بالتفصيل فارجع إليه إن شئت فى الباب الثامن .

* * *

وختاماً أقول :

سيدى يا رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليك وعلى آلك الكرام البررة وبعد، فلقد قلتُ على لسانى ما قلت، ونقلت عن غيرى ما نقلت ، وأنت كما أنت على مر الزمان لا يستطيع أحد أن يوفيك حقك .

فإن قبلت الكتاب تكرمًا فقد سعدتُ ، وإن رأيتنى قصرت فعذرى لديك واضح :

أَوْصَافُكَ الغُرّ فاقَتْ عما أُحِيطُ وأعْلَمْ
مَحَـــاسنٌ ليس تُحْصَى وحَدُّها ليس يُعْلَمْ

وفى قبولك رأفة بالكاتب ، وفى عفوك عن القصور متسع ، وحسبك ما يتكلم به الله تعالى فى شأنك واصفـًا ومادحـًا فى القرآن الكريم .

أما أنت أيها القارئ الكريم فكل ما أرجوه منك دعوة صالحة تكون رابطة ودية فى الله بينى وبينك لا تنفصم عراها إن شاء الله وأن نعمل معـًا سويـًّا بقوله تعالى :

(إِن اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

صلوات الله وسلامه على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

مراجع الكتاب

القرآن الكريم .

كتب السنة النبوية .

تفسير الإمام القرطبى .

تفسير الإمام الفخر الرازى .

تفسير الإمام الألوسى .

تاريخ الإمام الطبرى .

السيرة النبوية لابن هشام .

السيرة النبوية لابن كثير .

جواهر البحار للشيخ النبهانى .

الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى .

الرسائل للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى .

مثنوى جلال الدين الرومى — ترجمة وشرح الدكتور عبد السلام كفافى .

أعلام الموقعين لابن القيم .

عبقرية محمد للعلامة العقاد .

ما يقال عن الإسلام للعلامة العقاد .

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعلامة العقاد .

الفلسفة القرآنية للعلامة العقاد .

الفيض الرحمانى للشيخ عبد العزيز الحلوانى .

على بن أبى طالب للأستاذ عبد الكريم الخطيب .

العقيدة الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة .

الرسائل للشيخ يوسف الدجوى .

خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن على للمؤلف .

الصوفية فى إلهامهم للمؤلف .

محتويات الكتاب

صفحة

من القرآن الكريم والحديث الشريف ٥
تقديم الكتاب لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود (وزير الأوقاف والأزهر) ٧
مقدمة ١٣

الباب الأول

العقيدة الإسلامية

الإسلام دين الفطرة ٢٥
الإسلام دين عام — الإسلام والعقل ٣٧
الإسلام دين الوحدانية — الله هو الخالق الفعال ٣٨
الصحابة والقدر — الإمام أبو حنيفة والقدر ٣٩
عبادة الله وحده ٤١
الأحبار والرهبان — الفقهاء المجتهدون ٤١
كلمة التقوى — طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتصديقه . . . ٤٢
الأمة المحمدية وشريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما بعدها . . ٤٣
الإيمان بالغيب ٤٤
مزايا العقيدة الإسلامية ٤٥
مزايا الرسالة المحمدية ٤٨
كرامة التكاليف الشرعية ٤٩
هوى النفس وضرره ٥١
تفسير وحدانية الذات ٥٢
المتشابهات فى القرآن الكريم ٥٣
السادة الصوفية وتوحيد الله تعالى ٥٥

	صفحة
الشيخ الأكبر والتوحيد	٥٨
دليل الوحدانية	٦١
نفى الحلول والاتحاد عن الصوفية	٦٢
همة الخواص	٦٦

الباب الثانى

الكتاب والسنة

منة الله على المؤمنين — فضل الله على رسوله	٦٩
معجزة القرآن الكريم	٧٠
العرب يعجزون عن تحدى القرآن الكريم	٧١
مثال لبلاغة القرآن الكريم — شرف القرآن	٧٢
بداية الوحى	٧٤
شدة الوحى	٧٦
الإمام الباقلانى وإعجاز القرآن	٧٨
الروحانية الكامنة	٧٩
الإمام الباقلانى وفضائل القرآن	٨٢
علاقة السّنة بالقرآن الكريم	٨٣
مسلك الصحابة فى العلم والقضاء	٨٣
تعقيب الإمام ابن القيم	٨٥
موقف السّنة من القرآن	٨٨
البيان النبوى	٨٩
حاجتنا للسنة النبوية	٩١
الشرع والقوانين الوضعية	٩٣

صفحة

الباب الثالث

الإسلام والجهاد فى نشره

بداية الإسلام — معنى الشهادتين ٩٩
التكبير — الأسوة الحسنة ١٠٠
الفضل الكبير — إنذار العشيرة. ١٠١
تطور الدعوة إلى الإسلام ١٠٢
السابقون الكرام ١٠٤
العزم المؤكد ١٠٥
فضيلة الإيمان ١٠٧
روعة القرآن ١١٣
التحدى بالأسئلة ١١٥
معرفة الله تعالى ١١٦
الروح والمادة ١١٨
آفات النفس ١٢١
تعنت الكفار ١٢٢
البحث عن الحق ١٢٧
اشتداد الأذى — الهجرة إلى الحبشة ١٢٩
ائتمار قريش بمهاجرى الحبشة ١٣٠
جعفر يشيد بالإسلام ١٣٢
مناقب جعفر وابنه عبد الله ١٣٥
إسلام عمر ١٣٧
عثمان بن مظعون ١٤٥
الصديق يرد الجوار ١٤٦
معجزة فى شأن الصحيفة الظالمة ١٤٧

صفحة

موت السيدة خديجة وأبى طالب ١٤٩
مفاوضة الكفار ١٤٩
خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ١٥٠
سعادة عداس ١٥١
تضرع نبوى ١٥٢
اللقاء الأول مع الأنصار — اللقاء الثانى بالأنصار ١٥٢
أول سفير فى الإسلام — اللقاء الثالث بالأنصار ١٥٤
بيعة العقبة ١٥٥

الباب الرابع

الإسراء والمعراج

الإسراء بالجسد ١٥٨
تفصيل قصة الإسراء والمعراج ١٦٣

الباب الخامس

الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة

الإذن الإلهى بالقتال ١٨٧
انتشار الإسلام بالمدينة — هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة . . ١٨٨
أبو سلمة أول المهاجرين إلى المدينة — هجرة السيدة أم سلمة رضى الله عنها ١٨٨
مؤامرة يكشفها الله تعالى ١٩١
الإمام على يفدى الرسول بنفسه — خروج الرسول وهم لا يشعرون . ١٩٢
الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ١٩٤
الاختباء فى الغار — وفاء أبى بكر ١٩٥
معجزة نبوية — فطنة أسماء ١٩٩
جزع بنى هاشم — مائة ناقة لمن يرد الرسول على قريش ٢٠٠

صفحة

معجزة أخرى نبوية — إسلام سراقة ٢٠١
الوصول إلى قباء — يوم الاثنين ٢٠٣
فى قباء — الأنصار يرحبون ٢٠٤
المسجد النبوى — معجزة نبوية ٢٠٥
أدب الأنصار — أول خطبة خطبها رسول الله ٢٠٦
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار — حكمة المؤاخاة ٢٠٨
الأذان للصلاة واستحكام الإسلام ٢٠٨
غزوة بدر الكبرى ٢١٠
الملائكة فى غزوة بدر الكبرى ٢١٣
الأنصار يتحدثون بنعمة الله ٢١٤
عداوة اليهود والمنافقين — إسلام عبد الله بن سلام ٢١٦
كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر ٢١٧
بين الرسول والمسيحيين ٢٢٠
الغزوات والبعوث والسرايا ٢٢١
فرض الهجرة — أصحاب الأعذار ٢٢٣
الفرار بالدين — نصيحة ٢٢٤
نحن وأسلافنا الصالحون ٢٢٦

الباب السادس

الإسلام فى الحرب والسلم

دعوة الإسلام سلمية — الإذن للمسلمين بالقتال ٢٢٩
التحريض على القتال ٢٣٠
الشدة على الأعداء — تعاون المؤمنين ٢٣٢
المتخلفون عن القتال ٢٣٣
جهاد التفقه فى الدين — جزاء المجاهدين ٢٣٤
الإسلام والقتال ٢٣٥

صفحة

قتال دفاع ٢٤١
إعلان الحرب ــ فتح مكة المكرمة ٢٤٢
أسباب النصر ــ الصبر على مكاره الحرب ٢٤٣
صلاة الخوف ٢٤٤
قبول الصلح ٢٤٥

الباب السابع

البشرية والرسالة

بشرية الجنس وسمو النفس ٢٤٩
رعاية الله ٢٥٠
أعراض البشرية الجائزة ٢٥٢
الإنصاف فى البحث ٢٥٤
الفتح المبين والذنب المغفور ٢٥٧
العقاد وعلامات الرسالة ٢٥٩
العارف النابلسى وذنوب الأنبياء ٢٦١
الخلاصة ٢٦١

الباب الثامن

عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم

الرسل حجة الله على خلقه ــ تبليغ الرسول عن ربه ٢٦٣
اصطفاء الرسل ٢٦٤
من فضل الله ٢٦٥
النبوة والرسالة ــ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ٢٦٧
عصمة الرسل ٢٦٧

صفحة

الأسوة الحسنة والعصمة ٢٦٩
وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ٢٦٩
البشرية والعصمة ٢٧١
التفاسير النابية — صور واقعية ٢٧٢
نظرات للمؤلف ٢٧٦
عصمته صلى الله عليه وسلم ٢٧٦
فداء أسرى بدر ٢٧٧
الإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك ٢٧٩
الذنب المقدم والمؤخر ٢٨١
الركون للمشركين ٢٨٥
قصة الأعمى ٢٨٦
الضلال والهدى ٢٨٨
الوزر الذى أنقض الظهر ٢٨٩

الباب التاسع

الاصطبار للعبادة

بين العقل والقلب ٢٩١
اصطباره صلى الله عليه وسلم للعبادة ٢٩٢
تطويل القراءة — نصيحة نبوية ٢٩٢
العلم والعبادة — همة الأولياء فى طلب الله ٢٩٣
شيخى والتجلى ٢٩٥
شيخك الذى يربيك ٢٩٦
نفحات القرآن الكريم ٢٩٨

صفحة

الباب العاشر

الأوصاف والخصائص المحمدية

الفصل الأول

أوصافه صلى الله عليه وسلم

شرف الأمة المحمدية ٢٩٩
رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم ٣٠٠
أمير المؤمنين عمر والفضائل النبوية ٣٠٣
الخلق العظيم ٣٠٥
شرف العبودية الكاملة ٣٠٩
أحسن التأديب ٣١٠
معنى العبودية الكاملة — قول الإمام سهل التسترى ٣١٢
قول الإمام ابن القيم ٣١٣
الإمام الرازى والأفضلية ٣١٦
الشيخ الأكبر وأحدية الشرائع ٣١٧

الفصل الثانى

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله ٣١٨

الباب الحادى عشر

أزواجه صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم

تعدد الأزواج بعد وفاة السيدة خديجة ٣٣٧

صفحة

خصوم الإسلام ورد العقاد عليهم ٣٣٧
التعدد مشروع فى الأديان الكتابية ٣٤٢
رأى الدكتورة بنت الشاطئ — وجهة نظر المؤلف ٣٤٤
زواج الهبة ٣٥٠

الفصل الثانى

سيداتنا أمهات المؤمنين

ترتيب الأزواج الطاهرات ٣٥٣
عناية الله بالأزواج الطاهرات ٣٥٥

الفصل الثالث

أم المؤمنين عائشة

قصة الإفك ٣٨١
المنافقون والإفك — القرآن الكريم والبراءة ٣٨٥
سورة النور والبراءة ٣٨٦
براءة صفوان وكرامة أم المؤمنين ٣٨٧
إقامة الحد — جزاء السب ٣٨٨
تعقيب العلامة العقاد ٣٨٨
طهارة جميع الأزواج ٣٨٩
السيدة عائشة ومعركة الجمل ٣٩٩
حملة الجمل والمشاركة فى الحكم ٣٩١
نصيحة ابن عمر ٣٩٢
وجهة نظرى ٣٩٣
أم المؤمنين وابن الزبير ٣٩٩
تقوى الإمام ٣٩٩

صفحة

بين أم المؤمنين وابن عباس	٤٠٢
أم المؤمنين فى الغضب والرضا	٤٠٣
مزايا أم المؤمنين	٤٠٥
بلاء الإمام	٤٠٥
تزاحم الناس على بيعة الإمام — اتهام باطل	٤٠٦
صبر جميل ورأى حازم — صفاء الإمام	٤٠٧
فقه الإمام — رأى أهل السنة	٤٠٩
الإمام سليم فى موقفه	٤١٠
الأستاذ الخطيب فى إنصافه للإمام — عذر الإمام	٤١٠
تسامح أم المؤمنين	٤١٢
أمانة التبليغ — أم المؤمنين وصدق الرواية	٤١٤
أم المؤمنين والتزام البيت — أم المؤمنين تعاتب ابن عمر	٤١٦
أم المؤمنين والأزدى — يوم الجمل	٤١٧
توبة نصوح — رأى العلامة العقاد	٤١٨

الباب الثانى عشر

آل النبى وأهل البيت

أهل البيت	٤٢١
الدعاء لأهل الكساء	٤٢٤
بيت السكنى والأهل	٤٢٥
الملحقون بأهل الكساء	٤٢٥
ثانى الثقلين	٤٢٦
أهل القرابة والنسبة القوية	٤٢٨
أهل البيت وعبادة الله	٤٢٩

صفحة

الشيخ الأكبر وأهل البيت ٤٢٩
الجمع بين الأهل والآل ٤٣٢
رأى الفخر الرازى ٤٣٣
من إلهام شيخى ٤٣٦
تحية الشاعر الصدّيق ٤٣٨

الباب الثالث عشر

الصحابة الكرام

تعريف الصحابى ٤٣٩
السابقون الأولون ٤٤٠
أفضل الصحابة ٤٤٠
أبو بكر أول المؤمنين إسلامًا ٤٤٠
بين التفضيل والمساواة ٤٤١
بين أمير المؤمنين عمر وزيد بن ثابت وأبى بن كعب ٤٤١
الاتباع بإحسان — كبار التابعين ٤٤٢
أين نحن من السابقين — الصادقون والمفلحون ٤٤٣
الأنصار يؤثرون على أنفسهم ٤٤٥
السيدة عائشة والإيثار — أبو عبيدة والإيثار ٤٤٥
معاذ بن جبل والإيثار — الإيثار فى الاحتضار ٤٤٦
السادة الصوفية والإيثار ٤٤٧
بين الإيثار والإمساك ٤٤٧
الجود بالأرواح ٤٤٨
يقين الصحابة بالله ٤٤٩
الاستنجاد بالله — عبرة ٤٥١
أشداء رحماء ٤٥٢

صفحة

صاحب الغار ٤٥٣
الخلف بعد السلف ـ فقه الإمام زين العابدين فى حب الصحابة . ٤٥٦
فقه إمامنا على ـ فقه الإمام مالك ٤٥٧
الاستغفار للصحابة ٤٥٨
بين عمرو بن العاص وبينى ٤٦٢
توبة طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ٤٦٥
بين التشيع وحب الصحابة ٤٦٨

الباب الرابع عشر

فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

الصلاة على الرسول فى الكتاب والسنّة ٤٦٩
معنى الصلاة ٤٦٩
حدّاد موهوب ٤٧١

الباب الخامس عشر

فضل زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

فضل المدينة المنورة

أرض الله ـ فضل المدينة ٤٧٣
تربة المدينة مؤمنة ـ حفل مبارك ٤٧٥
دعاء نبوى للمدينة ٤٦٦
المساجد المفضلة ـ مسجد التقوى ٤٧٨
أفضل البقاع ٤٧٨

صفحة

بين مكة والمدينة ٤٧٩
مزايا المدينة المنورة ٤٨٠
المدينة وأهلها — أكرم بقعة ٤٨١
طريق النور ٤٨٤

الفصل الثانى

فضل زيارته صلى الله عليه وسلم

فضل مثواه صلى الله عليه وسلم ٤٨٦
حرمته صلى الله عليه وسلم ٤٨٦
الموت والحياة فى البرزخ ٤٨٧
حياته صلى الله عليه وسلم فى قبره الشريف ٤٨٩
زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤٩٤
الزيارة وشد الرحال — الزيارة سنة واجبة ٤٩٨
آداب الزيارة ٤٩٩
شيخى والحجاز ٥٠٣
يشرى الوصول ٥٠٤
سيدى العارف الحلوانى الكبير والملائكة ٥٠٤
إكرام فى الرحاب النبوى ٥٠٥
بين شاب صالح وبين المؤلف ٥٠٥
مرارة الفراق ٥٠٦
تحية القدوم عند تكرار الزيارة ٥٠٦
المزارات بالمدينة المنورة ٥٠٧
آداب مغادرة المدينة ٥٠٨
عطف نبوى كريم ٥٠٩
صديق يحييني ٥١٠

صفحة

الباب السادس عشر

التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم

الرسول باب الله ٥١١
تبليغ الدعوة ٥١٢
الرسالة المحمدية رحمة — معرض التوحيد ومعرض الأسباب . . ٥١٢
اللجوء للأسباب لاينافى التوحيد ٥١٣
أقوال العلماء — آدم يتوسل ٥١٦
ضرير يبصر — الاستقاء بالعباس ٥١٧
حكمة الاستسقاء بالعباس — المحبة ليست شركاً ٥١٨
بيان للناس ٥٢٠
التبرك بالآثار النبوية ٥٢١
أبو أيوب يتبرك ٥٢٣
ابن عمر يتبرك ٥٢٤
رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام — رؤيا لسيدى العارف الحلوانى ٥٢٤
ختام الكتاب ٥٢٧

مراجع الكتاب

بيان المراجع ٥٢٩

رقم الإيداع	١٩٨٩ / ٧٧٩٧
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٧٦٧-٦ ISBN

١ / ٨٩ / ١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

تعريف بالكتاب

الكتاب يقرأ من عنوانه ، ولا شك أن عنوان هذا الكتاب يدعوك إلى قراءته فى اطمئنان ، ويسعدك سعادة تفوق كل وصف . إنه يحدثك عن أعظم الرسل الكرام شأناً ، وأكثرهم تابعاً ، وأدومهم دعوة ، وسنده فيما يحدثك به القرآن الكريم ، وهو أخلد المعجزات على الزمان ، وأبهرها فى إقناع بنى الإنسان ، وأبلغها فى البيان ، وأنفذها فى الوجدان ، بالدليل والبرهان ، والتجربة والعيان .

ومن حق نفسك عليك أن تقرأ هذا الكتاب ، لتعيش به فى أمجد الذكريات ، فتزداد حبًّا لله ورسوله ، وتمتلئ يقيناً ، فترضى بالله تعالى ربًّا ، وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد نبيا ورسولا ، ﷺ .

وقد كان الأمر الربانى بالقراءة باكورة القرآن المجيد ، الذى محا نوره دياجير الظلام على هذه البسيطة حين بدأ الوحى بقوله تعالى لرسوله وهو فى غار حراء : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) فالقراءة سبيل العلم ، والعلم سبيل الهداية ، والهداية سبيل المعرفة ، وما أسعدك فى الدنيا إن كنت عارفاً تقيًّا ، وفى الآخرة إن كنت راضياً مرضيًّا .

فاقرأ هذا الكتاب ، وتنزه فى رياض الذكريات المحمدية الناضرة ، وتمتع بجمال الآيات القرآنية الكريمة ، وعش مع رسول الله ، ﷺ ، فى جهاده المتواصل ، وصبره الجميل ، وفضله الكبير ، وعلمه الغزير ، وخلقه العظيم ، وهجرته الميمونة ، ودفاعه المجيد ، ونصره العزيز ، وإسرائه العجيب ، ومعراجه الفريد ، وعبادته الفذة ، وحياته المثلى .

وتشبه أيها القارئ الكريم بأصحابه الأماجد الذين استناروا به ، وتحلَّوا بمكارمه بكل جهد مستطاع ، وقلّدهم فى صدقهم وإخلاصهم ووفائهم للإسلام والمسلمين ، والله ولى التوفيق .